القدس

ومعاركنا الكبرى



محمد صبيح

القدس

ومعاركنا الكبرى

الجزء الأول

من البدء ـ حتى نهاية الحروب الصليبية

بقلم: محمد صبيح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا الكتاب :

دار فى ذهنى سؤال حرت فى الجواب عليه أسابيع كثيرة ؟ هذا السؤال هو :

— هل أمضى فى تأليف كتابى هذا ، أم أعدل عنه ، أم أرجئه الى حين يطول ويقصر حسب الظروف ؟ !!

كنا فى مطالع الصيف من عام ١٩٧٠ ، وكانت مقدمة أخرى للكتاب قد أعدت ودفعت الى المطبعة وجاءت تجاربها .. واذا بدوى وضجيج يبدأ ثم يتعالى ، حتى يملأ أقطار الشرق الأوسط ، والجميع من أهل المنطقة ، ومن خارجها يتصايحون بالكف عن القتال تسعين يوما لا تزيد ، توضع أثناءها قواعد تسوية سلمية بين العرب والمعتدين اليهود .

وذهبت الى الاسكندرية وأقمت على شاطىء البحر ، ما شاء الله أن أقيم ، أفكر فيما يحدث ، وما يمكن أن تكون له من نتائج .. وكنت قد اعتدت على أزيز الطائرات النفاثة ، وهى تتدرب على الطيران المنخفض فى سرعة هائلة ، تكاد أجنحتها تبتل من رذاذ الماء الذى يدفعه الموج الى أعلى .. وكنت أجد لذة كبيرة فى متابعة شبابنا وهو يدفع طائراته فى هذا التدريب لتكون له وللوطن وقاء ، وتكون للعدو دمارا ونكالا .. وتمنيت لو أن هذا الجهد بذل قبل عشر سنوات ، اذن لما كانت هناك حرب يونيو ومرارتها اللاذعة ، ولمضيت أكتب عن مد التاريخ وجزره ، وقيام الحضارات من حولنا وسقوطها ، والعناصر التى عصمت بلادنا من الزوال والاندثار ،

نما زالت واندثرت حضــارات كثيرة من حولنا ، مثلمــا حدث اليونان والرومان والفينيقيين والآشوريين والفرس .

وهذه الدراسة هى قياس لأبعاد النفس المصرية ، وتحديد لمعالم قوتهــا ومكامن ضــعفها ، ولفت لنظر المعاصرين منا ، والذين يرثون أرضــنا وما عليها ، الى أنهم مرحلة فى بناء ، وحقبة من تاريخ ، وأن من واجبهم أن يتمثلوا فى ذهنهم وقلبهم منظر الغابة كلها ، لأنهم اذا وقفوا عند شجرة أو أشجار منها استنفدت جهدهم التفاصيل وتعثروا فى متاهاتها .

وأخيرا ... أضاء الله بهدايته الطريق .. فلنمض فى هــذا القسم من الدراسة التى بدأناها من ثلاث سنوات ، والتى بدأنا أقسامها كلها من ثلاثين سنة . وليكن من أمر الحرب والسلام ما يكون . فالنتيجة التى نطمئن اليها ، ولا خلاف عليها بين مفكر ومؤمن ، أن المصريين والعرب سوف يبقون فى أرضهم ، ما بقى نهرا النيل والفرات وما بينهما . وأن المعتدين اليهود سوف يزولون ، مهما طالت مكابرتهم ، وتعددت أساليب احتيالهم على البقاء .

المصريون ، وأهل منطقــة الصراع الحالى ، لم توجدهم حيث هم الصدفة ، فلم يكونوا قبائل رحلوا ، وتاهوا ، ثم استقروا .. ولكنهم أبناء حضارة أصيلة قديمة أنشأها على مر الزمن نهر النيل العظيم ، والرافدان ــ دجلة والفرات ، وحيث توجد الأنهار الكبرى تستقر الحياة وتنمو .. هذه سنة من سنن الطبيعة ، مثل التمدد بالحرارة ، والانكماش بالبرودة .

ولكل حضارة درع يقيها ، ومنطقة أمان لا بد من توافرها ، مثل غلاف الهواء الذى يحيط بالكرة الأرضية . وما بين أرض النيل ، وأرض الرافدين توجد منطقة الأمان ، التى اذا تحكم فيها عدوان ، فلا بد من دفعه والقضاء عليه ، حتى تزكو الحياة وتنمو .

واليهود الذين يريدون زرع أنفسهم فى منطقة الأمان ــ وهى الشام

وفلسطين منها ــ جاءت بهم المعركة ، ويريدون أن يستمروا بالمعركة . والاعتماد على الحرب وحدها ، لايجاد أمة ، ولاستقرارها ، أمر نادى به فى العصر الحديث بعض متعصبى المفكرين الغربيين ، جهلا منهم وغرورا ..

فهذا « فون مولتكة » الألمانى كتب فى القرن الماضى يسجد لقومه البروسيين الحرب كخلق وأسلوب حياة ، حين قال : « الحرب عنصر من عناصر النظام الالهى الذى وضعه للكون . وأحسن فضائل الانسان ، وأنبلها تظهر فى الحرب مثل الشجاعة ، والاخلاص للواجب ، والتصميم الذى لا يتراجع أمام التضحية بالحياة نفسها . ولولا الحرب لغرق العالم فى لجج المادية ! » .

وأقام نيتشه فلسفته على هذا المعنى . وولدت النازية فى ألمانيا معتنقة مبدأ الحرب للحرب ، فماذا كانت النتيجة ؟ .. هزيمة وانهيار فى حربين عالميتين لشعب يعد من أكثر الشعوب جدا وقدرة ، لولا هذه الفلسفة اللعينة التى عاش عليها .

وسمعنا نفس هذا الكلام من «موسوليني» حاكم ايطاليا فى العشرينات والثلاثينات ، المعلق من قدميه قتيل فاشيته فى الأربعينات .. كان يقول : « ان الحرب وحدها هى التى تفجر جميع طاقات البشرية . وهى التى تكلل بالغار الشعوب التى تمتلك القدرة على الحرب الدائمة ! » .

وتتكرر التجربة التى خاضتها النازية والفاشية ، اذ تدفع الصهيونية العالمية ، حزبا عسكريا لكى يختطف أرض فلسطين ، بقوة السلاح ، ويتابع اشعال المعارك ، حتى بلغت ثلاث حروب فى أقل من عشرين سنة ، ويحسب هؤلاء أن الحرب قادرة على أن تصنع منهم دولة ، وأن تزرع هذه الحفنة المضللة من قومهم فى جسم الأمة العربية ، وفى منطقة الأمان اللازمة للشعب المصرى ؟ !!

ومرة أخرى هؤلاء اليهود شغلوا بالشجرة أو الأشجار القليلة ، فغاب عنهم حجم الغابة كلها .. ان معركة وثلاثا وعشرا لاتستطيع أبدا أن تكون

أساسا تستقر عليه أمة .. وما جاء بالمعركة يضيع بها .. وقد رأينا شعوبا ركزت وجودها على الدرع العسكرى ، فاذا بضربة تأتيها من حيث لا تدرى ولا تقدر ، تحطم الدرع ، وتذوب من تحته الأمة كلها وقد حدث هذا بالضبط للأشوريين والفرس واليونانيين والفينيقيين فى العصر القديم . وهو ما حدث للصليبيين والتتار فى العصر الوسيط . وهو ما حدث لامبراطوريات الأتراك والألمان والانجليز والنمسويين والايطاليين والفرنسيين بعد الحربين العالميتين فى القرن الحالى ..

ونحن هنا ، اذ نستعرض مسيرة التاريخ ، ونخرج بعبرته ، تقول فى ثقة ويقين ان مصر اذ تقوم بدورها التاريخى فى رد العدوان عن نفسها ، وعن نطاق أمانها الضرورى لحياتها عبر حدود سينا ، انما تعبر عن فلسفة وجودها فى هذه المنطقة من العالم ... هذا قدرها الذى اختارته لها العناية الالهية .. قامت بهذا الدور من أقدم العصور ، وهو حماية نفسها ، ورد العدوان الأجنبى عن منطقة أمانها .. ولا يهم فى أداء هذا الواجب عنصر الوقت طال أو قصر . . أو عدد المعارك التى تخوضها ، ولكن النتيجة واحدة .

لقد تكلف رد الصليبيين عن القدس فى معارك المائتى عام ، حوالى مليونين من الشهداء .. وتكلف رد الفرنسيين عن القاهرة ربع مليون شهيد فى معركة الألف يوم .

لم يجزع أحد من كثرة الضحايا .. ولا طول المعارك وضراوتها ولا هزائمها ثم انتصاراتها .

ألم نقل من قبل ان هذا قدرنا ، خلال سبعة آلاف سنة أو تزيد ؟ !!

واذا لم يقم الأقدمون والمحدثون من أجيال شعبنا بهذا الدور ، فأين كان يفد ابراهيم الخليل ، واسحاق ويعقوب ويوسف ، وهل كان موسى الكليم يجد لكلمته طريقا الا لأن المصريين هنا فى هذا المكان من العالم .. وعيسى كلمة الله وأمه مريم البتول والشجرة المصرية التى أظلتهم حتى زال

الخوف وانقضى ، ألم يوجد الله مصر لتقوم بهذا الدور الخالد . ودعوة التوحيد المحمدية التى اعتصمت بمصر من أيامها الأولى ، وامتدت منها غربا وجنوبا ، ثم اعتصمت بقاهرتها الأبية ، هى جزء من اختيار الله وتكليفه. حتى اذا مضت القرون الى يومنا هذا لا نجد لضمير البشرية الحائر المعذب بالمعتدين والآثمين من عاصم ، الا أن يكون لمصر دور ، وعليها واجب ..

وهذا الدور فى العصر الحديث بدأ عام ١٩٤٨ فى تكاسل ، ثم تحرك وئيدا وئيدا ، وعندما يأذن الله سوف يبلغ الكتاب أجله ، وتستأنف البشرية سيرتها فى منطقتنا ، يسودها الأمن ، ويعبد فيها الله الواحد الأحد بغير خوف ، ولا ارهاب ، وتواصل سبعة آلاف سنة من الحضارة فى منطقتنا مسيرتها آلافا أخرى من السنين .

هذا هو دور مصر .. وتعد القدس جزءا من معركتها ، لا طمعا فى راية لها ترفع على جبل الزيتون ، ولكن لكى يتنفس صدر مصر دون أن يجثم عليه ثقل يعوق حركته .. ؟

جريمة .. باسم العلم :

ولماذا القدس بالذات ، اخترنا أن تدور حولها دراستنا هذه ، وتتشعب يمينا ويسارا ، ثم تستقر عندها ؟

حدث فى ربيع عام ١٩٧٠ أن دعيت الى زيارة للولايات المتحدة ، ورحبت بالرحلة وصممت على أن تكون كل دقائقها محاولة جادة لكى أحصل على جواب لسؤال يتردد فى كل وقت وآن : هل يكرهنا الأمريكان أبناء الولايات المتحدة ؟ وهذا ما تدل عليه سياسة حكومتهم ، ولماذا يكرهوننا !!

التقيت هناك بكثيرين : بأساتذة فى الجامعات ، وكبار من رجال الأعمال ، وأفراد من عامة الشعب ، وشباب من الجنسين ، وغيرهم..وغيرهم.

وأدهشنى ، بل هالنى ما رأيت وسمعت ..

ان كمية المعلومات الخاطئة والمضللة التى تحجب الحقائق البسيطة عن أذهان الشعب الأمريكى ، تكاد تشبه الجبال علوا ، وثقلا ..

هل تصدق أن كثيرا من الأمريكان يحسبون أن « هتلر » هو الذى طرد اليهود من أرض فلسطين ، وأنه لا عيب فى أن تساعد حكومة الولايات المتحدة على تصحيح خطأ ارتكبه هتلر بطرد العرب المغتصبين لفلسطين واعادة أصحابها اليها !! ؟

هل تصدق أن كل ما يعلمه شباب الولايات المتحدة فى دراستهم الثانوية ، ومعظم مراحل دراستهم الجامعية عن الشرق الأوسط كله لا يتجاوز صفحة من كتاب أو بعض صفحة ؟!

هل تصدق أن قطبا صناعيا كبيرا ، عجب لجرأتنا فى مصر على ايران اذ نريد أن نستولى على عاصمتها « طهران » .. وبعد جهد جهيد فهمت أنه وغيره يخلطون بين جزر تيران فى خليج العقبة ، وبين عاصمة الايرانيين لأن اللفظين يتقاربان فى النطق الأجنبى .. ولما أصلحت خطأه نظر الى فى شك مريب ، وما زال غير مصدق .

حتى اذا انتهت بى رحلة العودة الى بلدة تاريخية فى جزيرة قبرص اسمها « سلامس » سألت بعض المهتمين بالتاريخ القديم من أهل قبرص ، ونحن وقوف عند أطلالها ، عما اذا كانوا يعلمون سبب دمار هذه المدينة ذات العظمة الغابرة والآثار الباقية .. وكان الرد : ان الرومان هم الذين دمروها ! وعجبت ، وقلت لهم : بل اليهود الذين طردوا من فلسطين فى القرن الأول الميلادى هم الذين دمروها ، وقتلوا من أهلها الذين دانوا بالمسيحية حديثا أكثر من مائة ألف ! وألححت على رفقاء الرحلة أن يراجعوا بعض الكتب الكبيرة المعتمدة ، أو يكتفوا بدائرة المعارف البريطانية !

وبعد أسابيع تلقيت رسالة شكر على تصحيح معلوماتهم عن أكبر مدينة أثرية فى جزيرة قبرص ، وقالت الرسالة فى استحياء أنها تريد أن

تجدد بعض معلوماتي عن الحادث التاريخي الفاجع ، فان عدد من ذبحوا من أهل سلامس بحراب اليهود وسيوفهم كان مائة وستين ألفا على وجه التحديد ، وأن المسيحيين فى الاسكندرية ، فى هذه الفتنة لقوا نفس المصير، على يد اليهود ، وأكدوا أن طبعات جديد من كتب قبرص الدراسية سوف تتضمن هذا البيان .

وهكذا ذهبت دسائس اليهود — باسم العلم — فأضافت الى معلومات الأمريكان أن هتلر هو الذى زرع العرب فى فلسطين ، وأن « الرومان » هم الذين خربوا سلامس القديمة ، وذبحوا جميع أهلها من المسيحيين !!

ورجعت الى بعض الكتب الحديثة التى ألفها أساتذة من اليهود ، لهم سمعة فى دوائر البحث العلمى ، وتعد دراساتهم مراجع ، وتزدحم المكتبات بما يؤلفون ، فوجدت منها أعجب المفتريات تروى باسم العلم بغير حياء ، وتتناقلها بعد ذلك المترجمات والتفسيرات على أنها حقائق ، وما أبعدها عن الحق والواقع ..

ولنضرب لهذا اللون من التضليل باسم العلم ، مثلا أو مثلين ..

هذه مجموعة من الدراسات الجادة تشرف عليها منظمة اليونسكو المنبثقة من هيئة الأمم المتحـدة عن : « تاريخ التطور العلمى والثقـافى للبشرية » وتمهيدا لهذا التاريخ كلفت منظمة اليونسكو بعض كبار العلماء باعداد مجموعة من البحوث فى شكل كتب دورية ، تعرض على اللجنـة الدولية ، حتى اذا اعتمدت ، دخلت فى الموسوعة التاريخية ، وعند ما جاء دور اليهود ، كلف اثنـان من أساتذة الجامعـة العبرية بالقدس همـا « بن ساسون » و « س . اتيينجر » بوضع الخطة العامة لكتاب من هذه السلسلة تحت عنوان : « الحياة والقيم الاجتماعية للشعب اليهودى » .

وقد سارعت المجامع اليهودية بتقديم العون المادى لاعداد هذا الكتاب، وتم صدوره ، وورد فى مرحلة العرض التاريخى ، ما يأتى عن فتح المسلمين لفلسطين أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

« لم يكن فرح يهود تلك البلاد (فلسطين) بتحرير المسلمين لسكانها من نير فارس وبيزنطة بأقل من فرح الآخرين ، اذ لم تكد تسقط عاصمة فلسطين السياسية فى ذلك الوقت فى يد المسلمين ، حتى سارع (صفرونيوس) ، وسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مفاتيح أورشليم بعد أن عاهده عمر على ترك اليهود فى أمن وسلام .. وقد عم الفرح والسرور اليهود .. الخ » .

وليس هناك كلام أبعد عن الصواب من هذا الادعاء الجرىء الوقح على الحق . فقد ورد بنص صريح واضح فى عهد عمر بن الخطاب للبطريك صفرونيوس ، ألا يسمح لأحد من اليهود بالاقامة فى « ايلياء » (القدس). وهذا النص وارد بتمامه ؛ وبوضوح واضح فى المراجع الاسلامية وعلى رأسها تاريخ الطبرى ..

من أين جاء اذن فرح اليهود ، ومن أين جاء أمان أمير المؤمنين عمر لهم ؟ !!! انه جاء فى مخيلة وتزييف عالمين يهوديين معاصرين ، يعلمان من غير شك أنهما يكذبان ، ولكن لعل أحدا لا يتنبه الى هذه المفتريات ، وغيرها عشرات بالذات فتمضى الى مؤلفات « اليونسكو » وتصبح بعد حين من مراجع التاريخ .

ومن حسن الحظ أن الجامعة العربية تنبهت الى هذا الكتاب وكلفت عالما فاضلا من أساتذة جامعاتنا هو الدكتور فؤاد على حسنين بعمل رد علمى يقدم لليونسكو عن هذا الكتاب .. وقد وجد الكثير جدا مما يستحق الرد والتصويب ، وان كانت وثيقة الطبرى التى أبعدت اليهود من القدس لم ترد فى دراسته . بل ان نسختها المحرفة بأيدى اليهود تسربت الى مطبوعاتنا الرسمية ، وتلقينا وعدا بتصويبها .

* * *

وهذا كتاب آخر لمؤلف يشغل منصب الأستاذية للتاريخ المعاصر

بالجامعة العبرية هو الدكتور فريد لاندر واسم الكتاب : « تأملات حول مستقبل اسرائيل » .

ان كمية الخبث والكذب التى تضمنها هذا الكتاب كثيرة جدا ، ومن ذلك أنه يقول :

« يقال لنا ان الصهيونية فرضت نفسها على عالم عربى مجمع على عدائها ، وذلك بفضل مساندة الدول الأوربية العظمى . وهذا خطأ (كذا ..) فمن المؤكد أن حلقات عريضة من الشعب العربى فى فلسطين تشعر بعداء مستمر للحركة الصهيونية . ولكن هناك اتجاها الى نسيان أن الزعيمين التاريخيين للقومية العربية الحديثة ـ الشريف حسين أمير مكة ، وابنه الأمير فيصل ـ قد قبلا صراحة فى نهاية الحرب العالمية الأولى استيطان اليهود فى فلسطين ، وانشاء وطن قومى لليهود فى هذه البلاد ، بشرط ألا يتطور هذا الوطن الى دولة يهودية . وفى يناير ١٩١٩ قبل الأمير فيصل الذى كان يمثل وقتها العالم العربى ، ضرورة النظر الى فلسطين نظرة خاصة ، لطابعها العالمى » .

وهكذا خلص المؤلف العالم . والأستاذ الجامعى ، الى أن فيصل الأول كان لا يعتبر فلسطين أرضا عربية بصفة أساسية ! وأن الطابع العربى لفلسطين لم يكن مبدأ مقدسا !!

هذا هو الأسلوب الذى يسير عليه « الفكر » اليهودى فى أعلى مستوياته .. فقد صح لديهم أن فيصل الأول هو العرب جميعا ، وعلى الرغم من التحفظات الكثيرة التى أبداها ابن الشريف حسين على مبدأ الهجرة ، فانها صلحت لدى هذا العالم كى يطرد العرب من ديارهم ، وتقوم دولة اسرائيل !

واذا كان موقف ما ، قد ذكر لواحد من أمراء العرب فى فترة حرب ، وفى فترة وقوع فى شباك الوعود البريطانية الكاذبة أثناء وبعد الحرب

العالمية الأولى ، فكيف نسى هذا المؤلف موقف شريف مكة قبل وعد بلفور بربع قرن فقط ، عند ما هاج واستنفر العالم العربى والعالم الاسلامى كله ، لأن ثلاثين يهوديا ، بقيادة ألمانى منهم اسمه « فريدمان » ، أراد أن يستقر فى جنوب النقب ، ــ مدين ــ واتخذ السلطان عبد الحميد موقفا جازما ، اضطر هــذا العدد الضئيل من اليهود الى حمل متــاعهم والعودة من حيث جاءوا ..

وكيف نسى هذا « العالم » أستاذ التاريخ الحديث ، عدم استجابة السلطان عبد الحميد لكل المغريات والضغوط اليهودية فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى لكى يسمح بانشــاء مزرعة أو مزارع قليلة لليهود يستوطنون فيها ، وبذلوا فى هذا السبيل وعودا بالمال الوفير وماكان أحوج السلطان لهذا المال ، بل لقد طلبت وساطة امبراطور ألمانيا لتحقيق هذا الأمل ، ولكن معرفة الامبراطور ، بعقيدة الرفض ــ رفض الوجود اليهودى فى فلسطين ــ جعلت الامبراطور بدوره يعتذر عن الوساطة حتى بعد أن عرض اليهــود أن يجعلوا مستعمراتهم الزراعيــة تحت سلطة الألمان المباشرة .

وأيضا كيف نسى أن حفيد أخى فيصل الأول ، هو حسين بن طلال ملك الأردن وأنه حارب ويحارب ليعــود الفلسطينيون الى أرضــهم ، وديارهم ، وأن الأمة العربية كلها على رأى رجل واحد فى أن فلسطين ملك لعربها ، ومن أجل هذه العقيدة قامت فى المنطقة ثلاث حروب ، وأن آخرها معركة ما تزال مستمرة تستنزف الدماء ، وتدمر العتاد والأموال !!

* * *

الاكذوبة الكبرى :

والأمثلة على أكاذيب اليهود وتدليسهم باسم العلم ، لا تعد ولا تحصى، مهما وضعوا تحتها من أسماء وألقاب علمائهم . فالكذب عندهم سلاح هام

من أسلحة معاركهم ضد العرب ، وضد المسيحية ، وضد البشرية كلها . وقد بدأت هذه الصناعة ، صناعة التزييف والتحريف بالتوراة نفسها كما سنرى فيما بعد ..

الا أن أكبر أكاذيبهم ، وأكثرها شيوعا فى العصر الحديث ، أنهم ينفردون بمزايا لا يدانيهم فيها جنس آخر من أجناس البشرية ، هو الذكاء ، والطاقة العقلية والعلمية غير المحدودة ولا المسبوقة ، ولا المتبوعة . فأكبر العلماء ، وأعظم الادباء ، وأقدر الفلاسفة ، وأجل المخترعين ، وقادة الفكر والفن والرياضة فى كل ميدان هم اليهود ، وان الههم خصهم بمزايا تفردوا بها دون سائر الناس ..

وفى العصر الحديث ، أضافوا الى هذه المزاعم ميزة أخرى ، وهى أنهم أقدر المحاربين وأشجع من ارتاد ميادين القتال والصدام ، ودليلهم على هذا حروب السنوات العشرين فى المنطقة العربية !

وقد برعت وسائل دعايتهم فى ترويج هذه الأفكار ، بما يملكون من وسائل الاعلام الشاملة والمتنوعة ، وبرعوا فى طريق ترويجها ، الى حد أن تملكت عقـدة النقص عن مستواهم الكثير من الشعوب ، ومنهـا بعض البيئات العربية .. بل العلمية ..

وليس هناك أبعد عن الحق من هذه المفتريات ..

فاليهود ـ خلال فترة اقامتهم القصيرة فى فلسطين من بعـد موسى ابن عمران ، كانوا قبائل متخلفة قاصرة عقليا ، وروحيا مما سنفصله بعد حين ، فى وقت قامت حولهم حضارات ـ باذخة زاخرة بالعلم والعرفان . فلما تشتتوا ، وقاموا بمذابح سلامس فى قبرص والاسكندرية وبرقة ، ضد المسيحيين الجدد ، تنبه العالم الى خطر احقادهم ، وسواد نفوسهم، فنبذهم أينما كانوا ، وألزمهم بالاقامة فى حوارى المدن ، وأدنأ أحيائها .. اللهم الا العالم الاسلامى ، الذى قبل اندماجهم فى بيئاته ، ولا سيما الأندلس ،

ومد لهم فى حرية العبادة ، فطوروا عقـائدهم بما تعلموه من المسلمين ، ووصلوا فى مناسبات الى بعض المناصب المسئولة .. ولكن أوروبا نبذتهم تماما ، وحاصرتهم المسيحية ، وصبت عليهم عذاب الهون .

واضطر اليهود الى أن يجودوا بعض الحرف ، التى لا تكلف جهـدا عضليا ولا عقليا ، وهى صناعة الصياغة ، تعلموها من المصريين القدماء عند اقامتهم فى مصر ، وحافظوا على ما تعلموه بعد ذلك .. وعاش اليهود على هامش الأسواق تجار خامات ، وتجار تجزئه ، حيثما سمحت لهم قوانين البلاد التى يقيمون فيها بذلك ، ودأبوا على تجـارة المال ، أى الاقراض بالربا الفاحش ، حتى صور شكسبير فى قصة « تاجر البندقية » طباعهم وجشعهم بصورة رائعة ، وعميقة التعبير . وكان شكسبير فيما أبدعه يعكس رأى المجتمع الأوربى لا الانجليزى وحده ، فى اليهود .

فلما هاجر بعضهم مع المهاجرين الأول الى الولايات المتحدة ، منعهم حاكم نيويورك الهولنـدى (بيتر ستفنسون) من العمل فى التجارة ، ولا سيما الأقمشة والثياب ، فتسللوا الى تجارة تليق بهم ، وهى الثيـاب القديمة ، ينقلون ما يستغنى عنه أهل بلد الى بلد آخر ، ومن هنا بدأت مكاسبهم فى العالم الجديد ، وظلوا يثابرون بالحيلة تارة ، وبالرشوة تارة أخـرى ، حتى أزالوا القيـود التى فرضت عليهم . وأمكنهم مع نمـو المواصلات أن يتداخلوا فى تجارة المواد ، وبمقتضى الثقة التى توفرت بينهم ــ أينما وجدوا ــ بحكم أنهم أقلية مسحوقة ولكنها متماسكة ، وبعد قليل أصبحوا يحتكرون أصنافا بعينها ، ويتحكمون فى أسعارها . وابتعدوا نهائيا عن التداخل فى التصنيع ، حتى لا يكون لهم احتكاك مع العمال ، وعناصر الحركة فى الرأى العام . وعندما نمت الحياة الصناعية فى أوربا وأمريكا وتوافر الانتاج ، ابتكروا وسيلة البيع بالقسط ، وافتتحوا متاجر التجزئة الضخمة المتعددة الفروع ، مثل محلات ماسى وسيرز فى الولايات المتحدة ، وسلفريدج ووولورث فى انجلترا وفروعها فى العالم الغربى كله .. وحتى يحـكموا قبضـتهم على التجارة ، تداخلوا فى وسـائل الترويج

والاعلام ، بحيث لا تنتشر سلعة لا يكونون هم موزعيها . وتجمعت فى يدهم ثروات هائلة ساندها تداخلهم فى نظام البورصات وتجارة الأوراق المالية وسيطرتهم وتملكهم لعدد كبير من البنوك ..

وفى الولايات المتحدة لا يوجد انسان لا تمتص دخله أنظمة التقسيط ، بأرباحها العالية ، ومنذ أن يولد الفرد منهم ، وهو أو أسرته مطالبون بأداء أقساط معينة لدار الولادة ، حتى اذا مضت رحلة حياته وهو مطالب بأقساط لتعليمه وسكنه وسيارته وطعامه وعلاجه ، فاذا أدركته الوفاة فان أقساط دفنه واجبة الأداء أيضا .. وكل هذه الأقساط ، تصب فوائدها الربوية فى الخزانة اليهودية ، وقد سببت ، وما تزال تسبب هما دفينا ، وقلقا عميقا للمجتمعات الغربية ، ولا سيما الامريكية . وعندما أخذ هنرى فورد الكبير منشىء صناعة السيارات فى الولايات المتحدة ــ أوائل هذا القرن ــ فى التصدى لهذه المحنة التى يعانيها الشعب الأمريكى . ويفند مزاعمهم عن العبقرية اليهودية ، فى كتاب نشره باسمه .. ما كاد يفعل هذا حتى امتدت الأظافر اليهودية تنهش لحمه والعظم معا ، فاضطر للاعتذار عما صنع ، بل التنكر له !!

وفى ظل هذه الثروات ، ويجب أن نضيف اليها صناعة الترفيه وتجارة الأسلحة ، أخذ اليهود يتداخلون فى سياسات الدول ، وينشئون مراكز التجسس تعمل لحساب كل من يدفع الثمن . وكانت النتيجة انهم أغرقوا العالم فى حروب صغيرة ، وحربين عالميتين .

ونتيجة لوفرة المال ، وغفلة الشعوب والدول ، بدأت الخديعة الكبرى ، وهى ان العنصر اليهودى عنصر متفوق ، وان أهم احتكاراته ، الذكاء ، والكفاءة .. وقد يكون من بين السلالات اليهودية بعض الرجال المتازين مثل اينشتين وكارل ماركس وفرويد .. وأى جماعة فى العالم يمكن أن يظهر بينها الأفذاذ ، والعبقرية لا تحكمها ظروف ثابتة ، ولكنها فلتات طبيعية . الا أنه من المؤكد أن آلافا وآلافا من هؤلاء الأفذاذ ظهروا

من بين الجماعات غير اليهودية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان لهم تأثير بالغ فى سير البشرية ، ونمو الحضارة الانسانية .. الا أن الشعوب المعاصرة لا تملك أبواق الدعاية التى يملكها اليهود . ولا تجرؤ على ترديد هـذه الكميات الهائلة من الأكاذيب التى يكررها اليهود ممسين ومصبحين ، حتى تصبح بفعل التكرار عقيدة ، أو رأيا يعتنق على مر السنين ..



ألم يقولوا لنا عن معجزات الانتاج فى مزارعهم الجماعية باسرائيل ، ويدعون لزيارتها الأقطاب والمسئولين فى الدول الافريقية النامية .. هـذه مجلة « فورشون » الأمريكية ، كبرى مجلات الغرب الاقتصادية ، وليست أيضا بعيدة عن التأثير الصهيونى فى توجيهها .. نشرت هذه المجلة فى عدد ابريل سنة ١٩٧٠ دراسة فى داخل اسرائيل مجدت فيها ما شاءت . ولكنها اضطرت الى الاعتراف بأنه منـذ أنشئت المزارع الجماعية الاسرائيلية ، وخسارتها تتوالى عاما بعد عام ، وتكبد اعانتها خزانة حكومتها نفقـات كبيرة ، وذلك باستثناء مزرعتين تتوازن ميزانيتهما بالكاد ! أما الصناعة فى اسرائيل فهى انتاج تافه ، لا يثبت لاى منـافسة عالميـة ولا يقيم أود شعب ، والصناعة الوحيدة التى يعتد بها ، هى صـناعة قطع المـاس وتشكيله ، ومنذ قرون كان اليهود يحتكرونها ، وقد جمعوا أخيرا صناع هذه الحرفة من هولندا وجنوب أفريقية وغيرها لأداء هذه المهمة ..

وواضح جدا من دراسة البناء الاقتصادى داخل اسرائيل ، أنه يقوم على الاعانات الخارجية ، وان حربين قام بهما اليهود ضد الدول العربية ، كان الهدف النهائى منهما فتح الأسواق العربية ، بعد أن أصبح ثمن اقامة هذه الدويلة أغلى مما تطيقه أى اعانة !!

وبعد ..

ففى مسيرة التاريخ الأمين الصادق ، المدعم بالأسـانيد والمراجع . سوف تتتبع الوجود اليهودى منذ نشأته ، وعلاقاته بالمنطقة العربية ، واتى استدارت حلقاتها لتتركز حول القدس .

ان معارك مصيرية كبرى وقعت فى المنطقة ، قبل ميلاد المسيح عليه السلام وبعده ، وعند قيام الاسلام وبعد قيامه ، وكانت القدس بكنائسها ومساجدها ، وهى قابعة فى سفح جبل الزيتون ، تسجل هذا كله ..

ونحن أبناء هذا القرن العشرين الميلادى ، نشهد حلقة جديدة ، من حلقات الصراع حول القدس ، تتحرك لها أدوات المعركة ، من أنجز وأخطر ما ابتكره الانسان للقتل والدمار ، سـابحا فى المـاء ، أو متحركا على الأرض ، أو مندفعا فى الهواء ، أو منطلقا بين موجات الأثير ، أو محلقا فى أقمار صناعية ..

القدس مرة أخرى .. ومصر حاميتها الكبرى مرة أخرى ..

ولن نفهم ما يجرى الآن ، الا اذا فهمنا ما مر من أحداث ، منذ أضفى الله على القدس قداستها ، وانه سبحانه لقادر على أن يردها من غربتهـا ، وأن يودع فى قلب المحاربين عنها من الايمان ما يهزم كل عدوان .

والله المستعان .

محمد صبيح

الاسكندرية ــ المعمورة ــ أول اغسطس سنة ١٩٧٠

الفصل الأول

ابراهيم الخليل ... أبو التوحيد

نحن الآن فى جنوب العراق ..

والقرن الذى نطل عليه هو القرن العشرون قبل الميلاد ، أى أن فترة من الزمن تفصلنا عنه تقرب من أربعة آلاف سنة ..

والموقع الجغرافى الذى نقف عنده يقع على نهر الفرات الى الجنوب قليلا من مدينة الحلة الحالية . ورقعة الأرض الضيقة التى تمتد من شاطىء الفرات شرقا الى شاطىء دجلة كانت طريق بلدان البحر المتوسط الى شط العرب والخليج العربى .. وفى هـذا الموقع قامت فى القديم مدينة « بابل » .

واسم « بابل » انطلق من أعماق التاريخ ، ليكون على ألسنة الناس فى كل العصور . فقد اقترنت بها الحقائق مع الخرافة ، ولا سيما عندما يذكر « برج بابل » الشهير الذى أريد به أن يكون سلما الى السماء ، وحدائق بابل المعلقة ، التى عدت من عجائب الدنيا السبع . الى أن قامت فى النصف الأول من هذا القرن حفريات ، أثبتت أن معظم ما ذكره عنها المؤرخ الاغريقى « هيرودوت » لم يكن من وحى الخيال ؛ بل كان وصف شاهد زار ورأى ..

ولعل الفارق بين آثار المدنية البابلية ، والمدنية المصرية القديمة ، ان مصر كانت لديها مناجم الحجر والجرانيت تأخذ منها ما تشاء ، وتدون عليها أنباءها . أما البابليون فقد عاشوا فى سهل منبسط ، لا جبال فيه ؛ وكانت مبانيهم من قوالب الطمى المحروق .

وما كان يمكن لحضارة تقوم على شواطىء الأنهار الكبرى ، الا أن

تعنى عنايه فائقه بانشاء شبكة من قنوات الرى والسدود والخزانات تنظم الزراعة ، وتزيد فى ثروة الدولة . ومن الدخل الزراعى ، ثم التجارى أمكن اقامه المبانى الضخمة ، والمعابد الهائلة والطرق العريضة التى تحفها تماثيل المعبودات ، وكأنها حيوانات الأساطير .

وترك لنا تاريخ « بابل » اسماء من ملوك هذه الدولة أولهما سرجون .. وتدهشنا قصة وصوله الى الملك ، فهى تروى أنه ترك على شــاطىء النهر رضيعا ، وأنقذ ليتربى ويصبح بستانيا ، ويكافح ليصبح ملكا يمد سلطانه الى شمال العراق (آشور) ، وسوريا وآسيا الصغرى ..

وَاسم ثان من ملوك بابل ، تلا سرجون بعد حوالى ثلاثة قرون (1) قد تزيد ، ولكنه أوسع شهرة ، وأرفع ذكرا ، هو حامورابى ، وأهمية حامورابى ترجع الى أمرين ، أولهما أنه صاحب الشرائع المشهورة المقترنة باسمه ، وثانيهما أن سيدنا ابراهيم الخليل ظهر فى عصر قريب من عصره .

ولا يرجع تاريخ الحضارة البابلية التى ولد فى أحضانها أبو الأنبياء وعاش فترة من الزمن الى أيام ملكين كبيرين . بل لا تسمى هذه الحضارة باسم عاصمتها ، ولكن باسم شعبها كله ، وهو الشعب « السومرى » .. فقد اثبتت الحفريات التى قام بها الاثريون ، فى الثلث الأول من هذا القرن أن فيضانا هائلا قدمت أمواجه من أقصى الشمال وغمر تحته مدن العراق فى فترة تدفقه ، وأغرق كل شىء فيها ، فلما انحسر عنها ترك كميات من الطمى غطت كل شىء ، وارتفعت فوق المدن والقرى والنخيل وغيره ، طبقة طميية علوها حوالى ثلاثة أمتار ، وتعالى الركام فوقها عشرين مترا ، ثم بدأت تنشأ مدن جديدة ، ويعمر الانسان أرضــا ، لا يعلم ان مــدنا

---

(1) بعض المراجع تجعل الفترة الزمنية بين سرجون وحامورابى حوالى سبعة قرون . كما ورد فى كتاب Sir Charles Marston للسر شــــارلز مارستون (ق ٢٧٥١ ق.م الى ٢٠٦٧ ق.م) فى حين ان كتاب الحضارات السامية يجعل حامورابى عائشا عام ١٧٠٠ ق.م الا أن دائرة المعارف البريطانيــة تعطيه مدى غير محدد وهو القــرن الثــامن عشر قبل الميــلاد .

وحضارة وخلقا كانوا أسفل ما يسير هو فوقه ، ويبني ويعمر .. وبهذا صدق ما قاله أبو العلاء : « ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد » ..

منذ كم من القرون حدث هذا الفيضان المروع الذى هبط من جبال « أرارات » فى شمال العراق ، والذى تحدثت عنه الكتب السماوية ، ووردت اشارات فى القصص القديم والأساطير عن الأقوام الذين عاشوا قبل الفيضان .. وعن الفئة التى أنقذها فلك نوح قبل أن يغرق المـاء كل شيء وكل حى ؟

ولعل أعظم الحفريات هى التى تمت فى مدينة « أور » احدى مدن الدولة البابلية ، وهى بالذات التى ولد فيها سيدنا ابراهيم ، وبدأ حملته الكبيرة ، دعوة الى اله واحد أحد .

ان الكنز العظيم الذى وجد فى خرائب وبقايا « أور » ، ليس ذهبا ولا فضة ولكن مجموعة كبيرة من الألواح نقش عليها الكثير من قواعد الحياة وظروفها بين الحكام والرعية ..

واحد من هذه الألواح موجه من الحاكم الى كبير الكهنة ، يأمره « ألا يدخل حديقة امرأة فقيرة ، لكى يستولى على خشب ، أو يأخذ فاكهة من شجرها » باسم النذور طبعا .. وكانت هناك رسوم يتقاضاها الكهنة على دفن الموتى ، خفضها الملك الى الخمس ، أما الهبات والقرابين للمعابد ، فليست حقا لكبار الكهنة والموظفين وحدهم ، ولكنها حق عام .. وواحد من هذه الألواح ، يشيد بما قدمه الملك لشعبه من الحرية .

وكانت مدينة « أور » على نهر الفرات مركزا تجاريا ، أفاء عليهـا ثروات كثيرة ، ساعدت على اقامة المعابد ، وملأتها بتماثيل الآلهة المعبودة وأهمها مردك ، وشمشى .

هكذا نجد ملامح حياة مادية تصل بعد ذلك الى قمة لا تدانى ، حتى جعلت من بابل عاصمة العالم ، ومركز المعجزات فى البناء والتشييد ..

زار المؤرخ الاغريقي هيرودوت بابل بعد قرن ونصف من عصر «نبوخذ نصر» ، ودون مشاهداته . قال ان السور الذي يحيط بها طوله ٥٦ ميلا ، ويبلغ من العرض ما يسمح لعربة تجرها أربعة جياد أن تجرى فوقه . وكانت المبانى الكبيرة كلها تقريبا من الآجر ، الذى يغطى بالقرميد المنقوش البراق ذى اللون الأزرق أو الأصفر أو الأبيض المزين بصور الحيوان وغيره من الصور البارزة المصقولة اللامعة .

وكان أول ما يشاهده القادم الى المدينة ، صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرج من سبع طبقات ، جدرانه من القرميد المنقوش البراق ، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدما (أكثر من ٢١٠ مترا) ، فوقه ضريح يحتوى على مائدة كبيرة من الذهب الخالص ، وسرير مزخرف تنام عليه كل ليلة احدى النساء فى انتظار ارادة الله .. وكان فى أسفل هذا البرج الهائل هيكل عظيم لـ « مردك » الاله المعبود فى بابل وحاميها .. وكان يمتد بين الهياكل القائمة فى المدينة طريق واسع مرصوف بالأسفلت يعلوه بلاط من حجر الجير ، وكسوة من الحجر الأحمر ، لتسير الآلهة فوقه ، فلا يعلو التراب أقدامها . وكان على جانبى هذا الطريق الواسع جدران من القرميد الملون ، تبرز فيه تماثيل لمائة وعشرين أسدا مطلية بالألوان الزاهية تزمجر لترهب الكفرة فلا يقتربون من هذا الطريق . وكانت نقوش الأزهار والحيوانات، يخيل الى الناظر أن الحياة تسرى فيها من فرط اتقانها » .

وعندما تزوج هذا الملك ــ نبوخذ نصر ــ أميرة من الشمال ، لم تتعود على حر بابل فأنشأ لها حدائق كل طبقة منها مقامة فوق غيرها ترفعها أعمدة . وكانت طبقات الطمى فوق كل حديقة تسمح بنمو النبات ، حتى الأشجار الضخمة كانت تنمو فى هذه الحدائق المعلقة . وبهذا نعمت الأميرة بجو رطب وجمال لا يدانى . وكان الماء يرفع اليها عن طريق سواقى يديرها الرقيق والأسرى . وكان ارتفاع قمة هذه الحديقة ٧٥ قدما ، ولارتفاعها كان نساء القصر يسرن فى حرية تامة لأن الأعين لا ترقى اليها ..

وأسمى اليونانيون هذه الحدائق ، بحدائق سميراميس ، على اسم الأميرة .

واذن فنحن بازاء برج تعلو قمته على قمة الهرم الأكبر ، وبازاء حدائق معلقة عدت من عجائب الدنيا السبع . وهذه ثمرة واضحة من ثمرات حضارة العراق القديمة فاذا أضفنا اليها حياة اجتماعية ناضجة ، وصفها أحد النقوش ، فيما تباهى به أحد ملوكهم بقوله : « فى خلال سبع سنين كانت الخادم ندا لمخدومتها ، وكان العبد يمشى بجوار سيده ، وقد استراح الضعيف فى بلدى الى جوار القوى » .. اذا كان هذا هو مستوى الحياة ، فان ما يزيد فى تحديد صورتها الراقية ، أن نلقى نظرة على أجل مخلفات هذا العصر القديم وهو شرائع حامورابى ..

العقل والقلب :

الشريعة الناضجة المعبرة عن حاجة مجتمعها ، المنظمة لعلاقاته ، هى قمة من قمم النضوج العقلى . وشرائع حامورابى التى ظهرت قبل أربعين قرنا من وقتنا هذا ترتفع الى هذا المستوى .

قدم حامورابى لقوانينه بمقدمة كشف عن نصوصها عام ١٩٠٢ فى انقاض مدينة « السوس » القديمة ، وكانت لحسن الحظ محفورة على حجر الديوريت الصلب ..

قالت المقدمة بعد أن ذكرت أسماء الآلهة التى دفعت الملك الى اصدار قوانينه « .. أنا حامورابى الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكى أنشر العدل فى العالم ، وأقضى على الأشرار والآثمين ، وأمنع الأقوياء من ظلم الضعفاء ، وأنشر النور فى الأرض ، وأرعى مصالح الخلق .. أنا الذى أعان شعبه فى وقت المحنة ، وأمن الناس على أملاكهم فى بابل ، حاكم الشعب ، وخادم الآلهة .. »

وهذه القوانين تنقسم الى ٢٨٥ فصلا ، منها ما خص الحياة الأسرية

والعلاقة بين الأزواج والزوجات ، وما خص الثروات الثابتة والمنقولة ، ونظم التجارة والصناعة ، وما تعلق بعقوبات العدوان على الأبدان والأموال والافساد فى الأرض .

وكانت أحكام الاعدام تطبق على جرائم منوعة منهـا : هتك العرض وخطف الأطفال ، وقطع الطرق والسطو ، ودخول كاهنة خمارة ، والجبن فى ميدان القتال ، وسوء استعمال سلطة الوظيفة .

وعقوبة « النفس بالنفس والعين بالعين » كانت تتناول أحوالا طريفة فاذا انهار بيت وقتل من اشتراه ، حكم بالموت على المهندس أو البانى . فاذا تسبب سقوط البيت فى موت ابن الشارى أعدم ابن البائع . واذا ضرب انسان بنتا وماتت حكم بالموت على بنت الضارب ! ولكن بعض هذه العقوبات استبدل بعد ذلك بالدية أى دفع غرامات مالية توازى الجرم الذى ارتكب .

ومما يستوقف النظر فى هذه الشرائع أن عقوبة الرجل المذنب اذا كان من الطبقة العليا ، تزيد وتتضاعف عن عقوبة رجل من الطبقة الدنيا اذا ارتكب نفس الجرم .. فان مراكز الشرف تقتضى الترفع عن الآثام . وكان طبيعيا فى مجتمع طبقى قديم أن تتضاعف عقوبة من يرتكب جرما فى حق رجل من الأشراف . واذا تسبب طبيب أثناء عملية جراحية فى موت مريض أو فقد عضو من أعضائه نتيجة اهماله عوقب الطبيب بنفس الضرر الذى أحدثه . ولعل كثيرا من الأطباء اليوم لا يتمنون أن يكونوا من أهل ذلك الزمن الغابر ، ولا سيما ان القانون كان يحدد قديما أجر الطبيب فى أنواع العمل الطبى الذى يقوم به حتى لا يستغل المواطنين . كما حدد القانون أجور الحرفيين كل بحسب مهنته ومدة العمل .

وفى المواريث كان الأبناء يرثون بالتساوى ، أما الزوجة فلها الحق فقط فى مهرها وهدية عرسها ، مع بقائها ربة البيت طوال حياتها .

وحتى يتخلص المجتمع من القضايا الكيدية وشهود الزور قرر قانون حامورابى عقوبة الاعدام على من يقترف هذا الاثم ..

ولعل هذه الفقرة التالية من تشريعات حامورابى ، تصل فى الرقى الى ما لم يصل اليه قانون حديث فى مجتمعنا المعاصر .. تقول : المادة :

. اذا ارتكب رجل جريمة السطو ، وقبض عليه ، حكم على المذنب بالاعدام . فاذا لم يقبض عليه ، كان على المسروق منه أن يدلى — فى مواجهة الآلهة — ببيان مفصل عن خسائره . وعلى المدينة التى ارتكبت السرقة فى داخل حدودها ، والحاكم الذى ارتكبت فى دائرة اختصاصه ، أن يعوضا المجنى عليه عن كل ما فقده . فاذا أدى السطو الى خسارة فى الأرواح ، دفعت المدينة ، ودفع الحاكم تعويضا الى ورثة القتيل » !

وهكذا تقرر فى العصر البابلى ، مبدأ تكافل الجماعة ، والدولة عن الخسائر الثابتة للأفراد الذين يتعرضون لعدوان . وهو أمر لم نصل اليه الآن .

وهكذا تمضى هذه الشرائع ، حاملة سمات عصر قديم ، مع ادراك مستنير لنظم الجماعة ، وما يصلح عليه أمرها . وقد ختم حامورابى شرائعه بقوله :

« هذه هى الشرائع العادلة التى رفع منارها الملك الحكيم حامورابى ، والتى أقام بها فى الأرض دعائم ثابتة ، وحكومة طاهرة صالحة .. أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها ، فى قلبى حملت أهلى وقومى ، وبحكمتى قيدتهم ، حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرملة » .

ومد حامورابى فكره الى الأجيال المقبلة من شعبه ، وناشـد ضمائر الذين يخلفونه من الحكام أن يتمسكوا بالحكمة والعدالة .. قال :

« فليأت كل مظلوم له قضية أمام صورتى — أنا ملك العدالة — وليقرأ النقش الذى على تمثالى ، فلعله يكون هاديا له فى قضيته ، ولعله يناجينى

قائلا : يا حامورابى ، انك حكمت كوالد حق لشعبه .. لقد جئت بالرخاء مدى الدهر كله ، وأقمت حكومة طاهرة صالحة .. ولعل الملك الذى يكون فى الأرض فيما بعد ، وفى المستقبل ، يرعى ألفاظ العدالة التى نقشتها على آثارى » .

هذا هو الجو الحضارى الذى ظهر وولد فيه سيدنا ابراهيم ، ونما وترعرع .. ترف مادى وثراء ، وفكر ناضج وحكم عادل ، ربما كان قد بدأ قبل الطوفان ، ثم جدد نفسه بعد ذلك ، حتى ظهر فيه من الحكام على تعاقب القرون ، أمثال سرجون ، وحامورابى ، ونبوخذ نصر .. وقد ولدت هذه الظروف حياة أدبية وفنية ، تتمثل فى أساطير « جلجميش » التى سبقت الطوفان ، واستمرت بعد ذلك فى صور متعددة ، وروح فنية تجلت فى النقوش الملونة الرائعة بالفسيفساء ، والمبانى البذخة ، والتماثيل الهائلة لمعبوداتهم الخرافية ..

وهنا يخطر لنا سؤال كبير . كبر هذه الحقبة العريضة من تاريخ الشرق الأوسط القديم .. وهو :

لماذا أصرت هذه الحضارة على عبادة آلهة ، يرمز لها بتماثيل مرعبة ، وثابرت على عبادتها ، دون أن تتنبه لحقيقة الوجود الكبرى ، وهى وجود خالق واحد أحد ، يبدأ كل شىء ، واليه المرجع واليه المصير ؟!

ألم يكن للعقول التى تشرع وتبنى قلوب تدرك وتعى ، وتمد آفاقها الى ماوراء الحياة وما بعدها ؟؟ !

سوف نعرض بعد حين للحضـــــارة المصرية ، وعلاقتها بروح الكون ومبدعه ، ولكنا عندما نقف هنا ، نجد نوحا فى أقصى الشمال من أرض العراق ، لم يجد الا قلة قليلة تؤمن بربه ورب الكون ، حتى بعض أهله كان عملا غير صالح . وحتى بعد أن هددهم بهول الموت من فيضان يغرق كل ما فوق الأرض فانهم أصموا قلوبهم وسخروا منه ..

هل هى العادة ، والتعلق بما كان عليه الآباء ؟

هل هو الكبرياء من أن يستمعوا الى رسول السماء ، وهو واحد منهم لا يرون له فضلا عليهم من جاه أو ثراء أو حكم وسلطان ؟

ربما كان هذا وذاك ..

ونحن نعلم قصة سيدنا ابراهيم مع هذه الأصنام ، ولكن فلنقرأها معا، تحت هذا الضوء الذى سلطناه على الحياة فى جنوب العراق ، فربما تبث فينا معانى متجددة ..

ورد فى سورة الأنعام تفصيل لحوار ابراهيم مع نفسه ثم حواره مع أبيه وقومه ــ هذا بيانه :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هــذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » .

ولم تقتصر دعوة ابراهيم على القريبين منه اذ يبدو ان دعوته وجداله عن عقيدة التوحيد وصل الى ملك من ملوك بابل . وفى ذلك قال القرآن الكريم فى سورة البقرة :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك اذ قال ابراهيم

ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين . »

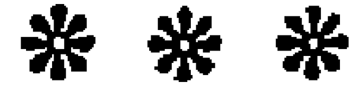
وقد لاحظ ماسبيرو فى تأريخه لفجر الحضارة ، أن رجال الفلك بما لهم من سلطان لدى الملوك والسادة كانوا يسيطرون على مقدرات البلاد ، لأنهم يتحدثون الى النجوم ، ويسمعون لها ، وتنبئهم من أنبـاء الغيب بما يشاء لهم هواهم أو يمليه عليهم احساسهم . وفى كل معبد كانت توجد مكتبة الفلك ، مدونة على ألواح من الطين المحروق . وقد عثر على واحدة من تلك المكتبات ، وكانت تضم سبعين لوحا ، يظن أنها ترجع الى عصر الملك سرجون . ولم يكن استقراء النجوم هو قمة العلم فى ذلك الوقت فقط ، بل كان سر المعابد المحجوب .

ولهذا لا نعجب اذا رأينا ابراهيم الخليل يبدأ تأملاته ، واستلهاماته الروحية بأقصى ما وصل اليه بعصره من علم ، وهو علم الفلك . ومن هنا كان اصطدامه بثقافة عصره عنيفا وحاسما ..

كذلك كان الحال مع موسى الكليم ، وكهنة المعـــابد المصرية كما سنفصله بعد حين .

اذن فقد مهدت الحضارة البابلية لظهور دعوة التوحيـد الابراهيمية فيها ، ولكنها صمت عنها آذانها .. ولعل الكلدانيين ، أهل العراق القدماء ، ظلوا على ابائهم لدعوة التوحيد ، أو أى دعـوة الى المسيحية ، اللهم الا القبائل العربية التى هاجرت الى هذه الأرض ، وظلت أرضهم تتداولها حروب الآشوريين من الشمال والاغريق من الشمال الغربى ، والفرس من الشرق ، دون أن تنفتح قلوبهم لدعوة السماء . وحتى بعد ان جاءتهم سلالة ابراهيم أسرى من فلسطين ، لم يأبهوا لما هم عليه من دين ، الى ان قامت دعوة الاسلام ، التى جددت عقيدة سيدنا ابراهيم ، وعندها ، وعندها فقط ، عرفت بقايا العراقيين القدماء دعوة السماء الى اله واحد .

وهكذا بدأ التوحيد فى شمال العراق بدعوة من نوح ، دون أن يجد أرضا خصبة ، ثم بدعوة من ابراهيم لم تلق غير الكيد والنار تهديدا وعقابا ، حتى نزح عنها مع بعض أهله الى فلسطين .



ويستوقفنا هنا معنى طال حوارنا فيه مع بعض المفكرين والباحثين المعاصرين وهو ان الدعوات الكبرى فى تاريخ الانسانية ، لا تظهر فى فراغ ولكنها تبدأ نتيجة نمو عقلى وعاطفى يكون مساعدا على نموها .. فدعوة ابراهيم الى التوحيد ، رفضت فى العراق ، ولكن أسبابا كثيرة أدت الى ظهورها فيها ، وليست الصدفة وحدها هى التى أوجدتها .. وقد قبلت هذه الدعوة فى مصر فى حدود وظروف معينة وبعد قرون عدة كما سنشرح فيما بعد . ودعوة المسيحية كان موطنها فى فلسطين وأسباب قيامها كانت تمهيدا طبيعيا لها ؛ بل نفس معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام كانت تحديا لقدرات اليهود الطبية ، ولظروفهم التموينية .. ونفس الأسس هى التى مهدت لظهور الدعوة الاسلامية فى الحجاز ، حيث بلغ النمو المادى ، والتأثر النفسى بالدعوات السماوية مبلغا يساعد على أن تتخطى الدعوة الحواجز التقليدية التى تحاصرها وليس مصادفة أن تقوم دعوة ابراهيم فى العراق وتستقر فى فلسطين ، وتقوم دعوة المسيح فى فلسطين وتهاجر وتستقر فى بلدان بعيدة عنها قبل ان تدين بها فلسطين نفسها ، وتقوم دعوة الاسلام بين القرشيين فى مكة ، وتهاجر الى يثرب لتجد الأرض الخصبة الصالحة لنموها ثم نجاحها ..

ان الحضارة المادية داعية الى مزيد من التأمل والتفكير والتطلع ، وهى فى نفس الوقت مانعة من اعتناق النتائج الطبيعية لسبحات الأرواح النيرة ، لتمسك القوم بما درجوا عليه ، واستقامت عليه حياتهم ..

يقول العقاد ، فى تأريخه لسيرة ابراهيم الخليل :

« كانت دعوة ابراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة : فلم يبدأ

ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البناء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية ، فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل .

« وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه فى عصره ، فانقلبوا الى عبادة الأصنام ، وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت ، وسارت فى طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذلك ..

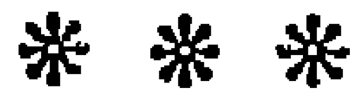
« ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان فى ميزان الخليقة ، فليس فى الكون الا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة وهى فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته الى الله » .

مسيرة الخليل .. ولماذا فلسطين :

عندما وطد ابراهيم العزم على تبليغ دعوته لقومه من الكلدانيين بادئا بأهل بلدته « أور » كان قد بلغ من العمر الخامسة والسبعين ، أى أنه كان رجلا كهلا . وقد وصفه « يوسفوس » أقدم مؤرخى اليهود بأنه كان رجلا متيقظ الذهن ، قوى الحجة ، أدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر .. واعتزم أن يصحح الأفكار التى شاعت بين قومه عن الله وأن يغيرها .. فكان أول من اجترأ على المناداة بأن اللهخالق الكون واحد . وانه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس ، فانما يفعل ذلك باذنه ، ولا يفعله بقدرة من عنده .. وقد أثارت عليه هذه الأفكار الكلدانيين والعراقيين فرحل الى أرض كنعان .

هـذا المؤرخ اليهودى الذى سجل سيرة قومه من أقدم العصور ، لم يجد حرجا فى أن يذكر أن دعوة التوحيد الأولى ، كانت موجهة الى

الناس كافة ، وليس الى آسرة ابراهيم وحدها ، الى أبيه آزر (أو تارح) . أو الى زوجه وبنت أخيه ساره ، أو الى ابن أخيه لوط فقط .. لا ، وانما كانت موجهة الى « الناس » كافة .. وقد كان ما بين هذا المؤرخ اليهودى والدعوة الابراهيمية عشرين قرنا كاملة . فاذا جاء اليهود وأغلقوا عليهم الدعوة الابراهيمية ، بوصفهم الشعب المختار ، بل أغلقوها على فرع واحد من أبناء ابراهيم ؛ وهو يعقوب بن اسحاق دون نسل بقية البنين ، ومنهم اسماعيل فهذا أمر لم يكن معروفا بهذه الصورة عند تدوين أول تاريخ لهم ، وان كانت التوراة التى وصلت الينا تلح على هذا المعنى وترددِه ، وهو أن اليهود من بنى اسرائيل هم وحدهم الناس ، وأن غيرهم من البشر لا يستحقون دعوة التوحيد ، لأنهم خلقوا على صورة الانسان لسبب واحد ، وهو أن يكونوا خدما لهم ، لا أتباع عقيدة واحدة .



رحل ابراهيم وأسرته الى أرض كنعان فى فلسطين .. والكنعانيون هم عرب هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية الى شمالها ، واختلطت بهم هجرات متعاقبة من كل مكان حولهم من السومريين والآشوريين والفينيقيين والمصريين والحيثيين والآراميين (١) ، ثم جاءتهم هجرات على شكل غزوات من جزر البحر المتوسط ولا سيما قبرص وكريت لتنشىء على الساحل منطقة الفلسطينيين . وتسمى أقوام بأسماء لصقت بهم مثل اليبوسيين فى منطقة أورشليم .. والمقطع الأول من اسم أورشليم وارد من بلاد الرافدين. ولا ننسى أن « أور » هى مسقط رأس ابراهيم أما « شليم » فاسم لواحد من عشرات الآلهة الوثنية التى كانت تعبد فى المنطقة كلها . ولا علاقة لهذا الاسم بكلمة « شالوم » العبرية التى تعنى سلام ، وان كان اليهود نسبوا الاسم كله للغتهم حتى يثبتوا قدم علاقتهم بالمدينة المقدسة أو القدس أو ايلياء كما كانت تسمى أيام العرب .

---

(١) أسماء القبائل التى استقرت فى فلسطين كثيرة فمنهم أهل مدين والادوميون والمؤابيون والعمرنيون .

أما لماذا كانت هذه الهجرات الكثيرة الى هذه الأرض التى أصبحت الآن سوريا ولبنان وفلسطين ..

السبب هو الموقع . فهذه الأرض فى شرق البحر المتوسط أحيطت بشعوب وأقوام قوية وغازية ، فى أرض الرافدين (دجلة والفرات) وآسيا الصغرى ، ومصر . ومن وراء هذه الدائرة نجد الفرس والاغريق والرومان ثم العرب . وكل هؤلاء زحفوا ، والتحموا فوق هذه الأرض ، كى يصلوا الى أرض شعب من الأقوياء ، كانت تدور معاركه فى فلسطين الكبرى ، أو الشام الكبير ، أى الأسمين تختار .

يقول كتاب الحضارات السامية القديمة (١) :

« حددت الظروف الطبيعية المصير التاريخى لمنطقة سوريا الفلسطينية الساحلية . فتركز طرق المواصلات الأساسية بين ثلاث قارات فى هـذا القطاع الضيق من الأرض ، كان يعنى أنه قدر لهذا القطاع أن يكون مسرحا لسلسلة من الهجرات والغزوات ، دون أية فرصة دائمة لانشـاء نظم سياسية قوية . كانت المنطقة أرض تجارب للمطامع والمنافسـات التجارية والحربية للدول الكبيرة التى كان يقع بينها . وكانت الشعوب المهاجرة تتدفق عليه مرة بعد أخرى ، لأنه كان منطقة جذابة فى حد ذاتها لخصبها ، يمكن دخولها من كل جانب ، والانتقال منها فى كل اتجاه . وكانت مفتوحة أمام مصر ، وأرض الرافدين وآسـيا الصغرى والبحر المتوسط . فضلا عن الصحراء التى جاء منها البدو الساميون ... ولم يكن العبريون حين فتحوا فلسطين حوالى آخر الألف الثانى قبل الميلاد ، أول شعب سامى فى ذلك الميـدان . فقد أقامت فيه شعوب سامية أخرى قبلهم بزمن طويل » .

* * *

(١) تأليف سبتينو موسكاتى ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر .

واذن فلم يكن غريبا أن يرحل ابراهيم وأسرته الى فلسطين ، ناجيا بعقيدته الجديدة من عسف بابل ، يلتمس فى مغرب الأرض راحة لنفسه ، ومزيدا من التأمل والتعمق فيما هداه الله له . وكان قدرا مقدورا ، وفترة تحول فيها تاريخ البشرية ، أن تكون هذه الهجرة الى فلسطين بداية مسيرة هائلة يتحرك فيها الضمير البشرى الى منطقة النجاة من أدغال الوثنية ، ومظاهرها الرهيبة وطقوسها الدامية .. انها حركة بدأت بابراهيم الموحد الطائع المنيب لارادة الرحمن ، ومستمرة الى واحد من أحفاده هو موسى الكليم ، وحاثة خطوها بعد ذلك الى حفيد آخر هو عيسى كلمة الله ورحمته ، وواقفة وقفة أخيرة الى ثالث الأنبياء وخاتمهم من نسل ابراهيم محمد بن عبد الله .. وكانت دائرة الظهور هى الهلال الأكبر من فلسطين ، ومن مصر ، ومن الحجاز .

وفى الموقع الذى هاجر اليه ابراهيم ، وفيه انتهت حياته .. والموقع الذى سعى اليه موسى ووقف عند حدوده .. والموقع الذى جاهد فيه عيسى ومنه رفع .. والموقع الذى اتجهت اليه أبصار محمد ، ثم أسرى به اليه ليلتقى بكل أنبياء التوحيد .. فى هذا الموقع العزيز بتاريخه ، الكريم بقداسته ، دارت وتدور أعنف معارك الدهر كله ، لكى تبقى له حرية الوجود ، وحرية العقيدة ، بعيدا عن تعصب المتعصبين ، وغلاة الطامعين ..

انه فلسطين .. وقلبها الخفاق ، القدس .

من فلسطين الى مصر .. والعودة :

يرجع الى شعب سوريا وفلسطين الفضل فى اختراع الحروف الأبجدية ، ونقل الكتابة من صور ورسوم كانت أساس الكتابة الهيروغليفية الى كتابة ثابتة القواعد . والفينيقيون الذين شاركوا فى هذا التطور ، هم الذين انتقلت وسيلة الكتابة الأبجدية الى أوربا عن طريقهم . وقد ذكرت أساطير الاغريق

أن أحد أبطالهم واسمه « قادموس » (١) ملك فينيقيا هو الذى قام بمهمة نقل الأبجدية الى اليونان ، ومنها انتقلت الى أوربا .

تقول التوراة فيما تقص من أنباء ابراهيم انه « اختار سكنه من شكيم (نابلس الحالية) الى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون . وظهر الرب لأبرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ، ونصب خيمته شرقا من بيت ايل ... ثم والى رحلته الى الجنوب . وحدثت مجاعة فى الأرض ، فانحدر ابرام الى مصر..»

وتستوقفنا قصة المذبح الذى بناه ابراهيم للرب ، وكأن التوراة تريد أن تلقى فى روعنا أن ابراهيم كان ما يزال متأثرا بفكرة تجسيد الرب ، أى نزوله فى صورة انسان يخاطب الناس ، وأنه أيضا كان يتقبل الضحايا على المذبح . وقد ظلت العبادة اليهودية مقترنة بالتجسيد ، وبالدم الذى يسيل فوق المذبح من دماء الضحية (٢) ، ولم ترتق الى فكرة التجريد ، أى تجريد الله سبحانه وتعالى من أى شبه آدمى أو غير آدمى . مع أن التجريد هو الامتداد الضرورى للتوحيد .

وكانت البيئة التى أقام فيها زاخرة بالعديد من المعبودات الوثنية ، وأهمها « ايل » و « بعل » . وقد اقترن اسم الاله ايل بكثير من الأسماء المتداولة وقتها ، وما تزال . مثل اسماعيل أى سميع الله ، وميخائيل ، وجبرائيل ... الخ . أما بعل فمعناه سيد . وكذلك كان يوجد من المعبودات « العلى » و« اللات » و« أدونيس » ... الخ .

---

(١) يوجد فندق فى بيروت يحمل اسم « قادموس » . وكان سبب ذهابه الى اليونان أن زيوس كبير أرباب الاغريق اختطف الاميرة « أوروبا » أخت « قادموس » فذهب الى اليونان لاحضارها ، وحمل معه أصول الابجدية . وقام بمغامرات ، وكانت بقرة مقدسة قد اختلطت بمغامراته حتى أنشأ مدينة طيبة الاغريقية . ومن هذه الاسطورة استمد الفنان فتحى محمود خطوط التمثال الذى أصبح شعارا للاسكندرية .

(٢) تسربت الى العقيدة اليهودية طقوس التضحية بدماء الاطفال غير اليهود عندما تنزل بهم الكوارث . وقد وصف كتاب « صراخ البرىء » الذى طبع فى مصر فى أواخر القرن الماضى قضايا حوكم فيها يهود لانهم قاموا بهذه الجريمة . وذلك فى عهد حكم محمد على وغيره .

ويبدو أن ابراهيم لم ينشط في هذه المرحلة للتبشير بدين التوحيد ، وذلك لأن سنوات من الجدب ألمت بأرض فلسطين جعلت الحياة عسيرة .

ومضى ابراهيم الى مصر ، مع زوجه سارة ، فمصر كانت بلد الرخاء ، اذ أوفى النيل وفاض ماؤه .. وكان ذلك في عهد حكم الهكسوس لمصر ، وربما في أوائل عهد الأسرة السادسة عشرة (٢١١١ — ١٥٨٣ ق.م) .

وكانت رحلة ابراهيم الى مصر مغامرة شاقة . اذ كانت زوجة ذات جمال يلفت النظر ، وخشى ابراهيم على نفسه التلف من أعوان حاكم مصر اذا هو أعلن أنها زوجه ، فزعم أنها أخته ، ودعا الله أن ينجيها من الكيد . وكذلك حدث .. فقد عصمها الله من السوء ، ومنع عنها أي عدوان ، بل أهداها الحاكم المصري جارية هي هاجر المصرية .

واذا لم يكن ابراهيم الخليل قد وجد في مصر مجالا لدعوته — وان كان أقام في مصر عشرين سنة كما تروى المصادر اليهودية — ، فحسبه أن عاد بسيدة من المصريات ، ما لبثت زوجه أن أهدتها له ، عسى أن تلد له ولدا يفرح به فؤاده ، بعد أن بلغ من السن ما بلغ .

وعند ما عاد ابراهيم الى فلسطين هذه المرة ، كان مقامه في موقع قريب من الرملة .

وتروي التوراة عن عودة ابراهيم الى فلسطين من مصر :

« وعاد ابرام الى بيت ايل ، حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر ولم تحتمل الأرض ابرام ، ولوطا ، ومن معهما من حاشية وماشية . واستئجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون . فقال ابرام لابن أخيه (لوط) : لا تكن مخاصمة بيني وبينك ، وبين رعاتي ورعاتك . اننا أخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالا ، ذهبت أنا الى اليمين . وان ذهبت يمينا ، ذهبت أنا الى الشمال . ونظر لوط فرأى أمامه أرضا مخصبة كأرض مصر ، فاختار دائرة الاردن وارتحل شرقا ، ونقل

خيامه الى سدوم ،وأهلها جد أشرار .. وبقى ابرام فى كنعان .. ونقل ابرام خيامه ، وأقام عند حبرون (الخليل) وبنى فيها مذبحا للرب » .

ولا ينسى كتاب التوراة ان يضيفوا أمنيتهم القديمة منسوبة الى الرب (طبعا !!) الذى قال لابراهيم فيما دونوه : « ارفع عينيك ، وانظر فى الموضع الذى أنت فيه ، من مشرقه الى مغربه من شماله الى جنوبه . فاننى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك . واجعل لك نسلا كتراب الأرض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصى ترابها ، فاضرب فى الأرض طولا وعرضا كما تشاء » .

ان هذه الأمنية اليهودية ، التى أضيفت الى احداث التوراة ، نراها تتكرر ، وتزداد اتساعا بعد ذلك فيما سيمر من أحداث حتى تشمل ما بين النيل والفرات . ويكتشف المحدثون من اليهود أن هـــذا ليس كافيا ، فيضيفون شبه الجزيرة العربية كلها ، ويعدون الخرائط تشمل الشرق الأوسط كله جنوب جبال طوروس حتى المحيط الهندى .. ولا نستبعد طبعة مقبلة من التوراة يعدلون فيها نطاق المطالب حتى تطابق التوراة الخرائط !

ولم تكن قبيلة ابراهيم فى ذلك الوقت أكثر من ٣١٨ رجلا قادرا على القتال من أقاربه وعبيده .

وشكا ابراهيم الى ربه أنه لا يوجد من نسله من يرثه .. فتنبأ له الرب بما سيحدث .. تنبأ له بذهاب قبيلته الى مصر ، واقامتها ٤٠٠ سنة ، وخروجها على المصريين . ولم تنس النبوءة فيما دونه التوراتيون معاهدة بين الرب وابراهيم تقول : « وفى ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقه قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات .. »

واستجاب الرب لشكاة ابراهيم فولد له من هاجر الجارية المصرية ابن هو اسماعيل ، وكانت سنه ٨٦ سنة (ليس شابا كما ذهب كتاب الأنس الخليل) . وبعد ولادة اسماعيل غير الرب اسم ابرام الى ابراهيم .. كما

غير الرب اسم زوجته العراقية من ساراى الى سارة ، ووعده بأن يرزق منها بابن ، وهى فى سن التسعين ، ويكون ابراهيم قد بلغ المائة عام من عمره.. وقد ولد له ابنه الثانى اسحاق ، وكان ابنه الأول اسماعيل قد بلغ الرابعة عشرة من عمره ..

وهنا تأتى قصة الغيرة التى دبت فى قلب الشيخة سارة ، اذ طالبت ابراهيم بأن يقصى هاجر وابنها اسماعيل بعيدا .. فكانت الرحلة المشهورة الى الحجاز ، وهى الرحلة التى تنكرها التوراة ، اذ لم تشر اليها مطلقا ، ووقفت بها عند بئر سبع فقط . وكان ابراهيم قد أعطى هاجر المصرية زادا وماء ودفع بها الى الصحراء فمضت الى هذا الموقع . وكان ابراهيم قد حفره ، ودفع سبع نعاج لشيخ المنطقة شهادة على أن البئر ملكه ، ولهـذا اسمى الموقع (بئر سبع) أى سبع نعاج .

وقد ماتت سارة فيما تروى التوراة وهى بنت ١٢٧ سنة فى مدينة حبرون ، أو الخليل ، من أرض كنعان ، واشترى ابراهيم لها قطعة أرض دفع ثمنها ٤٠٠ مثقال من الفضة ، ودفنها فيها .

وهكذا نرى أن ابراهيم ــ بشهادة التوراة المتداولة نفسها ــ لم يكن يملك فى فلسطين حتى قطعة أرض فيها مغارة يدفن فيها زوجه أو تكون له مدفنا بعد وفاته . كان كل مايملكه ابراهيم خيمة أو خياما له ولأسرته وقطيع الماشية ، على نحو ما تفعل القبائل الرحل .. وعلى الرغم من ان اقامته فى هذه المرحلة بالقرب من مدن عامرة مثل سدوم وعمورية اللتين دمرتا ، وزلزل زلزالهما .. أو بالقرب من الخليل أو الرملة أونابلس (شكيم قديما) ولكنه لم يفكر فى أن يكون صاحب مزرعة ، أو يستقر به القرار فى مكان بعينه .. ومع ذلك فقد أجرى اليهود على لسانه وعلى لسان الرب تملك الأرض ، أرض فلسطين كلها .. ثم أرض الشرق الأوسط كله !! وابراهيم برىء من كل ذلك ..

لقد كانت عناية مؤلفى التوراة بالتملك والسيطرة بالغة التأثير على تفكيرهم ، حتى أنهم نسوا مهمة ابراهيم الأولى ، وهي الدعوة للتوحيد ونبذ عبادة الأصنام ، وهى أصل وجوده ، وأساس رسالته ، ومن أجلها فر من العراق وقدم الى فلسطين (١) .. لا شيء من هذا مطلقا . فما يعنى التوراة ما تطلبه السماء من نبيها ابراهيم ، ولكن يعنيها ويعنى قومها ما يطمعون فيه من أرض الكنعانيين والمدينيين واليبوسيين والفلسطينيين وغيرهم من سكان هذه الأرض التى هاجر اليها ابراهيم ولم يتخذ له فيها دارا غير بعض خيام ، وأمتار فى مغارة يأوى اليها جسده وجسد زوجه بعد الممات !

ولم تكن ساره ، ثم هاجر ، هما كل زوجات ابراهيم . فقد تزوج من سيدة كنعانية ، اسمها « قطورة » انجبت له ستة أولاد . فيكون جملة من أنجبه من البنين ثمانية .. وقد كون كل منهم أسرة ، وأنجب أولادا وأحفادا اختلطوا بسكان فلسطين مع نمو اعدادهم .. ولكن التوراة لا تعترف بأحد من نسل ابراهيم أنه يحمل رسالة التوحيد ، الا أسرة حفيده يعقوب بن اسحاق . ماذا حدث لاسماعيل وسلالته .. وماذا حدث للأخوة الستة الآخرين ؟ هذا ما سكتت عنه التوراة تماما . وأن كانت قد اضطرت كما سنرى الى أن تعترف بوجود قبيلة كبيرة هى أسرة « عيسو » الأخ الأكبر ليعقوب .

وهكذا انسحب الصمت التوراتى على سلالة اسماعيل فى الحجاز وسلالة غيره من الأسرة الابراهيمية .

وأمر يستوقف النظر فى أعمار هذه الأسرة :

فقد ذكرنا ان اسماعيل أول الأبناء ولد لابراهيم وهو فى سن ٨٦ سنة واسحاق ، وهو فى سن المائة . وولد له الستة الباقون فى خمس وسبعين سنة تالية .

---

(١) أرسل ابراهيم ابن أخيه « لوطا » الى اهل سدوم وعمورية مبشرا فرفضوا دعوته ، وظلوا يرتكبون المنكرات ، فدمر الله المدينتين تدميرا .

اما بقية أعمار السلالة فان « اسحاق » عاش مائة وثمانين سنة ، وعاش « يعقوب » مائة وسبعا وأربعين سنة . وعاش ابنه « لاوى » مائة وسبعا وثلاثين سنة ، وعاش ابنه « قاهات » مائة وسبعا وعشرين سنة ، وعاش « عمران » مائة وستا وثلاثين سنة . وعاش « موسحا » مائة وعشرين سنة. وهكذا يكون ما بين ولادة ابراهيم ووفاة موسى ٥٤٥ سنة .

ويندر ان نجد فى سير الملوك والشخصيات المعاصرة فى مصر أو بابل من طالت أعمارهم ، واستمر نسلهم الى هذه السن الكبيرة ، وقد سجلت سنيهم على الآثار . حتى رمسيس الثانى الذى حكم مصر ٧٦ سنة وأنجب العديد من الذرية من زيجاته الكثيرة ، لم يطل عمره الى هذا المدى ، لأنه تولى الحكم فتى صغيرا ..

الى الحجاز :

أشرنا من قبل الى ميلاد اسماعيل بن ابراهيم من أمه المصرية هاجر ، وكان قد بلغ السادسة عشرة عندما ولد اسحاق بن ابراهيم من أمه العراقية سارة . وبعد أن شب الابن الصغير قليلا عن طفولته ، وجد أبوه لهدوء باله من الغيرة التى ملأت قلب سارة أن يبعد اسماعيل وأمه . وروت التوراة انه أشار لها صوب الصحراء ، وتركها تلقى مصيرها .. اما القرآن فنحا نحوا آخر فى ابعاد هاجر وابنها ، أليق بنبى كان من أعز صفاته كرم النفس والنجدة والمروءة .. حتى ان التوراة نفسها قالت ان الابرار بعد موتهم يذهبون الى صدر ابراهيم ليرحب بهم . فكيف لا يكون برا بأكبر ابنائه وأمه وقد أشاعا فى صدره البهجة والحنان ، وكانا ثلثى مساكنيه فى خيمته ستة عشر عاما ؟ ! .

واتجاه ابراهيم الى الحجاز مع أكبر أولاده ، انما قصد به أن يكون بدوره قبيلة وان ينشىء فرعا مستقلا للأسرة الابراهيمية ، فى مكان لاتنازع عليه بين القبائل الفلسطينية القوية التى كانت تسكنها ، أو تغير على أهلها

ولعل ابراهيم كان فى شك من امكان استقرار أى من ابنائه وأحفاده فى فلسطين نفسها والحروب فيها لا تنقطع .

ووقع اختيار ابراهيم على واد غير ذى زرع حتى لا يكون هنـاك قتال عليه . والأرض المنزرعة لا يمكن أن نحـددها بما نشاهده الآن من عامر وغامر ، أو من منزرع وقاحل . فالساحل المصرى من الاسكندرية حتى برقة الذى تغطيه الرمال الكثيفة ، كان من ألفى سنة فقط من أخصب مزارع مصر وأكثرها نماء . وروى المقريزى ان زراعات القمح فيه ، كانت تفسر آية السنابل ذات المائة حبة من وفرة محصوله ! وفى منطقة الحجاز الشمالية ، وهى أرض مدين ، كانت زراعات العنب تغطى مساحة كبيرة ، وتجدها الآن صحراء أكثر مواتا من الموت نفسه .

وقد تعددت الروايات عن عمر اسماعيل عندما قدم مع ابيه ابراهيم ، وأمه هاجر الى الحجاز ..

روى البخارى أن اسماعيل كان طفلا رضيعا حين وفد به أبواه الى مكة . وان زمزم حفرتها الملائكة ، بعد ان كادت الأم وابنها يهلكان عطشا .

أما المؤرخ أبو الفداء فذكر أن سارة طلبت نفى اسماعيل وأمه بعد ان انجبت اسحاق ، أى بعـد بستة عشر عاما ، وذلك حتى لا يرث ابن « الامة » إى الجارية مع ابنها .

وشعائر الحج التى توارثتها الأجيال قبل الاسـلام وبعده ترجح الرواية الاولى . وهناك خلاف يسير فى قصة الفداء ، وهل كان اسماعيل أم اسحاق هو الذى أمر الله ابراهيم بذبحه ؟ لقد حاول اليهود أن يجعلوا الابن الذى كان بطل القصة هـو اسحاق ، وتسربت هذه الرواية الى بعض المصادر الاسلامية . ولكن حفاوة الاسلام كله باسماعيل وثبوت قصة الفداء ، وكونها من شعائر الحج الاسلامية ، تبعد نهائيا ما درج اليهود على ذكره من ان الذبيح هو جدهم ، وذلك امعانا منهم فى طمس سيرة اسماعيل ، وتجاهل وجوده ، وتجاهل دوره فى بناء عقيدة التوحيد .

ان المؤامرة على اخفاء انباء اسماعيل فى التوراة ، الا ما ندر منها ، تحاول أن تقول ان ميراث عقيدة التوحيد انما ألقى على اسحاق ، ومن بعده يعقوب . واين اذن ذهب اسماعيل ، وهو أكبر البنين ؟ .. وأين أيضا ذهب الابناء الستة لابراهيم ، من زوج ثالثة ذكرنا انه اقترن منها بعد وفاة هاجر فى الحجاز وسارة فى فلسطين ؟ ..

لقد توزعت فكرة التوحيد بين فلسطين والحجاز توزيعا الهيا حكيما وما أن صادفها ما عاق ثباتها ونموها على يد السلالة الاسرائيلية — كما سنرى فيما بعد — حتى وجدت الصيانة والبقاء فى الحجاز .. ولعل بناء الكعبة بوحى من الله سبحانه وتعالى ، واشتراك اسماعيل مع أبيه ابراهيم فى اقامتها كان الدليل الباقى ، والاشارة التى لا تخطىء على ان فى هـذا المكان سر الاله الأعظم ، وهو وحدانيته (١) .

ومن عجب ان المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس يقول ان اسماعيل تزوج من أم مصرية ، مثل أمه ، فولدت له اثنى عشر ولدا فى حين أن المصادر العربية زوجته من قبائل جرهم العربية .

على أى حال ، فقد كرم القرآن الكريم اسماعيل تكريما كبيرا . فقد ورد ذكره فى آيات كثيرة منها : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » .

وجاءت النهاية :

روى كتاب « تاريخ الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » (٢) ان ابراهيم هو أول من هاجر من وطنه فى ذات الله تعالى ، حفظا لايمانه . ولما نزل بالموضع الذى يعرف بوادى السبع ، وهو شاب لا مال له ، فأقام

---

(١) ذكر العقاد فى كتابه عن ابراهيم أن الصابئه يدخلون الكعبة فى عقائدهم ، يحسبونها من البيوت السبعة التى تناظر الكواكب السبعة ، ويقولون أنها بيت أشرفها دارا ، وهو زحل ، وستبقى فى الارض ما بقى زحل فى السماء .

(٢) تأليف قاضى القضاة ابو اليمن مجير الدين الحنبلى .

حتى كثر ماله ، وشاخ وضاق على أهل البلد مواضعهم من كثرة ماله ومواشيه ، فقالوا له : يا شيخ أرحل عنا ، فقد آذيتنا بمالك أيها الشيخ الصالح ، وكانوا يسمونه بذلك . فقال لهم : نعم أرحل عنكم . فلما هم بالرحيل ، قال بعضهم لبعض : انه جاء عندنا وهو فقير ، وقد جمع عندنا هذا المال كله ، فلو قلنا لهأعطنا شطر مالك ، وخذ الشطر (النصف) . فقالوا له ذلك ، فقال لهم : يا قوم صدقتم ، جئتكم وكنت شابا ، واليوم صرت شيخا ، فردوا على شبابى ، وخذوا ما شئتم من مالى !!

وليس هناك ما يؤيد هذه القصة ، فان الشباب فى تقدير أصحاب الأعمار الطويلة يبدأ وينتهى على غير ما نعهد أو نقدر . فصديقى القوقازى الذى يعيش الآن فىالقاهرة متجاوزا الثمانين ، وكان يتلقى منأبيه حتىعهد قريب رسائل تنعته بانه « طفله العزيز » والأب عاش مائة وأربعين سنة !!

المهم فى هذه القصة ، أن ابراهيم الخليل عاش عيشة البدو الرحل ، مع أسرته ، بعد أن أودع فرعا منها فى الحجاز ينمو فى حضن الصحراء ، وذلك لأمر أراده الله ، وهو ان تتجدد رسالة ابراهيم بعد خمسة وعشرين قرنا أو نحوها ، وأن نسمع من مجدد الرسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أنه أقرب الناس شبها بابراهيم الخليل .

فلما اقتربت النهاية .. نهاية رحلة ابراهيم فى هذه الحياة ، ولم يكن يملك أرضا .. أية أرض .. اختار فى موقع « حبرون » مغارة يودع فيها جثمان أول زوجاته ، سارة . وكان ملك هذه المنطقة رجلا خيرا ، اسمه « عفرون » فأباح لابراهيم أن يتخذ المغارة مدفنا لأسرته ، ولكنه أصر على شرائها بالثمن ، وقد اتسعت المغارة لجثمان سارة ، والخليل من بعدها ثم ربقة زوجة ابنه اسحاق ، ثم اسحاق نفسه ثم يعقوب حفيده الذىاسمى اسرائيل فيما بعد ، وكذلك زوجه . وقد ميزت القبور بعلامات تدل على أسماء أصحابها ، واقفلت المغارة ، قرونا طويلة ، حتى جاء الرومان بعد أن اعتنقوا المسيحية ، وأقاموا كنيسة ، ما لبثت أن زالت ، وحل مسجد

بالقرب من مغارة الخليل .. وقد وجد نقش كتبه اليونانيون القدماء على المغارة يؤكد انها لابراهيم وأسرته . وقد ورد عن بعض زوار هذا المكان أن مدفن الخليل فى منخفض من المغارة ينزل اليه بعدد من السلالم .

وقد حث الاسلام على الاحتفاء بالخليل ابراهيم ، وكان نبى الاسلام أكثر الناس تأثرا بابراهيم وظل يتعبد على دينه حتى جاءته النبوة . وورد فى الحديث عن أنس بن مالك أن رجلا جاء الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم وقال له : يا خير الناس . فرد عليه : ذلك ابراهيم عليه السلام . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من لم يمكنه زيارتى (فى المدينة المنورة) فليزر قبر أبى ابراهيم الخليل عليه السلام » .

ولا تقف حفاوة المسلمين عند ابراهيم الخليل ، فان زيارة قبر اسحاق وابنه يعقوب (وهو الذى سمى اسرائيل) من تمام الزيارة لمسجد ابراهيم ، ويقول الزائر من المسلمين: السلام عليكم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة . وفى الصلوات الخمس كل يوم يتلو المسلمون « التحيات » ويوجهون دعاء خاصا الى ابراهيم وآل ابراهيم . وذلك ايمانا من المسلمين واعتقادا بأن دعوة الاسلام احتوت الرسالات السابقة كلها ، فهى لا تحمل الا كل الخير للسابقين عنها بدعوة التوحيد ، ولا تعرف التعصب ، فكل رسل الله مقدسون .

ومن أجمل التقاليد التى توارثتها أجيال حول قبر ابراهيم ومسجده التذكير الدائم ، بانه كان من أكثر الناس كرما . وقد خصص المسلمون أوقافا ينفق من دخلها على اطعام الزائرين .. وفى عصر السلطان المصرى الناصر محمد ابن قلاوون كانت تدق الطبول بعد صلاة كل عصر دعوة للناس الى المائدة الابراهيمية .. يروى كتاب الانس الجليل عن هذه المائدة ، وقد اسماها « السماط » : « وهذا السماط من عجائب الدنيا يأكل منه أهل البلد ، والواردون ، وهو خبز يعمل فى كل يوم ، ويفرق فى ثلاثة أوقات : بكرة النهار وبعد الظهر لاهل المدينة وبعد العصر ، تفرقة عامة . ومقدار ما يعمل فيه من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف أو أكثر اذا زاد الزائرون .

ولا يمنع من السماط أحد من الاغنياء ولا من الفقراء . واما السبب فى دق الطبول كل يوم ، فسببه ان سيدنا ابراهيم لما كانت تأتيه الضيوف ويصنع لهم ما يأكلون ، ويكونون جماعة متفرقين فى المنازل التى أنزلهم فيها ، فاذا أعد طعامهم دق الطبل يستدعيهم ، فصارت سنة بعده . ولاعداد الطعام بنيت ثلاثة أفران كبيرة ، وأعدت مخازن للقمح والشعير والوقود يؤخذ منها طول العام ، وزود بالطواحين لاعداد الدقيق .. »

وهكذا دخل الخليل ابراهيم فى عقائد المسلمين منذ بدأ نبى الاسلام على دينه الحنيف ، واستمر ذلك طوال أربعة عشر قرنا ..

وعندما تقول الآن القدس ، وقبة الصخرة ، ومسجدها الأقصى فاننا أيضا نقول مدينة الخليل .

ولعل خير ما نذكر به القراء لهذه الدراسة ، أن ابراهيم لا يقف فى عقائد المسلمين عند محرابه وقراره فى فلسطين ، ولكنه كما ذكرنا أودع قطعة منه ، هى أكبر أبنائه فى الحجاز ليمتد الخط الروحى بين المكانين .. وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة البقرة :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم . ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين. اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابني ان الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

الفصل الثانى

مصر، منها، واليها

عرضنا من قبل للصرح الحضارى الذى أقامته حياة الاستقرار ، فى حوض الرافدين : دجلة والفرات . وجاء الآن دور الحضارة التى نشأت على ضفتى النيل ، وسنرى هل اصطدمت بعقيدة التوحيد كما حدث فى العراق أم سايرتها ، وأخذت منها وأعطت .

لم تكن مسيرة الاستقرار فى مصر متعرضة لما تعرضت له الحياة فى العراق ، من قيام دولة آشور فى الشمال ، ودولة بابل فى الجنوب ، والى الشرق قيام دولة فارس والى الشمال الغربى دولة الحيثيين ، وكانت احداها تبلغ من القوة الى الحد الذى تغير فيه على جيرانها ، فتدك معالم العمران فيها .. ولعل معركة وحيدة حدثت فى مصر ، هى التى وحدت الدلتا مع الصعيد فى عصر مينا ، وبهذا أصبحت بلاد النيل كتلة واحدة فى الداخل ، وان كانت قاعدة الحكم قد تنقلت فى أماكن كثيرة على مر الزمن الطويل من الدلتا الى منف الى مراكز أخرى فى الصعيد أدناه وأعلاه .

ولا مجال هنا للتحدث عن معالم الحضارة المصرية القديمة ، فهى باقية الى الآن تتحدى الزمن ، وذلك لأن قدماء أهل النيل رزقوا مع ماء النهر الخالد ، أحجارا على الشاطئين ، لم ترزق العراق بمثلها ، والبناء بالحجر ، والنقش عليه صان الكثير من صور الماضى ..

وحديثنا الآن عن الميراث الروحى والفكرى للمصريين ، والبحث عن تأثير هذا الميراث وتأثره بدعوة التوحيد ، التى ظهرت أول ما ظهرت على نهر الفرات ، ثم تحركت فرارا ، الى فلسطين والحجاز ، مع سيدنا ابراهيم ، ووصل بها الى مصر ، وقيل ان مقامه فيها كان عشرين عاما ..

والرأى الأرجح أن ابراهيم وفد الى مصر فى عهد الهكسوس ، وهناك خلاف كبير بين المؤرخين حول أصل الهكسوس ، ومدة حكمهم لأجزاء من مصر .

واذا أخذنا برأى « برستد » شيخ مؤرخى المصريات ، فان هجوم الهكسوس على مصر كان سنة ١٦٧٥ قبل الميلاد ، وقد نجحوا فى غارتهم لأن وباء كان قد حل بالبـــلاد ، وضعف حكمها ضعفا خطيرا ، كما أن الهكسوس قدموا الى مصر بقوة منظمة ، تستعمل العجلات الحربية لأول مرة فى تاريخ هذه الحروب القديمة . واتخذوا من مدينة فى شرق الدلتا عاصمة لهم لتكون أقرب الى موطنهم الآسيوى الذى قدموا منه . واسم هذه العاصمة الهكسوسية هوارس أو هوارة .

وقد وصف المصريون هؤلاء الغزاة بأنهم رعاة ، وسجلوا عنهم فى آثارهم ما عبر عن حقيقة رأيهم فيهم فقد نقل « برستد » أحد النقوش المصرية القديمة عن هذه الفترة وقد جاء فيه : « وأصبح القطر المصرى فى أيدى قوم قذرين غاصبين ، وتعذر على المصريين أن يملكوا على أنفسهم أحدا منهم .. »

أما أقدم المؤرخين المصريين « مانيتون » ، فقد قال عن الهكسوس : « .. أتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وضيعون ، فاجأوا أهله بالاغارة عليهم ، واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة ، لأن أهل مصر وقتها كانوا فى ثورة وهياج ... وكان ملك الهكسوس يخشى على حكمه من الآشوريين الذين كانوا أقوى الأمم وقتئذ ، فخاف أن يتطلع هؤلاء القوم الى مصر ، ويضموها الى أملاكهم ، ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون فى الجهات التى ينتظر الاغارة منها .. » (١)

وهناك مؤرخ مصرى معاصر هو الدكتور باهور لبيب ، أعد رسالة للدكتوراه أثبت فيها أن الهكسوس هم اليهود العبرانيون . وعلى الرغم

---

(١) تاريخ مصر لبرستد ص ١٤٠ .

من عنائه فى الدراسة وجمع الحجج ، الا أن نظريته لا تثبت لأى نقد . فلو أن اليهود هم الذين حكموا مصر قرابة قرن ونصف قرن حسب رأيه ، أو فترة أقل حسب رأى المؤرخين الكبار ؛ لما غفلت توراتهم عن هذه الواقعة ، اذ الثابت أن الهكسوس قدموا غزاة ، وخرجوا بعد معارك طاحنة بينهم وبين المصريين . فمن أين لهم ـ ان كانوا هم اليهود ـ هذه القوة العسكرية الضخمة التى مكنتهم من السيطرة على الدلتا ، وعلى الصعيد حتى القوصية . وقد ذكر مانيتون أن حاميتهم حول عاصمتهم ، التى تأهبوا بها لمنازلة الآشوريين قاربت ربع مليون جندى .. ثم من أين لنا هذا الخيال الذى يتسع لقبيلة ابراهيم كى تنجب ، وتتناسل بهذه الكثرة الهائلة ليتكون منها جيش غزو يفاجىء مصر ، ويستولى عليها ، الا أن يكون ذلك تم فى ألفى سنة أو تزيد !

وقد هاجم الدكتور أحمد بدوى فى كتابه « فى موكب الشمس » ، فكرة أن الهكسوس هم اليهود هجوما عنيفا ، ومرجعها الأول الى ما ذكره يوسيفوس ، اليهودى . قال الدكتور بدوى : « والعجيب أن يوسف اليهودى الذى عاش قبل ثمانية عشر قرنا ، لم يكن يختلف كثيرا عن أبناء جلدته فى مختلف العصور ، فهو قد تجرأ ونقل ، ولم يرع الأمانة فيما نقل، فحرفه لحاجة فى نفسه ، فكذب على المؤرخ المصرى « مانتون » ، وكذب على التاريخ ، وكذب على الدنيا كلها ، حين زعم أن « مانتون » كان يقرر أن اليهود هم الذين هاجموا مصر ، فدخلوها دون حرب ، وأخضعوا أمراءها ، وحرقوا مدائنها .. الخ » .

ومن رأى الدكتور بدوى ان حكم الهكسوس فى أجـزاء من مصر استمر قرنا ونصف قرن .

حقيقة ، ما يزال أصل الهكسوس مجهولا ، ولكن أصل اليهود لم يكن فى وقت ما مجهولا ولا مسيرتهم التاريخية اكتنفها غموض كثير . وعلى أى حال ، فان ابراهيم الخليل قدم الى مصر والهكسوس يحكمونها ، وحاكم

منهم هو الذى دارت بينه وبين سارة القصة المعروفة ، التى انتهت بامتناعه عنها ، فقد عجز عن الاقتراب منها .

واذا كانت مصر فى عهد هذا الاحتلال ، بلدا تسوده الفوضى فى جهاز الحكم ، فان حكمة المصريين ، وتراثهم الحضارى ابتداء من عهد الأسر الحاكمة حتى الأسرة الثانية عشرة ظل محفوظا ، ومحفورا ومصونا فى المعابد ، ولدى كهنتها ومدارس الفكر والفن المختلفة فيها .

ومن المؤكد أن ابراهيم الخليل اطلع على كثير من مظاهر هذا التقدم الحضارى خلال اقامته فى أرض النيل ، وهو تقدم ينافس بحق ما وصلت اليه بابل التى غادرها الى غير عودة ، وآشور فى شمالها .

بتاح حتب .. وميراث الدولة القديمة :

على الرغم من مضى أكثر من عشرة قرون على عصر ابراهيم الخليل ، ونشأة الحضارة المصرية التى خلفت الاهرام بعظمة تكوينها وأبا الهول .. الا أن الميراث الفكرى الذى اعتنقته الأجيال المصرية عبر القرون ، لم يكن يقل جلالا بل لعله يزيد فى قوة التأثير ، وتأكيد الوجود المصرى واستمراره لأنه يوجه الضمير ويحدد قواعد السلوك .

ولعل أهم ما حـــدد مسيرة السلوك فى تلك الحقبة القديمة ، هـــو ما يحدث للانسان بعد الحياة .. ان اهتداء أبناء النيل الى فكرة البعث كان لها أقوى دور فى صياغة وتكوين حياتهم اليومية . ان الاحساس والايمان بأن هناك حياة ثانية فيها حساب ، وفيها ثواب وعقاب تجعله يلتزم بقواعد معينة . فى معاملاته . والتسليم بأنه عند الحساب يستطيع أى انسان أن يقدم شكواه ، وأن يحصل على العدالة ، تجعل للعدالة قيمتها الكبرى ، وتجعل الحق فى ذاته مرموقا .

ولا نكاد نتصور أن يكون الايمان بالبعث والحياة الثانية متسيطرا على العقيدة الدينية ، ولا يهتدى المؤمنون به الى وحدة الاله . لقد بدأ الأثريون المحدثون يشكون فى فهم الجيل السابق عليهم من العلماء لما تدل

عليه أسماء الآلهة المتعددة فى المعابد ، وهل هى رمز لصفات اله واحد ، تأخذ أشكالا ، وصورا ، حسب أسلوب التعبير الكتابى والفنى عندهم . اننا عندما نصف الاله بأنه عادل ، أو رحيم ، أو سميع ، أو منتقم ، فاننا نعدد نواحى القدرة الالهية ، وان كنا لا نحصيها . ولقد عبدوا فى ذات الاله عدله ، ورحمته ، وقدرته ، ومثلوها فى التماثيل وسجلوا رموزها فى معابدهم ، وهكذا كان التجسيد للقدرات الالهية قائما وموجودا ،دون التجريد الذى كان يحس به ابراهيم الخليل وهو يهتدى الى سر الكون الأعظم .

ولقد تكررت كلمة العدالة فى الكثير من النصوص القديمة ، وعبر عنها بكلمة « ماعت » فيقولون مثلا : الملك يخرج فى يومه هذا ، ليتمكن من احضار العدالة « ماعت » معه .

ولعل « بتاح حتب » الوزير الأول لأحـد ملوك الأسرة الخامسة المصرية ، نال شهرة ، فاقت شهرة أعظم الغزاة ، لأنه صاغ قواعد للسلوك والتعامل ، ظلت متوارثة ، ومسجلة أحقابا طويلة . وتبذل الآن مجهودات كبيرة للكشف عن مقبرة هذا المفكر الواعى ، الذى فاز باحترام الدنيـا بأسرها فى عصره وبعد عصره .

وسبب تدوين هذه الحكم ، أن الوزير « بتاح حتب « الذى عاش مائة من السنين وعشرا ، طلب من الملك بعد أن أدركه الهرم أن يدرب ابنه على عمله ، وكتب له وصايا يسير على هديها .

قال « بتاح حتب » فى وصاياه لابنه :

• لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك . شاور الجاهل والعاقل ، فلا حد للعلم يقف عنده الانسان . وليس هناك عالم بلغ حد الكمال . والكلمة الطيبة نادرة مثل الحجر الأخضر الكريم . ولكنك قد تجد هذا الحجر الكريم عند الجوارى اللائى يعملن فى ادارة رحى الطاحون .

- أحسن صفات الانسان أن يكون مستمعا ، حتى يفوز بحب الاله . أما الذى لا يحسن الاصغاء ، فانه مبغوض من الله . وقلبك هو الذى يهديك لكى تسمع لغيرك أو تنصرف عنه . ان أعظم ثروات الانسان عقله . وما أفضل الابن عندما يستمع لأبيه . فاذا وعى ما يلقى عليه لن يضل أو يخيب ، فاذا كنت أنت المتحدث ، فاعط سامعك خير ماتعلم .
- كن حيبا فى مخاطبة الناس ، ولا سيما من هم أكبر منك . ولا تكن ثرثارا ولا متكبرا .
- اذا كان رئيسك من أصل وضيع ، فاحترمه ، لما أصبح فيه ، لأنه لم يصل الى مركزه عفوا . واذا تحدث جاهل أمامك ببعض الحماقات فى ساعة غضب ، فلا تنقلها عنه . وأعلم أن فن الكلام أصعب من أى فن آخر .. فاذا تحدثت فأوجز ، وكن ثابت الجنان طوال كلامك .
- اذا عظم قدرك بعد أن كنت صغيرا ، واذا صرت صاحب ثروة بعد أن كنت فقيرا ، فتذكر دائما ماضيك ، ولا تنس أنك ارتفعت واغتنيت بفضل الاله .
- احذر ما قد يأتى به المستقبل . وكن سخيا على أصدقائك مخلصا فى ودهم ، فما من أحد يعرف مصيره اذا فكر فى الغد . واذا حدث لك ما تكره فان هؤلاء الأصدقاء هم الذين يقولون فى وقت شدتك : مرحبـا .
- لكى تميز حقيقة من تصادق ، فاقترب منه ، وتعامل معه ، وامتحن قلبه بالمحادثة . فاذا أفشى سرا لك ، أو أتى أمرا يجعلك تخجل منه ، فاحذر منه ، ولا تتجاوب معه .
- اذا كنت رجلا ناجحا ، فأسس لنفسك بيتا . واتخذ لك زوجة تكون سيدة فؤادك . وأحبها كل الحب ، ووفر لها طعامها وكساءها . وقدم لها العطور والدهون . واجعل قلبها فرحا مادمت حيا ، فهى الحقل المثمر لزوجها .

- اذا رزقت ولدا ، اكتسبت رضا الاله . فاذا عمل صالحا وتخلق بخلقك وسمع نصائحك ، وازدهر بيتك بوجوده فلا تضن عليه بشيء لأنه قطعة منك .. ولكن اذا جنح ابنك الى السوء ، فابعده لأنه يكون عملا غير صالح .
- اذا كنت شريكا مع أسرتك فى ثروة ، فلا تكونن شرها فى القسمة ، وانبذ الطمع حتى فى حقك ، ولا تطمع فى مال أقاربك .. والكلمة الطيبة تجدى أكثر من القوة . والقليل الذى يؤخذ بالخديعة يولد العداوة .
- من كمال الأخلاق أن تحرر نفسك من الرذائل . واعلم أن الطمع مرض عضال لا يرجى شفاؤه ، ولا تعيش معه الصداقة ، اذ تتحول حلاوتها الى مر وعلقم . ان الطمع يبعد من كان محل ثقة عن سيده ، ويجعل كلا الأبوين وكأنهما غرباء ، ويمزق شمل الأخوة والأزواج .. الطمع يا بنى حزمة تجمع الشرور كلها . والطماع لا قبر له ، فانه يضيع دنياه وآخرته .
- اذا أردت أن تحافظ على الود فى بيت تدخله ، سواء كنت سيدا ، أم أخا ، أم صاحبا ، فلا تخالط نساء هذا البيت .. ان ألف رجل يهلكون بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم . ولا يجنى الانسان من مخالطة النساء غير الهلاك .
- كن بشوش الوجه مبتسما ، ما دمت حيا .. ولا تبك على ما ضاع منك ، فما أعاد البكاء ما أريق من الاناء .
- عند ما يواتيك الثراء ، فتمتع به .. فما أفاد الثراء أحدا لا يتمتع به ، ويصبح صاحبه ويمسى معذبا بثروته .
- اذا كنت حاكما ، فكن رحيما حين تسمع كلام المظلوم ، ودعه يفضى بكل ما فى صدره .. وأنها لفضيلة يزدان بها القلب أن تستمع مشفقا عطوفا الى شكاة مظلوم .

• الحق جميل ؛ وقيمته خالدة . واذا كنت حاكما وأردت أن تصدر للناس أمرا ، فابحث عن كل سابقة حسنة وسر على أثرها ، تبقى لأوامرك قيمتها .

• كلمة الحق ؛ لن تمحى من أفواه الناس ، وتبقى على الأرض الى الابد . والرجل العاقل يعرف بعمله ، وقلبه ميزان للسانه اذا نطق ، وشفتاه تنطقان بالحق اذا تكلم ، والعدالة نبراسه فى كل ما يقضى به ..

تعليق برستد : .

تبلغ قائمة النصائح والحكم التى وجهها « بتاح حتب » الى ابنه ٤٣ نصيحة يتناول نصفها تقريبا سلوك الانسان مع الجماعة ، والباقى يتناول سلوكه فى عمله أو مع نفسه .. حتى آداب المائدة كان لها نصيب عند ما يقول لابنه اذا ما دعى الى تناول الطعام مع رئيس : « خذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك دون أن تنظر الى ما وضع أمام صاحب الدعوة ، واذا نظرت اليه فلتكن نظرتك عابرة ، وتكلم حين يرحب بك ، واضحك حينما يضحك .. » .

ويقول برستد ان عصر بناة الأهرام فى مصر كان مليئا بالرجال العظماء من الساسة والحكماء والفنانين والمهندسين والمعماريين ، وهم الذين جعلوا من مصر منذ خمسة آلاف سنة مضت بلدا يضم عجائب المبانى . وظهور هؤلاء الرجال ذوى الشخصيات العظيمة لم يكن وليد الساعة ، بل كان ثمرة التجارب ، والحياة المستقرة مدى ألف سنة سابقة عليهم من تاريخ البشر . فكانوا أول رجال أمكنهم الرجوع بالبصر ليجيلوا أنظارهم فى ذلك الماضى حيث يشرفون على مشهد عميق من حياة الانسان الأولى . ولا بد أنهم كانوا أثناء قيامهم بذلك يتلمسون فى الظلام أحسن تعبير يعبرون به عن آرائهم نحو نظام البشر .. وقد انتهى بهم الأمر ، فعثروا على أمنيتهم فى التعبير بكلمة واحدة جامعة حوت فى ثناياها كل معانى السمو والرفعة فى الحياة البشرية . تلك الكلمة هى « ماعت » التى تعد

من أقدم التعابير المعنوية ذات المعانى المتعددة التى وصلت الينا من كلام بنى الانسان منذ الأزمان الغابرة . وهذه المعانى هى : «الحق» و«العدل» و « الصدق » . وظل مضمون « ماعت » يتسع تدريجيا حتى صار يشمل معنى واسعا عظيما ، فلم تكن تعنى نقيض الباطل فقط ، بل تعنى نقيض الأخطاء الخلقية على وجه عام أيضا ... وهكذا شملت نظاما خلقيا متكاملا للأمة وللفرد .

والى هذه الفضائل الممثلة فى سيادة « ماعت » وخلودها يقول حكيمنا « بتاح حتب » : ان « ماعت » عظيمة ، وتصرفها باق ، فلم تخذل منذ خلقها الله .

وفى عالم التجسيد القديم ، تصوروا « ماعت » فى هيئة الهة أنثى ، وجعلوها بنت الشمس .

ويمضى برستد فى تحليله يقول : لم يكن من باب المصادفة أن كان ثانى الشعوب اهتداء الى عقيدة التوحيد المذكورة ، أقرب جيران مصر عبر حدود آسيا ، فى فلسطين . وعند ما نقرأ فى التوراة قولها : « اليكم يا من تخافون اسمى ، ستشرق شمس العدالة تحمل الشفاء على جناحيها » . فان هذا التعبير فيه اشارة واضحة الى اله الشمس المصرى القديم الذى يرسم عادة بصورة قرص الشمس المجنح .

وهكذا نعود الى ما بدأنا به ، وهو أن الايمان بالبعث ، لا بد وأن يؤدى الى التوحيد ، وأن يكن عقيدة غير مجردة ، ويشوبها التوسل بكثير من الوسطاء والأولياء ، اذا صح أن نطلق هذا التبسيط على الحياة الروحية لقدماء المصريين . ولعل أرقى ما تؤدى اليه عقيدة البعث والحساب ، هو محاولة التزام العدل . فان فرعون نفسه ، كان يمثل أمام اله الآخرة (أوزوريس) ، فمنصبه الرفيع لم يكن يعفيه من السؤال ، وكان لا بد له من أن يلتزم جادة العدل والاصلاح ، ويبتعد عن الظلم والافتئات على الحقوق ، حتى تصلح له آخرته ، كما صلحت له دنياه .

وقد سارت المعانى التى صاغها « بتاح حتب » عبر الأجيال ، وصار الناس الى الدولة الوسطى أصحاب حس مرهف ، وذوق أدبى راق فيما خلفوه من كتابات . ففى نقــوش الأسرة الحادية عشرة (حوالى ســنة ٢١٠٠ ق.م) نجد اشادة كبيرة بالعطور ، وثياب الكتان الرقيقة النظيفة ، والموسيقى . ويشير واحد منها الى الحياة الثانية بقوله فى عبارة فلسفية : « اصغ ! لم يأخذ انسان متاعه معه .. ولم يعد انسان ثانيــة ممن رحلوا الى الآخرة » .

وليس معنى قولنا : ان الفضائل التى تدل عليها كلمة « ماعت » سادت. فان الطبيعة البشرية ، تقبل الخير كما تقبل الشر . وكثيرا ما تحدثت النقوش عن شكايات المظلومين ، وأناتهم بأسلوب مؤثر عميق .. فهذا واحد يسأل :

« لمن أتكلم اليوم ، والرجل المهذب يهلك ، والأصــدقاء غير جديرين بالحب ؟ » .

« لمن أتكلم اليوم ؟ والرجل المهذب يهلك ، وصفيق الوجه يروح ويجىء كما يشاء ؟ » .

« لمن أتكلم اليوم ؟ فان البشوش سمح الوجه قد صار بائسا ولا أحد يحفل بالخير والخيرين ؟ » .

ويختم صاحبنا شكاته الطويلة ، بأنه يوجد رجل عادل ، والظلم يعم الأرض كلها ..

ولعل قصة الفلاح الفصيح ، لمحة من أروع لمحات الآداب القديمة . ومؤداها أن فلاحا من احدى قرى الفيوم حمل بعض حاصلات مزرعتــه على قطيع من الحمير ليبيعها فى مدينــة اهناسية عاصمة الدولة فى ذلك الوقت . وفى الطريق اغتصب منه واحد من موظفى الدولة حميره وحاصلاته، بحجة أن حميره التهمت من الحقول بعض زراعاته . وحاول الفلاح أن يقنع ذلك الموظف برد حقه له دون جدوى ، فسار الى حيث يوجد رئيسه الذى يحمل لقب « مدير البيت العظيم » ، ولكن التحقيق السريع أدى الى تغطية

الجريمة بحجج واهية ، وهى أن ما اغتصب كان مقابل ضرائب لم يؤدها الفلاح . ولفت نظر المدير الأسلوب الأدبى الفصيح الذى يعرض به الفلاح شكواه .. كان مما قاله هذا المظلوم :

« لأنك والد اليتيم ، وزوج الأرملة ، وأخ لمن هجره الأهلون ، وستر لمن لا أم له .. دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل .. يا أيها القائد الذى لا يشوب أخلاقه طمع .. يا أيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، هلا أجبت على الصيحة التى ينطق بها فمى ، واذا تكلمت ، فهلا استمعت لى . أقم العدل ، وارفع عنى الضر ، فانى أحمل أثقالا لا أطيقها » .

ولما فى هذه التعبيرات من طرافة ، فقد ذهب « مدير البيت العظيم » الى الملك وأخبره بقصة هذا الفلاح . وقد راق الأمر لفرعون ، فطلب من أحد كتبته أن يدون ما يقول صاحب الشكوى ، وأن يتباطأ المدير فى انصافه ، حتى تتجمع مدونة أدبية فى باب المظالم ، فكانت ثمانى قطع ، أمر فرعون أن تذاع منها نسخ ، وتسجل فى نقوش المعابد .. ومن ذلك قول الفلاح الشاكى :

« يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى . انك تشبه رع اله السماء مع حاشيتك . ان أقوات بنى الانسان منك لأنك كالفيضان . وأنت اله النيل الذى يخلق المزارع الخضر ، ويروى الأرض العطشى . أيها المدير : هلا ضيقت الخناق على اللصوص ، وحميت المظلوم . ولا تكونن كالسيل يكتسح صاحب الشكوى .. احذر ، فان الأبدية تقترب . وخير الناس من تكون أنفاسه هى حركته فى اقامة العدل « ماعت » . ونفذ العقاب فيمن أذنب .. ليس هناك شىء يعادل استقامتك . انك الميزان ، فهل يخطىء الميزان . وهل تميل احدى كفتيه ؟ انك عظيم ، فلا تنطق كذبا . ولا تكن خفيفا ، لأنك ذو وزن . ولا تنطق بالبهتان ، لأنك الموازين نفسها ولا تحيدن عن العدالة لأنك الاستقامة نفسها .. أفهم يا سيدى أنك والميزان سيان ،

فاذا مالت فانك تجور . ولسانك هو المؤشر العمودى للميزان ، وقلبك هو المثقال ، وشفتاك هما ذراعا الميزان » .

وفى شكوى أخرى :

« أيها المدير : اقض على الظلم : وأقم العدل ، وقدم كل ما هو خير ، وامح كل ما هو قبيح . حتى تكون كالشبع الذى يقضى على الجوع ، أو كاللباس الذى يخفى العرى ، أو كالسماء الصافية بعد سكون العاصفة الشديدة ، أو كالنار التى تطهو الطعام ، أو كالماء الذى يطفىء الغلة » .

ولما ضاق صاحب الشكوى ذرعا بصمت المدير ، أخذ يهاجمه بعنف . . قال :

« انك متعلم ، لا لتكون سارقا .. أنت يا من تمثل الاستقامة بين كل الناس قد صرت على رأس البغاة فى كل البلاد . ان البستانى الذى يزرع الشر ، يروى حقله بالظلم وزرعه يثمر البهتان . وبذلك تغمر الضيعة الآثام » .

ولما اشتد به الضيق أخذ صوته يشتعل بالغضب :

« ان أحوالك أيها المدير تخرج الناس من صمتهم الى الكلام ، وتوقظ الراقدين ، وتحول كل ملل واكتئاب الى ثورة . انك تحول الجاهل الى حكيم والغبى الى متعلم مدرك لما يحدث . انك تسرق والسرقة لا تنفع .. ان من أقيموا لمنع الظلم أصبحوا هم الظالمين » ..

وأخيرا بعد أن بلغ اليأس من الفلاح الفيومى مبلغه . عرف أن الملك كتب على شكاته أنها كانت سارة لقلبه أكثر من أى شىء آخر فى كل البلاد . وأنه أمر بعقاب الموظف الذى اغتصب رزق الفلاح ، وأن أملاك هذا الموظف صودرت وسلمت للفلاح كتعويض له على آلامه ، ومكافأة له على اصراره ومثابرته ، وتحذيرا لأى موظف آخر أن يجور على حقوق الأفراد مهما صغرت منزلتهم ..

وهكذا نجد أن العدوان كان موجودا فى حق الأفراد من العاملين فى الدولة . ولكن هنــاك وسائل لرفع الظلم . وليست الحضارة ألا تقع الخطايا ، ولكن سيادة القانون ، أو روح « ماعت » كما كانت تسمى ، هى الأساس الذى يرسى المجتمع عليه قواعده ..

وقد لاحظ « ديورانت » بحق أنه لم يعثر فى المجتمع المصرى القديم على وجود نظام للشرطة « ذلك أن الحياة ، والملكية ، والاطمئنان الى سلطان القانون ، تكاد تعتمد كل الاعتماد على هيبــة الملك . وكانت المدارس والهياكل دعامة هذه الهيبة ، وليس فى العالم كله ، أمة غير مصر (باستثناء الصين) جرؤت على أن تعتمد كل هذا الاعتماد على العوامل النفسية لحفظ الأمن فى البلاد » (1) .

وقد جاء فى مرسوم تعيين الوزير الأول : « ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. انها ليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا . انظر ! اذا جاءك مظلوم من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القــانون مجراه فى كل شىء مع مراعاة العرف السائد فى بلده . واعلم أن المحاباة بغيضة الى الله .. أنظر الى من لا تعرفه نظرتك الى من تعرفه . وانظر الى المقربين من الملك نظرتك الى البعيدين عن بيته . وليكن ما يخــافه الناس من الأمير ، أنه يعدل فى حكمه ، ويرعى القواعد المفروضة عليه » .

وما أكثر ما حبب الى الناس العــلم . فكل عامل فى مصر له رئيس يشرف عليه ، الا العالم ، فانه سيد نفسه « ولا تكون السعادة الا فى توجيه القلب الى الكتب فى النهار والقراءة فى الليل .. واذا أردت نصيحة فخذها ممن هو أعلم منك » .

وكانت مصر القديمة غاصة بالمدارس ، وقد وردت رسالة فى احدى البرديات موجهة من تلميذ الى أستاذه يقول فيها : « لقد ضربت ظهرى ، فوصل تعليمك الى أذنى » .

---

(1) موسوعة قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ١ ص ٩٢ .

يقول مصدرنا السابق : وكان يسمح للطالب فى الفرق الراقية بأن يستعمل الورق ، وهو من أهم السلع فى التجارة المصرية ، ومن أعظم النعم الخالدة التى أنعم بها المصريون على العالم . وحسبنا دليـلا على حسن صنعه ، ان ما كتب عليه من المخطوطات منذ خمسة آلاف سنة ، لا يزال حتى الآن باقيا متماسكا ، سهل القراءة . وكانت الكتب تصنع من الأوراق ، بضمها بعضها الى بعض ، والصاق الطرف الأيمن من واحدة بالطرف الأيسر من التى تليها ، فتكون منه ملفات يبلغ طول الواحد منها أحيانا نحوا من أربعين ياردة . وكانوا يصنعون حبرا أسود لا يتلاشى ، أما القلم فكان قطعة بسيطة من الغاب يعالج طرفها ليكون كقلم الرسام .

وهناك أدب الرحلات الذى خلفه قدماء المصريين ، مثل قصة سنوحى الذى فر من الملك ، وتنقل فى بلدان كثيرة وصفها ، ثم أدركه الحنين الى الوطن فسجل كل ذلك فى برديات باقية . ورحالة آخر ، وصف سـفينة مصرية قال : نزلت البحر فى سفينة طولها ١٨٠ قدما وعرضـها ٦٠ قدما وفيها ١٢٠ من صفوة البحارة المصريين ، وهم خبيرون بمعالم الأرض ، ومعالم السماء ، وقلوبهم أشد بأسا من قلوب الآساد ، يتنبأون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور .. ووصف هذا الرحالة كارثة تحطيم سفينته ، وكيف آوى الى جزيرة كثيرة الثمر والخيرات ..

واذا كان المصريون القدماء قد برعوا فى فنون العمارة ، ونقلوا مسلات وزن الواحدة منها ألف طن مئات من الأميال ، فان براعتهم الأكبر كانت فى الطب والجراحة . وكانت لهم قاعدة عامة وهى أن الطعام الزائد عن حاجة الجسم هو الذى يسبب المرض .. ولهذا فانا نراهم دائما ممشوقى القوام بغير ترهل . ويقول هيرودوت أن المصريين أصح شعوب العالم أجساما .

وقد سجل الأثرى والعالم الكبير أحمـد بك كمال « علوم وعوائد

وصنائع وأحوال قدماء المصريين » فى كتاب رائع (١) مزود بالرسوم التى يسكن أن تعلم اللغة الهيروغليفية نفسها . وفى الباب الخامس من هـذا الكتاب عرض لعلم الطب المصرى القديم « وكان منهم حكماء للرأس وحكماء للأسنان ، وأطباء للبطن ، وآخرون للأمراض الباطنية ، وأيد ماسبرو وجود أطباء للعيون ... » وكان الطبيب يحاكم ويحكم عليه بالاعدام اذا أخطأ خطأ جسيما فى علاج مريضه .

الابناء والاحفاد :

فى هذا الجو ، بدأت دعوة التوحيد التى تنقلت من العراق الى فلسطين ثم الى مصر ، ثم الى الحجاز ، تلقى بذورها . ولعل سلالة سيدنا ابراهيم ، وجدت أقرب الناس رحما لفهم هذه الدعوة ، أو عدم الانكار لها هم أهل مصر .. انهم على الأقل لن ينصبوا المحارق كما فعلوا فى العراق ..

ولكن هل تكفى دعوة التوحيد وحدها لكى تبنى مجتمعا متفتحا ناميا ؟؟ لكى تستمر هذه الدعوة ، فلا بد من أن تقترن بالايمان بالبعث ، وسنرى فيما بعد رأى السلالة الاسرائيلية فى البعث ، ولا بد من أن تتفرع منها قواعد خلقية تنظم العلاقة بين معتنقيها وغيرهم من الناس ، وسنرى ما فعل اليهود مع غيرهم من الناس ، كما أنها من باب أولى يجب أن تكون قادرة على تنظيم علاقة بين أبناء العقيدة بعضهم وبعض .. وسنرى أيضا ما صنع اليهود فيما بينهم ، بعد أن باعدت الأيام بينهم وبين نبى التوحيد الأول ، سيدنا ابراهيم الخليل ..

أنجب ابراهيم ولده الثانى ، اسحاق ، وهو الذى احتفلت التوراة بسيرته ، ونسبت اليه قصة الفداء كما ذكرنا ، وقالت عنه انه وحيد (٢)

(١) طبع كتاب أحمد بك كمال على الحجر عام ١٨٩١ م ، وقد أكد فى كتابه هـذا ان المصريين القدماء اعتقدوا بوحدانية الله « .... وقد ورد فى آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية الله تعالى وقدرته وأفعاله وصفاته منها : كل شىء خلقه الله العظيم بنفسه .. ومنها خالق الكائنات . ومنها الخالق لكل مخلوق ، الذى لم يخلق . فاطر السماء والارض . الموجود لكل ما يكون . أما ما لم يكن فهو فى مكنون علمه . ومنها الله معبود باسمه الازلى خالق الارواح فى الاشباح . ومنها : تمضى الدهور ، وهو باق دائما .... ومنها لا تدركه الابصار .. ومنها سميع لمن يتضرع اليه . ومنها الواحد الذى لا شريك له (ص ٥٢) .

(٢) سفر التكوين . الاصحاح الثانى والعشرون .

ابراهيم ، وانه يحبه . أما أولاده الآخرون فتقول التوراة انه صرفهم شرقا وهو بعد حي . ولم تتعب التوراة ، ولا كتب اليهود الأخرى بالبحث وراء الأبناء الآخرين لابراهيم ، وحسبهم اسحاق ..

وعندما شب اسحاق ، تزوج ، وأنجب توأمين ، أولهما اسمه عيسو ، وثانيهما اسمه يعقوب ، ومضت السنون باسحاق حتى هرم ، وفقد بصره ، وأراد أن يوصى بزعامة قومه لأكبر التوأمين من أبنائه وهو « عيسو » فطلب منه أن يذهب للصيد وبعد طعام العشاء ، يتلقى بركات أبيه ووصيته . ولكن الأم كانت تميل الى يعقوب من دون أخيه ، فخدعت الأب ، وأعدت العشاء ، وقدمت يعقوب ، وأوعزت له أن يحاكى صوت أخيه ، ويلبس فراء ماعز ، ليماثل ملمسه ملمس الأخ الذى كان كث الشعر ..

جازت الخديعة على الأب ، وأعطى وصيته ، وأتم دعاءه ليعقوب .. فلما حضر الأخ الأول المستحق لهذه الرياسة ، لم يستطع أبوه أن يصنع شيئا . وثارت البغضاء بين الأخوين ، فهرب يعقوب الى أرض بعيدة ، خشية الانتقام الذى كان يبته له أخوه « عيسو » .

وكان منتظرا أن تسجل لنا التوراة غضب الأب على ما حدث .. وأن تحل بيعقوب نقمة الله جزاء ما صنع .. ولكنا نجد بدلا من هذا نصا يقول :

« أنا الرب اله ابراهيم أبيك واله اسحاق ، الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض ، وها أنا معك حيثما تذهب وأردك الى هذه الأرض . لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به » .

وذهب يعقوب الى خئولته وتزوج هناك ، وأنجب ابنا اسماه يهوذا ؟ هو الذى يحمل اليهود اسمه كشعب : كما ولد له أبناء آخرون ، منهم يوسف ..

ودامت هجرة يعقوب سنين عدة . وقرر العودة الى بلد أبيه اسحاق ، واذا زوجه راحيل تسرق أصنام أبيها وتضعها فى متاعها . وقبل أن يصل الى بير سبع . بث رسلا لأخيه عيسو يستأمنه على نفسه وولده وماله ، وأرسل له ألطافا وهدايا ، وخف عيسو للقائه فى جمع من قومه .. ولكن يعقوب خشى أن يمكر به أخوه . ويرد له دينه القديم . وخرج فى الليل ومعه امرأتاه وجاريتاه وأولاده الأحد عشر ، وأخفاهم بعيدا ، واذا بحادث يقع له تقصه التوراة على النحو التالى :

« فبقى يعقوب وحده ، وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ، ضرب حق فخذه ، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعة معه ، وقال : اطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له ما اسمك ؟ .. فقال : يعقوب . فقال : لا يدعى اسمك يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال : أخبرنى باسمك . فقال لماذا تسأل عن اسمى ؟ وباركه هناك » .

وتستفسر أنت عن مصارع الليل ؟ وقد أجابت التوراة على هذا السؤال . وقالت ان الذى صارع يعقوب وآذاه فى فخذه ، وتغلب عليه بعد كفاح دام حتى مطلع الفجر لم يكن الا « الرب » نفسه !!

وأراد رجل أن يتزوج ابنة يعقوب ، ولكنه لم يكن يهوديا ، فرفضوا زواجه ، فأخذها عنوة . فذهب أبناء يعقوب الى محلة هذا الرجل ، وقتلوا جميع من فيها من الرجال ، ونهبوا غنمهم وحميرهم وكل ما وجدوه من ثروات ونساء وأطفال ، على عادة الاغارات القبلية ، وعادوا بأختهم .

* * *

وهنا نتوقف قليلا ، لكى نعرف العصر الذى بدأت فيه الأحداث ، المتصلة بمصر ، وكيف ارتبط تاريخ اليهود القديم بها ..

لا مرجع أمامنا تناول تاريخ الفرع اليعقوبى (أو الاسرائيلى) من

سلالة ابراهيم غير التوراة . وروايات التوراة ، والكتاب نفسه محل جدل كبير سوف نعرض له فيما بعد ..

المهم ان العلماء المحدثين الذين نقبوا فى فلسطين عن الآثار القديمة فى النصف الأول من هذا القرن ، بذلوا مجهودا قيما فى تحديد التواريخ . فقد حدث عام ١٩٢٧ (١) ، زلزال فى فلسطين ، تعرضت له مدينة أريحا وما حولها ، ومناطق أخرى ، وأحدث دمارا كبيرا . وأدى تدمير المبانى وانهيارها الى أن نهر الأردن توقف عن الجريان « ٢٢ » ساعة . وقد أدى هذا الحادث الى ظهور أنقاض مدفونة تحت الأرض ، يرجح كثيرا أنها أنقاض مدينة أريحا القديمة التى هاجمها يشوع بن نون فى خروجه الى فلسطين من برية سينا ، وكان يشوع (خليفة موسى) قد أحرق المدينة ، ولكن بقيت أشياء سليمة مما يستعمله النـــاس . وقد قام الاثريون (٢) بفحص هذه البقايا ، ولا سيما الأدوات الفخارية ، واختبروها بالوسائل العلمية ، ودل ذلك على أن الحريق اليهودى لها حدث على وجه التحديد عام ١٤٠٠ قبل الميلاد .

ومن هذه النقطة ، وهو حريق أريحا فى الحرب اليهودية الأولى ، أمكن الرجوع بالأحداث للوراء ، وتحديد المعالم البارزة فى حركة هذه القبيلة ، التى تناسلت من إبراهيم الخليل ، واستقرت وقتها فى فلسطين ، ثم هاجرت الى مصر كما سنرى ، وهذا غير الفرع الحجازى الذى تناسل من اسماعيل بن ابراهيم .

وعلى هذا الأساس أمكن تدوين التاريخ كما يلى :

---

(١) مات سعد زغلول فى مصر عام ١٩٢٧ ، فاشار حافظ ابراهيم فى رثائه لسعد الى زلزال فلسطين فى ١١ يوليو بقوله :

قل لمن بات فى فلسطين يبكى ... ان زلزالنا أجل مصابا
قد دهيتم فى دوركم ودهينا ... فى نفوس أبين الا احتسابا

(٢) الذى قام بهذا الفحص هو الاستاذ جارستاج مدير مصلحة الاثار الفلسطينية فى عهد الانتداب البريطانى .

قبل الميلاد

عام	٢١٦٠	ولد ابراهيم الخليل فى « أور » بالعراق .
	٢٠٨٥	فر ابراهيم مع أسرته الى فلسطين (أرض كنعان)
	٢٠٧٦	ذهب ابراهيم الى مصر وولد له ابنه اسماعيل ابن هاجر المصرية
	٢٠٦١	حدث زلزال حطم سدوم وعمورية وأهلك أهلها (قوم لوط)
	٢٠٦٠	ولد اسحاق من سارة العراقية
	٢٠٠٠	ولد يعقوب الذى سمى بعد ذلك اسرائيل
	١٨٨٧	حملت قافلة يوسف بن يعقوب الى مصر وباعته هناك
	١٨٧٠	دعا يوسف اباه يعقوب الى مصر مع قبيلته
	١٤٤٠ - ١٨٧٠	فترة بقاء اليهود فى مصر وهى ٤٣٠ سنة
	١٥٢٠	ولد موسى فى مصر .

وهناك اتفاق على أن البطل المصرى أحمس طرد الهكسوس من مصر، وتأسست الأسرة الثامنة عشرة فى عام ١٥٧٢ قبل الميلاد واذن فيكون عصر الهكسوس وبعض ملوك الدولة الوسطى هم الذين قدم فى أيامهم ابراهيم، ثم يوسف ويعقوب ، وذلك حسب امتداد فترة الوجود الهكسوسى فى مصر طولا وقصرا . اذ أن اختلافا كبيرا يوجد فى تقدير هذه الفترة ..

لم يكن يعقوب يملك فى فلسطين أرضا ، حتى وصل فى ترحاله الى مدينة شكيم (نابلس) من أرض كنعان « فابتاع قطعة الحقل التى نصب

فيها خيمته .. بمائة قسيطة » وهى العملة المتداولة ، وأقام هناك مذبحا ودعاه « ايل .. اله اسرائيل » .

وقصـــة يوسف وحســـد أخوته له معروفة . فقد غاروا منه . اذ هو أصغرهم ، ويفوز من أبيه بحب كبير ، فألقوا به فى بئر جافة ، وحملتـــه احدى القوافل الى مصر ، وكان سنه ١٧ عاما فباعوه لقصر فرعون ، حيث تربى وفى خلال ثلاثة عشر عاما تالية ، استطاع أن يظهر الكثير من المواهب التى وصلت به الى مركز الوزارة . ومن منصبه ادار تموين مصر ، بحيث وفر على الناس عناء أيام القحط ، ووفدت أسرته تشترى تموينها ، فعرفها ، واستدعى أباه وباقى أسرته .

اليهود .. فى مصر :

لم تكن مصر مجال نشاط حيوى لليهود ، الا فى الأوقات التى تحل بهم فيها مجاعة من المجاعات .. وقدوم يوسف الى مصر وهو صبى فى السابعة عشرة من عمره ، كان الطريق الذى فتح الباب أمام أسرته ، وجذبهم الى وادى النيل .

واستوزر فرعون يوسف وهو فى الثلاثين من عمره ، وظل آمينا على الخزائن أربعة عشر عاما ، نصفها سنوات رخاء ، والنصف الآخر سنوات جهد وقحط .

ويعد قدوم يعقوب أو ــ اسرائيل ــ أول علامة واضحة وقوية لليهود بمصر ، بعد زيارة ابراهيم الخليل لها ، ومولد ابنه اســماعيل من هاجر المصرية .

وتعطى صياغة التوراة لهذه العلاقة بين يهود كنعـــان وأرض النيل ، تأييدا يكشف عن منشأ المطامع اليهودية ، تقول فى دعوتهم :

« خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا الى . فأعطيكم أرض مصر ، وتأكلوا دسم الأرض .. »

« ولا تحزن بيوتكم على أثاثكم ، لأن خيرات جميع أرض مصر لكم »

ولم تهمل التوراة فى هذه المرحلة أيضا أن تؤكد ان هجرة المجهدين الجائعين الى مصر ، ليست الا سبيلا للقوة ، وتحقيق مؤامرة على حساب الأرض التى تستضيفهم ، قالت توارتهم :

« .. فكلم الله اسرائيل فى رؤى الليل ، وقال : يعقوب . يعقوب . فقال ها أنذا .

فقال أنا الله اله أبيك ، لا تخف من النزول الى مصر ، لأنى أجعلك أمة عظيمة هناك .

أنا أنزل معك الى مصر . وأن أصعدك أيضا » .

* * *

هذه هى الأوهام القديمة التى تضمنتها التوراة ، والتى سارت مع اليهود فى كل مكان بعثرتهم فيه الأحداث المتعاقبة ، خلال ثلاثين قرنا أو تزيد .

أمنياتهم كانت : أرض مصر .. وأرض الفرات ..

هذه القبيلة التى سوف يزيد عددها عن تراب الأرض ورمال الشاطىء جميعا .

كم كان عدد هؤلاء اليهود الذين استضافتهم مصر ، وكانوا نواة أحلام وأحداث كثيرة فيما بعد .. انهم سبعون ، ومنهم يوسف وأبناه منسى وفرايم . وقد علمهم يوسف ما يقولون لفرعون ، لأنه كان يعلم عادات المصريين جيدا ، ويريد لقومه أن يسكنوا بعيدا عن مدن المصريين لا يخالطونهم .. قال لهم : « اذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم ؟ أن تقولوا : عبيدك أهل رعى منذ صبانا ، والى الآن نحن وآباؤنا جميعا . لكى تسكنوا فى أرض جاسان لأن كل راعى غنم رجس للمصريين » .

ولم تنس التوراة خطة العمل التى تركهااسرائيل لمن يجىء بعده ، فقد قال لهم وهو على فراش الموت :

« الله ظهر لى فى لوز — فى أرض كنعان — وباركنى . وقال لى : ها أنا أجعلك مثمرا ، وأكثرك ، وأجعلك جمهورا من الأمم ، وأعطى نسلك هذه الأرض من بعدك ملكا أبديا » .

عاش يوسف فى مصر على حساب التوراة ٩٣ سنة ، لأنه مات وسنه مائة وعشرة أعوام ، ورأى الجيل الثالث من أحفاده . وقد أوصى أن يدفن فى مدافن آبائه ، فحفظه المصريون وأودعوه فى تابوت .

من يوسف الى موسى :

تقول التوراة ان المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين ، لأنه رجس عند المصريين (سفر التكوين اصحاح ٤٣) . وكان يوسف قد أوصى أسرته أن يقولوا انهم رعاة غنم ، حتى لا يختلط بهم المصريون ؛ لأنهم لا يحبون رائحة الرعاة .. وهكذا عاشت الأسرة الاسرائيلية الأولى على هامش الحياة ، فى مزارع الشرقية مع أغنامها ..

ولكنا نجد التوراة تقول فجأة فى سفر الخروج ، الاصحاح الأول :

« ثم قام ملك جديد فى مصر لم يكن يعرف يوسف . فقال لشعبه هو ذا بنو اسرائيل شعب أكثر وأعظم منا .. »

وهذا بطبيعة الحال كلام غريب . فواضح من هذا النص أن يوسف كان حيا ، والرواية تروى . وواضح أيضا من نص آخر فى التوراة ان أسرة يعقوب التى قدمت كانت ٦٧ فردا وأبوهم الشيخ ، يضاف اليهم ابنـــان ليوسف أنجبهما من احدى المصريات . ومهما بالغنا فى تناسل هذه المجموعة بتزاوج بعضها من بعض ، فان تعدادها لن يزيد خلال فترة تقل عن قرن زيادة تجعل المصريين يرونهم أكثر منهم .. وأيضا أعظم .. ان هذه الحفنة القليلة من اليهود التى آوتها مصر ، وحفظت عليها حياتها من مجاعة نزلت

بها فى فلسطين بلغ بها سوء تقديرها ، الى هذا الحد من التفاهة : حتى تحشر فى توراتها مثل هذه الأقوال .

ان ما تتحدث عنـه التوراة بعد ذلك عن حياة الاسرائيليين فى مصر يتلخص فى أمور :

١ — فرض المصريون على الاسرائيليين رؤساء يضطرونهم للعمل القاسى فى عمليات البناء ، ويسومونهم الاذلال .

٢ — أحس الاسرائيليون بالمذلة ، وهم الذين تعودوا على حياة الرعى ولم يباشروا ما تتطلبه حيـاة المدن من عمل . فلما أكرهوا على العمل وصفوا حياتهم الجديدة ، أنها كانت حياة عبودية مرة قاسية « فى الطين واللبن (الطوب) وفى كل عمل فى الحقل » .

٣ — كان مع القبيلة الاسرائيلية (قابلتان) تقومان بتوليد نساء القبيلة اذا جاء وقت الوضع . وقد أمرهما ملك مصر أن يهلكا الذكور من الأطفال ويتركا النساء . ولكنهما خالفا الأمر « ونما الشعب وكثر جدا » . فأمر فرعون أن يطرح الأبناء فى النهر ويترك البنات ومن هنا تبدأ قصة موسى ..

وهكذا طوت التوراة حياة اليهود فى مصر ضمن سطور قليلة لا تزيد عن صفحة ، مع أن اقامتهم فيها ، حتى ولد موسى بلغت ثلاثة قرون ونصف قرن . وحدثت أثناءها حرب تحرير عظيمة شنها المصريون ضـــد الغزاة الهكسوس .

كانت معركة طرد هؤلاء الغزاة شاقة وعنيفة بدأت من الصعيد الأوسط حتى منف ، ثم من منف الى هوراس عاصمة الهكسوس . وتولى معركة التحرير ثلاثة أبطال (١) كان أحدهم أحمس الأول أو أحموس كما تكتبه بعض المراجع . ولم تقف آخر معارك التحرير عند حدود مصر بل امتدت الى

---

(١) البطل الاول لمعركه التحرير هو « سقنن رع » ثم أبناء « كاموس » ويليه « احموس » .

جنوب فلسطين حيث حاصر المصريون آخر معاقل الهكسوس هناك ثلاثة أعوام أو أكثر الى أن استسلمت ، وتفرق شمل هذه الجماعة القادمة فى أرجح الأقوال من سوريا .

دارت هذه المعارك الكبرى ، واليهود ، منزوون على هامش الحيـــاة المصرية على حدود مدن الشرقية ، وكانت بحيرة المنزلة ممتدة وقتها جنوبا ، كما سنرى فى قصة الخروج .

أسس أحمس الأسرة الثامنة عشرة ، وعاد مجد طيبة (الأقصر) كأشهر مدائن الشرق الأوسط وعاصمته الكبرى . وخلف عهده كثيرا من النقوش والبرديات ، ولم نجد فيهـا ، ولا فيما تلاها أى ذكر لليهود الاسرائيليين الذين لم يكونوا شيئا مذكورا فى حساب الدولة الجديدة .

وكما هى العادة ، فان اسم بطل من الأبطال كان يتسمى به المولودون الجدد ، فانا نجد كثيرا من أركان الدولة ، ومن دونت أسماؤهم يحملون نفس الاسم ، ولهم ذكر وأثر مرموق فى ادارة مرافق البلاد .

واستمر حكم « أحمس الأول » من سنة ١٥٨٠ ق.م الى سنة ١٥٥٨ ق.م (١) وتلاه فى الحكم امنحتب الأول ثم تحتمس الأول .

وكان طبيعيا أن يتجه نظر حكام مصر الى شرقى آسيا ، حيث جاءتهم من أرضها غارة ــ الهكسوس ، فيؤمنوها ، ويقضوا على أى خطر يمكن أن يأتى منها .

وقد قاد تحتمس الأول جيوش مصر ، وحطم حلفا عسكريا كان حكام العراق قد عقدوه مع بقايا الهكسوس ، وساق أمراءهم أسرى الى مصر مع غنائم كثيرة . وبلغت مصر وقتها ذروة عالية من الاستقرار ، وبنى الكرنك فى أيامه .

---

(١) بعض المراجع تجعل حكم أحمس الاول يبدأ من سنة ١٥٧٣ ق.م وينتهى سنة ١٥٦٠ ق.م .

وترك مهندس ذلك الأثر التاريخي الرائع « انيني » وصفا لهـذا المعبد بعد بنائه فهو يضم (1) بهو العمد الفاخر . والعمد كانت على هيئة جذور البردى ، وعند المدخل أقام المهندس برجين عظيمين ، تخفق فوقهما الأعلام . وقد نصبت قوائمهما من أخشاب لبنان وكان باب المعبد موشى بالذهب ومصراعاه من نحاس قبرص . وأما رب الدار فقد سبكت صورته على الباب وكانت من الذهب الخالص . وأحضرت من أسوان مسلتان قطعتا من حجر الجرانيت الوردى ، ونقلتا الى الأقصر على سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها أربعون ذراعا . والى الجانب الغربى من طيبة حفرت بركة ماء تحف بها الأشجار الباسقة .

وقد ذكرنا هذا الوصف القديم ، لنبين حالة الرخاء التى عاشت فيها مصر بعد أن خلصت من أيام الهكسوس السوداء ، وان كانوا لم يصلوا الى الصعيد الأعلى . ولم يكن رخاء مصر راجعا الى خصب تربتها وجـد أهلها على شاطىء النيل . بل امتد نفوذها وتجاراتها الى السودان والحبشة والصومال واليمن جنوبا وليبيا غربا وسـوريا الكبرى وبلاد الرافدين شرقا ، والى جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان .

حتى هنا ، لا نجد فى تاريخ هذه الفترة ذكرا للاسرائيليين ، ولا وجودا وكما صمتت توراتهم عن الاشارة الى حياتهم على حافة الدلتا الشرقية ، كذلك أهملتهم آثار الفراعنة اهمالا تاما ، مما يقطع بأنهم لم يكونوا فى حساب التكوين الحضارى لهذه البلاد ، أكثر من رعاة غنم يجبرون فى المدن القريبة منهم على بعض أعمال التعمير . وكان واضحا كل الوضوح — أيضا — أن صلتهم بفلسطين لم تكن موجودة ، والا لورد لهم ذكر — أى ذكر — فى حروب الاستقرار التى شنتها مصر شرقا . لقد نسوا أولاد عمومتهم فى مدين والحجـاز والأرض الفلسطينية ، ولو أن أواصر ود وقرابة ، أو علاقة رحلة وتجارة ، عقدت بين هؤلاء اليعاقبة الاسرائيليين

---

(1) موكب الشمس للدكتور احمد بدوى ص ٢٩٧ ج ٢ .

والقبائل الأخرى من سلالة ابراهيم لوضح ذلك فى خطط مسيرتهم لمصر ، كما سنفصله بعد حين .

موسى ـ الكليم :

بوفاة تحتمس الأول ، حدث اضطراب فى ولاية الملك من بعده . فهو لم ينجب من زوجه الشرعية غير ابنة هى « حتشبسوت » . كما كان له ابن من احدى الجوارى اسماه « تحتمس » على اسمه .

وكانت الأميرة على قدر كبير من الجمال والطموح ، وتطلعت الى عرش أبيها ، وحاكت حول مولدها قصصا سجلتها على الآثار ، ومؤداها أن لها أبا ثانيا هو الاله آمون نفسه ! وحتى تقضى على المعارضة فى ولايتها العرش ، فقد تزوجت أخاها غير الشقيق ، وحمل لقب تحتمس الثانى . وجلسا معا على العرش ، ثم أنجبت بنتا ، تزوجت أميرا هو الذى أصبح فيما بعد أشهر فراعنة مصر تحت اسم تحتمس الثالث .

وفى هذه الفترة الحافلة بالاطماع كانت حتشبسوت تشترك فى الحكم مع أخيها ؛ ثم تقصيه وتستقل بأمر البلاد مؤيدة من رجال الدين ، فهى من نسل آمون ، ثم تحكم بوصفها وصية على زوج ابنتها (١) . وقد دام استقلالها الكامل بالحكم ثلاثة عشر عاما ، وظلت وصية على تحتمس الصغير (الثالث) سبع سنوات . وحتى تملأ الملكة أعين المصريين ، فقد ارتدت زى الرجال .

وعاشت مصر فى عهد هذه الملكة فى رخاء كبير .. يروى برستد فى تاريخه المصرى ما يأتى : لما أوشكت الملكة حتشبسوت أن تتم ثلاثين سنة منذ اعلان جلوسها على العرش ، أقامت لذلك احتفالا عظيما ، ويظن أنها أمرت بنصب المسلات كالعادة فى مثل هذه الأفراح .

وقد قالت ما ترجمته : « أتذكر انى جلست يوما بالقصر ، وفكرى

---

(١) كان هـذا الامير ابن زوج الملكة حتشبسوت من زوج أخرى . وكان اسم الاميرة « نفرو رع » ونفر معناها جميلة .

يجيش بتأملات خالقى فأوحى الى قلبى أن أشيد لخالقى مسلتين من خليط الذهب والفضة يبلغان عنان السماء » .

واستغرق قطع المسلتين سبعة أشهر من محاجر الجرانيت فى أسوان ، وبعد هبوط الفيضان فى شهر أغسطس قامت سفن مجهزة خصيصا لهــذه المهمة بنقل المسلتين يحملهما ماء النيل برفق حتى طيبــة . واقتضى الأمر اجراء تعــديلات فى مبــــانى الكرنك حتى تمت اقامة المسلتين . وكانتا مكسوتين بخليط من الذهب والفضة ، وكان يمكن مشاهدة القمتين من شاطىء النيل ، وكانت الأشعة تنعكس منهما وقت شروق الشمس فى أبهة وجلال . وكانت حتشبسوت فخورة جدا بالمسلتين ، حتى انها أقسمت فى نقوش الآثار بأنهما نحتتا من حجر واحد (٩٧ قدما ارتفاعا ووزنا ٣٥٠ طنا للواحدة منهما . وقد شيدت الملكة مسلات أخرى ولكنها تلفت . ويبدو أن (مودة) بناء الأهرام قد انتهت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . اذ ظهر أنها عملية مكلفة جدا ، ومع ذلك لم تكن تقى سكانها من السرقة .

وقد كان نقل أول مسلة مصرية الى أوربا فى القرن الماضى عملية من أعجب المعجزات الحديثة ، وكتب عن ذلك المؤلفون « زفايج مثلا » فصولا ضافية ، وكان ينبغى أن يشاد بالعقل المصرى الذى نقل مسلات هذه الملكة على سفينة نيلية عظيمة تجرها ثلاثون سفينة شراعية ويقوم بالمهمة ١٦٠ بحارا كما ورد فى الرسوم والنقوش المسجلة عن هذه العملية .

وامتدت عمليات التعمير من أقصى الصعيد الى مناجم ومعابد سينا ، حتى مدينة رعسيس التى أجبر اليهود على العمل فى بنائها ، كانت من بين ما تناوله التعمير ، وبذا زالت بصمات العهد الهكسوسى من مصر كلها ، وذلك تحت سمع اليهود وبصرهم . وربما مواصلة ارغامهم على العمل مع أهل البلاد ، بتحطيم حصار العزلة الذى فرضوه على أنفسهم ، ربمالأسباب دينية حتى لا يشاركوا فى تمجيد معبودات أخرى ، وربما كراهية منهم للعمل اليدوى ، وربما للامرين معا .

وبنت حتشبسوت معبدها العظيم فى الدير البحرى وزينته أبدع زينة ،

واستقدمت له الأخشاب وحيوان الغـاب ، وأنواعا غريبـة من الأشجار وكميات من الذهب ، وذلك فى بعثة بحرية ضخمة من خمسين سفينة سافرت الى بلاد « بنط » أو بلاد البخور ، وما هى الا الصومال الحالية . ومن وراء المعبد حفرت نفقا طوله حوالى ٧٠٠ قدم ، وكان عميقا غائرا فى الصخر (١٠٠ متر تقريبا) ، وذلك لينتهى تحت المعبد ، وعند مقبرتها تماما ، التى تتجه نحو مطلع الشمس (لم يعثر على رفاتها حتى الآن مع ان رفات كل الذين اتصلت بهم وجدت ، ونقلت الى متحف القاهرة) .

وهنا تبدأ قصة سيدنا موسى .

ولنبدأها من مصادرها الدينية .

* * *

تبدأ القصة فى التوراة بمذبحة الأطفال على أيدى أحـد الفراعنة .. أطفال اليهود بالذات : « وذهب رجل من بيت لاوى (ليفى) ، وأخذ بنت لاوى ، فحبلت المرأة وولدت ابنا ، ولمـا رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولمـا لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سـفطا من البردى ، وطلتـه بالحمر والزفت ، ووضعت الولد فيه ، ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به ، فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل ، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء ، فأرسلت أمتها وأخذتها ، ولمـا فتحته رأت الولد ، واذا هو صبى يبكى . فرقت له ، وقالت هذا من أولاد العبرانيين . فقالت أخته لابنـة فرعون ، هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك فقالت لها ابنة فرعون اذهبى . فذهبت الفتاة ودعت أم الولد ، فقالت لها ابنة فرعون اذهبى بهـذا الولد ، وأرضـعيه لى ، وأنا أعطى أجرتك فأخذت المرأة الولد ، وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون ، فصار لها ابنا ، ودعت اسمه موسى ، وقالت انى انتشلته من الماء » ..

أما القرآن ، فقد أورد فى سورة القصص قصة موسى على النحو الآتى :

« نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طـائفة منهم يذبح أبنـاءهم

ويستحيى نساءهم انه كان من المفســدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولمـا بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين » .



والآن نلقى نظرة على المصادر التاريخية غير الدينية . وأولها المؤرخ اليهودى يوسيفوس الذى تحدثنا عنه من قبل . لقد ألقى أول ضوء على « بنت فرعون » التى ورد فى المراجع الدينية أنها التقطت موسى ، وأعطته اسمه ، وربته . فقد قال ان اسمها « تحرموتيس » وهو مجرد تحريف لاسم تحتمس . فقد ذكر قصة تربيتـه فى بيت فرعون وأنه أصبح من ضـباط الحرس الفرعونى ، وانه قاد حملة عسكرية الى السودان ، وانه أحضر أمير السودانيين أسيرا من ملتقى النيلين الأبيض والأزرق (الخرطوم) وكان اسمه « مروى » .

واسم موسى ، كان اسما مصريا شائعا ، كما هو ، أو كتحريف لاسم « أحموسى » ، وهو النطق الهيروغليفى لاسم أحمس . وقد ورد فى التوراة أنه تعلم « حكمة » المصريين . وغنى عن البيان أن من تربى فى قصر فرعون، لا بد أن يتلقى علم الأمراء على أيدى علماء وكهان ثقات ؛ هم خلاصة الفكر

المصرى . وكانت مصر وقتها فى قمة من قمم العرفان والتقدم العلمى . وقد قدمنا بيانا عن ملامح هذه الحكمة قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، ومن ابتداء عصر الأسرات الحاكمة الموحدة لمصر . وقد نمت هذه «الحكمة» مع تقدم الزمن ، ولم يفنها توالى القرون ، لأن « الحكمة » كانت تحفر معالمها وأفكارها على الحجر ، وكل جيل يأتى يستوعبها ، ثم ينميها حسب سنة التقدم ..

ويبدو أن أصل موسى ، وانتماءه الى القبيلة الاسرائيلية لم يكن خافيا على أمراء البيت المالك ، فضلا عن الأميرة حتشبسوت ، التى أصبحت ملكة الوادى . ففى القرآن الكريم أشارة واضحة الى هذا المعنى ، اذ خاطب فرعون الخروج ، الذى سنذكر اسمه فيما بعد .. خاطب موسى قائلا فى سورة الشعراء :

« قال ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين » ..!

واذا صح ما ذكره المؤرخ اليهودى القديم ، من انه عمل فى الحرس الامبراطورى ، وهو أمر غير مستبعد ، فان موسى كان متحيزا لقومه بطبيعة الحال ، وما ان شهد مشاجرة بين يهودى ومصرى ، اذا به ينحاز لليهودى ، واذا المصرى يقع ميتا . فيخاف موسى ، ويفر من مصر عبر الحدود ، مخترقا سينا ، خشية القصاص .

وتروى التوراة هذه الواقعة بطريقتها ، فتقول : ان موسى بعد أن قتل المصرى فى هذه المشاجرة حتى دفنه ، وأخفى أثر فعلته . وفى مناقشة حادة مع أحد اليهود فى وقت تال ، قال له اليهودى : « أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى ! » فخاف موسى أن يشى به قومه ، بل لقد فعلوا ، حتى وصل الأمر الى الحكومة ، وطلبته للقصاص ، فهرب الى أرض مدين التى تقع شمال الحجاز ، الى الشرق من خليج العقبة ..

وكان عمر موسى حين هرب من مصر ، أربعين سنة ، وكانت مدة اقامته فى منفاه أربعين سنة أخرى .. وكانت الملكة التى ربت موسى ، وحمته قد ماتت ، وانفرد بالحكم زوج ابنتها وخصمها تحتمس الثالث ، ومن المرجح

أن هذا الملك الجديد لم يكن مرتاحا لمواقف اليهود منه ، فى صراعه على الحكم ضد الملكة حتشبسوت ، تشيعا لربيبها وابنها بالتبنى موسى .

ولم تتحدث التوراة عن هذه الملكة فى تلك الفترة ولكن تحدثت عن ملك حمى اليهود ، وجاء خلف له سام اليهود سوء العذاب أو كما تقول التوراة : « وتنهد بنو اسرائيل من العبودية وصرخوا » .

وكانت وفاة حتشبسوت عام ١٤٨٥ ق٠م

وبعد ست سنوات من انفراد تحتمس الثالث بالحكم وقع الى الشمال من أرض مدين ، وعلى أرض فلسطين أكبر صراع حربى فى تاريخ هـذه المنطقة .. فقد تكشف تحتمس الثالث ، عن عبقرية حربية لا تدانى وعن شجاعة قلب نادرة المثال ، رفعته الى مقـام أعظم قواد الحروب على مر التاريخ كله . قد اقترن اسمه بموقعة « مجدو » .

مجـدو :

كان الحكم المشترك بين حتشبسوت وأخيها ، ثم مع زوج بنتهـا ، صارفا نظر مصر عن الجبهة الشرقية ، وقد أدرك أمراء غرب الفرات أن مصر فى شغل عنهم ، وكان الهكسوس بعد أن أوقع بهم تحتمس الأول ضربة أليمة فى معقلهم « بشاروهين » جنوبى فلسطين قد تفرقوا فى الشمال يدبرون الفتن ، ويحرضون الأمراء . وكان أمير قادش قد أحس من نفسه قوة ودانت له زعامة الامارات السورية والعراقية .. وانضمت له مملكة « ميتانى » فى شرقى الفرات مع من آزره من الامارات .

وكان لا بد لمصر أن تتحرك ، فحشد تحتمس الثـالث جيشا حسن التدريب وافر العدة ، وتحرك لمنازلة المتمردين . وكان أمير قادش قد اتخذ من (مجدو) معسـكرا له ، وهذا الموقع الذى يكاد يكون فى منتصف المسافة بين القدس ودمشق ، يمكن الوصول اليه من ثلاثة طرق ، اثنـان منهما صالحان لتحريك الجنود وعدة الحرب ، والثالث جبلى وعر شديد المخاطر ، ولكنه أقصر الطرق . وحسب أمير قادش ان تحتمس الثـالث

سوف يسلك أى الطريقين الصالحين فاذا بالخطة المصرية تخيب ظنه ، ففى مسالك جبال الكرمل الوعرة غير المحروسة كان تحتمس الثالث وجنوده يتحركون كالنمور فى خفة ويقظة وسكون ، ويجتازون « وادى عرة » . وكان الملك على رأس قواته ، حتى أشرف على مدينة « مجدو » ، وأعطى جنوده وقتا قصيرا للراحة (١) وفى حركة كماشة انتشر الجيش المصرى فى السهل الفسيح المزروع ، وفى هجوم خاطف صاعق ، كان جنوده يطلقون صيحات هائلة تزلزل كيان العدو ، وفرعون على رأس عجلتــه يندفع ، ويضرب فى أقفية الأمراء الآسيويين وقواتهم ، وحاولوا الاســتتار وراء الأسوار .. أسوار مجدو ، ووصفت النقوش أن جثث الأعداء كانت منتشرة على الأرض كالسمك . ولم تكن المدينة مستعدة لحصار طويل ، اذ منع عنها الحصار أقواتها ، وارتفعت رايات الاستسلام ، وأقبل الأمراء والقواد المتمردون تحنى رؤوسهم المذلة وسـيقوا فى الأسر الى مصر مع أسرهم ومحتويات قصورهم ، وعدة حربهم ، وكانت تشمل آلاف الخيل والعربات، وأكداسا من السلاح . وما أكثر التحف والطرف التى وقعت غنيمة فى يد الجيش المنتصر .. وقد أمر تحتمس الثالث بأن يحصد قمح المزارع فى السهل الفسيح ويحمل الى سفن الأسطول الراسية على شاطىء البحر ، وان تساق آلاف الماشية ميرة لجيشه .

وكان انتصار مصر الساحق فى مجدو أشبه بزلزال هز الجبهة الآسيوية كلها ، فسارع ملك أشور بارسال الهدايا . وفرضت الجزية ، على الامارات المتمردة ، وعين لها فرعون حكاما من أهلها ، يثق فيهم ، ويقومون بارسال الخراج الى مصر ، ويؤمنون هذه الجبهة . وأخـذ أبناء هؤلاء الأمراء الجدد معه ، ليتعلموا فى معاهد طيبة ومنف واهناسيا وغيرها ، ليكونوا بعد أن يشبوا عامل توحيد بين بلادهم الأصلية ومصر .

---

(١) فى سنة ١٩١٨ بعد الميلاد اتخذ اللنبى قائد جيوش الحلفاء ضد الاتراك فى جبهـة سوريا نفس الطريق الذى سار فيه تحتمس الثالث . وهكذا أفادت دراسة التاريخ فى معركة من معارك التاريخ الحديثة .

وقد وصف تحتمس الثالث نصره هذا ، واستيلاءه على مدينة مجدو وكأنه استولى على ألف مدينة . ولكن اتضح من الآثار أيضا أنه عامل أهل المدينة المنهزمة بسماحة نفس ، فقد ورد فى يومياته عن هذه المعركة قوله مخاطبا رؤساءهم : « لقد سمحت لكم أن تبقوا أحياء .. » .

وتوالت رحلات تحتمس الثالث المسلحة فى الجبهة الآسيوية ، واستولى على الساحل الفينيقى كله ، حتى تتمكن جيوشه من السفر بحرا . وفى الرحلة الثامنة تمكن من الاستيلاء على ما تبقى من امارة قادش ، واجتاز نهر الفرات الى دولة ميتانى . ومن طرائف غزوته هذه أن قطيعا من الفيلة الوحشية بلغ ١٢٠ فيلا ، اعترض طريق تحتمس الثالث ، وكاد أحدها يفتك بالملك لولا شجاعة أحد حراسه الذى قطع خرطوم الفيل . وقد دون على آثاره أسماء ٢٦٧ مدينة استولى عليها . ووصلت رحلاته العسكرية الى الجبهة الشرقية الى ١٧ رحلة ، ودام حكمه ٥٤ سنة .

فرعون الخروج :

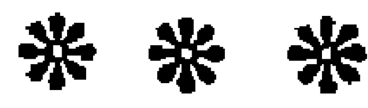
ان عملية الحساب التى حققت تدمير أريحا عام ١٤٠٠ ق٠م هى التى حددت فرعون الخروج ، فاذا هو أمنحتب الثانى ابن تحتمس الثالث .

وكان أمنحتب الثانى قد ورث من أبيه حبه للحرب ، ومتابعة الغزو ، ولكن يبدو أنه كان شديد القسوة ، لا تعرف الرحمة قلبه . وقد روت آثاره أنه فى عودته من غزو المناطق الشمالية ــ سوريا وميتانى ــ أحضر معه سبعة من الأمراء أسرى ، وما أن اقتربت سفينته من طيبة عاصمة الملك حتى ربط الأمراء المساكين من أرجلهم فى مقدمة سفينته الملكية « وأمام الحشود العظيمة التى اجتمعت على الشاطىء لتحيته ذبح ستة من هؤلاء الأمراء ، ثم أمر بجثثهم أن تحمل وتصلب على جدران طيبة » !!

ويقول « برستد » : انه مات سنة ١٤٢٠ ق.م. وتقول المراجع الأخرى : انه مات سنة ١٤٤٧ ق.م .. وتحدد تواريخ التوراة (مستندة الى مذبحة أريحا التى ستأتى) ان خروج اليهود كان سنة ١٤٤٠ ق٠م . وهذا الفارق

الصغير فى عدد السنين يجعل فرعون الخروج هو أمنحتب الثانى أو ابنه تحتمس الرابع (يقول برستد انه توفى عام ١٤١١ ق٠م) .. وأيا كان هذا الفرعون ، فقد وجدت جثث تحتمس الثالث ، وابنه امنحتب الثانى ، وحفيده تحتمس الرابع ، وكلها محنطة وأسماء أصحابها مدونة معها .

وتقول آثار تحتمس الرابع انه استقدم عددا كبيرا من الأسرى من أهل فلسطين ، للعمل فى بناء معبده بالعاصمة طيبة (الأقصر) .



وقبل أن نقف مرة أخرى على قصة الخروج ، نعود الى موسى ابن عمران ، الذى تسميه التوراة موسى بن ليفى أو لاوى .. فقد تركناه قبل حين فى أرض مدين . ونجده الآن عند بئر تزاحم عليها الرعاة ، ومنعوا سبع فتيات هن بنات كاهن المنطقة من السقيا ، فعاونهن على ملء الجرار ، وارواء قطيع غنم كان معهن .. ورحن يتحدثن الى أبيهن عن رجل مصرى أدى لهن هذه المساعدة . فأرسل يدعوه الى طعام والى سكن ، لأنه غريب عن الأرض . وتمضى التوراة فتقول ان موسى تزوج « صفورة » ابنة الكاهن وانه أنجب منها ابنا اسمه « جرشوم » أى المولود فى أرض غريبة .. ونحن لا نكاد نعثر لهذا الابن على أثر بعد ذلك .

أما القرآن فقد روى قصة زواج موسى فى أرض مدين على النحو الآتى :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير . فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما يا أبت استئجره ان خير من استئجرت القوى الأمين . قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى

ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد ان أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل . » (سورة القصص)

* * *

وفى نهاية السنوات العشر ، أصبح موسى فى حل من عمله لدى شيخ مدين ، فأخذ أسرته ورحل .. وهنا يحيط الضباب بثلاثين سنة أخرى قضاها موسى فى هذه الانحاء قبل أن تأتيه النبوة ويكر عائدا الى مصر ، لتبليغ رسالة ربه .

الا أن القرآن يلقى ضوءا على أحداث وقعت فى هذه الفترة ووردت فى سورة الكهف . فقد مضى موسى وفتاه الى مكان وصف بأنه « مجمع البحرين » وربما كان الموقع الذى يلتقى فيه خليج العقبة بخليج السويس عند الرأس الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ، أو عند الموقع الذى نسميه الآن شرم الشيخ .. وأيا كان المكان ، فان موسى ساحل عنده ، حتى وجد « عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما » .

وأدرك موسى ان هذا الشيخ الصالح، الذى تسميه المصادر الإسلامية الخضر ، على شىء كثير من نقاء السريرة ، وتفتح البصيرة ، واشتاق موسى الى أن يتلقى على هذا الشيخ بعض علمه ..

وقد وصف القرآن علم « الخضر » بأن وصل الى مرتبة الرشد ، وهى أعلى مراتب العرفان فهو علم الهى ، يكشف لمن اختصهم الله عن بعض أسرار الكون ، التى يعز على المنطق العادى للناس أن يدركها ، لأن مقاييسهم ، انما تقوم على الرؤية ، وما يمكن للحواس الخمس أن تحصله .. ولكن هناك مرحلة وراء هذه المقاييس ، هى التى تسير ، وهى التى تدبر، وعندها علم الله . ان هذا الشاعر الذى صاح متعجبا من القسمة بين الناس فى حاسة النظر مثلا : هذا أعمى (لا يرى) ، وهذا أعشى (ضعيف النظر)،

وهذه زرقاء اليمامة (التى ترى على بعد ثلاثة أيام !!) .. لمــاذا ؟ لأن هناك أسرارا لا نعيها ، فيها ارادة الله .

هذا هو الدرس العظيم الذى بدأتدريب موسى على تلقيه ، لكى يتأهب لموقف جليل فى مقبل الأيام .

ويبدأ هذا التدريب النفسى بحوار جرى بدأه موسى علىالنحو الآتى :

— قال : انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا !

— قال : ستجدنى ان شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرا .

— قال : فان اتبعتنى ، فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا .

— فانطلقا ، حتى اذا ركبا فى السفينة ، خرقها . قال : أخرقتهــا لتغرق أهلها — لقد جئت شيئا امرا .

— قال : ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ؟

— قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا .

وتمضى هذه التجربة الفريدة فى حياة موسى وقتا طويلا ، فى رحلة أرضية . ورحلة روحية ، انهزم فيها كل منطق تعلمه موسى من حـــكمة المصريين التى عاش فى كنفها أربعين سنة ، وحكمة كاهن مدين الذى عاش معه عشر سنين .. ان روحانيات مدين ، وروحانيات مصر ، ليست بشىء الى جانب ما وصل اليه هذا الشيخ الجليل « الخضر » من عرفان ورشد .

وبعد ان تتابعت الأحداث ، على مثال الحادث الذى ذكرناه ، اذن الله أن يفرج كرب موسى ، ويحل عنه عقد الدهشة التى تملكته ، ويأذن لمعلمه أن يفسر له ما غمض من دروسه ..

ولنضرب مثلا بتفسير قصة السفينة التى بدأت بها التجربة ، فقد كان من أمرها ما يأتى :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها . وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

وهكذا كشف الله بصيرة الخضر عما يمكن أن يحدث لأصحاب السفينة المساكين اذا مضت فى رحلتها ، فسيلقاها على شاطىء بعيد ملك جبار ، يغتصب سفائن الناس ، وأصحاب هـذه السفينة كانوا يرتزقون منها . وعندما عطلها الخضر ، بخرقها ، فقد حماها من أن يستولى عليها . حتى اذا مضى وقت يصلح فيه أصحابها ما أعطبه الخضر ، وتعود لهم أرزاقهم منها كما كانت .

ويختم الخضر صحبته لموسى بعد أن فسر له كل ما غمض عليه خلال هذه الصحبة ، التى يعلم الله كم طالت .. ويقول له :

« وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

* * *

وهكذا تأهب موسى ليبلغ ما يأمره الله به .. وسار فى صحراء سينا وجبالها من جنوبها الى شمالها . وبينما هو عند جبل الطور ، تلقى وحى السماء على الصورة التى وصفها القرآن الكريم بقوله :

« فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله ، أنس من جانب الطور نارا . قال لأهله امكثوا ، انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون .

« فلما آتاها ، نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى انى أنا الله رب العالمين .

« وان ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ، ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف ، انك من الآمنين .

« اسلك يدك فى جيبك ، تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم اليك جناحك من الرهب ، فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه ، انهم كانوا قوما فاسقين .

قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون .

« وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون .

« قال سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا ، انتما ومن اتبعكما الغالبون » (القصص ٢٩ — ٣٥)

وقد روت التوراة قصة الرسالة التى أمر الله بها موسى على نحو آخر . فان الجبل الذى وقف عنده موسى هو جبل « حوريب » ، حيث كانت الشجرة والنار التى لا تحرق . ثم سمع الصوت الالهى ، الذى سمع صراخ الاسرائيليين فى مصر ، وانه منقذهم وآخذهم الى « أرض تفيض لبنـا وعسلا . الى مكان الكنعانيين ، والحيثيين ، والاموريين ، والفريزيين ، والحويين ، واليبوسيين » : وأخبره الصوت ان اسم الهه من الآن هو « يهوه » . ورسم له طريقة اخبار شيوخ بنى اسرائيل فى مصر بمهمته ، والمعجزات التى زود بها موسى . ومضت التوراة تقول :

« فقال موسى للرب : استمع أيها السيد (!!) . لست أنا صاحب كلام منذ أمس ، ولا أول أمس ، ولا من حين كلمت عبدك . بل أنا ثقيل الفم واللسان . فقال له الرب من صنع للانسان فما ، أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى . أما هو أنا الرب ؟ فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به . فقال استمع أيها السيد : أرسل بيد من ترسل . فحمى غضب الرب على موسى .. »

وانتهى هذا الحوار بأن يكون هارون سندا وعضدا لموسى يشجعه ، ويبدد مخاوفه . وقد عادت التوراة بموسى الى أرض مدين ليستأذن القبيلة

التى عاش فيها وتزوج منها ، ثم ركب الحمير عائدا الى مصر مع زوجه المدينية وابنه منها ، ومعه العصا المقدسة .



كلمات عن اللغة :

كان موسى عليه السلام يتكلم الهيروغليفية ، ما فى ذلك شك . فقد ولد وتربى فى مصر ، وعاش حتى سن الأربعين حياة مصرية خالصة . ولا نعلم اذا كان قوم موسى من الاسرائيليين ، حافظوا على اللسان الذى قدموا به ، وهم أقل من سبعين شخصا كبارا وصغارا . ولكن لا شك أيضا فى أن لغة البلاد التى عايشوا أهلها ، ولو على حدود الحضارة القائمة نفسها ، كانت لغتهم اليومية . فهذه طبيعة الأشياء والأحياء ، وسنتها .

يقول العقاد : « العبرية فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل فى صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات . وبهذا المعنى وردت كلمة العبرى وما قاربها لفظا فى أحافير تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاء بهذا المعنى فى الكتابات المسمارية والفرعونية ، ولم يكن لليهود وجود فى ذلك الحين . ولما وجد اليهود انتسبوا الى اسرائيل ، كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية انها لغة كنعان . ثم انطوت العبرية فى الآرامية » . (١)

ويقول الدكتور فؤاد حسنين على : اللغة العبرية لم تعرف بهذا الاسم فى التوراة بل جاءتنا تحت اسم الكنعانية أو اليهودية . وزعم العبريون أن لغتهم هى لغة التوراة واللغة التى كلم الله بها موسى .. ولكن اللغة العبرية لم تعرف قبل عام ١٠٠ ق.م والاسرائيليون لم يعرفوا باسم العبريين كشعب ، ولم يتكلموا العبرية الا بعد استيطانهم كنعان .. أما قبل ذلك ،

---

(١) كتاب العقاد عن ابراهيم أبو الانبياء .

فقد كانوا يتكلمون لغة الشعوب المضيفة لهم . فهم فى شرق الجزيرة وشمالها حيث منطقة النفوذ الارامية ، يتكلمون اللغة الارامية التى لم تكن الا لهجة عربية شمالية أو قريبة منها . والاسرائيليون فى مصر كانوا ولا شك يتكلمون المصرية ، شأنهم شأن غيرهم من الأقوام التى عاشت فى كنف المصريين .

وهكذا ينفى هذا الباحث عن اللغة العبرية أنها لغة مقدسة أنزلت بها الشريعة (١) ، اذ أنها وجدت بعد موسى بوقت قريب ، وبعد ان تم الوجود اليهودى الأول فى فلسطين .

وحتى اللغة العربية التى أخذها اليهود بعد وجودهم الأول فى فلسطين من اللغات المحيطة بهم ، لم تستمر لغة تخاطبهم .

يقول الأستاذ جويدى انه عندما عاد اليهود من منفاهم فى بابل بعد أن أعتقهم الفرس (عام ٥٣٩ ق٠م) ، شاعت عندهم اللغة الارامية حتى صارت لغتهم الى زمن المسيح ، الا ما يختص بلغة الصلاة فقد بقيت بالعبرية . فلما تفرقوا بعد ذلك فى أنحاء العالم ، كانت لغة كل منهم توافق لغة البلد الذى هم فيه (٢) .

حوار مع فرعون :

كان هارون أخو موسى فى مصر ، فدعاه لمقابلته فى سينا ، وأخبره بما كلفته به السماء من دعوة فرعون الى الايمان باله واحد أحد ، وانه بوحى من الله سوف يصبح مساعد دعوته ، ولسانها لدى القوم . وكما ذكرنا من قبل لم تكن هناك صعوبة فى التفاهم فلغة المصريين هى لغة موسى وهارون.

تقول التوراة ان موسى أخبر قومه عند وصوله الى مكانهم فى مصر ،

---

(١) كتاب التوراة الهيروغليفية .
(٢) محاضرات الاستاذ جويدى فى الجامعة المصرية القديمة .

بما اعتزمه ، ولم توضح المراجع أين كان اللقاء مع فرعون ، أو نائبه فى المنطقة الشمالية .

وكلمة فرعون تعنى ما كانت تعنيه كلمة الباب العالى فى العصر التركى، أو الديوان الملكى فى العهود الملكية . ولكن نصوص القرآن واضحة ، تدل على أن اللقاء كان مع ملك مصر نفسه .

وقد بدأ موسى — فيما تذكر التوراة — خطته بأن دعا اليهود الى الاضراب عن أعمال البناء التى كان المصريون يلزمونهم بها . وهنا بدأت معركة الارادة بين جهاز الحكم فى مصر ، وبين هؤلاء المسخرين من اليهود . فقد ضاعف المصريون أعباء اليهود ، وشددوا عليهم النكير . وطلب موسى من فرعون أن يرحل قومه الى البرية ، على مسيرة ثلاثة أيام من سينا .. واراه معجزة العصا التى تغلبت على سحر المصريين فكانت ثعبانا يأكل ثعابين المصريين .

رفض فرعون طلب موسى ، فبدأت معجزات الهية تعاقب فرعون على تعنته ، وكان أولها خاصا بماء النيل ، الذى مات سمكه ، وجرى ماؤه دما، أو كالدم ، وفاض النهر بالضفادع حتى غطت أرض مصر . ثم جاء بعدها البعوض والحشرات ، ثم وباء يهلك المواشى (الا ما كانت تملكه اليهود) ثم عواصف الغبار التى آذت جلود المصريين بالبثور ، والدمامل ، ثم مطر البرد والثلج الذى أهلك المواشي المصرية وحدها مرة أخرى كما أباد الزراعة ، ثم الجراد التى أكلت الشجر وعشب الأرض ، ثم الظلام الذى حجب أشعة الشمس ثلاثة أيام . ثم هلاك جميع الأبناء البكر الذين ولدوا أولا من ابن الملك الى ابن الجارية الى أبناء البهائم .

وهنا تقول التوراة ان الرب أوصى موسى بما يأتى :

« عندما يطلقكم (فرعون) يطردكم طردا من هنـا بالتمام ، تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين .

وأيضا الرجل موسى كان عظيما جدا فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون ، وعيون الشعب » .

وعند منتصف احدى الليالى والمصريون فى جزع لمن مات من بينهم بدأ خروج اليهود .. تقول التوراة :

« فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ، ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم . فعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى . طلبوا من المصريين أمتعة فضـة وأمتعة ذهب وثيـابا . وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم ، فسلبوا المصريين » أما كيف ارتحل اليهود من مصر فقد قالت التوراة :

« فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس (١) الى سكوت نحو ستمائة آلف ماش من الرجال عدا الأولاد . وصعد معهم لفيف كثير أيضا ، مع غنم وبقر مواش وافرة جدا . وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبز ملة فطيرا ، اذ كان لم يختمر . اذ أنهم طردوا من مصر ، ولم يقدروا أن يتأخروا ، فلم يصنعوا لأنفسهم زادا » .

وعد يوم الخروج من مصر عيدا لليهود ، هو عيـد الفصح ، نصت التوراة على طقوسه ، وطرائف الاحتفال به .. فقد جاء فيها :

« هى ليلة تحفظ للرب ، لاخراجه اياهم من أرض مصر ، هذه الليلة هى للرب ، تحفظ من بنى اسرائيل فى أجيالهم .

« وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح ، كل ابن غريب لا يأكل منه . ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه ، النزيل والأجير لا يأكلان منه . فى بيت واحـد يؤكل . لا تخرج من اللحم من البيت الى خارج . وعظما لا تكسروا منه . كل جماعة اسرائيل يصنعونه . »

* * *

---

(١) موقعها بلدة صفط الحنة الان بالقرب من تل رطانة (محافظة الشرقية) .

واليهود كما نعلم انشأوا التوراة ، ثم عاشوا فى نصوصها . وعيد الفصح الذى ورد ذكره فى سفر الخروج ، ظل عيدا يلتزم به هؤلاء القوم الى الان ، وبعد الآن .

وفى مجموعة الدكتور هلال فارحى اليهودى عن عبادة قومه بيان عن الاحتفال بعيد الفصح فيما يلى نصه (1) :

« فى الليلة الرابعة عشرة من نيسان (ابريل) يجب على الانسان (اليهودى) حال تأدينه صلاة المساء ، وقبل أن يبتدىء بعمل ما ، وقبل أن يأكل ويبتدىء بالقراءة ، أن يبحث عن الخمير الذى فى دائرة بيته بنور شمعة صغيرة فى الثقوب والشقوق ، و فى كل محل يدخلون فيه خميرا . وقبل البحث يقول : مبارك أنت يا رب الهنا . ملك العالم الذى قدسنا بوصاياه ، وأوصانا بازالة الخمير !

يجب الاحتراس من التكلم بين البركة والابتداء فى التفتيش . والافضل ألا يتكلم كلاما آخر حتى يتم التفتيش . . ثم يغطيه بوعاء لكى لا تسحبه الفيران فينبغى أن يفتش مرة أخرى ويقول :

ليكن كل الخمير الذى فى دائرتى ، رأيته أو لم أره أزله باطلا ، ويعد كتراب الارض !

وفى ترتيب يوم وقفة عيد الفصح يقول فارحى : يجب أن يزيل أو يرمى فى البحر ، أو يفتت أو يحرق الخمير فى الغد باكرا نحو الساعة الخامسة ، ويذرى الرماد ، ويبطله ويقول :

ليكن كل الخمير الذى فى دائرتى، رأيته أو لم أره أزله باطلا ، ويعد كتراب الأرض !

واذا كان أول الفصح يوم الخميس ، يجب اتمام فريضة العيروب ، لأنه لا يجوز طبخ أو تحضير طعام فى يوم عيد ليوم عيد آخر . أى فى يوم

---

(1) طبع منذ سنة ١٩٢٢ بالعبرية والعربية فى مصر .

عيد الفصح لأجل يوم السبت وهى عبارة عن تحضير قليل من الطعام فى مساء يوم وقفة العيد لأجل العيد والسبت معا . ثم يقول البركة الآتية :

مبارك أنت يا رب الهنا . ملك العالم الذى قدسنا بوصاياه ، وأوصانا بوصية العيروب . وبحكم العيروب يسمح لنا أن نخبز ونطبخ ونشعل نورا ونعمل كل لوازمنا فى يوم عيد لأجل يوم السبت .

وهنا يأتى وصف مائدة عيد الفصح على النحو الآتى :

فى الليلة الأولى والثانية من عيد الفصح ، يجهزون الأشياء الآتية وهى :

— ذراع خروف محمر تذكارا لخروف الفصح .

— ثلاثة أقراص فطير تذكارا للخبز الذى أكله آباؤنا (عند الخروج من مصر) فطيرا قبل أن يختمر .

— بيض مسلوق تذكارا لقربان العيد الذى كان يقرب قديما فى الهيكل .

— خس ، وهندباء ، أو عشب مر ، وكرفس ، وفنجال خل ، أو ماء ملح تذكارا للحياة المرة التى قاساها آباؤنا فى مصر فى زمن الاستعباد .

— مربى معمول من زبيب أو بلح مع اللوز ، تذكارا للطين الذى كان يصنعه آباؤنا فى ذلك الزمن (كذا) .

وتوضع هذه الأشياء فى الصينية قبل صلاة المساء حسب الترتيب الآتى :

الذراع والمربى	البيض والكرفس
(فى اليمين)	(فى اليسار)

الفطير والعشب المر والخس
(فى الوسط)

ويجب على كل شخص فى هاتين الليلتين أن يشرب أربعة كؤوس نبيذ قانونية وهى :

١ — لأجل التقديس .

٢ — بعد تقديم الشكر على الخلاص من عبودية المصريين .

٣ — بعد تقديم الشكر لأجل الطعام .

٤ — بعد تلاوة المديح .

وللأولاد نبيذ حلو أو ماء زبيب .

وقبل ابتداء الطعام يقسم الفطير الذى فى الوسط الى نصفين . ثم يحمل أحد أفراد الأسرة الصينية على كتفه ويقول : « هكذا كان آباؤنا راحلين ، عند ما خرجوا من مصر معاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم، وفعل بنو اسرائيل حسب قول موسى » .

ويتلو أحدهم الكلام التالى :

« انظروا ! هذا هو خبز المشقة الذى أكله آباؤنا فى أرض مصر ، ليأت كل جوعان ، ويأكل منه ، وكل من يرغب ليأت ويعيد الفصح . اننا نعيده هنا الآن . ليتنا فى السنة الآتية فى أرض اسرائيل . اننا عبيد الآن . ونأمل أن نكون أحرارا فى السنة الآتية فى أرض اسرائيل » .

ويمضى ترديد كلام فى هـذا المعنى طول الليل « وكلما كثر الكلام فى موضوع الخروج من مصر مشكور » .

وفى هذه الصلوات نص صريح على أن المصريين انما نظروا الى اليهود نظرة قاسية لأنه «اذا حدثت حرب ، انهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا».

❋ ❋ ❋

وقبل أن نعرض لما ورد فى القرآن الكريم عن قصة خروج اليهود من مصر ، يجب أن نطيل التأمل فى هذه الكراهية الهائلة التى صبها كاتبو التوراة ، ثم مشايخ اسرائيل على المصريين . فمنذ بدأت احتفالات عيـد الفصح ، أى منذ خمسة وثلاثين قرنا ، وهم يسهرون ليلتين الى الصباح

يصبون شتائمهم وأحقادهم على المصريين ، لأن أحد الفراعنة القدماء ، الزمهم بالعمل فى تعمير بعض المبانى ، وكانوا للعمل رافضين ..

لم ينس اليهود الاسرائيليون منذ ذلك العهد السحيق اساءة هــذا الفرعون ، وحملوا كل مصرى يعيش على أرض النيل أحقادهم ، التى ظلت تتراكم هذه الفترة الطويلة حتى تحولت الى بحــر متلاطم الأمواج من الكراهية .

اذا كان أحد الفراعنة القدماء أساء الى اليهود ، فلماذا لم يذكر اليهود أن مصر قبل هذا الفرعون قبلت اقامتهم فيها ، بعد أن كادت المجاعة تفنيهم .. وأن مصر أكرمت منهم من أكرمت ، وقد تولى أحدهم منصبا كبيرا فى الدولة (يوسف الصديق) .. ولماذا لم يذكر اليهود أن هــذه الضيافة المصرية استمرت ٤٣٠ ســنة متوالية . عاشوا فيها على خير هذه البلاد وبرها ، وظلوا يتحدثون عن النعيم الذى كانوا فيه ، حتى كادوا يفتكون بموسى الذى أخرجهم من مصر .. ثم لماذا نسى اليهود فى وسط أحقادهم خلال صلوات عيــد فصحهم ، انهم قدموا قلة ذليلة تحصى بالعشرات وخرجوا وهم يحصون بمئات الألوف !!

ان الحقد مرض وبيل ، وهو الذى يحرك اليهود المعاصرين لثارات مرجعها هذا التاريخ القديم ، ولا يستطيعون الفكاك منها بحال ، لأنهــا تجرى فى نفوسهم مجرى الدم فى عروقهم .

ونعود الآن الى قصة خروجهم من مصر كما رواها القرآن :

الفصل الثالث

موسى يقود اسرائيل

نظرات فى القرآن :

يتحدث القرآن الكريم فى قصة موسى عليه السلام ، عن شخصيتين : هما فرعون وهامان .. ويصف فرعون بأنه علا فى الأرض وقسم الناس الى طبقات ، استضعف طبقة منها ، وسامها العذاب ، وكان يقتل الذكور من أبنائها ..

وبعد أن عرض القرآن لرحلة موسى الى بلاد مدين ، التى وصفته فيها احدى فتاتى شيخ القبيلة بأنه « القوى الأمين » جاءته النبوة ، ولخصت دعوته فى آيات بينات :

« اننى أنا الله لا اله الا أنا ، فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » .

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى » .

(طه)

ومؤدى هذه الرسالة ان النبوة فى صورتها الموسوية تدعو الى ثلاث:

- وحدانية الله ، ولا يعبد الا هو منزها عن كل شبيه ونظير .
- الصلاة لله تعالى ، أى الاتجاه بالدعاء له وحده .
- الايمان بالبعث وبالحساب فى الآخرة عن أعمال الانسان فى الحياة الدنيا . وعدم الاستجابة لمن يدعو الى غير هذه السبيل .

وقد استعان موسى على اقناع فرعون بوحدانية الاله بمنطق سهل بسيط ، فعندما سأله فرعون عن ربه :

« قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى »
« قال فما بال القرون الأولى »
« قال علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى »
« الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها »
« سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا »
« من نبات شتى . »
« كلوا ، وارعوا أنعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى »
« منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة »
« أخرى » .

واذن فقد تحدث موسى عن الاله الواحد ، الذى خلق وحده كل شيء وكل حى وهو اله الحاضر والماضى والمستقبل ، ليس قبله شيء ، وليس بعده شيء . وان من آيات وجوده هذا النبات ، ودورته حتى يصبح حياة ، ويصبح طعاما للانسان والحيوان . والله الواحد الأحد ، خلق أيضا الانسان ، ثم أماته ورده الى الأرض ، ثم هو الذى يبعثه حيا فى يوم معلوم .

هذه حدود الرسالة الموسوية المبلغة الى مصر وملكها ، وقائد جيشها (هامان) ، أو لعله كبير كهنتها .

الطغيان وما يجر اليه :

أما لماذا استحق حاكم مصر وأعوانه هذا التبليغ من رب السماء والأرض ، على لسان موسى وأخيه هارون .. وما الاثم الذى ارتكبه فرعون فتحدده الآية :

« اذهبا الى فرعون انه طغى » .

فقد عد الطغيان كبيرة الكبائر ، والاثم الذى لا يعدله اثم واستحق تحذير السماء ، واستحق عقوبة السماء .

الطغيان هو مجانبة العدل ، والعدوان على حريات الناس وأرزاقهم وأعراضهم وأرواحهم .

الطغيان هو الاعتزاز بالقوة ، واهدار آدمية البشر ، وهم خلق الله .. أعظم خلق الله .. أعظم من الملائكة وأجل شأنا .. هم صورة الله فى أرضه. فمن نسى الله فى عبادة ، فقد استحق هذا الوصف القرآنى .. استحق أن يكون طاغية ..

ولم يكن استبداد فرعون موجها الى اليهود وحدهم ، وكانوا ضيوفا على مصر منذ أربعة قرون وبعض قرن ، ولكنه انصب أيضا على شعب مصر ، لأن الطاغية لا يعرف حدا يقف عنده .. ولا يعرف ناسا يؤثرهم ويكرمهم ، وآخرون يبعدهم ويذلهم ، الا بمقدار ما يحقق مصلحته .

وقد كره القرآن الكريم الطغيان ، وأعطى صيغة مبالغة لمن يتصف به ، فهو « الطاغوت » ، وأحب القرآن العدل ، وحث عليه ، وجعله من صفاته تعالى ، وقرن به الرحمة التى لا تميل على الضعف والضعفاء ولكن تمد لهم يد المساعدة حتى يزول ما بهم من هوان ، ويسيروا مع الناس فى مسيرة الحياة الحرة بأقدام ثابتة ليس فيها مجال للخوف ، ولا للتهديد به .

اذهبا الى فرعون انه طغى .. هذا هو أمر السماء . وقولا له قولا كريما سهلا ، وهو انه انسان ، خلقه الله ، وأن الناس جميعا من خلقه . حتى هؤلاء الذين أذلهم حكمه وهم اليهود . والله لم يخلق الناس فقط ، ولكن خلق النبات كذلك ، وخلق الحيوان ، وخلق كل شىء . وانه هو ، وليس فرعون واهب الحياة ، وهو الذى يستردها ، فلماذا الطغيان ، ولماذا الأذى ؟

وما حدث كان مقدرا له أن يحدث ، فقد شاعت دعوة موسى الى التوحيد ، والى العدل بين الناس ، والى ترقب الموت والحساب فى حياة أخرى .. عاشت بين كثير من المصريين بل اعتنقها بعض أمراء وأميرات البيت المالك المصرى فى ذلك الوقت ..

واذن فلم تكن الدعوة الموسوية موجهة الى اليهود وحدهم ، ولا هى قاصرة على هذه القبيلة من بنى يعقوب ، ولكنها سرت وكانت دعوة عامة .

وليس عجيبا أن تكون هناك دعوة سماوية توجه الى قوم الحضارة من أبناء النيل ، بل لعلها لم تكن الدعوة الأولى . فقد سبقتها صيحة أخرى من أجل التوحيد ، ونبذ عبادة الأوثان ، صحبت وجود يوسف الصديق الى مصر ، قبل أن يتحدث بها موسى . وفى هذا نص صريح فى سورة المؤمن :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك ، مما جاءكم به ، حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » .

وتوالت الأحداث من بعد ذلك ، فقد واجه موسى ملك مصر ، ووجه اليه دعوته ، فأجاب اجابة ساذجة ، وهو أنه سيبنى برجا عاليا ، يصل الى السماء ، ليرى أين يوجد اله موسى ، ليواجهه . ولكن هذا البرج لم يبن ، على الرغم من ان مصر بلاد البناء والتشييد ، واكتفى فرعون بمواجهة عامة بين معجزات موسى ، وما يمكن أن يقوم به سحرة مصر ، وعلماؤها ، وكهانها لابطال هذه المعجزات والتفوق عليها . وقد وصف القرآن كلا من هؤلاء الأفراد بأنه « سحار عليم » .

وقد تفوق موسى ، فهو مؤيد من السماء

وذهل فريق العلماء والكهان والسحرة لما رأوا بأعينهم . ولا بد ان هذه المباراة كانت صاعقة مفحمة ، لم يملك مشاهدوها من المصريين

(باستثناء فرعون وبعض أركان حكمه) الا أن يخروا سجدا ، ويعلنوا على الملأ أنهم آمنوا برب موسى ، وكان تحديهم لفرعون ، يدل على شديد تأثرهم . لقد رفضوا تهديد الطاغية بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن يصلبهم على جذوع النخل ، ويسومهم من العذاب مالا قبل لبشر به .. أكثر من عذاب الآخرة فى زعمه .

فى ثقة ويقين قال هذا الحشد لفرعون الطاغية : فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا .. وقد عدوا ما كانوا فيه من عبادات وطقوس وثنية خطايا تمنوا على الله أن يغفرها لهم .

واذن فقد آمن بدعوة موسى الى التوحيد هذا الفريق الكبير من مفكرى مصر وكهانها ، وكانوا قد وفدوا للاجتماع الخطير من أقصى البلاد وأدناها ، من الدلتا والصعيد وما بينهما .. وأرجح الظن أن هذا اللقاء كان فى منف (الجيزة) ، فهى حاضرة البلاد الثانية بعد طيبة (الأقصر) ، وذلك لقربها من جاسان (الشرقية) حيث استقر اليهود وأقاموا .

ولم تقتصر دعوة موسى على من شهد المعجزات ، بل لعل التمهيد للدعوة سبق هذا الموقف . فان القرآن الكريم يحدثنا عن « رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم ايمانه » ولا عجب أن يكون لموسى فى القصر الملكى أصدقاء وأوفياء ، فقد نشأ فيه وعاش حتى بلغ سن الأربعين . ولا بد أنه كان يتحدث عن عقيدة التوحيد كما جاء بها ابراهيم الخليل ، وهو حديث هامس ولا شك لم تعلم به السلطات الحاكمة ، وان كانت سجلت عندها ان موسى قتل رجلا من المصريين وانه هرب من مصر حتى لا يحل به العقاب ..

لقد تصدى هذا الرجل من آل فرعون للملك ، عندما قرر أن يعدم موسى ، حتى لا يبدل دين المصريين جميعا .. وكان منطقه فى الدفاع عن رسول دعوة السماء ، أنه اذا كان كاذبا فعليه وحده الذنب ، وان يك

صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . ويبدو أن هـــذا المصرى المؤمن بالتوحيد ، كان وافر العلم ، وافر الشجاعة ، فقد ضرب أمثلة لما حدث للظالمين من الحكام السابقين فى شعوب أخرى .

وانتهى أمر المواجهة بين ملك مصر ، ونبى الله موسى ، لتستمر باقى المعجزات التسع ، التى أريد بها اظهار سلطان الله تعالى على الخلق جميعا وكل آية تكبر التى قبلها .

المسيرة الى سيناء :

وفى ليلة من ليالى الربيع المصرى ، أوحى الله الى موسى ، ان يسير بقومه من اليهود الى سيناء ..

وكانت مصر فى هذا الفصل من العام بادية الرونق ، مروجها مزهرة ، وقنواتها جارية ، ولقد أصاب بعض الاضطراب جنبات الحياة ، على يد موسى ومعجزاته التسع ، فان آخر منظر رآه اليهود فى مصر مما لا ينمحى من الذاكرة .. وقد ورد وصف سريع لمصر فى ذلك الوقت ضمن ما تحدث به القرآن عن خروج اليهود .. قال :

« كم تركوا من جنات وعيون »

« وزرع ومقام كريم »

« ونعمة كانوا فيها فاكهين »

وما أكثر ما كانت تنبت مصر من أصناف الغذاء .. من بقلها ، وقثائها ، وفومها (١) ، وعدسها ، وبصلها .. وما أكثر خير النيل عندما كانت أسماكه تغذى الناس بأشهى غذاء .. ولكن هذه الوسائل الميسرة للحياة ، لم تكن كافية لتشعر اليهود ، وشعب مصر من حولهم بالراحة النفسية والرفاهية الحقيقية ، طالما أن سلطان القانون قد اختل فى يد حاكمهم ، وهم غرباء عن البلاد ، ان ينجوا بأنفسهم ، متبعين داعيتهم الأكبر موسى الكليم ، وأخيه هارون .

(١) الفوم هو الحنطة

وقد عرض كثير من الباحثين للطريق الذى سلكه موسى وقومه فى خروجهم من مصر . قالت التوراة ان موسى لم يتجه مباشرة عبر سينا الى فلسطين ، حتى لا يفزع اليهود من محـاربة الفلسطينيين ، ولم يكونوا مستعدين لهذه المعارك ، فيعودوا ادراجهم الى مصر ، أرض عبوديتهم .

ووصفت التوراة الماء الذى اجتازه اليهود بأنه « بحر سوف » وقد اخترنا من بين المراجع عن رحلة الخروج كاتبا ، كان قنصلا للولايات المتحدة فى مصر منذ قرن من الزمان تقريبا . أو على وجه التحـديد عام ١٨٧٦ ميلادية . وقد سهل له الخديو اسماعيل القيام برحلة علمية متبعا خط سير موسى وقومه ، ودارسا على الطبيعة ، ما كان عليه طريق العبور فى ذلك التاريخ البعيد .. هذا القنصل ، اسمه « البرت فارمان » (١) .

قام هذا الرحالة الأمريكى برحلتين ، واحدة على شواطىء بحـيرة المنزلة ، ثم الى موقع مدينة « زون » القديمة ، أو « تانيس » كما أسماها الأغريق ، أو « صان » .

اختلفت الآراء بالنسبة للمكان الذى استقر فيه الاسرائيليون أثنـاء اقامتهم فى مصر فهؤلاء الذين يتمسكون بنظرية مرورهم بالفعل من المكان الذى يعتبر الآن جزءا من البحر الأحمر ، يقولون ان هذا المكان فى أقصى الجنوب ، بينما يعين آخرون ذلك المكان فى أقصى الطرف الشمالى الغربى من البلاد .

وتدل القرائن الأثرية واللغوية على انه من المحتمل أن يكونوا قـد احتلوا الجزء الأكبر من الاقليم الواقع فى شمال الدلتا ، وشرق فرع دمياط من النيل عندما أصبح عددهم كبيرا . ويشمل هذا الاقليم أخصب الأراضى المصرية ، انتاجا (كذا) ، وكان كافيا لاقامة مليون نسمة ، ولقد أصبح

(١) كتاب : مصر ، وكيف غدر بها تأليف البرت فارمان ـ ترجمه المجاهد الوطنى ، من شباب ثورة سنة ١٩١٩ الاستاذ عبد الفتاح عنايت المحامى .

الجزء الأكبر من هذه الأراضي صحراء غطتها المستنقعات ، بعد ان كانت من أغنى الأراضى زراعة .

« وكان يوجد بالمنطقة المجاورة لبحيرة المنزلة أراض وطيئة رطبة . تنتج الحشائش الرديئة . التى تتغذى عليها الماشية . وكانت تحد شرقا بالصحراء التى تنتج من النباتات فى كثير من الأماكن فى فصل الشتاء ما يكفى لتغذية عدد محدود من الماعز والأغنام . وكان يبلغ عدد ذرية يعقوب وقت نزولهم مصر ستا وستين نفسا . ولقد أقاموا خيامهم فى بقعة صغيرة من الأرض الخصبة المجاورة للصحراء ، مثلهم فى ذلك مثل أعراب الوقت الحاضر . كما أنهم ضموا اليها جزءا من الأراضى الرطبة المجاورة للبحيرة . وكان هذا بالنسبة لهم اختيارا موفقا ، فهى حديقة فيحاء . وكان هذا هو الواقع اذا قورنت هذه الأراضى بالأراضى الصخرية الوعرة التى هاجروا منها . كانت هذه الأرض ملائمة تماما لحياة الرعاة ، ولحفظ قطعانهم التى أحضروها معهم ، ولو أنها لم تكن مرغوبة لدى المصريين » .

وبعد رحلة استكشافية فى الأرض المجاورة لشواطىء بحيرة المنزلة ، والوقوف عند اطلال مدينة صان عاد القنصل الأمريكى وصحبه ، واذا بهم امام مفاجأة لم تكن فى الحسبان . فقد وجد القارب الذى كانوا يستقلونه فى البحيرة ابتعد بضعة أميال عن موقعه الذى تركوه فيه وذلك لأن الرياح الشمالية تدفع المياه وتغير مناسيبها .. فهى فى وقت من اليوم ضحلة قليلة الغور يمكن السير فيها بالأقدام العارية ، ونفس المكان فى وقت آخر موفور الماء يغطى قامات الرجال مثنى وثلاث .

وكانت بحيرة المنزلة تمتد عشرات الأميال خارج حدودها الحالية ، وكانت للنيل فروع تصب فيها جفت الآن ، وربما كانت البحيرات المرة الحالية . من مخلفات بحيرة المنزلة .

يقول هذا المصدر ، وينقل عن الاثريين الذين عاصروه :

« فى مخطوطات التوراة القديمة ، كانت الكلمات التى ترجمت بالبحر هى يم سوف ، وتعنى بحر سوف ، والكلمة العبرية (سوف) تعنى الأعشاب وسمار الحصر ، ونبات البردى .. وهى تشير الى منطقة صالحة للملاحة مغطاة بالنباتات المائية مثل بحيرة المنزلة . وكانت تنبت فى البحيرات والمستنقعات الواقعة فى شمال شرق مصر .. وقد صنع تابوت موسى من السوف ، أى من السمار والبردى .

ووصف رحالة قديم (ديودورس) هذه المياه بقوله : « ان سطح المستنقع الذى يمتد أميالا ، كان مغطى برمال جارفة تغوص فيها الأقدام .. لقد غصت حتى ركبتى تقريبا فى الوحل .

وكانت البحيرات الضحلة ممتدة على طول الساحل ، وتكون عديدا من الخلجان ، وما بين هذه الخلجان يمكن العبور الى شاطىء البحر . وقد ورد فى التوراة ان بنى اسرائيل فى خروجهم تسلكهم الفزع « وجعل الله البحر ينحسر بواسطة ريح شرقية قوية هبت طوال الليل واحالت البحر أرضا يابسة » .

وذكر الرياح الشرقية فى هذه الرواية يجعل طريق العبور بين بحيرة المنزلة والبحر الأبيض حيث يمكن ان تتراجع المياه الضحلة اذا دفعتها رياح قوية كما ورد فى هذا الوصف . واستمرت معجزة العبور طوال الليل ، فلما قدم فرعون وجنده ، مقتصين أثر القبائل الهاربة ، تابعوها على نفس الأرض ، دون أن ينتبهوا الى أن انحسار الماء عنها ، هو أمر مؤقت ، فاما سكنت الريح انطبق الماء من الجانبين : جانب البحيرة ، وجانب البحر . فغرق فرعون ومن معه .

وقد ورد فى التوراة أن المياه كانت على جانبى طريق العبور كالجدار من يمين ومن شمال وقد أدى هذا الوصف المجازى بتصور ان هذا الماء هو ماء البحر الأحمر ، وعلى هذا الأساس تصور سيسيل دى ميل ،

وخبراءه فى فيلم السينما الذى عرض لهـذا الحادث ، فاع البحر الأحمر بأعماقه البعيدة ؛ والمـاء من الجانبين أعلى من جدار كل هرم فى البلاد .

ومحققو القـرن المـاضى الذين راجعوا طبيعة الأرض المصرية على امتداد خليج السويس والبحيرات المرة ، استبعدوا كل مكان الا شواطىء بحيرة المنزلة .

وكانت الحملة المصرية وراء اليهود الفـارين مكونة من ٦٠٠ عربة حرب ، وكانت المطاردة فى أواخر الليل ، وقد غاصت العجلات فى الوحل ، ثم ما لبث مد البحر أن غمر الطريق .

وبعد أن أوغل الاسرائيليون فى الصحراء متجهين جنوبا ، دار البحث عن جثث الغرقى ، وأمكن انقاذ جثة فرعون ، كما ورد فى القرآن لتكون للناس عبرة . وقد وجدت جثث الفراعنة الأربعة الذين تعاقبوا من الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، وأحـــدهم على أرجح الأقوال ، هو فرعون الخروج ، من بين ما يحفظه متحف القاهرة .

وقد ورد فى القرآن أن فرعون ، وقد رأى الموت يحتويه ، تأكد ان معجزات الله طالته هو فهتف يعلن ايمانه ، ولكن هيهات .. تقول سورة يونس :

« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، »
« حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو »
« اسرائيـل ، وأنا من المسـلمين آلآن وقد عصيت قبـل وكنت من »
«المفسدين .. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من »
« الناس عن آياتنا لغافلون . »

وفى هذه اللحظة الحاسمة ، يتبين لنا ان نقطة الخلاف بين العقـائد المصرية فى ذلك الوقت وعقيـدة موسى هو « التوحيـد » والايمان باله واحد أحد ..

وهكذا أغلق باب من هداية السماء فى مصر ، حاول اخنـاتون فيما بعد أن يفتحه قليلا ولكن لم تستمر محاولته ولم تفلح ، وظل الأمر كذلك

حتى جاء المسيح عليه السلام ، فاقبل المصريون على رسالته ، ثم جاء محمد ابن عبد الله ، فكانت مصر ، وما زالت كلمة التوحيد الكبرى .

موسى .. فى أرض سينا :

ومتابعة للدراسة على الطبيعة ، نسير مع الموكب اليهودى المذعور وموسى يقوده ، ويبث فيه الطمأنينة بعد أن رأت كثرتهم ، كيف أيده الله بنصر من عنده عندما أنجاهم من بحر « سوف » أو بحر الغاب والأعشاب. وغرق فيــه فرعون وجنوده . وقد حسب اتبــاع موسى أن الطريق الى فلســطين أصبح ممهدا ، وما هى جولات بين الرمال ، حتى تتراءى لهم فلسطين ، واذا الرب الذى وصفوه بأنه « رجل الحرب » (كذا النص فى التوراة) يضرب لهم الســـكان الأقوياء ومنهم الأدوميون والمؤابيون ، والكنعانيون ، وبعظمة ذراع الرب تذهل الأقوام وتسكت كالأحجار .

ورقصت مريم كما تقول التوراة ، ومعها جميع نساء اسرائيل ، كما لم يرقصوا من قبل ، وضربوا الدفوف عالية .. ولم تكن مريم هــذه الا أخت هارون .. ولكن بنى اسرائيل أرادوا شيئا ، وأراد الله شيئا آخر .

سار اليهود فى الصحراء جنوبا ، ولم يسيروا شرقا ، وطالت مسيرتهم ثلاثة أيام .. وما أن أحسوا بالعطش حتى بدأ عويلهم وصراخهم . فعهدهم ما يزال قريبا بمياه النيل العذبة الوافرة ، الى أن حطوا رحالهم فى واحة بها بعض العيون والنخيل ، ويقال لهذا الموقع « ايليم » وهو مكان لم يعرف مكانه الآن بالضبط .

وتابع موسى السير بقومه جنوبا الى جبل الطور ، حيث أمر أن يتجه . وكانوا يقيمون حيث يجدون بعض المــاء ثم يرحلون ، خوفا من أن يتابع المصريون البحث عنهم بعد أن يفيقوا من كارثة الغرق .

وما أكثر ما ضــاق اليهود بنبيهم وقائدهم ، لمــا عانوه من مشــقة السير ، ووحشة الصحراء وكان مما قالوه : « ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، اذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكل خبزا للشبع ، فانكما (موسى

وهارون) أخرجتمانا الى هـذا القفر ، لكى تميتا كل هـذا الجمهـور بالجوع » .

استغرقت هذه المسيرة ستة أسابيع ، وحتى تهدأ ثائرة اليهود ، فقد استجاب الله لدعاء موسى وأرسل لهم المن والسلوى طعاما لكل يوم وجبته. ومن جمع طعام يومين أو أكثر فسـد طعامه .. ولكن اليهود على مأثور عادتهم لم ينفذوا الأمر واختزنوا ما فسد منهم . فلما جاء يوم الجمعة ، اذن لهم فى طعام يومين ، لأن السبت كان تقرر عطلة مقدسة لليهود .

وعند جبل حوريب نند المـاء من بنى اسرائيل ، وكاد شغب هـذا الشعب ضد موسى أن يقضى عليه . فتضرع الى ربه أن ينقذه ، فان اليهود أوشكوا أن يرجموه حتى الموت . فانقذه الله بمعجزة أخرى ، اذ ضرب الصخرة بعصاه فتفجر منها ماء سقى قومه .

وعند سفح الجبل ، وأثناء الشهر الثالث من خروج اليهود من مصر ، ضرب اليهود خيامهم وأقاموا ..

****

ومرة أخرى نصاحب رحالة القرن الماضى الذين وصلوا الى البقعةالتى توارثت الأجيال أن اليهود أقاموا عندها ، وان الجبل عنـدها هو الجبل الذى كلم الله تعالى فيه سيدنا موسى .

رحالتنا هذه المرة هو أيضا القنصل الأمريكى البرت فارمان الذى كان موفدا الى بلاط الخديو اسماعيل . فقد رحل فى خليج السويس بحرا الى جنوب شبه جزيرة سينا ، ووصل الى جبل « سينا » المقدس مع قافلة ، حيث يوجد دير سانت كاترين الشهير ، أى أنه لم يتخذ الى الجبل مسار بنى اسرائيل القديم من أقصى الشمال الى الجنوب .

قال : كان أمامنا سهل يبلغ اتساعه ما بين ربع ونصف ميل ، ويبلغ طوله حوالى ميلين ، وهو ينحدر بالتدريج الى قاعدة « رأس الصفصاف » وهى عبارة عن جدار صخرى عار ، ظهر أمامنا فجأة ، وقد ارتفع فى الفضـاء حوالى ألف قدم .. وعلى اليسار يوجـد وادى الدين ، وفى أسفله دير

« سانت كاترين » بجدرانه العالية ، وحدائقه وأشجاره . وفى مواجهة هذا الدير على الجانب الآخر من الوادى الضيق توجد سلسلة جبلية تبلغ نفس الامتداد ، ويبلغ ارتفاعها ارتفاع جبل سيناء .. والمفروض أن تلك الهضبة الرملية القفرة العالية المستقرة عند أقدامنا ، وسط جدران الجبل المحيط بنا ، كانت معسكرا للاسرائيليين . والجبل الذى ظهر أمامنا ، كان مسرحا لمظاهر الجلالة الالهية ، ومحط ميلاد الشرائع الربانية . كما شاهد قصف الرعد ، ووميض البرق ، وكما ورد فى التوراة : « الرياح العاتية التى فرقت الجبال ، وفتتت الصخر أمام الرب » .

وبعد ان وصف دير سانت كاترين قال الرحالة : وحوالى الساعة الثانية استيقظنا على أثر دوى الرعد ، ثم أخذ القصف يلى القصف ، وينتقل من جبل الى جبل ، وكان الصوت يرتفع ويشتد نتيجة تردده بين الصخور العالية المحيطة بنا ، وقد أصبحت خيمتنا مضيئة كما لو أشرق عليها النهار . وعند خروجنا من الخيام ، شاهدنا أروع مظهر من مظاهر الطبيعة . فقد كانت السماء ملتهبة ، وخيوط الأشعة تضرب فى كل اتجاه بين الصخور مضيئة تلك الجبال والوديان . ثم أعقب ذلك قصف رعد شديد اهتزت له الجبال ، وكأنها كانت على وشك أن تميد وتتشقق وتتفتت .. ولم أشهد فى حياتى (الرحالة يروى) أشد وحشية ، وأروع قوة من رعد طور سيناء حيث يتجاوب قصفه بين جوانب الجبال ، وكأنه سيطير بقممها ويلقى بصخرها بين ما حولها من الوديان .. وأعقب ذلك مباشرة هبوب الريح وسقوط المطر ، واذا بنا نسمع زئير السيول المندفعة على جانب الجبل ، ونرى الأرض وقد غمرتها المياه .. وفى الصباح كانت كل الجبال ناصعة البياض ، وقد غطيت بطبقة رقيقة من الجليد ، واذا بالصيف الطويل الجاف قد تبدل شتاء ، فبقينا بالدير .

ويمضى صاحبنا فيقول : كانت جبال شبه جزيرة سينا فى نظر العالم القديم مقدسة قبل عهد موسى بزمن طويل ، وقد ظلت كذلك . ووفد اليها كثير من العابدين نحتوا لهم بيوتا فى الصخر أقاموا فيها قرارا من

الاضطهادات .. ومنذ زمن بعيد كان الكثير من الرهبان يتخذون محل اقامتهم على مقربة من جبل سيناء ، وأطلقوا عليه اسم « حوريب » أو « جبل الشريعة » . وفى عام ٥٣٠ بعد المسيح ، أنشأ الامبراطور جستنيان كنيسة فى سيناء محاطة بحصن لحماية الرهبان . كما أنشأت الامبراطورة هيلانة عند موقع « الشجرة المحترقة » برجا وكنيسة داخل أسوار الحصن . وكان موقع هذه الشجرة غير معروف ، حتى كشفه أحد الرهبان، دلته عليه رؤية فى المنام . والكنيسة التى أنشئت داخل القلعة تضم عدة كنائس صغيرة ، وهياكل لا حد لها ، كما تضم شمعدانات ، ومصابيح وكثيرا من الهدايا الثمينة ، منها هدايا كاترين قيصرة روسيا والاسكندر الثانى . كما توجد بها آثار مقدسة ، منها جمجمة ويد سانت كاترين القديسة التى نفذ فيها حكم الاعدام فى الاسكندرية عام ٣١٣ ميلادية .

وفى معبد « الشجرة المحترقة » وضع طبق فضى يدل على المكان الذى استقرت فيه هذه الشجرة ، وعند الدخول من الكنيسة الى هذا المعبد يجب أن تخلع نعليك كما كان يفعل موسى عليه السلام . وقد كسا الرهبان أرضيته بسجاجيد فاخرة . كما يوجد مسجد صغير بناه السلطان سليم الأول العثمانى له مئذنة واحدة .

وبعد أن ألقى الرحالة نظرة محيطة على الدير الشهير ، بدأ رحلته متسلقا جبل موسى ، المعروف لدى الرهبان باسم « جبل الشريعة » . وعملية الصعود شاقة جدا ، تحتاج من متسلق الجبل المتمرس الى ثلاث ساعات ، ويزيد ارتفاع القمة عن ارتفاع الهرم الأكبر أربع مرات ، وقد وجد صاحبنا عين ماء باردة تنبع من تحت صخرة جرانيتية هائلة . وقد أسماها اعراب هذه المنطقة بعين موسى .

وفى الصعود الى قمة الجبل ، تخلى عن هذا الرحالة أصحابه ، ومنهم جنرال أمريكى لوعورة الطريق وصعوبته ، ولكن قاده فى الشعاب الخطرة قس يونانى من شباب الرهبان فى الدير ، وكان قد مر فى طريقه بأثر اسلامى

بنى عنده مسجد ، قيل أن نبى الاسلام محمد عليه السلام مر به فى رحلة الاسراء الشهيرة ، وهو أمر لم تسجله المراجع الاسلامية . ثم وصل الى جبل الصفصافة . وهى شجرة قديمة أخذ منها موسى عصاه الشهيرة . ومضى يقول : وتسلقنا زاحفين على حافة الجبل للوصول الى قمته . هنالك جلس الراهب وخلع نعليه ، وأومأ الى بحركة فهمت منها ان أخلع نعلى كذلك . فتركناها وراءنا ، وواصلنا الصعود الى القمة ، وهو حافى القدمين ، وأنا مرتد جوربى .. ولقد قادنا الراهب وتبعته فى ذلك على قدر المستطاع فوق تلك الصخور الجرانيتية الحادة محاولا الاحتفاظ بتوازنى دون أية دراية بما يحيط بى ، أو بالمكان الذى أنا ذاهب اليه .

وكان الرحالة والراهب مضطرين أحيانا للسير فوق طريق ضيق كالرف الذى لا يزيد اتساعه على اثنتى عشرة أو أربع عشرة بوصة (طول المسطرة العادية تقريبا) ..

وبعد أهوال لقيها الصاعدون من شدة الريح ومخاطر الجبل وصلا الى قمة جبل موسى (٨٥٠٠ قدم فوق سطح البحر) وكانت القمة مجموعة من الصخور والحجارة .

ثم بدأت رحلة العودة على سفوح عمودية ملساء تقريبا وكان الراهب ماسكا بالرحالة وكأنه طفل لا حول له ولا قوة يقول « ولقد حاول الراهب أن يطمئننى ويساعدنى على النزول الى ذلك الممر الضيق الممتد على جانب الصخور ولكننى لم أستطع . وأخيرا ضمنى اليه وأمسكنى بذراعيه، حيث سار بى فى الممر بكل ثبات ، حتى النهاية حاملا اياى ، وكأنه يحمل طفلا .. ولست بحاجة الى القول بأن الرعشة قد تملكتنى ، وان حلقى كاد ينسد . وبعد مضى سنين عديدة ، لا تزال ذكرى هذه الرحلة وأهوالها عالقة بذاكرتى . وكلما تمثلتها أصابتنى رعشة ، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات .

وقد أسهبنا قليلا فى وصف المنطقة التى وصل اليها موسى عليه السلام، ورحلة المخاطر التى قام بها ليتلقى كلمة ربه ، ولا نكاد نعلم عن واحد من

انبياء الله ، الا أحاطت به المخاطر المهلكة . فهى امتحان لطاقتهم وصـدق ايمانهم ، ورياضة لهم على تحمل الأهوال فى سبيل تبليغ كلمة الله سبحانه وتعـالى .

وقد قصصنا بعض ما لقى ابراهيم الخليل فى العراق ، وقد لقى يوسف الصديق فى مصر امتحانا آخر مع امرأة الوزير المصرى ، فى القصة المشهورة مما أدى به السجن . وهذا هو موسى عليه السلام يمتحن مرة بعد مرة ، فى سلسلة من التجارب الطويلة ، بادئة برحلته مع الرجل الصالح الخضر ، ثم مواجهته لفرعون وهامان ورحلته المخيفة عبر المياه المصرية الى سينا وصعوده الجبل الجنوبى ليتلقى وحى السماء بعد أن لقى من قومه اليهود أهوالا تتضاءل بجانبها مخاوفه من المصريين ، مما سنمضى فى عرضـه . وكذلك حدث مع سـيدنا عيسى المسيح ابن مريم ، حيث لقى من قومه اليهود أسوأ ما يلقى داعية رسـالة الحب والسـلام . ونفس المخاطر والأهوال ، ولكن بصورة أخرى لقيها نبى الاسـلام سـيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من قومه كفار قريش .. هذا هو قدرهم ، وهذا بعض من تكاليف النبوة كتبت عليهم ..

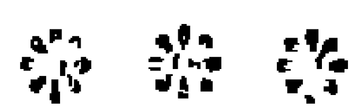
ماذا قالت التوراة ، وماذا قال القرآن :

ورد فى التوراة : « فانحدر موسى من الجبل الى الشعب (اليهود) ..

وفى اليوم الثالث لمـا كان الصباح ، أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل ، وصوت بوق شديد جدا . فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة .. وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله . فيقفوا فى أسفل الجبل . وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل الرب عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون ، وارتجف كل الجبل جدا . فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت .

« ونزل الرب على جبل سيناء الى رأس الجبل . ودعا الله موسى الى رأس الجبل ، فصعد موسى . فقال الرب لموسى انحدر حذر الشعب : لئلا يقتحموا الى الرب لينظروا ، فيسقط منهم كثيرون » .

ولما اعتذر موسى بأن الشعب اليهودى لا يستطيع الصعود الى الجبل (وكأن الله لا يعرف هذا ..) وافق الرب على أن يصعد هارون مع موسى مكتفيا بهما .. ووقف الشعب من بعيد ، وأما موسى فاقترب الى الضباب حيث كان الله !



أما القرآن الكريم فبعد ان تحدث عن عبور بنى اسرائيل ، وما حدث لفرعون ، ورد فى سورة الاعراف (١٤٢) :

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، واتممناها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين » .

« ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : ربى أرنى أنظر اليك ، قال لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا . فلما أفاق ، قال سبحانك تبت اليك ، وأنا أول المؤمنين » .

وقد ورد ذكر جبل الطور فى القرآن الكريم عشر مرات (١) . وقرن بسيناء ، عندما ورد ذكر شجرة « تخرج من طور سيناء » . بل هناك سورة الطور ، التى أقسم الله فيها به « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ..» وقسم آخر بنفس الجبل فى سورة التين : « والتين والزيتون، وطور سينين » .

---

(١) ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم خمس مرات ، وسيناء وطورها جزء من مصر ، فيكون قد ورد ذكرها أو بعض منها ١٥ مرة .

وهذا يدل على حفاوة القرآن بهذه البقعة ، بوصفها من البقع المقدسة، مثلها كمثل صخرة القدس ، والكعبة المشرفة . الا انه لم يؤذن بالحج اليها كما اذن بالحج الى مكة ، وبيت المقدس .

تعداد بني اسرائيل :

كم كان عدد اليهود الاسرائيليين الذين خرجوا من مصر ، يقودهم سيدنا موسى الى سيناء ؟

تقول التوراة : « فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس الى سكوت ، نحو ستمائة ألف ماش من الرجال غير الأولاد ، عدا الأولاد . وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر مواش وافرة جدا » .

فاذا أخذنا بالرقم الذى ذكرته التوراة بأن يعقوب وأسرته ومعهم يوسف وابناه ، وكانوا سبعين فردا ، واذا وافقنا على أن اقامتهم بمصر لم تتجاوز ـ بنص التوراة ٤٣٠ عاما ، فان مما يثير الدهشة تكاثرهم فى هذه المدة الى عشرة آلاف ضعف ، بفرض ان الصغار كانوا مائة ألف فقط ، والنساء لم يحسبوا ربما فى القدوم والخروج معا !!

ان أعلى نسبة لتزايد السكان لا تتجاوز فى النادر ٣٪ ، وربما تجاوزت هذا القدر بكسر صغير . وعامل الوفيات ينقص هذه النسبة ، ولا يزيدها ، لأن الأوبئة كثيرا ما تفشت فى اليهود ، لعدم ميلهم الى النظافة والاستحمام، مما سنعرض له بعد .

وقد شك دارسو التوراة كثيرا فى رقم التوراة . بل أن بن جوريون الاسرائيلى المعاصر ، أبدى هذا الشك وقال ان صفرا على يمين هذا الرقم زاد خطأ ، ولكن ما أن زجره الحاخام ، حتى تاب وأناب ، ورجع عن قوله .

ويبدو أن القول الفصل فى عدد اليهود ، هو طبيعة المكان الذى عسكر فيه اليهود على سفح جبل سيناء وبالقرب منه ، وأى عدد من البشر والحيوان يتسع له .

ان أقرب واحة لجبل موسى كانت وما تزال واحة فيران ، التى لم تزد مساحتها عن مائتى فدان صالحة للزراعة وهى واد عميق ضيق ، تكتنفه من الجانبين جبال عالية ، كما يخترقه جدول دائم يجرى فى وسط الوادى حتى يختفى بين الصخور ، وينبع هذا الجدول من سفح جبل سيناء ويجتمع ماؤه من أمطار وثلوج الشتاء ، وفى هذه الواحة عدد كبير من النخيل . وقد أقبل على هذه الواحة عدد كبير من معتنقى المسيحية ، وأقاموا فيها عددا لا يحصى من صوامع العبادة . وربما كانت هذه الواحة هى التى سكنها فى وقت هجرة موسى قوم سموا العماليق ، حاربهم موسى وأجلاهم عنها . وبالقرب من واحة فيران مناجم الفيروز والنحاس ، كشفها المصريون القدماء من أيام سنفرو وخوفو من ملوك الأسرة الرابعة المصرية .

ان مساحة هذه الواحة وما تتيحه من اعاشة بنخيلها وبشجر الطرفاء فيها لا يتسع الا لعدد محدود من الناس والماشية ان أمكن . والطرفاء هى الشجيرة التى تنتج ثمرة « المن » التى عاش عليها اليهود أول هجرتهم من مصر .

يقول القنصل الأمريكى الذى ارتاد هذه الأماكن منذ قرن من الزمان : « وبالنسبة للرواية التى وردت فى التوراة ، فان بنى اسرائيل كان يزيد عددهم عن مليونين (ربما أضاف النساء والأطفال الى الرقم الذى نقلناه عن التوراة ، والماشية أيضا) . ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف كان حتى ١٪ من هذا العدد يعتمد فى حياته على محاصيل هذه المنطقة . وفى فصل الجفاف كانت كمية الماء لمثل هذا العدد الجسيم من الناس غير كافية بالمرة . حتى أنه اذا دخل هذه المنطقة ألفان من الناس ، وانقطع المدد من مصر وغيرها . كما كان الحال مع الاسرائيليين ، فلا بد وأن يموت أغلبهم جوعا . ولذا فان مسألة الخروج كلها بالنسبة للذين لا يعتقدون فى العناية الالهية لا يزال يكتنفها الغموض » .

واذن فتحليل تعداد الداخلين الى مصر مع يعقوب ، والخارجين منها ، واحتمالات الاعاشة مدى أربعين سنة كاملة لا تجعل رقم التوراة يثبت

لأى نقد . صحيح ان اليهود فى سينا لم يمكثوا كثيرا عند جبل الطور ، ولا فى واحة فيران ، وربما تحركوا ساحلين على خليج السويس الى موقع قريب من « أبو زنيمة » كما تذكر بعض الروايات ، حتى نهاية السنين التى قضى عليهم ببقائهم فى « التيه » جزاء ما ارتكبوا من عصيان وآثام بعد فرارهم من مصر .. ترى ما هذا الذى صنعوه ، حتى حلت بهم هذه العقوبة الالهية ؟

ألواح موسى .. والوصايا العشر :

أما وقد شاءت ارادة الله ، أن تجرى تجربة الهداية على هذا الفريق من سلالة ابراهيم الخليل . فكان لا بد لنبيهم المختار — موسى الكليم — من رسالة يسير هؤلاء القوم على هديها . وعبادات وطقوس يتبعونها .. وهى ما يسمونها الفرائض والشرائع . وقد بدأ الأمر كله بالوصايا العشر ، التى نالت شهرة كبيرة فى دنيا العقائد ، وان كان عدد قليل من اتباع الأديان السماوية — المسيحية ثم الاسلام — قد قرأ هذه الوصايا بتمعن ..

كيف نزلت الوصايا العشر على موسى .. كان ذلك فى الشهر الثالث من دخولهم سيناء واقترابهم من الجبل ، فهذا ما ترويه التوراة فى الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج .

« وأما موسى ، فصعد الى الله فناداه الرب من الجبل قائلا :

« هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بنى اسرائيل .. أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين . وآنا حملتكم على أجنحة النسور وجئت بكم الى . فالآن ان سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى ، تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب . فان لى كل الأرض . وأنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة .. »

واذن كان تصوير اليهود لأنفسهم فى التوراة على أنهم أمة مختارة ، وجنس يفوق الأجناس ، ان الله يعطيهم ولا يأخذ منهم .. يعطيهم ولا يأخذ منهم خلقا ، ولا عدلا ، ولا كرامة .

هذا هو الوهم الكبير الذى عاش فيه اليهود ، وقد رأينا كيف نقضوا كل عهد ، وسنرى بعد حين كيف كفروا بأنعم الله . مما استحقوا عليه اللعنة، وايثار الخالق لكل الناس ، البشرية جميعا ، بهداه ، من دون هذه الحفنة من اليهود .

ولنعد الى الوصايا العشر :

لقد قالت التوراة ان الرب أمر اليهود بأن يغسلوا ثيابهم ، ويستعدوا لليوم العظيم .. ويبدو أن موسى حاول كثيرا ، وهو فى مصر أن يحمل اليهود على التزام قواعد النظافة التى كان يهتم بها المصريون كثيرا . ولم يكن ذلك لأسباب دينية ، ولكن لأسباب صحية ، فكثيرا ما كانت تفشو بينهم الأمراض .. ولهذا لا تعجب اذا اشترط « الرب » أن يفدوا الى سفح الجبل بثياب نظيفة .

ويبدأ الرب يتكلم والوصايا تسجل :

الوصية الأولى : « أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر ، من بيت العبودية لا يكن لك آلهه أخرى أمامى » .

وهنا نجد أن الوصايا ، هى اقرار مبدأ التوحيد كما جاء به ابراهيم الخليل .

الوصية الثانية : « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن . لأنى أنا الرب الهك ، اله غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى ، وأصنع احسانا الى ألف من محبى ، وحافظى وصاياى » .

وهنا نجد اقرارا لمبدأ الانتقام والثأر المستمر من الذرية الى الجيل الرابع ، حتى لو لم يذنب منهم أحـد ، ولو لم تسمـع الذرية بما صنعه الأجداد ، لتحمل وزره .

الوصية الثالثة : « لا تنطق باسم الرب الهك باطلا ، لأن الرب لايبرىء من نطق باسمه باطلا » .

وهذا مبدأ طيب لصيانة الذات الالهية من عبث المخلوقات ، ولكن ما أكثر ما ادعى اليهود على الله باطلا ، وهل معظم ما فى التوراة صحيح وقد مر بنا بعضه ؟ أم انه افتراء وعدم تنزيه للذات الالهيــة عن عيوب الناس .

الوصية الرابعة : «اذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة أيام تعمل ، وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك . لا تصنع عملا ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك ، وبهيمتك وتزيلك الذى داخل أبوابك لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها . واستراح فى اليوم السابع « لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » .

هل عمل اليهود من بعد موسى بهــذه الوصية ؟ ان يوم السبت كان من أيام حروبهم وعدوانهم فى فلسطين وسينا منذ وضعوا أقدامهم فيهــا قديما ، حتى تسربهم اليها مع الاستعمار الانجليزى وخلال حربهم الأخيرة فى سينا وسوريا والأردن .

الوصية الخامسة : « اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب الهك » .

وقد مر بنا ما صنعه جدهم يعقوب بأبيه اسحاق من خديعة .

الوصية السادسة : « لا تقتل .. »

وقد فهم اليهود من هذه الوصية أنهم لا يقتلون اليهود ، أما غيرهم من الناس فدماؤهم حلال لهم وسنرى كيف افتتحوا أيامهم فى فلســطين بمذبحة أريحا الفظيعة .

الوصية السابعة : « لا تزن .. »

الوصية الثامنة : « لا تسرق .. »

هذا مبدأ طبيعي وأصيل . ولكن اذا تذكرنا وصية الرب لليهود مرتين بأن يسرقوا المصريين قبل مبارحة أرضهم ، نجد أن هذه المبادىء ، انما تنطبق على ما يحدث بين بعضهم والبعض الآخر ، لا مع غيرهم من الناس .. ولهذا لا يدهشنا أن اليهود مارسوا حياة احتيال مستمرة مع جميع الأجناس والعناصر التى عاشوا معها .

الوصية التاسعة : « لا تشهد على قريبك شهادة زور » .

الوصية العاشرة : لا تشته بيت قريبك ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، و لاشيئا مما لقريبك » .

وهذه الوصية بدورها تؤكد ان ما يقيد اليهودى مما جاءهم به موسى ، لا يقيده بالنسبة لبقية الناس من غير اليهود .. ان الأمر منصب على « القريب » ولا يشمل غيره !!

وهذه الوصية بدورها تقصر منع الغصب على ما فى يد اليهودى . أى هكذا فهمها الاسرائيليون على مر تاريخهم .

***

وقد عرضنا من قبل آفاق المعرفة وأبعاد الحضارة ، وقواعد السلوك التى عاش عليها الأقوام الذين عايشوا اليهود من بابليين وآشوريين ومصريين وكيف أن علاقة الفرد بالأسرة وبالجماعة وبسلطة الحكم كانت تساعد على الابداع والتفوق فى الحياة المادية وفى الحياة العقائدية .. حقيقة كان لفكرة البعث بعد الموت ، أو الحياة الأخرى سلطان كبير على أفكار المصريين بحيث وجهت حياتهم توجيها فيه مسئولية الحساب بعد الحياة وارتقاب هذا الحساب بالعمل الصالح .

واذا عرضنا لعقائد اليهود فى عهد موسى بصفة خاصة ، وعلى الصورة التى دونتها التوراة ، فانا لا نجد للحياة الأخرى أى ذكر ، واذا تتبعنافكرهم الدينى فلا نجد شيئا من هذا .. فهل كان ذلك معارضة للمصريين ومعاندة لهم ؟! . انا نجد القرآن الكريم ، وهو يعرض للنقاط الأساسية للعقيدة

الموسوية ؛ يضع فيها الحياة الأخرى فى وضع واضح لا خفاء فيه ، وقد قدمنا قبل ذلك النص الدال عليه .

لقد تحدثت التوراة فى سرعة ، وبمرور عابر عن « الهاوية » أى المصير الذى ينتظر الأحياء . ولكن الهاوية هذه لا تعنى ما تدل عليه العقائد السماوية بعد ذلك ، ولا العقائد المصرية بخاصة عن الحياة الثانية .

ثم ان روح العدل ، والتزام الصدق ، وكانا شعارا أساسيا لحياة المصريين ، لا تلمح معانيهما فى الوصايا العشر ، ولا فى تطبيقها بعد ذلك . والعدل والصدق ، ينصب أثرهما على الذين يتعامل معهم الانسان . واليهود عدوا كل انسان غير يهودى فريسة لهم ان أمكنهم افتراسه ، سواء فى روحه أو ماله أو عرضه .. ولهذا كان طبيعيا أن تختفى من تطبيقاتهم للشريعة فضيلتا العدل والصدق ، وهذه هى مأساة اليهود الكبرى منذ تركهم موسى عليه السلام الى اليوم ، والى الغد ، والى الابد . انها مأساة سلوك سنتتبع آثارها ونتائجها فيما بعد .

يقول لنا « جيمس هنرى برستد » كبير مؤرخى الحضارة القديمة ، وهو أمريكى الجنسية فى كتابه الممتع فجر الضمير الذى أشرنا اليه من قبل ما يأتى :

« لقد حفظت فى طفولتى ، مثل اخوانى من الصبية الوصايا العشر ، وعلمت أن احترمها . لأنه أكد لى أنها أنزلت من السماوات على « موسى » وان اتباعها كان من أجل ذلك لزاما على . وانى أذكر اننى كلما كذبت ، كنت أجد لنفسى سلوى فى أنه لا توجد وصية تقول : لا يجب عليك أن تكذب . وان الوصايا العشر لا تحرم الكذب الا فى شهادة الزور فقط . أى عندما يؤدى الانسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر جاره . ولما اشتد ساعدى ، بدأت أشعر فى نفسى بشىء من القلق ، وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لا يحرم الكذب هو قانون ناقص » .

ويمضي برستد في سرد خواطره بقوله :

« وبقيت هذه الفكرة تجول بخاطرى زمنا طويلا ، قبل أن أضع لنفسى السؤال الهام التالى : كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص ؟ ومن أين حصلت بنفسى المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر ولقد كان يوما أسود على احترامى الموروث للعقيدة الدينية القائلة بنزول الوحى ، حين بدأت عندى تلك التجربة النفسية . بل قد ظهرت أمامى تجار بأشد اقلاقا لنفسى ، وذلك عندما كشفت ، وأنا مستشرق مبتدىء أن المصريين كان لهم مقياس خلقى اسمى بكثير من الوصايا العشر وان هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة . »

ثم يضع برستد يدنا على مصدر من مصادر التفكير العبرى حين يقول :

« كان أعظم كشف جاوز حد المألوف ، هو اننا عرفنا ان حكمة « امينوبى » التى حفظت لنا فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى ، قد ترجمت الى العبرية فى الأزمان الغابرة . وانه بانتقالها الى فلسطين ، صارت مصدرا استقى منه جزءا بأكمله من كتاب الأمثال فى التوراة .

« وأصبح واضحا الآن ان التقدم الاجتماعى والخلقى الناضج ، الذى أحرزه البشر فى وادى النيل ، وهو أقدم من التقدم العبرى بثلاثة الاف سنة قد ساهم مساهمة فعلية فى تكوين الأدب العبرى الذى نسميه نحن التوراة . وعلى ذلك ، فان ارثنا الخلقى مشتق من ماض انسانى واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضى العبرانيين ، وان هذا الارث لم ينحدر الينا من العبرانيين ، بل جاء عن طريقهم .. »

وسوف نعرض للطريقة التى جمعت بها التوراة الحالية .. ولكننا الآن نقف عند الاصحاح العشرين من سفر الخروج الذى تضمن هذه الوصايا العشر وما يليه ، وقد تضمن « الأحكام » و « الأحكام » تتضمن تفاصيل جزئية كثيرة جدا .. فعندما يذبح اليهود ضحايا البهائم ، يصفون دماءها فى أناء كبير ، ويلطخون به عتبات بيوتهم ، حتى اذا طاف الرب ، أو المهلك ،

ليقضى على غير اليهود ، يستطيع أن يتبين أين يسكن أفراد الشعب المختار من بقع الدماء أمام الأبواب فلا يهلكهم خطأ !! واذا اشترى يهودى عبدا عبرانيا ، فعليه أن يستخدمه ست سنين ويعتقه من العام السابع ، فاذا أصر على العبودية فان السيد المشترى يثقب أذنه تمييزا له ، ويظل فى خدمته الى الأبد !!

ومن « الأحكام » المكملة للوصايا العشر انه اذا نطح ثور رجلا أو امرأة ، فمات ، يرجم الثور (يضرب بالحجارة حتى يموت) ولا يؤكل لحمه ولكن اذا كان الثور معروفا بالنطاح من قبل ، فان صاحبه يقتل مع ثوره . أو يدفع فدية . واذا نطح ثور ثورا آخر وقتله ، يباع الثور المعتدى ويقتسم صاحبه الثمن مع صاحب الثور القتيل ، وكذلك يقتسمان ثمن الثور القتيل. ولكن .. اذا علم أنه ثور نطاح من قبل ، ولم يضبطه صاحبه ، يعوض عن الثور بثور والميت يكون له !

واذا كان العلامة « برستد » قد لاحظ ان النهى عن الكذب لم يرد فى الوصايا العشر ، فانه ورد فى الأحكام نهى عن ارتكاب اليهودى الكذب على اليهودى .

ويبدو من تتبع هذه النصوص ، وهى كثيرة ، انها وضعت لشعب بدائى انغلق على نفسه ، فى مصر ، وظل هائما على حدود مستنقعات بحيرة المنزلة، لم يكتسب من الحضارة الرفيعة حوله شيئا يذكر . وكانت فترة اقامته ، أو معظمها فى عصر الفتن الهكسوسية ، وهؤلاء أيضا كانوا أقواما طارئين، صناعتهم الحرب وحدها ، وربما أمكن تشبيههم الى حد ما بالتتار ، الذين عاثوا فى الأرض فسادا ، ولم يتشربوا بحضارة المسلمين والهنود الا بعد أن استقروا ، ووضعوا سلاحهم .

❊ ❊ ❊

وتروى التوراة انه بعد ان نزل موسى من الجبل بالوصايا « وجميع أقوال الرب وجميع الأحكام » ، أخذ ميثاق القوم باطاعة ما جاء به ، فقالوا : كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له . وأخذ موسى الدم ، ورش

على الشعب ، وقال هو ذا دم العهد الذى قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال . ثم صعد موسى وهارون .. وسبعون من شيوخ اسرائيل ، ورأوا له اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات السماء فى النقاوة . ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى اسرائيل . فرأوا الله ، وأكلوا وشربوا » .

ويبدو ان هذا الصعود كان الى هضبة قريبة فى الجبل ، فقد رأينا من قبل الهول فى تسلقه كاملا ، من شباب دربوا على هذا العمل .

الله فى صندوق :

واصل موسى الصعود ، وظل فى أعلا الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة، يتلقى خلال هذه المدة الوصايا والأحكام وعندما دون اليهود توراتهم بعد ألف سنة من هذه الأحداث ، رووا الكثير الممتع من تعليمات السماء كما تخيلوها ، وهى تبلغ لموسى ..

ويبدو أن « رب » اسرائيل كان مغرما مثلهم بالذهب ، فقد طلب من موسى وهو فوق الجبل أن يتقدم له اليهود بـ .. « ذهبا » و « فضة » ، ونحاسا ، واسمانجونى ، وأرجوان ، وقرمز ، وبوص ، وشعر معزى ، وجلود كباش محمرة ، وجلود تخس وخشب سنط .. الخ » .

وقال لهم « الرب » انه يطلب هـــذه الأدوات لسبب هام وهو : « فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم . »

وراح « الرب » يصف مسكنه ، فاذا هو تابوت من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف . « وتغشيه بذهب نقى . من داخل وخارج تغشيه . وتضع عليه اكليلا من ذهب حواليه . وتسبك له أربع حلقات من ذهب » وتجعلها على قوائمه الأربع . على جانبه الواحد حلقتان . وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب . الخ .. « ولهذا التابوت غطاء

من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كروبين من ذهب ، صنعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء .

ويوجد من بين طلبات الرب مائدة من خشب السنط مغشاة بذهب نقي ولها أكليل من ذهب وحلقات من ذهب . كما طلب « الرب » أيضا منارة من ذهب نقي عمل خراطة .. ووضعت مواصفات كاملة لهذه الأدوات كلها .

ويتحدث الاصحاح السادس والعشرون عن المسكن المصنوع من البوص ، تغطيه خيمة من شعر المعزى ، أوتادها من النحاس . وتكون الاضاءة بزيت الزيتون المرضوض النقى ، يقدمه بنو اسرائيل ، فريضة دهرية فى أجيالهم » .

وهناك ثوب يرتديه كاهن هذا المعبد ، والكهنة من سلالة هارون أخى موسى ، ووصف الرداء مسهب ، وهو مثقل برقائق وجدائل الذهب ، وفوق هذا جبة فتحة رأسها فى وسطها ، ومعلق بأذيالها جلاجل من ذهب ورمانات . فتكون على هارون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله الى القدس ، أمام الرب ، وعند خروجه ، « لئلا يموت » :

وتمتزج طقوس العبادة « والاجتماع بالرب » فى خيمة الاجتماع ، بمنظر دموى هو ذبح ثور واستصفاء دمه ، وصبه فى أسفل المذبح ، وذبح كبش ، ورش دمه على المذبح من كل ناحية . وتحرق أجزاء من الثور ، وتقطع أجزاء الكبش الى قطع ، ويحرق الكبش على المذبح .. ويذبح كبش ثان لهارون وأبنائه « وتأخذ من دمه وتجعل على شحم آذان بنيه (أبنائه) اليمنى ، وعلى أباهم (جمع أبهام اليد) أيديهم اليمنى ، وعلى أباهم أرجلهم اليمنى . وترش الدم على المذبح من كل ناحية . وتأخذ من الدم الذى على المذبح ، ومن دهن المسحة ، وتنضح على هارون وثيابه ، وعلى بنيه وثياب بنيه معه . ثم تأخذ من الشحم .. الخ وترددها ترديدا أمام الرب . ثم تأخذها من أيديهم (الكاهن وأبناؤه) وتوقدها على المذبح فوق المحرقة ، رائحة سرور أمام الرب . وقود هو للرب » .

وعند نزول موسى من الجبل : أخذ معه لوحى حجر مكتوبين بأصبع الله . واذا به يفاجأ بأن أخاه هارون كفر باله أخيه موسى ، وصنع عجلا مسبوكا من الذهب ساهم فيه النساء بأقراطهن (وقد أخذنها من المصريات قبل الخروج) واستعمل الأزميل فى تصوير هذا العجل وسبكه .. وبدأ تقديم القربان لهذا الوثن الذهبى ، وعبادته !

وغضب « رب » اسرائيل غضبا شديدا على هذه الردة . ولكن موسى لم يكن معجبا بالرب فى هذا الغضب ، وقال له : « ارجع من حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك .. أذكر ابراهيم واسحاق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك ، وقلت لهم أكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها ، فيملكونها الى الأبد » .

ماذا كانت نتيجة لوم موسى ، لربه على غضبه الحامى ؟.. قالت توراتهم :

« فندم الرب على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه » !!

واذا كانوا قد أجازوا أن يكلم موسى ربه بهذا الكلام الخشن البعيد عن اللياقة ، فانهم نسبوا أيضا الى الرب أنه وصفهم بأنهم شعب صلب الرقبة ، أى قساة ، وهذا وصف رقيق اذا قورن بما اقترفوه ، من صناعة وثن ، من ذهب ، يعبدونه من دون الله .

وحسنا صنع اليهود عند ما قالوا ان موسى من فرط غضبه عليهم رمى بألواحه التى خط عليها الرب وصاياه (بأصـبعه) ، رمى بالألواح على الأرض وحطمها تحطيما (أعاد كتابتها مرة أخرى) . كما أنه سحق العجل الذهبى سحقا حتى أصبح كالتراب (لا ندرى كيف ؟) ثم ذراه على وجه الماء (لا نعلم أنه كان بسيناء ماء غير ماء الآبار العميقة) وسقى منه بنى اسرائيل (حوالى ثلاثة أرباع مليون نسمة) ثم أمر بقتل حوالى ثلاثة آلاف رجل ، على أن ينفذ الحكم الأخوة فى أخوتهم ، والأصدقاء فى أصدقائهم.

وعلى الرغم مما فى هذه التصرفات من غرابة ، فان هذه القسوة فى

تنفيذ العقوبة ، تذكرنا بحقيقة القلوب الاسرائيلية ، وهى أنها كالحجارة ، أو أشد قسوة !

وتروى التوراة أن تأثرات (فسيولوجية) كانت تحــدث على وجه موسى أثناء محادثاته مع الرب فى الخيمة ، وكان يضع برقعا على وجهــه أثناء هذه المحادثات . فاذا نزعه لمع وجهه !!

ويبدو أن موسى بذل جهدا مضنيا جدا وهو يصف مطالب « الرب » فى تقديم قرابين المذبح ، من ثيران وكباش . أن أكثر من عشرين صفحة فى سفر الخروج وسفر اللاويين بذلت فى شرح هذه الشريعة ، وفى شرح أنواع الأطعمة ، ما يحل منه ، ومالا يحل .

ثم أعطى اهتماما خاصا لتأكيد سلطة الكاهن فى علاج الأمراض الجلدية بصفة خاصة .. وهى أساليب ساذجة اذا ما قورنت بالطب المتقدم فى مصر التى قدموا منها ، وكان أطباؤها يجرون العمليات الجراحية ، ومنها العملية القيصرية . بل فيها عمليات فى المخ تحت الجمجمة عن طريق الأنف . ووصل من اكبارهم للأطباء أن منهم من ارتفع الى مقام الآلهة .

ويبدو أن اهتمام موسى بالأمراض الجلدية ، مرجعه الى ما عرف عن اليهود من كراهيتهم للاستحمام ، فلما أقبل فريق منهم على الاستحمام بعد ذلك ، وسموا السابحين عزلهم بنو اسرائيل عنهم ، وأصبحوا ــ لنظافتهم ــ أصحاب مذهب خاص بهم ، وهم الذين ورد ذكرهم فى القرآن « باسم الصابئين » .

وكانت قد انتشرت بين اليهود أمراض عدم النظافة ، وظاهرتها الأمراض الجلدية وموسى تربى فى قصور حتشبسوت ــ أميرة وملكة ــ ولهذا درج على عادات المصريين من حب النظـافة ، وهى طابع الشعوب المتفوقة فى حضارتها .. ولا عجب أن نراه يولى هذا الاهتمام للنظافة ، مثلما أولى اهتماما خاصا لموضوع الأطعمة . فقد أقام اليهود فى مصر قرونا لا يؤاكلهم

المصريون ، كما ورد فى التوراة .. فعدل من عاداتهم الطعامية ، بحيث تصبح مقاربة لما كان مألوفا فى البلاد المتقدمة من حوله .

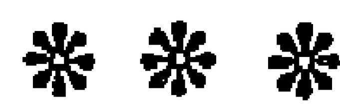
وقد مات منهم فى وباء واحد وهم فى سيناء أربعة عشر ألفا وسبعمائة ومرة أخرى مات ٢٤ ألفا . كما تقول التوراة .

وعلى الرغم من رأى المصريين فى اليهود ، فيبدو أن تزواجا حدث بين فتيات يهوديات ومصريين ، أنجب ذرية .

تروى التوراة فى سفر اللاويين — الاصحاح ٢٤ ما يلى :

« خرج ابن امرأة اسرائيلية ، وهو ابن رجل مصرى ، فى وسط بنى اسرائيل ، وتخاصم فى المحلة (معسكر) ، ابن الاسرائيلية ، ورجل اسرائيلى . فجدف (شتم) ابن الاسرائيلية على الاسم (الرب يهوه) وسب» .

وأحضر المصرى الأب أمام موسى ، فاستشار الرب ، فأمر بقتله رجما ، وذلك لأن « الغريب كالوطنى عند ما يجدف على الاسم قتل : يرجمه كل الجماعة رجما » .



ونجد لليهود تقاليد مستمدة من التوراة فى معاملة الأرض ، ففى الاصحاح الخامس والعشرين من سفر اللاويين هذه الفقرة (٢٣) على لسان الرب :

« والأرض لا تباع بتة . لأن لى الأرض ، وأنتم غرباء ، ونزلاء عندى . بل فى كل أرض ملككم تجعلون فكاكا للأرض . اذا افتقر أخوك فباع من ملكه ، يأتى وليه الأقرب اليه ويفك مبيع أخيه » .

ومعنى هذا النص الا يملك انسان أرضا وتكون الأرض كلها ملكا للكاهن الأعظم وأعوانه .

وكانت عقوبات التوراة ضد اليهود قاسية حتى وصلت بهم الى قولها :

« ... وأذريكم بين الأمم ، وأجرد وراءكم السيف ، فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة » .

وقررت التوراة على لسان موسى أن خلافهم معه سوف يترتب عليه « ابادتهم » ..

* * *

الوصايا فى الانجيل والقرآن :

عند ما عرض السيد المسيح عليه السلام للوصايا أجملها ، كما ورد فى انجيل لوقا على النحو الآتى :

« وسأله فريسى قائلا : أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ » .

« فقال يسوع : لماذا تدعونى صالحا .. ليس أحد صالحا الا واحدا وهو الله ؟ أنت تعرف الوصايا . لا تزن . لا تقتل . لا تسرق . لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك » .

« فقال : هذه كلها حفظتها منذ حداثتى » .

« فلما سمع يسوع ذلك قال له : يعوزك أيضا شىء . بع كل مالك ، ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء . وتعال اتبعنى » .

« فلما سمع ذلك حزن لأنه كان غنيا جدا » .

« فلما رآه يسوع قد حزن ، قال : ما أعسر دخول ذوى الأموال الى ملكوت الله . لأن دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » .

وواضح من هذه الكلمات مدى العمق الذى أدخلته الدعوة المسيحية على العقيدة اليهودية .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوصايا العشر ونجدها هنا صافية ، خالصة ، مشرقة بالخير ، موجزة فى الأداء ..

ففى سورة البقرة :

« واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل ، لا تعبـدون الا الله وبالوالدين احسانا ، وذوى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .. »

عمل السبت .. وعقوبة القتل :

وما من شيء أكدت عليه التوراة مثل تقديس يوم السبت ، وضرورة التوقف عن كل عمل فيه :

« وكلم الرب موسى قائلا : وأنت تكلم بنى اسرائيل ، سبوتى (جمع سبت) تحفظونها . لأنه علامة بينى وبينكم فى أجيالكم لتعلموا انى أنا الرب الذى يقدسكم . فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم . من دنسه يقتل قتلا . ان كل من صنع فيه عملا تقطع تلك النفس من بين شعبها ستة أيام يصنع عمل . وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدس للرب . كل من صنع عملا فى يوم السبت يقتل قتلا . فيحفظ بنو اسرائيل السبت ليصـنعوا السبت فى أجيـالهم عهدا أبديا . هو بينى وبين بنى اسرائيـل علامة الى الأبد ... » .

وهكذا نجد فى فقرة واحدة (اصحاح ٣٠ سفر الخروج) تكررت عقوبة القتل أكثر من مرة لكل من يقوم بعمل يوم السبت ، ثم نرى هذا التحذير ، وهذه العقوبة يتوالى ذكرها كلما تقدمنا فى قراءة التوراة .

وعلينا أن نتذكر أن اليهود الذين آمنوا بهذه التوراة وعاشوا فيهـا أيامهم ولياليهم خمسة وثلاثين قرنا كاملة ، وهم يريدون أن يطبقوا بعض فقرات دونوها فيها خاصة بميراثهم الأرض التى بين النيل والفرات . . هؤلاء هم الذين تابعوا الحرب يوم السبت فى معارك الأيام الستة (٥ يونيو ـ حزيران سنة ١٩٦٧) فقد بدأت هذه المعارك يوم الاثنين وانتهت يوم الأحد التالى . ولم يرد فى التوراة أى استثناء لأيام الحروب من منع العمل

فى سبتها وعدم تطبيق عقوبة القتل على مخالفيها .. وهذا يدلنا على هؤلاء القوم الذين يؤمنون ببعض توراتهم اذا وافقت هواهم ، ويتركون البعض لمصالحهم ، ومهما تشددت التوراة وحذرت وأنذرت .

لمن تدق الأجراس ؟ :

الطقوس اليهودية المدونة فى التوراة ، والتى تتضمن تفاصيل العبادة ، ومكان العبادة ، وصفات وأثواب الحاخام الأعظم مفصلة جدا ، ومطولة جدا ، وكلها منسوبة للرب ، اذ تبدأ بالجملة التالية :

« وكلم الرب قائلا ... » .

وما ذكروا فى التوراة أن موسى أشرف على صنعه هو مسكن وخيمة تقام على خمسة أعمدة ، تغلف رءوسها وقضبانها بالذهب وقواعدها بالنحاس . وتابوت (صندوق) من خشب السنط طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف ، مزين بسبائك الذهب ، وحلقات رفعه من الذهب وغطاؤه من الذهب النقى ، مزين بكرات ذهبية . كما تصنع مائدة من خشب السنط ، وكل أجزائها مزينة بالذهب . أما « الأوانى التى على المائدة فصحافها وصحونها وجاماتها وكأساتها التى يسكب بها من ذهب نقى » . وتضاف الى هذا كله منارة ذهبية ، ومذبح للبخور ــ مذهب كله ــ ثم يصنع أيضا مذبح للذبائح « طوله خمسة أذرع وارتفاعه ثلاثة أذرع » . واذا كنت قد ضقت من تكرار كلمة الذهب ، فهذا المذبح وأوانيه من خشب السنط وزينته من النحاس ، لأنه سيتلطخ بدماء الذبائح .

وحتى يمكن الحصول على هذه الكميات المطلوبة من الذهب فقد أمر الرب موسى ، كما تقول التوراة ، فرض ضريبة من الذهب على كل رأس ، وأخرى من الفضة ، وثالثة من النحاس .

وكل هذا ، وقد استغرق عدة صفحات من التوراة ، ليس بشيء ، اذا تأملنا وصف الملابس التى أمر الرب هارون أخا موسى بارتدائها ، بوصفه كاهن المعبد . ولنستأذن القارىء فى أن نقدم وصف هذه الملابس بنفس النص الوارد فى التوراة ، حتى تكون الفكرة لدينا واضحة ومباشرة عن هذه الطقوس ..

الاصحاح التاسع والثلاثون

« ومن الأسمانجونى والأرجوان والقرمز صنعوا ثيابا منسوجة للخدمة فى المقدس وصنعوا الثياب المقدسة التى لهارون . كما أمر الرب موسى .

فصنع الرداء من ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم . ومدوا الذهب صفائح وقدوها خيوطا ليصنعوها فى وسط الأسمانجونى والأرجوان والقرمز والبوص صنعه الموشى وصنعوا له كتفين موصولين . على طرفيــه اتصل وزنار شده الذى عليه كان منــه كصنعته من ذهب وأسمانجونى وقرمز وبوص مبروم . كما أمر الرب موسى وصنعوا حجرى الجزع محاطين بطوقين من ذهب منقوشين نقش الخاتم على حسب أسماء بنى اسرائيل . ووضعهما على كتفى الرداء حجرى تذكار لبنى اسرائيل . كما أمر الرب موسى وصنع الصدرة صنعة الموشى كصنعة الرداء من ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم . كانت مربعة مثنية صنعوا الصدرة طولها شبر وعرضها شبر مثنية . ورصعوا فيها أربعة صــفوف حجارة . صف عقيق أحمو وياقوت أصفر وزمرد . الصف الأول ، والصف الثانى بهرمان وياقوت أزرق وعقيق أبيض . والصف الثالث عين الهرويشم وجمست . والصف الرابع زبرجد وجزع ويشب محاطة بأطواق من ذهب فى ترصيعها . والحجارة كانت على أســماء بنى اسرائيل اثنى عشر على أسمائهم كنقش الخاتم . كل واحد على اسمه للاثنى عشر سبطا . وصنعوا على الصدرة سلاسل مجدولة صنعة الضفر من ذهب نقى . وصنعوا طوقين من ذهب وحلقتين من ذهب وجعلوا الحلقتين على طرفى الصدرة . وجعلوا

ضفيرتى الذهب فى الحلقتين على طرفى الصدرة . وطرفا الضفيرتين جعلوهما فى الطوقين . وجعلوهما على كتفى الرداء الى قدامه . وصنعوا حلقتين من ذهب ووضعوهما على طرفى الصدرة . على حاشيتها التى الى جهة الرداء من داخل . وضعوا حلقتين من ذهب وجعلوهما على كتفى الرداء من أسفل من قدامه عند وصلة فوق زنار الرداء . وربطوا الصدرة بحلقتيها الى حلقتى الرداء بخيط من أسمانجونى ليكون على زنار الرداء . ولا تنزع الصدرة عن الرداء . كما أمر الرب موسى .

وصنع جبة الرداء صنعة النساج كلها من أسمانجونى . وفتحة الجبة فى وسطها كفتحة الدرع . ولفتحتها حاشية حواليها . لا تنشق وصنعوا على أذيال الجبة رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز مبروم . وصنعوا جلاجل من ذهب نقى . وجعلوا الجلاجل فى وسط الرمانات على أذيال الجبة حواليها فى وسط الرمانات . جلجل ورمانة . جلجل ورمانة . على أذيال الجبة حواليها للخدمة . كما أمر الرب موسى .

وصنعوا الأقمصة من بوص صنعة النساج لهارون وبنيه . والعمامة من بوص وعصائب القلانس من بوص . وسراويل الكتان من بوص مبروم . والمنطقة من بوص مبروم وأسمانجونى وأرجوان وقرمز صنعة الطراز . كما أمر الرب موسى .

وصنعوا صفيحة الاكليل المقدس من ذهب نقى .. وكتبوا عليها كتابة نقش الخاتم . قدس للرب . وجعلوا عليها خيط أسمانجونى لتجعل على العمامة من فوق . كما أمر الرب موسى .

وقد اقتصر دخول مكان التابوت على الكاهن الأكبر ، وكان وقتها هارون أخو موسى ، ثم اقتصر هذا المنصب على الأكبر من سلالته من اللاويين ، وواحدهم يسمى لاوى ، وهو الاسم اليهودى المعروف «ليفى».

أما الأجراس التى فى ذيل أثواب الحاخام الأكبر فلها مهمة . اذ عليه أن يهز نفسه . حتى تدق الأجراس ، فيتنبه الرب (سبحانه وتعالى عما

يصفون) الى دخوله . واذا لم يقم بهذا التنبيه الصوتى فانه يموت فورا . واذا دخل أحد الى مكان التابوت غير الكاهن الأكبر فانه يموت . تقول التوراة « وكلم الرب موسى بعد موت ابنى هارون ، عند ما اقتربا أمام الرب وماتا ، وقال الرب لموسى : كلم هارون أخاك ألا يدخل كل وقت الى القدس (مكان التابوت) داخل الحجاب أمام الغطاء الذى على التابوت لئلا يموت . لأنى فى السحاب اتراءى على الغطاء .. » .

انتقام الرب :

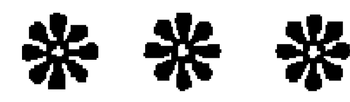
وتمضى التوراة فى ذكر تفاصيل الضحايا من الثيران والتيوس ، وطريقة تقديمها وطريقة التصرف فى دمائها ، واحشائها ، وباقى أجزائها . فاذا نفذ بنو اسرائيل هذا كله ، فان الرب يجعل مسكنه فى وسطهم ، ولا ترذلهم نفسه « .. وأسير بينكم ، وأكون لكم الها ، وأنتم تكونون لى شعبا . »

أما اذا حدثت الأخرى فان التوراة تفصل العقوبات التى تحل ببنى اسرائيل جزاء عصيانهم وهى على مراحل :

- تبدأ بقول الرب : « أسلط عليكم رعبا ، وسلا ، وحمى ، تفنى العينين وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم ، فيأكله أعداؤكم . واجعل وجهى ضدكم ، فتنهزمون أمام أعدائكم ، ويتسلط عليكم مبغضوكم ، وتهربون وليس من يطردكم . »
- فاذا استمر بنو اسرائيل فى عصيانهم زادت عقوباتهم سبعة أضعاف وأصبحت سماؤهم كالحديد وأرضهم كالنحاس ، ولا تعطى أرضهم أى ثمر .
- فاذا تابعوا العصيان ضوعف العقاب سبع مرات أخرى ، وانطلقت عليهم وحوش البرية ، فتهلك الأولاد والبهائم ، وتجعل الطرق موحشة .
- واذا واصلوا خلافهم مع الرب فانه يرسل عليهم الوباء ثم المجاعة حتى يأكل الآباء لحم الأبناء والبنات ، ويخرب ديارهم ويلقى جثثهم على

الأصنام التى يعبـدونها من دون الله يقول : « وأذريكم بين الأمم ، وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة » ومن تبقى منهم يزرع فى قلوبهم الخوف والجبن ، فيهزمهم صوت ورقة يدفعها الهواء . فيهلكون بين الشعوب .

وتمضى التوراة فى تعداد بعض الذنوب وطريقة تحقيقها . وهو أمر موكول الى الكاهن . مثل الزوج الذى يحس أن زوجه خانته دون أن تكون لديه بينة فان الكاهن يسقيها من اناء خزف اختلط به بعض من تراب بيتها ، فتشربه وتقسم . فان كانت كاذبة فان ماء اللعن ينفخ بطنها ويسقط فخذها . وان كانت صادقة حملت ولم يضرها الماء .



وبعد أن نزل موسى من الجبل ، كان مأذونا له أن يدخل الخيمة ويتقدم الى ما وراء الستار حيث يوجد تابوت الرب وكان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذى على التابوت .

وكان التابوت يسير أمام بنى اسرائيل ، وهم يرتحلون فى التيه وكان موسى يخاطبه قائلا : قم يا رب فلتبدد أعداءك ، ويهرب مبغضوك من أمامك ..!! وفى نهاية كل مسيرة كان موسى يقول : ارجع يا رب .

وكثيرا ما اشتكى موسى لربه من سوء ما يجد من قومه . ومن ذلك :

« فلما سمع موسى الشعب يبكون بعشائرهم كل واحد فى باب خيمته وحمى غضب الرب جدا ساء ذلك فى عينى موسى . فقال موسى للرب لماذا أسأت الى عبدك ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على . ألعلى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك . كما يحمل المربى الرضيع الى الأرض التى حلفت لآبائه . من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب . لأنهم يبكون على قائلين أعطنا لحما لنأكل . لا أقدر أنا وحدى أن أحمل جميع هـذا

الشعب لأنه ثقيل على . فان كنت تفعل بى هذا فاقتلنى قتلا ان وجدت نعمة فى عينيك . فلا أرى بليتى » .

وعند ما تقدم هارون ومريم أخته بشكوى ضد موسى ، لأنه اتخذ له زوجة من بنات كوش ، غضب الرب عليهما وكلمهما مباشرة ، وقال ان موسى وحده هو الذى اصطفاه ليكلمه مباشرة وعيانا بغير وحى ولا ألغاز ، لأنه أمين . أما غيره فانه يخاطبهم بالرؤيا فى الحلم . وغضب الرب على هارون وأخته وأصابهما بالبرص حتى تشفع فيهما موسى .

وتقررت ضريبة على كل بنى اسرائيل يدفعونهـا لأسرة هارون ـ اللاويين ، لأنهم أصبحوا مكلفين بالتوراث ـ والى الأبد ـ بخدمة خيمة الرب ، لا يقترب منها أحد غيرهم .

* * *

تقييم لموسى ودعوته :

أول ما يتبادر الى الذهن فى تقييم الدعوة الموسوية ، هو أنها وجهت الى القبيلة الاسرائيلية ، ثم الى المصريين وملكهم ، وعلينا الآن أن تتتبع فى المرجع اليهودى الأول ـ وهو التوراة ـ تأثير هذه الدعوة على من وجهت لهم من قومه ، فى حياته . ونحن نذكر أن موسى بقى فى قومه أربعين سنة منذ نزلت عليه الرسالة ، وهى فترة طويلة جدا ، اذا قورنت بفترة بقاء المسيح عليه السلام داعية بين قومه ـ وهم أيضا اليهود ـ اذ لم ترد على ثلاث سنوات . وتزيد أيضا على فترة بقاء محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغت ثلاثا وعشرين سنة ..

ولم يكن موسى وحده بين قومه ، فقد طلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، ليكون وزيره ولسانه المعبر ، وناقل دعوته ، وأجيب الى طلبه . وقام هارون بواجبه هذا ، وفيه وفى أسرته انحصرت سدانة بيت الرب والقوامة على طقوس العبادة فى الخيمة ، التى تحولت بعـد ذلك الى معبد أوكنيس .

تقول التـوراة فى الاصحاحين ١٣ و ١٤ من سفر العدد ، ان موسى أرسل بعثة استطلاع الى أرض فلسطين يحملون اليه أنباءها . فلما وصف بعضهم سكان فلسطين بأنهم أشداء أقوياء بلغ الرعب من الاسرائيليين مبلغه .

تقول التوراة :

« فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ، وبكى الشعب تلك الليلة . وتذمر على موسى ، وعلى هارون جميع بنى اسرائيل ، وقال لهمـا كل الجماعة : ليتنا متنا فى أرض مصر ، أو ليتنا متنا فى هذا القفر (سينا) . ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصـير نساؤنا . وأطفالنا غنيمة ؟! أليس خيرا لنا أن نرجع الى مصر . فقال بعضهم لبعض رئيسا جديدا نختار ، ونرجع الى مصر » .

وتستطرد التوراة ، ان موسى وأخاه ما أن سـمعا أن الاسرائيليين يريدون اختيار رئيس آخر ، حتى انكبا على وجهيهما فى الأرض ، أمام كل مجموعة من مجموعات القبيلة الاسرائيلية ، متوسلين أن يعدل القوم عن هذا القرار . ولكن كان ردهم أن هموا برجم النبى وأخيه بالحجارة .

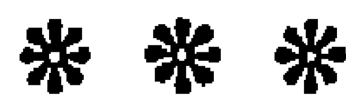
وأوحى الرب الى موسى ، أنه سيهلك قومه ، ولكن موسى خشى من شماتة المصريين ، فدعا ربه ، وسأله الغفران هذه المرة ، كما غفر لهم سيئات كثيرة منذ خروجهم من مصر ، وقبل الرب شفاعة موسى ، ولكنه قضى بأن الذين خالفوا ارادته ، « وجميع الذين أهانونى (أهانوا الرب) ، لن يروا أرض فلسطين . »

وكان تعبير جامعى التوراة عنيفا وقاسيا ، وهو يصف هذا الموقف . قال كتابهم :

« حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة على .. قل لهم .. : فى هذا القفر تسقط جثثكم ، جميع المعدودين منكم حسب عددهم . من ابن العشرين سنة فصاعدا ، الذين تذمروا على ، لن تدخلوا الأرض التى

رفعت يدى لاسكننكم فيها .. وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة ، فانى سأدخلهم ، فيعرفون الأرض التى احتقرتموها ، فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر ، وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر .. لأفعلن هذا بكل هـذه الجماعة الشريرة المتفقة على » .

ويبدو أن فريقا من قوم موسى خالفوا تعليماته وزحفوا الى فلسطين فهزمهم الكنعانيون شر هزيمة .



ولم يكف القوم عن معاندة موسى ، فقد ورد فى التوراة ان فروعا من هذه القبائل ــ من اللاويين ، سلالة ليفى ــ وكان عددهم ٢٥٠ رجلا ثاروا على موسى ، لأنه لم يختر منهم كاهنا ، واكتفى باسناد سدانة (خدمة) خيمة الاجتماع لهم . وكان مما قالوه له : « أقليل انك اصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا (مصر) لتميتنا فى البرية ، حتى تترأس علينا ترؤسا ... »

وقـد بلغ الحنق من موسى مبلغه وطلب من الرب عقابهم ، وكانت عقوبة الرب لهم عنيفة ، اذ انشقت الأرض ، وفتحت فاها ، وابتلعتهم ، وبيوتهم ، وأموالهم ، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء الى الهـاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة » .

ولم ترق هذه العقوبة فى نظر باقى بنى اسرائيل ، فضربهم الله بوباء قضى على أربعة عشر ألفا منهم وسبعمائة .

وبدأ تحرك موسى وقومه فى أرض مدين (شـمال الحجاز وجنوب فلسطين) . ويبدو أن هذه المنطقة كانت معدودة من ضمن أرض سينا ، ولم يشملها تحريم الرؤية أو الوصول ، الذى قضى به الرب قبل ذلك .. وانما التحريم كان قاصرا على أرض الكنعانيين .

وفى هـذه المرحلة من التحرك ، ماتت مريم ومات هارون أخوها ،

عند جبل اسمته التوراة جبل هور ، وعلى حدود مملكة آدوم . واستمرت مناحة اليهود على هارون ثلاثين يوما . وهكذا هم كل يوم فى حال : يوما يهمون برجم هارون ، وأياما يبكون عليه .

وفى هذه الصحراء القاحلة الموحشة ، عاود اليهود تذمرهم ، فشغبوا على موسى ولم يحترموا حزنه على أخيه وراحوا يصيحون فى وجهه : أين الخبز .. أين المـاء ؟ « لقد كرهت أنفسنا هذا الطعام السخيف » .

ومرة أخرى ــ وليست أخيرة ــ حلت بقوم موسى عقوبة جديدة ، اذ هاجمتهم حيـات الصـحراء وثعابينها ، وهم القوم الذين كان الثعبـان معجزة نبيهم الكبرى . وحتى يكف أذى الثعابين عنهم ، صنع موسى تمثالا من نحاس لحية رفعه على راية الجيش .. وهذه الشارة الثعبانية مستعارة من طقوس قدماء المصريين الذين كان يضعون تماثيلها زينة لتيجانهم . وأيما قوم مر اليهود بقربهم ، وأرادوا منهم حق مرور ، أو تموين ، رفض القوم التعامل معهم الا بحد السيف .

وواضح فى هذا التحرك ، ومقابلة بعض القبائل الجنوبية ، ان اليهود لم يكونوا متحصنين بوصايا موسى ، ومنها منع الزنا .. فما أن رأى فريق منهم نساء الموابيين حتى جن جنونهم .. فاذا هم يخلعون دين التوحيد ويسجدون لتمثال « بعل » معبود هـذه المنطقة ، حتى يتقربوا لنسـاء المنطقة .

ومرة أخرى حلت العقوبة الالهية باليهود ، فأصابهم الرب بوباء جديد، قتل منهم أربعة وعشرين ألف نسمة ..

* * *

وجند موسى قوة من شباب قومه ، ولدوا فى سينا بعد خروجهم من مصر ، لكى يبدأ أول معارك اليهود على أرض فلسطين . ويبدو أن ابتداء المعارك كان بعد خروجهم بأقل قليلا من أربعين سنة .

وقد أوحى لموسى ان رحلة حياته قاربت النهاية ، أو حسب تعبيرالتوراة أنه سوف ينضم الى قومه ، بعد أن تنتهى المعارك الأولى .

كان ميدان المعركة الأولى أهل مدين ، وكانت القوة الاسرائيلية ، من اثنى عشر ألف رجل « ألف من كل سبط من الأسباط » وقد أخذ أهل مدين على غرة ، وكانت خطط موسى محكمة لهذه الغارة ، فهو لم ينس أنه كان ضابطا فى الحرس الفرعونى ، وانه حضر معارك فى السودان تحت الراية المصرية ، ولهذا بدأ باستكشاف مواقع العدو ، وأرض المعركة فى حذر بالغ .. ولم يكن أحد من بين اليهود قاد حربا ، أو شارك فى قتـال عسكرى قبل ذلك .

والى جانب أسلحة القتال العادية ، زود موسى هذا الجيش بأبواق تصدر أصواتا عالية لارهاب العدو . وكانت المفاجأة تامة للعدو ، لم يفق الا والسيوف تعلو رقاب القوم ، فهلك رؤساء مدين وكان حصاد هذه المذبحة :

— قتل جميع الذكور

— أخذ جميع النساء والأطفال سبايا

— نهب جميع المواشى وكل ما يمكن حمله

— احراق جميع المبانى بالنـار

وتنسب التوراة الى موسى تصرفا بالغ القسوة ، اذ تقول انه غضب غضبا شديدا لانهم لم يقتلوا كل الأطفال ، وأمر بذبح جميع الذكور منهم . وكانت نقمة موسى على النساء شديدة . فكل امرأة كانت متزوجة أمر بقتلها لتلحق بزوجها الذى سبق قتله .

وما نحسب هذه القسوة البالغة من أخلاق النبوة ، ولكنها كانت ، وما تزال فى تصوراليهود أمرا مقبولا ومعقولا .. فهم فى حربهم الحديثة ، وبغير وجود موسى النبى ، وبقيادة أمثال موسى ديان ، قاموا بمثل هـذه

المذابح فى فلسطين ، وما نبأ « دير ياسين » بالسر الذى يخفى ، أو العمل الذى ينسى . وقد كوفىء الذين ارتكبوا هذا الجرم بأن أصبحوا وزراء وقوادا !!

وأمر موسى على حد قول التوراة — جنود المذبحة بأن يتطهروا سبعة أيام من ملامسة أهل مدين ، وأن يطهروا غنائمهم من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص بصهرها فى النار .

والمبالغة واضحة فى تقدير الغنائم فقد ذكروا انها ٦٧٥ ألف رأس من الغنم و ٧٢ ألفا من البقر و ٦١ ألفا من الحمير ومن بقى حيا من الفتيات العذارى كان ٣٢ ألفا . وقد أمر موسى بأن يحصل كاهن المعبد على كل الغنم ونصف البقر والحمير وسلمت للكاهن الذى خلف هارون — واسمه العازار — ثم عادت التوراة وصححت رقم الغنم الذى زكى به لخيمة الرب الى النصف أيضا !! وكذلك تقاسموا المعادن — ولا سيما الذهب

وأسلوب الحرب الذى دونته التوراة ، ونسبته الى موسى ، ثم الى الرب ينص على ما يأتى كما ورد فى سفر العدد — اصحاح ٣٣ — .

« وان لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم ، يكون الذين تستبقون أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جنوبكم ، ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها . فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم » .

وأوصى موسى أن تكون أرض اسرائيل هى أرض كنعان فى وسط فلسطين . وذكر حدودها تماما ، ليس منها النقب ، وليس منها الشمال . فهل نسيت التوراة ما سبق أن ذكرته على لسان ابراهيم ، وابنائه ان ذريته من بعده ، سوف تملك ما بين النيل والفرات ، وتوسع يهود هذه الأيام فى تفسير هذا الوعد ، فقالوا انه يشمل جميع بلاد العرب الآسيوية بما فيها شبه الجزيرة العربية كلها وسوريا ولبنان ونصف دلتا مصر !!

ان هذه النصوص تضيق وتتسع حسب الظروف والأحوال ، وهى

الآن وعند وفاة موسى الكليم لا تتجاوز جزءا محدودا هو الذى كان يقيم فيه الكنعانيون ، وهم جزء من خمسة أو ستة شعوب كانت تسكن فلسطين . بل ذكر موسى كما ورد فى التوراة كيف تقسم الأرض ، وكل ذلك طبعا منسوب الى الرب .

ويبدو أن خطة وصولهم الى أرض كنعان كانت محددة ، فقد اتجهوا أول الأمر من جنوب البحر الميت شرقا حتى وصلوا الى مصب نهر الأردن، ثم توقفوا بازاء اريحا فى الضفة الغربية ، لكى يجتازوا اليها نهر الأردن .
ونجد فى سفر التثنية ، ان مناطق أخرى أضيفت الى أرض كنعان فيما ذكرت التوراة ان الرب وعد بها الاسرائيليين ، وهى « لبنان الى النهر الكبير نهر الفرات » . وذلك ان الرب زاد عددهم حتى أصبحوا كنجوم السماء كثرة . وقال لهم : « كيف أحمل وحدى ثقلكم ، وحملكم ، وخصومتكم » ولهذا كان تقسيمهم الى أسباط ، مساعدة للرب على أداء مهمته معهم !!

وكان موسى حذرا فى وصاياه الأخيرة للاسرائيليين . فقد ذكر لهم (الاصحاح الرابع تثنية) انهم سيتوالدون ، وسيعبدون آلهة أخرى غير الله ، ويفعلون كل الشرور التى نهوا عنها « لاغاظة الرب » . ولهذا توعدهم بأن الرب سوف يبددهم فى الشعوب ، فيبقون عددا قليلا جدا بين الأمم ، ويعبدون آلهة هذه الأمم .

وفى مكان آخر ، حذر موسى قومه ، أن يظهر فيهم « نبى أو حالم » يدعوهم الى عبادة آلهة أخرى غير « يهوه » ، رب اليهود ، وهكذا تقرر فى ذهن اليهود ، ان المعبودات الأخرى ، موجودة ، ولكنها ليست لهم . وان الرب فى المفهوم اليهودى « غيور جدا » ولا يسمح بالمشاركة . وأى مدينة يقيم فيها الاسرائيليون ، وتظهر فيها عبادة أخرى ، فان سكانها يبادون جميعا ، وتحرق المدينة بالنار ، ولا تبقى فيها بهيمة لا تقتل ، وبهذا فقط « يرجع الرب عن حمو غضبه » .

ولم ينس موسى خير مصر عليه ، ولا احتضانها له فى أرفع منازلها ـ

منزل الملك والامارة ـ فقد أوصى قومه قائلا « لا تكره مصريا ، لأنك كنت نزيلا فى أرضه » .. ومع هذا فالتوراة نفسها هى التى فصلت طقوس الاحتفال بعيد الفصح ، وفى ليلتين كاملتين منه يسب المصريون ، ويلعنون، لأنهم كانوا سـببا فى خروج أبائهم من أرضهم ، ولم يكن عجينهم قـد اختمر ؟!

وبمقـدار ما فرقت التوراة بين اليهود والشعوب الأخرى ، وبثت الكراهية لهم ، حاولت أن تجعل العلاقة بين أفراد هـذا الشعب طبيعية ومعقولة حتى ان موسى أوصاهم على لسان الرب طبعا :

« لا تقرض أخاك (اليهودى) بربا : ربا فضة ، أو ربا طعام ، أو ربا شىء ما مما يقرض بربا .. للاجنبى تقرض بربا .. لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك فى الأرض التى أنت داخل اليها لتمتلكها » .

وتقول التوراة ان موسى كتب كلمات هذه التوراة فى كتـاب الى تمامها ، وأمر حاملى تابوت عهد الرب قائلا خذوا كتاب التوراة وضعوه بجانب تابوت عهد الرب الهكم ، ليكون هناك شاهدا عليكم ، لأنى أنا عارف تمردكم ، ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قـد صرتم تقاومون الرب ، فكم بالحرى بعد موتى » .

وقد أشهد موسى عليهم السماء والأرض فيما تقول التوراة ، وقـد بلغت صفحات ما زعموا انه هو الكتاب حتى وفاة موسى ٣٣٧ صفحة ، فى كل صفحة حوالى ٢٥٠ كلمة .

ولا نكاد نعلم السبب الذى من أجله دون كتاب التوراة هذا الفيض من النعوت على أجدادهم الأول ، الذين عاصروا موسى ، فقد مضت ألف سنة بين تدوين التوراة ، وبين عصر موسى ، ولعل آخر ما نقتبسه من هذه الأقوال ما نقلوه عن نبيهم ان الرب خاطبهم (تثنيه ٣٢ و ٣٣) كما يلى : « جيل أعوج ملتو . الرب تكافئون بهذا يا شعبا غبيا غير حـكيم » ..

وقوله : « انظر ماذا تكون آخرتهم انهم جيل متقلب ، أولاد لا أمانة فيهم » و « انهم أمة عديمة الرأى ، ولا بصيرة فيهم »

والتفسير المعقول ، هو ان هذه الكلمات الغاصة بالحنق ، انما هى تعبير عن حنق رؤساء الاسرائيليين المتأخرين ــ وقت التدوين ــ عــلى شعبهم ، لارتدادهم عن التوحيد ، وارتكابهم كل المعاصى ، والمحظورات جهرة ، وعبادتهم التمــاثيل التى كانت شائعة فى عبادات الأقوام الذين حولهم .

* * *

وعندما بلغ موسى مائة وعشرين سنة من العمر مات . وتقول التوراة انه عند وفاته كان حديد البصر ، ولم تذهب نضرته . وكان الرب قد أذن له أن يرى من فوق جبل « نبو » مقابل بلدة أريحا على الضفة الشرقية ، منطقة الكنعانيين . ونزل موسى ــ وما أكثر الجبال التى تسلقها حتى فى هذه السن ــ مما يقطع أنه أشهر متسلقى الجبال فى التاريخ كله ، وانه كان فى صحة جيدة فعلا ، لم تهده الأمراض ، لأنه كان دائم الاستحمام حريصا على النظافة ، حسب عوائد المصريين التى تربى عليها ، وما أكثر ما شقى فى سبيل تعويد قومه على النظافة ، حتى لا يقعوا فريسة الأمراض الجلدية والأوبئة ، ولكن دون جدوى .

ومات موسى .. ودفن فى أرض مؤاب ، ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم . وواضح من هذه الرواية أن أحدا غير موسى أملاها ، وان سفر التثنيه الذى ختم رحلة حيــاته كتب بعد أيامه بعصر بعيــد ، لأن معاصريه ، والأجيال التى جاءت بعده كانت تعرف أين دفن . ولكن بعد مضى عشرة قرون اختلف الأمر طبعا .

وموسى كان ــ ولا شك ــ من أعظم شخصيات التــاريخ ، تعليما ورياضة نفس ، وطاقة على احتمال أعباء الرسالة التى كلف بها مع شعب

قضى ثلث عمره الأخير بينهم ، وحسبهم ما وصفوا هم أنفسهم به من سوء طبع ، وعناد ، وأنانية ، واقبال على الآثام منذ عهد نبوتهم الأولى ، وما بعدها .

وقد أثرت سيرته على المسيحية تأثيرا كبيرا ، ولا سيما فى عصر النهضة الاوربية وما بعدها . فقد عمل كبار الفنانين رسوما رائعة تخليـدا له ، وتماثيل فيها من روعة الأداء ، ما استمد ولا شك من شخصيته النفـاذة الى ضمير الانسانية ..

تأثرت المسيحية بموسى وسيرته .. وثابر الاسلام على الدعوة للايمان بما صح من رسالته .. واحتفل القرآن الكريم بموسى احتفالا كبيرا فى سرد سيرته والثناء عليه .

ومن ذلك قول القرآن عن موسى :

* « ولمـا بلغ أشده ، آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين »
* « قالت احداهما يا أبت استأجره ، ان خير من اسـتأجرت القوى الأمين »
* « يا موسى أقبل ولا تخف ، انك من الآمنين »
* « حقيق على ألا أقول على الله الا الحق .. »
* « قال يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى ، وبكلامى ، فخذ ما أتيتك ، وكن من الشاكرين » .
* « واذكر فى الكتاب موسى ، انه كان مخلصا ، وكان رسولا نبيا »
* « سلام على موسى وهارون . انا كذلك نجزى المحسنين انهما من عبادنا المخلصين »

وقد ورد ذكر موسى وسيرته فى ست وعشرين سورة من سور القرآن مما يدل ــ كما ذكرنا ــ على أن هذه السيرة كانت من العلامات البارزة لعقائد البشر ، ولدعوة الناس ــ كل الناس الى الحق والخير .

وكان كتاب موسى ، أقرب الكتب السماوية الى عهد ابراهيم وأيامه . ومنذ أيام الخليل لم توجه دعوة الى فريق من الناس ، الا دعوة لوط ابن أخى ابراهيم ، لقرية كانت فاسقة وعصته ، فأهلكها الله بمن كانوا منهـا بزلزال ساحق ماحق .. وكانت القرية فى فلسطين . وغير بعيدة عن المكان الذى سكنه ابراهيم . ثم جاءت دعوة يوسف للمصريين ، ولم تثمر شيئا يذكر كما ورد فى القرآن . وبعد نحو ستة قرون ونصف قرن جاءت دعوة موسى .. لتكون علامة فى طريق الانسانية نحو صحوة الضمير ونضوجه .

الفصل الرابع

اسرائيل فى فلسطين

أريحا .. الذبيحة :

ان مذبحة أهل مدين ، التى نفذها الاسرائيليون ، على نحو ما وصفت التوراة ، وبعلم موسى وتوجيهه ، ما كان يمكن أن تتم على هذه الصورة، والا لتسامعت بها القبائل الفلسطينية ، ولأخذت حذرها من هـذا العدو المحب لسفك الدماء .. فلا كان أهل مدين بهذه الكثرة ، ولا كان قوم موسى بهذه القوة ، ولا كانت النبوة الموسوية تحمل فى طياتها أسـاليب الانتقام البشعة . فموسى مختار من قبل الله تعالى ، وقد قاد خطواته أربعين سنة فى هذه المنطقة هاربا ، وزوجا ، يتلقى دروسا الهية ، تؤهله لمـا هو مقبل عليه من كفاح .. وأهم هدف وجه له هو أنه يواجه الطغيان ، والتكبر والعلو فى الأرض ، والاستهانة بالبشر خلق الله .. اكرم خلق الله وصورته على الأرض . فكيف يأمر ، وقد واتته فرصة قوة وغلبة ، أن يعمل ما لم يعمله فرعون من قبله ، وما عوقب فرعون من أجل ما هو أقل شأنا منه ، وتخيل كتاب التوراة أنه حل بأهل مدين ..

والصورة الأقرب الى الصواب ، هو أن القبيلة الاسرائيلية ، مثلها كمثل القبائل الرحل ، التى تنتقل فى الصحراء ، وتغير أحيانا على جاراتها ، اصطدمت فى طريق تحركها الى جنوب البحر الميت ثم الى شرقه ، بقبيلة مدين . وقد سلكت هذا الطريق الجنوبى تفاديا من الاصطدام بقبائل أقوى ــ ومنها قبيلة عيسو الاخ الأكبر ليعقوب ــ وحدث ولا شك قتـال ، وحدث ولا شك أن تمكن الاسرائيليون من المرور ، وأوقعوا خسائر بمن

اعترضوا طريقهم . ولكن هذه الخسائر لم تكن من الغزارة بحيث لا يتسامع بها المؤابيون ، أو الادميون ، أو الكنعانيون أو غيرهم فيصنعون حلفا يواجه هذه القوة المغيرة ويروعها أو يقضى عليها .

وهناك فى الغور الشرقى من الأردن حطت قبائل الأسباط الاثنى عشر رحالها ، وقد تزعمهم بعد موسى خادمه وقائد طلائعه يشوع بن نون بوصية منه .

وكان التخطيط للوصول الى أرض كنعان ، هو عبور نهر الأردن، والاستيلاء على بلدة « أريحا » . وقد جعلت التوراة الحبل متصلا بين الرب ، وهذا القائد الجديد « يشوع بن نون » فكل تحركاته بأوامر ربانية .. هكذا قالت التوراة . « لا أهملك ، ولا أتركك . تشدد وتشجع لا ترهب ، ولا ترتعب ، لان الرب الهك حيثما تذهب » .

وكما صنع موسى فى خروجه من سينا ، بارسال بعثة استطلاع وتجسس صنع يشوع بن نون فقد أرسل رجلين الى أريحا ، لكشف ثغرة فى مبانيها ، وساقتهما قدماهما الى بيت امرأة تحترف الزنا اسمها رحاب ، قالت انها سمعت بكل ما حدث للاسرائيليين منذ خروجهم من مصر ، وانها سوف تعطيهم المعلومات ، ولما أحس حراس أريحا بغريبين فتشا عنهما ، فخبأتهما رحاب ، مقابل الابقاء عليها وعلى أهلها عند استيلائهم على المدينة ، وأخذت وعدا بذلك .

وكما صنع الرب مع موسى اذ شق مياه البحر أمام الفارين من مصر، كذلك صنع يشوع ، اذ أوقف جريان نهر الأردن الى مصبه فى البحر الميت (هذا ما ذكرته التوراة) .

وحمل الكهنة « تابوت الرب » ، وسار مجندو اسرائيل ، من قبيلتين ونصف قبيلة فقط من الأسباط ، وكانوا أربعين ألفا كما ذكر كتابهم . وحتى يتأكد يشوع أنهم جميعا ولدوا فى سينا وليس منهم من كان فى مصر فقد كشف عن عوراتهم وأمر بطهورهم جميعا بحجر من الصوان مسنون !

وعلم أهل أريحا بالعبور فأقفلوا مدينتهم وحرسوها جيدا .. ولكن لم يحدث قتال ذو بال .. لمــاذا ؟ لان يشوع وجد رجلا واقفا وسيفه مسلول بيده ، وقدم نفسه لقائد الاسرائيليين قائلا : أنا رئيس جند الرب « فسقط يشوع على وجهه الى الأرض وسجد » وطلب منه هذا الرئيس القادم من السماء أن يخلع نعليه من قدميه لانه واقف فى مكان مقدس ..

وبعد سبعة أيام من حصار اريحا ، والنفخ فى الأبواق لترسل أصوات الرعب ، واذا أسوار المدينة تهدم وحصونها تتهاوى وحراسها يسلمون رقابهم لسيوف الاسرائيليين فذبحوا كل من فى المدينة « من رجل وامرأة وطفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف » . وهكذا أكدت التوراة ان الخطأ الذى ارتكبه الاسرائيليون فى مدين بابقاء الأطفــال والنساء لم يتكرر هذه المرة : كل حى أبيد . وكل الشجر قطع ، وكل الزرع اقتلع ، وكل المبانى حرقت . وصودرت الفضة والذهب والنحاس والحديد وأودعت فى خزانة بيت الرب . وكل ما بقى على قيد الحياة رحاب الزانية وأسرتها . ويقول سفر يشوع الاصحاح السادس :

« وحلف يشوع فى ذلك الوقت قائلا : ملعون قدام الرب ، الرجل الذى يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا » .

وغنى عن البيان أن أريحا بنيت بعد ذلك وهى موجودة حتى الان ! ان لعنات يشوع لم تتحقق ، مع أن التوراة دونت بعده بقرون ، وكانت أريحا موجودة بعد حريقها !

وحسب يشوع انه قادر على الاستمرار فى الزحف بنفس السهولة ، فأرسل الى قرية صغيرة اسمها « عاى » ثلاثة آلاف رجل للاستيلاء عليها ، ولكن أهلها علموا بما حدث فى أريحا ، فأخذوا حذرهم وصــدوا القوة المغيرة ، وقتلوا منها ٣٦ رجلا فقط . وهنا قامت قيامة اليهود على قائدهم من أجل هذه الخسارة « فذاب قلب الشعب ، وصــار مثل المــاء . فمزق يشوع ثيابه ، وسقط على وجهه الى الأرض أمام تابوت الرب الى المساء ،

هو وشيوخ اسرائيل ، ووضعوا ترابا على رؤوسهم . وقال يشوع : « آه يا سيد الرب ! لمـاذا أعبرت هذا الشعب الأردن .. لكم تدفعنا الى يد الاموريين ليبيدونا .. أسألك يا سـيد : ماذا أقول بعد ما حول اسرائيل قفاه أمام أعدائه ، فيسمع الكنعانيون ، وجميع سكان الأرض ، ويحيطون بنا ، ويقرضون اسمنا من الأرض ! »

ويظهر أن الرب طيب خاطر يشوع ، وكان سبب غضبه والحاقه الهزيمة بجنوده ان رجلا سرق من أريحا بعض المتاع والذهب ، فما ان أعدموه رجما ، حتى رضى الرب ، وكلفه بان يرسل ثلاثين ألفا للاسـتيلاء على « عاى » بدلا من ثلاثة آلاف .

وهنالك على سفح جبل ، وعلى قطع من الحجارة ، كتب يشوع بن نون نسخة من التوراة كما كتبها موسى .. « وقرأ جميع كلام التوراة : البركة واللعنة حسب كل ما كتب فى سفر التوراة » .

واذا كان قدماء المصريين المعاصرين ليشوع ، قد دونوا أيامهم عـلى المعابد فهى كلمات قليلة ، والمعابد كانت ضخمة هائلة . أما الالاف من الكلمات ، والبركة واللعنة ، فتدوينها يحتاج الى جهد هائل ، وأحجار كثيرة جدا .. وكان يمكن أن يتم ذلك على أوراق البردى ، لو أنه حدث ، وكانت شائعة .. ولكن هكذا ورد فى الاصحاح الثامن من سفر يشوع .

وهنا تقرر التوراة ، بأن جميع قبائل فلسطين تسامعت بما صنع يهود ، فاجتمعوا جميعا لمحاربة يشوع واسرائيل بصوت واحد . ولكن القوة المهاجمة انطلقت بقوة واندفاع ، وتعرف مسبق على طبيعة الارض . وكانت النتيجة ان أقرب مدينة الى « عاى » آثرت أن تحالف الاسرائيليين ، وكان اسمها « جبعون » .

معركة حاسمة :

كان حلف المدن الخمس ، ضد اسرائيل وأعوانها الجدد ، حلفا قويا . وكان ملك أورشليم (القدس) وملك حبرون (الخليل) على رأس الحلف

وقبل أن يأخذ سكان هذه المدن مواقعهم ، كان يشوع وجنوده قد انفقوا ليلهم فى تسلق الجبل الفاصل بين الفريقين ، وفاجأ أعداءهم ، وكانت السماء تسقط بردا ثقيلا ، وما لبث شمل الحلف أن تبدد أمام الاسرائيليين . وتقول التوراة ان هذا النصر ما كان ليتم بغير معجزة فقد طلب يشوع من الرب ، ألا تغرب الشمس ولا يأتى الليل « فوقفت الشمس فى كبد السماء ، ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل . ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده ، سمع فيه الرب صوت انسان لان الرب حارب عن اسرائيل » .

وتحرك يشوع بسرعة عظيمة مهاجما القرى والمدن الصغيرة من حوله ، وقد اضطرب دفاعها كله ، فاستولى عليها وأباد كل من فيها حتى لم يبق فيها شارد ، وكان منها مدن عجلون ، ولخيش (جرت فيها حفريات حديثة هامة) وحبرون (الخليل) وغزة . ودماء الكبار والصغار تراق بغير حساب والحياة تتوقف فى هذه المناطق تماما على نحو ما حدث فى أريحا « كما أمر الرب اله اسرائيل » .. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة ، لأن الرب اله اسرائيل حارب عن اسرائيل .

وتألف حلف آخر من ملوك شمال فلسطين حتى ساحلها ، ولكنهم هزموهم أيضا ، وطردوهم الى « صيدون العظيمة » على الشاطىء (جنوب لبنان حاليا) ويبدو أن منطقة غزة التى ذكر فى التوراة أنها أبيدت أيضا ، تراجع الأهالى منها الى منطقة ساحل البحر من غزة الى أشدود . وبعد هذه الغارة المفاجئة أخذ يشوع بن نون يوزع الأرض التى استولى عليها فى قلب فلسطين ، وأخذ كل من الأسباط نصيبا « واستراحت الأرض من الحرب » .

هذا هو وصف التوراة لهذه الحرب ، وقد دونوه بعد ألف سنة تقريبا من وقوع هذه الاحداث . وكما لعب الخيال بأولى المعارك ، فيظهر أنه قام بدور مشابه فى هذه المرحلة وذلك بدليل ما ورد فى التوراة نفسها بعد ذلك من قيام معارك لا تنتهى بين الاموريين والكنعانيين خلال القرون

القليلة التى استمر اليهود فيها بالمنطقة التى نزلوا فيها من أرض فلسطين ولا تقوم المعارك بين قوم موجودين وآخرين أبيدو عن آخرهم معزروعهم وماشيتهم ومساكنهم .. وسنروى فى فصل تال الكثير من التضارب والتحريف فى التوراة ، وهو الأمر الذى ألحت عليه الدعوة الاسلامية ، وتردد فى آيات كثيرة من القرآن الكريم .

وقد كانت التوراة صريحة عندما ذكرت بعد توقف هذه المعارك أنه « بقيت أرض كثيرة جدا للاملاك . هذه هى الأرض الباقية : كل دائرة الفلسطينيين على طول الساحل وجزء من أرض الكنعانيين ، والمنطقة من صيدا الى أرض الاموريين ، وأرض الجبال الى لبنان .. الخ . وهذه المناطق مع المدن والقرى التى احتلتها اسرائيل ، تبدأ من أريحا الى الشمال. أما جنوب أريحا ، وهو المساحة العظمى من أرض فلسطين غرب الأردن والبحر الميت الى العقبة فلم تكن لاسرائيل أدنى علاقة بها فى وقت يشوع بن نون ، ولا بعده ، حتى عام ١٩٤٨ ميلادية !

واذا قلنا ان الأرض الفلسطينية التى نزل فيها اليهود الأول لا تتجاوز ١٠٪ الى ١٥٪ من مساحتها الكلية فانا نكون قد قررنا حقيقة واقعة . واتخاذ هذه المساحة المحدودة لاقامة اليهود ، قهرا ، وبقوة السلاح لم يستمر ، الا أيسر الوقت ، كما سنرى فيما بعد .

وكما ذكرت التوراة فان أقلية سكنت عبر الاردن (سبطان ونصف) وأكثرية سكنت فى الجانب الآخر ، ولم يعط سبط « اللاويين » أرضا ، فهم كهان المعبد واقامتهم فى المدن . وعندما علم أحفاد سيدنا يوسف بأن حصتهم جاءت فى منطقة يحرسها الكنعانيون بمركبات حديدية ، احتجوا ، ولكن صمم يشوع بن نون على أن يكون نصيبهم هذه الحصة انجبلية ، لانهم شعب عظيم !

وأكدت التوراة فى نهاية الاصحاح ٢١ ان ما حصل عليه الاسرائيليون بالحرب هو « جميع الأرض » التى أقسم الرب ان يعطيها لآبائهم !

وكما أوصى يوسف الصديق أسرة أبيه أن يعتزلوا حياة المصريين ، كذلك صنع يشوع بن نون ، فقد طلب من قومه الا يلتصقوا بالكنعانيين والأدوميين والفلسطينيين وغيرهم ، ولا يدخلون عليهم ، ولا يسمحون لهم بدخول مساكنهم ، ولا يصاهرونهم والا كانت المخالطـة كما قال لهم : « فخا ، وشركا ، وسوطا على جوانبكم ، وشوكا فى أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الارض الصالحة » .

وفى اجتماع عام لكل الاسباط ، قال يشوع انه يخيرهم الآن بين أن يعبدوا اله اسرائيل أو يعبدوا الالهة التى عكفوا عليها فى مصر ، أو التى عكف عليها سلالة لم تهاجر من نسل ابراهيم فى أرض فلسطين . وقد اختار اليهود الرب الذى ساعدهم حتى الآن ، وهذه اشارة واضـحة الى ان المعبودات غير دين الوحيد ورب التوحيد كانت قد أغرت هذه القبائل فى المواطن التى عاشوا عليها ، وعكفوا عليها عابدين ، حتى ظهر بينهم موسى وردهم الى دين ابراهيم ، ومع هذا كان ايمانهم رقيقا ، وما أن وجدوا فى سيناء فرصة لعبادة عجل من ذهب حتى سجدوا له .. بل لمح يشوع بن نون فى كلماته الأخيرة ، الى أن الوثنية ما تزال فى قلوبهم : « الآن انزعوا الالهة الغريبة التى فى وسطكم ، وأميلوا قلوبكم الى الرب اله اسرائيل » .

ومات يشوع بن نون ، وكان عمره مائة وعشرين سنة . وسمح المصريون بأن يحمل جثمان يوسف الصديق من مصر ليدفن فى شكيم (نابلس) . ومات كذلك الكاهن العازار بن هارون .

اليهود يرتدون :

كما ذكرنا قبل ، فان حملات الابادة التى تحدثت عنها التوراة ، لم تحدث بالصورة التى ذكرتها . وذلك لأن حروب الاسرائيليين مع سكان المنطقة التى نزلوا فيها استمرت بعد وفاة يشوع بن نون ، ولكن فى هذه المرة كان اليهود يحاربون بغير قيادة عامة ، ولكن بقيـادات متفرقة فى قبائلهم .

وكانت الرياسة فى أيدى من أسمتهم التوراة « القضاة »

وقد بدأ سبط بنى يهوذا بمحاربة الكنعانيين للاستيلاء على أورشليم (القدس) واشعلوا فيها النار ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها . وكان اسم سكانها اليبوسيين ، وقد سمحوا لبعض اليهود بالاقامة معهم ، وهم سلالة بنيامين بن يوسف الصديق ، وكذلك هاجموا حبرون (الخليل) وبيت أيل . وفى هذه البلدة الأخيرة دل رجل من أهلها اليهود على ثغرة ينفذون منها ، ثم هرب الى أرض الحيثيين مع قومه ، وبنى هناك مدينة جديدة . وتقول التوراة : « ودعا اسمها لوز ، وهو اسمها الى هذا اليوم » .

والاشارة الى « هذا اليوم » وهو وقت تدوين التوراة ، بعد ألف سنة من هذه الأحداث خروج من الكاتب على خطة ان هذه التوراة قديمة ومنزلة كذلك من السماء .

وخلافا لما أوصى به يشوع بن نون ، فقد ورد فى هذا التدوين المتأخر ان قبائل يهودية ساكنت كثيرا من الكنعانيين فى قراهم ، وأخذت من أهلها الاصليين جزية .

وهنا بدأت ردة اسرائيل . فتذكر التوراة فى عبارة صريحة واضحة ، انه بعد وفاة يشوع وجيله ، قام بعدهم جيل آخر لم يعرف الرب .. وفعل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم ، وتركوا الرب .. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب التى حولهم ، وسجدوا لها ، وأغاظوا الرب . وتركوا الرب وعبدوا البعل ، وعشتاروت .

وبدأت تتوالى الهزائم ويتراجع اليهود ، ويحاصرهم أهل فلسطين فى كل مكان ، وهنا كانت تظهر فيهم زعامات تلم شملهم ، وتحاول تثبيت مراكزهم وهم القضاة ، التى ذكرت التوراة منهم اثنى عشر قاضيا . وان كانت تعبيرات التوراة عن فترات التماسك اليهودى بعد الهزائم المتوالية التى لم تذكر الا اجمالا ، تعبيرات وثنية ، كلها تجديف .. قالت « لأن الرب ندم من أجل أنينهم بسبب مضايقيهم ومزاحميهم وعند موت القاضى

كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم ، بالذهاب وراء آلهة أخرى ، ليعبدوها ويسجدوا لها » . ولم يكفوا عن أفعالهم وطريقتهم القاسية . فحمى غضب الرب على اسرائيل ، وقال : من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدى الذى أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتى ، فأنا أيضا لا أعود أطرد انسانا من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته .

وهكذا نجد التوراة فى نهاية الاصحاح الثانى من سفر القضاة تؤكد ان تجميد رقعة الأرض التى نزلوا فيها من فلسطين ، ثم تراجعهم تدريجيا منها ، له تفسيره الدينى ، وهو ردتهم الى الوثنية ، وان كان التفسير الثانى أيضا قد ورد أيضا ، وهو أن الأمم (القبائل) من حولهم أخذت ترد على عدوانهم بمثله .

كانت القبائل التى تناوئهم هى : « أقطاب الفلسطينيين الخمسة ، وجميع الكنعانيين والصيدونيين (أهل صيدا) وسكان جبل لبنان الى مدخل حماة » .. واضطر اليهود الى التعايش معهم كما ذكرنا ، وكما عبرت التوراة مرة أخرى اذ قالت : « واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، وبناتهم لبنيهم ، وعبدوا آلهتهم » .. وتخطفتهم القبائل القوية ، وباعوا اليهود عبيدا واماء .

وهكذا ذابت فكرة الشعب المختار .

بل وجد أهل مدين فى الجنوب فرصة انتقام مما حدث لآبائهم فى زمن موسى ، فكانوا يزحفون شمالا الى أرض الاسرائيليين ويتلفون زراعاتهم ولا يتركون لهم قوت حياة ، ولا غنما ، ولا بقرا ، ولا حميرا ، واضطر اليهود الى أن يسكنوا فى كهوف الجبال ، والمغارات ، ويحصنوا أنفسهم بعد أن هانوا على كل انسان من سكان فلسطين وعاشوا فى ذل شديد .

وكان من بين هؤلاء القضاة شمشون المعروف باسم الجبار ، لما امتاز به من قوة بالغة حتى ان التوراة تنسب له خوارق فى القتال مثل قتل ألف رجل من أهل فلسطين بلحى حمار ! وكان يكون مفهوما ان شمشون ما دام قد وصل الى مركز الديانة فى قومه ، أن يعف عن المعاصى ، ولكننا

نقرأ عنه فى التوراة انه عشق امرأة فلسطينية هى دليلة ، ظلت تبذل له حبها حتى علمت منه ان سره فى شعر رأسه ، وما أن أزاله له اعداؤه حتى تهاوت قوته ، وتمكنوا منه وسملوا عينيه ، ودار فى طاحون السجن . ولـكن ما أن نما شعره مرة أخرى وقادوه الى عرض فى معبد الآلهة المحلية فى غزة، كان غاصا بألوف المشاهدين ، حتى هدم الأعمدة الرئيسية فى المعبد فانهار ومات تحت انقاضه « وسقط البيت على الأقطاب ، وعلى كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم (شمشون) فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته » .

ولم تكن خوارق شمشون القاضى ، بأقل من الخوارق التى نسبت فى التوراة لقضاة آخرين .

وآخر من هؤلاء القضاة كان اسمه جدعون ، جمع ٣٢ ألفا من قومه لحرب المديانيين فلما وصلوا الى ساحة المعركة كان قـد تخلى عنه أكثر قومه ولم يبق معه الا ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل . وكان أفراد العدو المديانى « كالجراد كثرة » . وتمكن جدعون هذا من قتل مائة وعشرين ألفا من جيوش مدين والمشرق . أى ان كل رجل من يهود جدعون قتل ٤٠٠ رجل من أهل مدين .. هكذا تقول التوراة . !

ولأول مرة تشير التوراة الى سلالة اسماعيل ، وتقول انهم كانوا من ضحايا هذه المعركة ، وان الذهب الذى جمعه جدعون من أسلاب هـذه المعركة بلغ قدرا عظيما . وذلك لأن الاسماعيليين كانوا يلبسون فى آذانهم أقراط الذهب . ومدين كما ذكرنا كانت تسكن شمال الحجاز . فهل كان الاسماعيليون أحلافهم وقدموا من مكة ، أم ان الأمر تخليط على النحو الذى رأيناه فى معظم هذه الأخبار ؟!!

ومن القصص الملفتة للنظر أن التوراة تروى قصة معركة أو معارك دارت بين الاسرائيليين بعضهم وبعض فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم. والتوراة كما تعودنا منها ، تتوسع توسعا غير مقبول فى ذكر الأعداء . فقد

جمعت سطورها ٤٠٠ (اربعمائة) ألف جندى منهم فى مكان واحد لعقاب بنى بنيامين من أحفاد يوسف الصديق . وذلك من أجل جريمة عرض ارتكبت .. ولا يوجد فيما كان يحتله اليهود فى ذلك الوقت مكان يصلح معسكرا لهذا الجيش العرمرم على فرض وجوده من الناحية العددية ، فضلا عن تموينه وقيادته . ولم يكن لليهود زعيم واحد يدينون له بالطاعة . وقد تغلب بنو بنيامين فى أول الأمر — مع ان تعدادهم كان ٢٦٫٧٠٠ رجل فقط . وفى معركتين مات من الاسرائيليين بيد أقاربهم أربعون ألف رجل ! وأخيرا لجأ الاسرائيليون الى تابوت الرب الذى حارب معهم ، وأهلك من بنى بنيامين فى يوم واحد ٢٥٫١٠٠ رجل وفى اليوم الثانى هلك من جيش بنيامين ١٨٫٠٠٠ رجل و « جميع هؤلاء ذوو بأس » . ثم قتلوا منهم سبعة آلاف آخرين كانوا فارين « فى السكك ! » . ثم استدار المنتصرون على مساكن بنيامين وقراهم ، وأهلكوا ما بقى من نساء وأطفال القبيلة « حتى البهائم ، حتى كل ما وجد ، وأيضـــا جميع المدن التى وجدت أحرقوها بالنار » !

أجل .. علينا ألا ندقق كثيرا فى أرقام التوراة ، والا فان ما قتل من رجال هذه القبيلة المنهزمة ، يفوق عدد مجنديهم مرتين أو أكثر .

ويبدو أنه كانت هناك بقية باقية من قبيلة بنيامين ، استدعاهم شيوخ اسرائيل ووهبوا لهم أربعمائة فتاة عذراء اختطفوهن من الكنعانيين ، لكى توجد لبنيامين سلالة ، ولو من غير الاسرائيليات خلافا لوصايا موسى الكليم ومن جاء بعده ، وندم اليهود على هــذه المجزرة التى أحدثها أقاربهم ، ونسبوها الى الرب « لأن الرب جعل شقا فى أسباط اسرائيل » .

وقبل أن ننتقل الى الوجود اليهودى فى أورشليم (القدس) ، وبدايته مع عهد ملوكهم ، نذكر لمحة عن صدى ما كان يحدث فى الممالك الكبرى المحيطة بفلسطين .

الصوت والصدى :

أشرنا قبل الى تكوين الامبراطورية المصرية فى عهد تحتمس الثالث، فقد بسطت سيادتها على رقعة فسيحة من الأرض والبحر تكون أمنهـا الخارجى على صورة مثالية ، اذ ارتفعت أعلامها من جزر الأغريق فسواحل آسيا الصغرى ومرتفعات أعالى الفرات شمالا ، الى الشلال الرابع لنهر النيل جنوبا . حتى أن تحتمس الثالث ترك جملة عميقة المعنى تصور تاريخه اذ قال : انى أرى جميع العالم فى كل ساعة .

وكان هذا التطور فى السلطة الزمنية ، مصحوبا بتطور آخر فى السلوك العقائدى . ولا شك فى أن وجود القبيلة الاسرائيلية فى مصر ، وما حدث أيام موسى هز كثيرا ما كان يتمتع معه اله الشمس فى مصر من مكانة . ان سيطرة أفكاره العقائدية فى حراسة كهنة شديدى البأس ، أقوياء السلطان قرابة ١٦ ، قرنا من الزمان ، لم تعد كافية لأشباع حاجة الشعب المصرى، والشعوب المنضوية تحت لوائه الى حياة روحية أكثر اقناعا .

واتجه الفكر المصرى الى أن يكون الاله ذا صفات مقبولة من مخلوقات الأرض جميعا ، له سلطان الخلق والتوجيه والتربية ، على كل الشعوب والحقيقة أن هذا التفكير وان بدا لنا قريبا من التوحيد ، الا انه التوحيد غير اليهودى ، بل التوحيد الابراهيمى وذلك لأن اليهود وقفوا بالاله أو الرب عند قبيلتهم وحدها . حتى اخوانهم الآخرون من أبناء اسحاق ، لم تكن لهم مشاركة فيما يعبدون .. انه اله اسرائيل وحدها . وان كانت له صفات أقوى من صفات المعبودات الأخرى حـوله فى تقدير أنبيائهم ومشيختهم سواء كانوا يحملون لقب الكهان أو القضاة أو الأنبياء .

ولهذا لا نعتقد أن أسباط اسرائيل قد لفتوا لهم نظـر المصريين أو البابليين والأشوريين ، أو حتى القبائل التى ساكنوها فى فلسطين ، ذلك لأنهم أغلقوا عبادتهم على أنفسهم ، ووضعوا معبودهم فى تابوت بمحلتهم وقصروا قدرته على تلبية رغباتهم ، والاستماع الى صرخاتهم وابتهالاتهم .

وحتى نصل الى مزامير داود ، فلا نجد صلوات ، أو أدعية يهودية موجهة الى الرب تلفت النظر بقوتها ، وصدق ايمانها . بل على العكس ، نجد أنواعا من العقاب والتبكيت لأن الرب عمل كذا أو كذا .

وقبل أن نصل الى ابتهالات اخناتون ، فان كهنة آمون فى عصر الوجود الاسرائيلى بفلسطين ، تكاد تكون تعبيرا عن اله واحد .. لقـد دونت الانشودة الآتية حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م (أو ١٤١٣ ق.م) أى فى وقت تدمير أريحا بالضـبط على أيدى اليهود .. أى فى عهد الملك المصرى « أمنحتب الثالث » تقول كلماتها :

كل الناس تنظر بواسطتك
أنت خالق الكل ، ومانحهم قوتهم
أنت أم نافعة للالهة والبشر
وأنت صانع مجرب
وراع شجاع يسوق ماشيته
وأنت ملجؤها ، ومانح قوتها

فلما جاء اخناتون بعده ، عام ١٣٧٧ ق.م ، أحدث ثورته الدينية الكبرى . اذ ألغى كهانة الاله آمون ، الذى كان مركزها فى طيبة (الاقصر) ورفع راية الاله « آتون » أى الأفق ، وجعل مركزها فى تل العمارنة قرب المنيـا .

واختار اخناتون زوجة له فتاة من الشعب هى « نفرتيتى » حسناء التاريخ كله ، والتى شاركته ايمانه « بآتون » . وقامت عبادة آتون على قواعد :

- فقد ألغت التقرب الى الله بأى منظر دموى ، واقتصر تمجيد لرب على تقديم الزهور والفاكهة على مذبح المعبد .

- تصحب الصلوات فى المعبد جوقة موسيقية ترسل انغامها ، وكانت مغنية المعبد الأولى هى الملكة نفرتيتى نفسها ، وفيما وصفت به أنها كانت من أعذب النساء صوتا .
- لم يجعل أخناتون من نفسه كائنا فوق الناس ، بل واحدا منهم فى تماثيله وصوره .

وحتى يربط أجزاء الامبراطورية الكبيرة التى تركها جده تحتمس الثالث ، فقد صدر عقائده الى أملاك مصر الآسيوية ، ومنع الاعتماد على القوة العسكرية كرابطة تجمع أجزاء الامبراطورية المصرية .

ويبدو أنه فى هذه الفترة ، أخذت تحركات الاسرائيليين ضد القبائل الفلسطينية الأخرى ، أو فيما بينهم ، طابع العنف الدموى اللافت للنظر ، وقد وجدت رسائل الحكام فى مديريات فلسطين يطلبون المدد لقمع هذه الفتن . ولكن أخناتون لم يأذن باستعمال القوة ، مفضلا التبشير برسالة الحب ..

ولكن أى حب هذا الذى يمكن أن تنصاع له أسباط يهود ، وقد كانت المناظر الدموية جزءا من طقوس عباداتهم ، وكانت المذابح حسب أوصافهم لها تجرى كلما وجدوا سيفا فى أيديهم يمكن أن يغمد فى صدر أحد ، أو يصل الى رقبة انسان . حتى الماشية والأشجار فضلا عن الأطفال الرضع ، لم تنج من سكينهم ..

لم تحرك هذه « الفتن » خاطر الحكام فى مصر منذ بدأت فى « أريحا » فهذه عادة القبائل الصغيرة فى المنطقة . وكذلك استمر الحال فى عشرات السنين التالية ، حتى أرسلت هذه الرسائل التى وجدت فى تل العمارنة . وذلك لأن الاضطرابات لم تكن موجهة بصفة أساسية نحو السيادة المصرية ولكنها كانت مجرد نزاع على أرض ، مثل النزاع فى الصحراء على المراعى عندما تنزل الأمطار ، وبعد ذلك لا تكون للارض قيمة . والحديث عن المدن الفلسطينية ، مثل أريحا وحبرون وشكيم وأورشليم وغيرها انها

كانت قرى كبيرة ، أو بلدانا صغيرة ، بحسب عدد سكانها ، وما كان أقله اذا قيس بعدد السكان الآن .

وحتى نأخذ فكرة أوضح عما كان أخناتون يريده عقائد للشعوب الآسيوية ، مع الشعب المصرى ، ومنهم اليهود ، فهذه قطع من أنشودة أخناتون عن ربه آتون .. قالت :

« أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء
« أنت آتون الحى الذى كنت فى أزل الحياة
« كنت تملأ كل البلاد بجمالك
« أنت جميل وعظيم ومتلألىء فى كل أرض

* * *

« أنت خالق النطفة فى المرأة
« وأنت الذى تجعل من النطفة أناسا
« وأنت الذى تعين الطفل ليعيش فى بطن أمه
« تهدئه حتى لا يبكى
« تغذيه فى الرحم
« وأنت معطى الروح حتى يحيا كل انسان خلقته
« وحينما تنزل المولود من رحم أمه
« فأنت تفتح فمه
« وتمنحه ضروريات الحياة

* * *

« وحينما يصرخ الفرخ فى غلاف بيضته
« فأنت تعطيه نفسا يحفظه حيا فى وسطها
« وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج منها
« وعندما يخرج من البيضة فى موعده
« يصيح ، ويمشى على رجليه ..

« ما أكثر أفضالك .. ما أعظم أعمالك يارب .

« انها تخفى على الناس .. وكلها بحكمة صنعت

« يا أيها الاله الواحد الأحد .. ملأت الأرض من فضلك

« لا يوجد بجانبك اله آخر

« لقد خلقت الأرض حسب رغبتك

« وحينما كنت وحدك

« خلقت الناس والماشية والغزلان جميعا

« وكل ما فى الأرض مما يمشى على سوقه خلقته

« وكذلك خلقت ما يطير فى السماء بأجنحته

« وفى الأقطار العالمية .. سوريا .. وكوش .. وأرض مصر

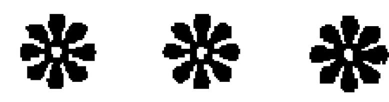
« انك تضع كل انسان فى موضعه

« وتمدهم بحاجاتهم .. وكل انسان لديه قوته .. وأيامه معدودات

« والألسنة فى الكلام مختلفة

« وكذلك تختلف أشكالهم ، وجلودهم

« لأنك تخلق البشر مختلفين .



وهذه الأنشودة طويلة .. وتختم بمعنى رائع يردده آتون ، وهو يصف الرب ويستعرض وحدانيته ، وما صنع من كائنات ، وما صنع للكائنات انه يقول : « .. ومع ذلك فانك لا تزال فى قلبى » .

واذا كانت بعض استعارات الأناشيد الدينية فى هذه الفترة ، تنتزع من الشمس الأوصاف ولكنها مع ذلك تدور حول معنى كبير فى فكرة الخلق والألوهية وهو ان الله « خلق نفسه بنفسه .. ثم خلق الأحياء والأشياء » .

وبعد سبعة قرون أو نحوها ، نجد مزامير داود ، كما سنرى ، تتغنى بمعانى مقاربة . وهذا السبق فى اللاهوت المصرى ، لم يستمر طويلا ، لأن

عوامل محلية تغلبت على صوته العذب واسكتته . ولعل من أهم العوامل فى توقف هذه اليقظة المبكرة للوجدان المصرى ، ثم العالمى أمران :

أولهما : ان أخناتون أصر على ألا يتزوج على زوجه نفرتيتى الجميلة أحــدا من النساء ، رغم الحاحها عليــه . فقد كانت ذريتها كلها منه من البنات . وكان الزواج بأكثر من واحدة ، بل الزواج بالأخوات معروفا فى ذلك الوقت وبعده . ولكن مبادىء أخناتون لم تكن تسمح بالتعــدد .. وحدانية فى كل شىء . وتطبيق أمين شريف لكل ما تدل عليه كلمة «الحب» سواء فى العلاقات مع الأسرة ، أو الأمة ، أو البلدان الخارجية الخاضعة .

ثانيهما : ان أخناتون قضى على الوهية « أزوريس » وهو يحارب « آمون » وأزوريس هو الاخرة .. هو البعث بعد الموت . والحساب ، والحياة الآخرة . وكانت هذه العقيدة متمكنة من المصريين تمكنا تاما . وعندما أسقط أخناتون أزوريس ، لم يحل محله بعثا بصورة أخرى ، فأحس الناس أن حياتهم الأولى لا تكفيهم وان حاجتهم الى حياة ثانية ، أمر لازم ، وفيه تعويض عن متاعب الحياة الأولى ، التى فيها يكدحون ، وفى الأخرى ينعمون اذا صلحت أعمالهم ..



هذا هو الجو الروحى فى مصر ، ومعاركه فى فترة ظهور اليهود فى فلسطين . وقد سجلت ألواح « تل العمارنة » أحداث هذه الفترة ــ عصر أمينوفيس الثالث (منشىء طريق الكباش الشهير ومعبــده فى الأقصر وتمثالا ممنون العملاقين) ، وعصر أخناتون وزوجه الملكة نفرتيتى . وهى ألواح من الفخار عــددها ٣٠٠ لوحة وكشفت عام ١٨٨٨ منقوشة بخط بابل المسمارى ، وقد نهبت من مصر ، واختطفتها متاحف العالم مثــل متحف برلين ، والمتحف البريطــانى (٥٠ لوحا) ومتحف اشموليان فى انجلترا أيضا (٣٠ لوحا) ، ومتحف اللوفر (٧ ألواح) ، ومتاحف ليننجراد وبروكسل ، ومتروبوليتان بالولايات المتحدة ، ومتحف القسطنطينية ،

وأفراد آخرون . وما حفظ فى متحف القاهرة صاحبة هذا الكنز التاريخى العظيم ، لم يزد على خمسين لوحا .

وقد لفتت هذه الأفكار الدينية المصرية فى هـذا العصر الكثير من الباحثين ، منهم العالم اليهودى سيجموند فرويد صاحب النظريات النفسية المعروفة ، الذى ألف كتابا عن « موسى والوحدانية » .

فقد زحف بزمن موسى بضعة عشرات من السنين ، وذكر انه استوحى أفكار وحدانية الله من تأملات أخناتون . ويؤكد فرويد أن موسى لم يكن من أسرة ليفى اليهودية ، ولكنه كان مصريا صميما ــ أهلا ومولدا .

وعارض الدكتور احمد بدوى هذا الرأى وقال : لست أجد حكمة ظاهرة فيما يراه المؤلف من أن موسى كان مصريا ، الا اذا كان يريد أن يثبت للعالم أن العقل المصرى لم يكن يستمع لفكرة الوحدانية . وأن ذلك النبى المصرى قد يئس من الدعوة لمذهبه بين أهله وعشيرته ، فراح يبشر بها بنى اسرائيل ، لأنه وجد عندهم من سعة الفكر ، وكما ل العقل ، ما مهد له سبيل ذلك . وأنه كره أن يبشر أولئك القوم على أرض المصريين ، فهاجر على رأسهم ، لينتبذ بهم من جانب الطور الأيمن ، مكانا قصيا .. لئن كان كذلك ، فأحب أن يعلم الناس أن المصريين قد عرفوا الوحدانية وآمنوا بها ، ودانوا دينها ، بل عرفوا ان الله واحد لا شريك له . ولكنهم لم يعلنوا ذلك دفعة واحدة .. وقد مروا فى ذلك بثلاثة أطوار : طور التعدد ، وطور الترجيح ، وأخيرا طور الوحدانية .

وفى رأيه أن التوحيد المصرى خضع لسنة الطبيعة ، وأنه نشأ مصريا خالصا ، غير منقول .

ومقطع القول فى هذا الجدل العلمى ، هو موعد ظهور موسى ، وفى عهد أى الفراعنة ، جهر بدعوته .. وعندنا ، استنادا الى حفريات أريحا ، والى شواهد أخرى من حساب السنين فى التوراة نفسها أن موسى سبق أخناتون فى خروجه بسنوات قليلة ــ عشرات فقط ــ واذن فلا مجال

للبحث فى تأثير التوحيد الموسوى بالذات على أفكار المصريين ، وان كانت أفكار التوحيد قد وجدت بذرتها قبل ذلك بأربعة قرون وبعض قرن ، أيام يوسف الصديق .

وهناك شاهد آخر له قيمته ووزنه فى موضوعنا هذا ، وهو ألواح تل العمارنة نفسها . فقد كتب والى جبيل (ببلوس) فى أوائل عصر أخناتون وكان اسمه راب ــ آدى ، يقول له :

« منذ رجوع والدك من صيدون ، وقعت البلاد فى أيدى الخابيرى » ووالد أخناتون ، كان أمنحتب الثالث ، وقد قام فعلا بحملة مسلحة على فلسطين وسوريا آخر أيامه .. وبلغت رسائل هذا الوالى من ضمن مجموعة تل العمارنة ، ستين رسالة .

وبدو الخابيرى ، هم العبريون ، ومنهم اليهود الاسرائيليون . ولم تكن تحركات « الخابيرى » ذات أهمية ، حتى لقد وصفت بأنها « غارات سلمية أشبه بالهجرة » (١) . ومن هذا يتضح لنا أن ما وصفته التوراة من حروب يجتمع لها مئات الألوف من حاملى السيوف مبالغة لا شك فيها ، والا لتحركت جيوش مصر ، وسحقتها سحقا .. وهو ما حدث فعلا بعد ان هدأت الثورة الدينية التى رفع لواءها أخناتون ، وعادت طيبة عاصــمة لمصر ، وهجرت « أخت آتون » أو تل العمارنة ، وأصبح الاله المصرى أمون هو المعبود .

لقد حكمت الأسرة الثامنة عشرة المصرية حوالى ٢٥٠ سنة ، بدأت بطرد الهكسوس من مصر ، وانتهت بهذه الصحوات التوحيدية فى النظرة الى الكون وخالقه ، وكان آخر ملوك هذه الأسرة أزواج بنات أخناتون. ومنهم الفتى الشاب توت عنخ آمون صاحب الآثار المشهورة (٢) . وفى

---

(١) كتاب تاريخ مصر لبرستد ترجمة الدكتور حسن كمال ص ٢٢٤

(٢) كشف قبره ومخلفاته العظيمة فى عام ١٩٢٢

عهد هذه الأسرة ظهر موسى الكليم فى مصر ثم قاد قبيلته الى سيناء ، ثم الى فلسطين .

وما أن تولى حور محب الملك ، مستندا الى زواجه من أسرة أخناتون (فى الغالب أخت زوجه) ، وكان قبل ذلك قائد الجيوش ، ورجل الادارة الممتاز .. ما أن تولى الملك هذا الشخص القدير ، حتى وجد عاصمته تغص بمهاجرين من فلسطين ، يشكون سوء الحال ، واختلال الأمن فيها . ولكن هذا الملك وطد أركان الأمن فى مصر أولا ، وكافح فيها وباء شديدا انتشر ، وهو الرشوة ، وكان حكمه تمهيدا طيبا للأسرة التاسعة عشرة التى ارتفع فيها أسماء رمسيس .

بدأ حكم هذه الأسرة الجديدة ، بسيتى الأول . وقد تلقى رسالة من واليه فى فلسطين جاء فيها :

« لقد اتحد رؤساء البدو معا ، وأخذوا يضعون أيديهم على فلسطين وهم الآن يفتكون بالناس ، ويلعنونهم ، ويضربونهم . فصار كل منهم يقتل جاره غير مكترثين لقوانين القصر الملكى المصرى » .

ويعقب برستد على هذه الرسالة بقوله : فى أثناء هذه الغارات البدوية أخذ الاسرائيليون يستعمرون فلسطين ، وكانوا يدفعون الجزية لفرعون ، ويطيعون أوامره ولذلك لم يهتم بهم ، أما الآن فتغيرت الأحوال ، وامتنع هؤلاء القوم عن ذلك .

وهنا نجد سيتى الأول يسجل زحفه على فلسطين ، واخضاعه لأهلها جميعا . وقد حاول بعض البدو من سكان النقب (الجنوب) التصدى له فمزقهم شر ممزق . ثم واصل زحفه الى كنعان (غربى سوريا وفلسطين) ، فاستولى عليها ، ووصل الى سهل مجدو ، وأقام نصبا تذكاريا فى أرض حوران . ولم يكن سكان هذه المناطق قد رأوا زحفا مصريا يقوده فرعون منذ أيام أمنحتب الثالث (أبو أخناتون) . وقد أخضعت هذه الحملة

فلسطين ، وبهذا أمكن تأمين ظهر الجيش المصرى ، وهو مندفع شمالا لاخضاع الحيثيين كذلك . ولكنهم كانوا قد توطنوا بهجرات متوالية من آسيا الصغرى الى شمال سوريا ، فعاهدهم واكتفى منهم بالجزية .

وما يهمنا هنا ، هو أن الوجود المصرى فى فلسطين ، كان لا بد منه لاقرار الأمن وتمكين السكان جميعا ، سواء كانوا وافدين أو مقيمين من مواصلة حياتهم اليومية فى هدوء نسبى ..

وهنا نأتى الى عصر رمسيس الثانى أشهر اسم بعد أحمس وتحتمس الثالث فى تاريخ السيادة المصرية .. ان حروبه الضخمة فى شرق آسيا . أقامت مجده . وقد أكد « برستد » فى دراسته المتأنية ، أن جيش رمسيس الذى بدأ غزواته عام ١٢٨٨ ق.م كان مكونا من أربع فرق ، قوام كل فرقة خمسة آلاف جندى .. وهذا غير عدد آخر من الجنود المأجورين غير المصريين لم يعرف احصاؤه بالضبط . وقد اجتاح رمسيس هذه المناطق كلها وفتك بالحيثيين فتكا ذريعا ، فى عدة غزوات على مدار سنوات متعاقبة .

أين هذا العدد للجيش المصرى ، من الأرقام الفلكية (مئات الألوف) التى تحدثت التوراة ، انه كان فى استطاعة اسرائيل حشدها ، بل قالت انها حشدتها فعلا ؟!

وقبل أن نغادر مصر وعلاقتها بفلسطين ، نصل الى منفتاح ابن رمسيس الثانى . وعلى مدوناته الأثرية ، نجد للمرة الأولى نصا صريحا ، خاصا باسرائيل ، وقد حلت هذه الكلمة محل قبائل البدو (الخابيرى) . وفى هذا النص ، ان بنى اسرائيل اشتركوا فى ثورة ضد السيادة المصرية على فلسطين وسوريا . فذهب منفتاح على رأس جيش ، ونكل بالعصاة تنكيلا شديدا ، وكانت قبائل بنى اسرائيل ضمن الذين وقع عليهم القصاص .

ولذكر اسرائيل للمرة الأولى باسمها هذا على الآثار المصرية ، تسربت

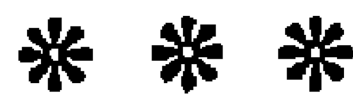
شبهة لدى بعض الكتاب والباحثين ، هي أن منفتاح هو فرعون الخروج ، أي فرعون الذي ظهرت في وقته دعوة موسى . ولكن هـذا وهم باطل وما حدث هو حملة تأديبية مصرية ، وجهت الى هناك ، بعد فرار اليهود من مصر بوقت طويل . فقد مات منفتاح عام ١٢١٥ ق.م . ، وكانت الهجرة اليهودية والعبور الى سينا عام ١٤٤٠ ق.م

وما يلفت النظر حقا ، نص الاشارة التي وردت في المدونات المصرية القديمة بمناسبة هـذه الحملة التأديبية . يقول النص : « ان اسرائيل دمرت ، وبذرتها محيت .. ويستطرد مؤرخنا الكبير برستد قائلا : وقد كان ذلك الحادث في عهد « القضاة » الذين قادوا اسرائيل وقت كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة ، لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزي ، أو النظام القومي . فقد كانوا متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء . بل ان بعض تقاليدهم كانت أقرب الى الوحشية ، مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لاله القبيلة .. ومثل هذا الجني المحلي الذي كان يطلق عليه في الصحراء الجنوبية اسم « ايل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم ، وانما هو الكلمة السامية القديمة التي كانت تطلق على أي اله محلي .

وبعد أن ذكر برستد أن اليهود أطلقوا على معبودهم اسم « يهوه » اله البراكين والظواهر الطبيعية الخارقة ، وذلك تأثرا بما حدث أمامهم فوق جبال سينا وبين قممها المرعدة ، قال ان من قسوة الطبيعة ، وما تخيلوه في اله البراكين من جبروت وشدة ، استعار اليهود هذه الأوصاف ، وجعلوها علما « للرب » الغضوب . ويرى برستد أن وجود اليهود في مصر ، أمدهم بعض عاداتهم ، وأولها عادة الختان . ويقول (١) « على اننا نجد العبرانيين كانوا يتمسكون ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية . فقد كان كهنتهم يحملون عصا سحرية عظيمة ، لا شك في أنها كانت في صورة ثعبان .

(١) فجر الضمير ص ٣٧٩

تكمن فيها قوة (يهوه) . كما كانوا ينصبون ثعبانا من النحاس البراق ليشفوا به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحـد تلك الثعـابين المقدسة العديدة فى مصر . وقد بقيت صورة ذلك الاله المصرى القديم عند العبرانيين الى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا فى اطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد موسى . ولم يبعد من المعبد الا فى حكم حزقيائيل ، فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد .



وهكذا تمضى القرون الأولى لليهود فى فلسـطين ، وهم يحاولون جاهدين التعود على حياة الاستقرار الزراعى ، وترك عادات البدو الرحل ، أو حياة الرعى التى بدأوا بها وجودهم . ان البـدوى ينـام بنصف عين كالذئب ، خوف المفاجأة من مجهول يثب عليه سواء كان بشرا أو حيوانا مفترسا . وفى اغارات اليهود على أهل القرى والمدن الفلسطينية استجابة لهذه الطبيعة ، مع أن الأرض وقتها كانت واسعة. وكان فى وسعهم الاستقرار والتعمير ولكنهم آثروا الأخرى .. آثروا أن يأخذوا ما فى أيدى غيرهم ، بحجة ان الرب قادهم اليه . والرب لا يدعو الى انتهاك الحرمات ، وأخذ ما فى يد الغير ، وما أنعم الله به عليهم ومنها الأرواح والحياة بكافة معالمها .. لقد أراد الرب خلاصهم من حالة ذل كانوا فيها بأرض مصر وفلسطين واسعة ان كانت هى مهجرهم .. وهم قلة من الناس ، اذ لا عبرة بأرقام أوردها كتاب التوراة وهى تتحدث عن كثرتهم . وسنرى فيما بعد ، وبنص التوراة نفسها عدد الذين أخرجهم البابليون من فلسطين ، وعدد الذين عادوا اليها بعد أن سمح لهم بالعودة .. انه رقم لا يعادل جزءا من عشرة أجزاء ، مما ذكره كتاب التوراة فى الحقبة الأولى ، تعدادا لجيش جمعوه يحاربون به قبيلة من قبائل اليهود ، فصلنا أمرها من قبل .

نعود الآن ، الى تتبع السيرة اليهودية فى فلسطين ، بعد هذه النظرة السريعة على ما أحاط بهم فى الجانب المصرى ، والمصريون كانوا أصحاب خبرة بالاسرائيليين أكثر من غيرهم .

ملك يحكم اسرائيل :

بعد عصر القضاة ، زادت مفاسد اسرائيل ، ولم تقف عند عبادة الأوثان ، وعبادة الأرباب المعبودة فى فلسطين ، بل راحوا كما تقول التوراة: يحقرون يهوه ويصغرونه ، ووصل بهم الأمر كما ورد فى الاصحاح الثانى من سفر صموئيل الى « أنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع » .

وفى معركة من هذه المعارك التى لا تنتهى ، دار قتال عنيف بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، وبعد أول انكسار لليهود ، أسرعوا وأحضروا « تابوت الرب » ليحارب لهم عدوهم . ولكن التابوت أيضا وقع فى يد الفلسطينيين وحملوه معهم الى أشدود على ساحل البحر المتوسط .

وتذكر التوراة فيما تبالغ به من أرقام أن ضحايا اسرائيل فى هذه الهزيمة ، كانوا أربعة وثلاثين ألف قتيل . ويذكرون أنه فى كل مكان أودع فيه هذا التابوت كان يحل الاضطراب ، وتفشو الأمراض . وخلاصا من هذه « الورطة » وضع الفلسطينيون التابوت على عربة ، مع كمية من الذهب مما يسر به اليهود ، وساقوها الى حيث يقيم اليهود ، من أسرة ليفى ــ سلالة هارون ــ ويبدو أن نظر اليهودى الى هذا التابوت يصيبه بضربة مميتة . فكان كلما وقع نظر يهودى عليه بعد عودته صعق .. وتذكر التوراة أن خمسين ألفا ، زادوا سبعين ، هلكوا بسبب هذه النظرة !! وأخيرا أودعوه فى احدى القرى وظل فيها عشرين سنة .. وكانت فترة أسر التابوت فى يد الفلسطينيين سبعة أشهر .

وكان أحد الفتيان من يهود طيبا صالحا ، وهو صموئيل . فنصبوه كاهنا ، وكان فطنا ذكيا ، فخطط حدودا بين منازل اليهود ، ومنازل الفلسطينيين لايقاف المعارك التى لا تنتهى ، كما عقد مع الاموريين معاهدة سلام .

ويبدو أن الشيخوخة أدركت هذا الفتى الطيب صموئيل ، دون احداث

تذكر ، اللهم الا ما حدث عندما نصب للقضاء ابنيه ، فكانا مثالا للفساد والرشوة . وحتى تتم محاكاة اليهود للقوميات الصغيرة الأخرى الموجودة فى فلسطين ، فقد طلبوا من صموئيل ، أن يختار لهم ملكا ، مثل ملوك هذه القبائل من حولهم ، واستشار صموئيل ربه فى هذا الطلب ، فقال له : انهم لم يرفضوك أنت ، بل اياى رفضـوا ، حتى لا أملك عليهم ، حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر الى هذا اليوم ، وتركونى ، وعبدوا آلهة أخرى ..

وهكذا نجد اليهود منذ مات موسى الكليم ، بل فى حياته ، لم يثبتوا مرة واحدة انهم أهل لأن يحملوا رسالته ، أو يكونوا شعبا مختارا ، وأسوة للشعوب من حولهم كبيرها وصغيرها .. ان ثلاثة قرون أو نحوها ، منـذ تجديد الدعوة الابراهيمية على يدى موسى ، لم تخرجهم من حياة القبيلة الضيقة ذات التقاليد الجامدة ، أو المخيفة فى بعض الأحيان .. ولقد حدث مرة فى جريمة عرض ، أن قتل يهودى المرأة المعتدى عليها ، وقطع جثتها الى ١٢ قطعة ، أرسل كل قطعة الى سبط من أسباط اسرائيل يستنفرهم لنجدته . ولم يعرف عن القبائل البدائية مثل هذه الرسائل باللحم البشرى .

المهم انهم طلبوا من صموئيل ملكا . وطلب منه « الرب » أن يستجيب لهم رغم اعتراض الرب على رغبتهم ! وقد حذرهم قاضيهم قائلا لهم انه أى الملك المنتظر « يأخذ بنيكم ، ويجعلهم لنفسه .. لمراكبه وفرسـانه ، فيركضون أمام مراكبه » وانه ــ أى الملك ــ سوف يجبر شعب اسرائيل على العمل فى مزارعه ، ويحشد نساءهم فى مطابخه ومخابزه ، ويصـادر حاصلاتهم ، ويوزعها على عبيده . ولكن الاسرائيليين أصروا ، ليكونوا مثل سائر الشعوب .

وفى هـذه الفترة ، كان الفلسطينيون ، قـد ركبوا رؤوس اليهود ، وساموهم سـوء العذاب . وكان الملك المختار رجلا من قبيلة بنيـامين اسمه « شاول » ، وافق الرب على اختياره لهذا المنصب ، مع ان الرب سبق أن عارض هذا المشروع !

وفى الوقت الذى كان فيه صمويل قاضيا ، وقد اختار هذا الملك ، كانت اسرائيل تزخر بعدد من « الانبياء » . والمفهوم اليهودى لكلمة نبى يختلف عن مفهوم الأديان الأخرى ، فهو لا يزيد عن أن يكون عرافا ، أو قارىء طالع ، حتى لقد وجد بين اليهود أربعون نبيا فى وقت واحد .

ونجح شاول الملك فى رد غارات الفلسطينيين ، مستعينا طبعا «بتابوت» الرب . وحدث خلاف كبير بين القاضى صموئيل ، وهذا الملك ، « ولم يعد صموئيل لرؤية شاول الى يوم موته ، لأن صموئيل ناح على شاول ، والرب ندم ، لأنه ملك شاول على اسرائيل » . وهكذا نرى رب اليهود فى هذه المرحلة ، لا يدرى ما يفعل ويدركه من الندم ما يدرك الناس . وهو مفهوم وثنى لفكرة الربوبية ، لم تنجح الوصايا العشر ، ولا غيرها ، فى نزعها من ذهن اليهود لا فى القرون الأولى لوجودهم فى جزء من فلسطين، ولا فى القرن الأخير من وجودهم فيها قبل ظهور المسيح . وذلك لأنهم كتبوا هذا الكلام فى توراتهم فى المرحلة الأخيرة ، ولو ان عقائدهم أدركها شىء من النضوج لما خطوه بأيديهم ، وجعلوا منه توارتهم التى بها يتعبدون ، ومنها يستمدون مسيرتهم الروحية والمادية .

وفى ذات ليلة أراد شاول عازف عود يسرى عنه ، فأحضروا له فتى من الرعاة اسمه داود ، كان يجيد العزف على هذه الآلة الموسيقية . فأضفى بهجة على ليالى شاول .

وتجددت المعارك مع الفلسطينيين ، وكان من بينهم هذه المرة فارس عملاق اسمه جوليات يلبس خوذة نحاسية ودروعا ، وله رمح هائل أرعب اليهود . ودعا فارسا من اسرائيل لينازله وأيهما يغلب يكون شعب المغلوب عبيدا للمنتصر . وفى وسط الروع والأسى ، اذاع الملك شاول ان من يتقدم من جيشه ويهزم عملاق فلسطين ، فانه يزوجه بنته ، ويهبه مالا جزيلا . وبرز من الصفوف داود عازف العود وابن مدينة بيت لحم . ورفض الرماح والدروع وأخذ حجارة ومقلاعا تعود على اصابة الأهداف بها . وحقر جوليات العملاق شأنه ، ولكن تسديد حجر الى جبهته ألقاه على

الأرض صريعا ، وأسرع داود الى سيف هذا المحارب فانتزعه من جنبه وقطع به رأسه ، وحمله معه ، ومعه أسلاب هذا العملاق الى أورشليم .

وظل داود يترقى ، حتى سلمت له قيادة رجال الحرب من يهود ، وعظمت شعبية داود ، وقبل الملك أن يزوجه من ابنته « ميكال » بعد ان قدم له مائتى عضو من أعضاء فلسطينيين قتلهم ، وكان ذلك مهر الأميرة . وتغير قلب الملك على داود ، وتآمر على قتله . وبينما كان داود يعزف على قيثاره ، مسك شاول رمحا وقذف به زوج بنته ، ولكنه حاد عن مرماه وفر داود محتميا بالقاضى صموئيل ، ثم هام على وجه يحتمى بملوك القبائل المجاورة غير اليهودية ، والملك يطارده ، حتى وصل الى مدينة خصصت لسكن الكهنة ، وحسب أن عدوه يحتمى فيها ، وأمر عبيده فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف .

وتتوالى المطاردة المثيرة : الملك وراء داود ، وتستغرق من التوراة صفحات كثيرة ، وتصل الى كهف يأوى « شاول » الى جزء منه ، وداود فى داخله ، وكان فى وسعه أن يقتله ولكنه فى نومه قطع جزءا من جبهته . فلما غادر الملك الكهف ، ناداه داود ، وأظهر له خضوعه ، وتعففه عن قتله ، لانه — أى الملك — مسيح الرب ! واذا كانت المطاردة قد كفت بعد هذا اللقاء العاطفى ، فقد انتهى بان طلق داود ابنته وتزوج امرأتين غيرها .. ولم يطل الصلح بين الاثنين ، فقد حشد شاول ثلاثة آلاف جندى ومضى يطارد داود ومرة أخرى كاد يشاول يهلك بيد داود ، وذلك عند نومه ، هو وجنوده : ولكن داود تعفف مرة ثانية واكتفى بأخذ رمح الملك (وكوزه) وناداه من فوق تل بعيد ، انه امتنع عن قتله مرة ثانية .

وأخيرا اهتدى داود الى حل مريح ، وهو أن يذهب مع أعوانه — وكانوا ستمائة — ويحتمى بأرض الفلسطينيين أعداء اسرائيل . وكان داود يواصل الاغارة على قبائل قريبة من قومه ، كبرهان على ولائه للفلسطينيين . وعلى طريقة تفكير اليهود فى مثل هذه المعارك ، كان داود يفنى كل من يقابله من قومه حتى لا يخبروا عنه .

وكان شاول الملك فى حالة نفسية سيئة لاختفاء داود ، وعدم اهتدائه الى مكانه .وتقول التوراة انه ذهب الى امرأة تحضر الأرواح ، فأحضرت له روح الكاهن صموئيل الذى كان قد مات ، فأخبره ، انه سيهلك هو ومن يلوذ به ، وان داود سيتولى الأمر من بعده . وروع ملك اسرائيل لهذه النبوءة ترويعا شديدا .

وفى المعركة الفاصلة التى تنبأ بها الكاهن صموئيل بعد موته ، جمع اليهود حشدهم ، وجمع الفلسطينيون حشدهم ، وكان داود يريد الذهاب معهم لحرب الملك ، ولكن جيش فلسطين لم يرض بهذه الصحبة ، واعاده الى المدينة مع اتباعه .

وفى عودة داود ، كان عدو آخر للفلسطينيين اسمتهم التوراة العماليق، وربما كانوا من سكان سينا قد أغاروا على المدينة وأسروا أهلها فلحق بهم وهزمهم ، وأعاد الأسرى والسبايا وكان منها زوجتا داود .

أما المعركة الكبرى التى دارت بين اسرائيل وجيش فلسطين ، فقد دارت الدائرة على اليهود ، فانهزموا ، وقتل شاول وثلاثة من أبنائه وجميع رجاله . وزحف الفلسطينيون على مدن اسرائيل فاحتلوها وسكنوا فيها .

ولما وصلت أنباء الهزيمة اليهودية الى داود فى مكانه لدى الفلسطينيين ، هلع ، وبكى وقتل الرسول الذى حمل اليه النبأ .. ودعا فى مرثيته ألا يسقط على جبال الفلسطينيين طل ولا مطر ، بعد ان هلك شاول وابنه ، وكان أخف من النسور الطائرة وأشجع من الأسود الكاسرة .

ومن عجب هذا الوفاء من داود لملك ظل يطارده سنوات طويلة ، ولا يتمنى شيئا أكثر من هلاكه ، حتى الجأه الى الاحتماء بأعدائه . وكانت حجته أن شاول كان « مسيح » الرب ، مع أن الكاهن الكبير صموئيل خاصمه حيا ، وخاصمه ميتا .

وهرب داود من أرض الفلسطينيين الى حبرون (الخليل) ، حيث يقيم سبط يهوذا ، فنصبوه ملكا عليهم . وأما فلول جيش شاول فقد نصبوا ابنا لشاول ملكا عليهم وعلى كل قبائل اسرائيل عدا قبيلة يهوذا .

وبدأت حرب بين البيتين : داود وخلفاء شاول ، وانتهت بتوحيد اسرائيل مرة أخرى تحت حكم داود . وكان داود قد حكم فى حبرون وحدها سبع سنين وستة أشهر . وعندما شمل حكمه كل قبائل اسرائيل كان قد بلغ الثلاثين من عمره .

وغادر داود حبرون (الخليل) الى أورشليم (بيت المقدس) ليجعل منها عاصمته حتى مات فى السبعين من عمره .. وهنا تبدأ علاقة اليهود بالقدس .

الفصل الخامس

داود وسليمان فى القدس

نحن الآن فى القدس ، التى كانت تسمى أورشليم ، عندما وصل اليها داود ملكا .. وقد اخترنا اسمها عنوانا لهذا الكتاب ، لأنها تكون صورة لمعركة أزلية قديمة قدم الانسان ، عنيفة عنف الطبيعة اذا فارت وثارت ، عميقة عمق الايمان اذا استقر فى أفئدة الناس ..

هناك اسمان للمدن فى تاريخ الشرق الأوسط ، وتاريخ البشرية ، يكون تاريخهما نعمة الوجود ومأساته ، وقصة النقائض جميعا .. هاتان المدينتان هما : مكة ، والقدس ..

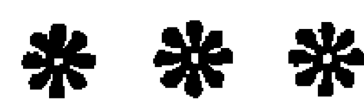
مكة أنشئت حول الكعبة ، بيت التوحيد الأكبر ، لتكون مثابة للناس وأمنا . يفد اليها المحارب فيلقى سلاحه خارجها ، ويدخلها الخائف فيلقى خوفه بعيدا عنها ، ويلوذ بها الحائر ، والثائر ، والغضبان ، والأسوان فيلقى عندها نسائم الراحة حتى فى شهور القيظ المحرق ، والهدوء الذى يحيطه يصله بالتوبة والايمان . والله تعالى رحيم رحمن ، محسن تواب ، وهو صاحب العفو والغفران .

وقد حدثت فى تاريخ المدينة ، منذ بنى كعبتها ابراهيم الخليل واسماعيل استثناءات قليلة لسر وجودها ، وحكمة قيامها . فتحركت فيها أحقاد ولكنها كانت قليلة ، وثارت عندها الطبيعة ، ولكن فى استحياء وسرعان ما هدأت ثورتها ، ولحكمة ما قال الشيخ الهاشمى القديم : للكعبة رب يحميها .

أما القدس ، فهى التيار والاعصار .. هى الحرب التى تنتهى لتبدأ من بعدها حرب .. هى المعركة الدائرة الدائبة بين قوى الخير والشر ، وعند سفوح تلالها كر التاريخ وفر ، وأقبلت الجيوش ومضت ، واحصـاؤها يضم مئات الملايين ، وضحاياها تجرى منها دماء ، لو كانت ماء لروت أرض الصحارى وانبتت فيها خير النبات .

قف قليلا عند قصة الزلازل . فما من كتاب من كتب التاريخ القـديم أو الحديث الا كان له حديث مستفيض عن حدوثها فى القدس . فمن ذلك ما وصفه المحدث اليهودى القديم يوسفوس ان زلزال سنة ٧٨٠ق.م ، شق الجبل ، فغارت الطرق ، واندكت المبانى ، وزلزال آخر حدث قبل الميلاد أيضا بـ ٣١ سنة مات تحت انقاضه نحوا من عشرة الاف شخص . اما بعد ميلاد المسيح فقد أحصى حتى عام ١٩٣٧ الميلادى أربعين زلزالا منها زلزال أورده حافظ ابراهيم فى شعره ، لأنه حدث فى العام الذى توفى فيه سعد زغلول زعيم مصر ــ عام ١٩٢٧ .

وكانت تكفى فواجع الزلازل ، لكى يهجر الناس هذا الموقع الزلزالى ، وما أكثر المدن التى قامت ثم بادت لأقل من هذا . ولكن القدس لها سرها الذى حفظ عليها وجودها منذ أقدم العصور . وهذا السر ، هو قداستها . وليس غير هذه المدينة فيما نعلم ، بنيت ثمانى عشرة مرة ، بعد أن هدمتها الحروب أو الزلازل .



تقع القدس على بعد ١٨ ميلا شرقى البحر الميت ، و ٣٢ ميلا غربى البحر المتوسط . وترتفع عن سطح هذا البحر بـ ٢٥٠٠ قدما أما ارتفاعها عن سطح البحر الميت فيبلغ ٣٥٠٠ قدما . وذلك لأن هذا البحر يقع فى أكثر بقاع العالم انخفاضا .

والقدس مقامة على مجموعة من التلال ، أشهرها جبل الزيتون الذى يقع شرقها ، وكان هذا الجبل الطريق الذى صعدت اليه وهبطت منـه

الجيوش الجرارة التى تحركت فى هذه المنطقة : جيوش المصريين والحيثيين والبابليين والاشوريين والفرس والاغريق والرومان والعرب والصليبيين والأتراك والأنجليز . وجبل الزيتون هو الذى وقف عليه السيد المسيح عليه السلام وقد ضاق باليهود العصاة لأمر الله من سكان المدينة ، فخاطبها قائلا من موقفه الحزين الأسوان : « يا أورشليم .. يا أورشليم .. يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين .. كم مرة أردت أن أجمع أبناءك كما تجمع الدجاجة أفراخها .. ولكن لم يريدوا .. » ويذكر المفسرون للقرآن الكريم ان الآية : « والتين والزيتون وطور سنين ، وهذا البلد الأمين » انما تشير بكلمة الزيتون الى هذا الجبل كناية عن القدس نفسها ، كما يرمز التين الى جبال الشام ، وطور سنين الى جبل سينا .. أما البلد الأمين فهو مكة المكرمة بجبالها المعروفة .

والجبل الثانى فى القدس هو جبل « موريا » الذى يقوم عليه الحرم القدسي . وجبل المشارف فى شمال المدينة ويسمى أيضا بالمشهد . ويسميه الفرنجة جبل سكوبس . وقد أطل منه اسكندر المقدونى على المدينة عام ٣٣٢ ق.م . وهو الحى المترف الآن وتوجد عليه الجامعة العبرية ومستشفى هداسا اليهودى ومقابر الانجليز .. ثم تل « أوفل » ، ثم تل « صهيون » . ثم تل « بينريتا » . ثم « جبل المشارف » و « والقطمون » و « جبل المكبر » . والجبل الأخير يضم حى « أبى ثور » وهو المجاهد الاسلامى الامام شهاب الدين أحمد ابن عبد الجبار القرشى. وكان من رجال صلاح الدين ، وكان يركب ثورا فى حروب القدس .

والقدس قليلة الماء ، تعتمد على ما تخزنه فى موسم الأمطار ، ومن ينابيع ماء كبيرة . وهذه الينابيع خارج المدينة ويسحب منها الماء ،ليخزنه الأهالى فى صهاريج فوق مساكنهم .

أورشليم .. أولا :

كان بناة القدس الأوائل هم اليبوسيون ، وهم قبيلة من قبائل العرب نزحت من شبه الجزيرة العربية مع الكنعانيين ، وحدث ذلك منذ زمن بعيد،

يقدره بعض المؤرخين بخمسين قرنا ، ولكنه مجرد ظن لا يقوم على أساس .
وكان الاله المعبود فى هذه المنطقة أيام هجرة اليبوسيين اسمه « شالم » فأطلق اسمه على المدينة ، فأصبحت مدينة شالم ، أو « أورشالم » كما احتفظت أيضا باسمها الأول ، وهو « يبوس » نسبة الى القبيلة التى سكنتها أول الأمر .

والمدينة ملتقى طرق تجارية قادمة من البحر المتوسط شرقا الى الصحراء عبر الأردن . كما كانت ملتقى طرق قادمة من حبرون (الخليل) ومن أريحا الى شكيم (نابلس) ووادى الأردن . وحتى يحافظ عليها أهلها القدماء ، فقد قبلوا حماية مصر لهم ، اذ أقامت بها قوة مصرية ، رمزية تحفظ الأمن فيها ، وتدفع الجزية . وفى رسائل « تل العمارنة » سبع رسائل موجهة لفرعون مصر ، لكى ينجى المدينة من محاولات الاغارة التى كانت تقوم بها القبائل الكنعانية ، ثم القبائل اليهودية بعد ذلك . وقد حاول اليهود طوال أربعة قرون أن يستولوا على أورشليم ، ولكن أهلها ، وحاميتها المصرية أحيانا ، منعوا هذا الغزو ، لما علموه من ابادة اليهود لسكان القرى التى وضعوا أيديهم عليها .

وفى سنة ١٠٤٩ ق.م نصب داود ملكا على كل الاسرائيليين ، وكان مقره حبرون (الخليل) فأعد جيشا من ثلاثين ألفا ، وتحرك الى أورشليم ، وكان على معرفة بطبيعة الأرض ، فمنذ صباه كان راعيا ، ويعرف موارد المياه ، وأين تكون . ولهذا وجه حملته الى عين الماء التى تستقى منها المدينة ، وكان اسمها « عين روجل » وهى موجودة حتى الآن ، واسمها « عين أم الدرج » . وبهذا كفت المدينة عن المقاومة . ويقول « برستد » فى تاريخه ان اليهود حتى ذلك الوقت كانوا يعيشون عيشة البدو الرحل ، ولم تنفعهم اقامتهم فى مصر ، وعندما يأتى الشتاء كانوا يلبسون جلود الحيوان تدفئهم ، ولم يعنوا بعد أن أحرقوا القرى فى طريقهم أن يقيموا المبانى الجديدة . وهم الذين هربوا من مصر ، لأنهم أكرهوا على الاشتغال

بصناعة البناء .. وما أن جاءوا الى أورشليم ، حتى وجدوها مدينة زاخرة بالتجارة والصناعة .. وأيضا المساكن .. فكانت اقامتهم مع أهلها أول خطوة لهم في طريق الاستقرار الحضارى ، وذلك لأنهم لم يقتلوا أو يجلوا السكان عنهم . اذ رغب داود بفكر ثاقب تميز به ، أن يعايش الناس . لا أن يبيدهم .

أطلق داود على أورشليم اسم « مدينة داود » فكان هـذا اسمها الثـالث . ونقل تابوت الرب الى البلدة فى رحلة طويلة مرهقة تمت على مرحلتين ، مات فيها من اقترب منه كما تقول التوراة ، وكان داود ، وكل بيت فى اسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو . بالعيدان ، والرباب ، وبالدفوف ، وبالجنوك ، بالصنوج ، وكانت كلهـا أدوات موسيقا وطرب .. « وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب » ولم تعجب هذه الخفة من داود نساء الحى ، واحتقروا ملكهم . وما أن استقر التابوت فى موضعه حتى وزع الملك على كل يهودى رغيف خبز ، وكأس خمر ، وقرص زبيب .

ونصب اليهود « ناثان » كاهنا لهم ، أو نبيا .

وتقول التوراة ان الرب ضاق بالاقامة فى الخيام داخل تابوته منـذ خرج اليهود من مصر ، فأوحى الى داود أن يقيم له بناء مثل المبانى الموجودة فى المدينة . ويبدو أن الرب وافق أخيرا على أن يكون لاسرائيل ملك ، بعد أن عارض هذه الفكرة أيام الكاهن صموئيل ، وتهدد اليهود بكوارث كثيرة . بل زادت التوراة على ذلك أن داود تلقى وعدا بأن يستمر الملك فى نسله . بل تنازل الرب عن شرط من شروط معبده ، وهو الا يدخل عليه أحد الا اذا كان الكاهن الأكبر . فقد اذن لداود بالدخول ليشكره ، وكان مما قاله له : « .. وليتعظم اسمك الى الابد ، فيقال يا رب الجنود اله على اسرائيل .. »

وحارب داود القبائل من حوله ، وأخضعها

وهنا تبدأ مأساة داود كما صورتها التوراة . فقد شاهد من على سطح

منزله . امرأة عارية تستحم ، فاستولى عليه جمالها ، وكانت زوجة لأحـد ضباطه الذين يقاتلون القبائل المعادية . فأرسل من أحضرها ، واجتمع بها ، فحملت منه . ووقع داود فى ورطة ، فأرسل من يستدعى الضابط ، ليزور بيته . ولكن الضابط لم يشأ أن يذهب الى بيته ، فقـد رفض ما دام الجيش بعيدا فى الخيام ، وهو مكلف بواجبات فى الجبهة . وكانت أخلاق هذه الضابط واسمه « أوريا » فى تصـوير التوراة آية فى النبل اذ قال للملك داود : ان التابوت (الرب) واسرائيل ويهودا ساكنون فى الخيام ، وقادة الجيش والجيش نازلون فى الصحراء ، وأنا آتى الى بيتى ، لآكل وأشرب ، واضطجع مع امرأتى .. واقسم بحياة الملك لا يفعل ذلك . فأسكره داود على مائدته عسى أن تلين رأسه ويذهب الى بيته ، ولكنه لم يفعل .

وحتى يخرج داود من هذه الورطة كتب الى قائد جيشه أن يجعل هذا الضابط فى مقدمة الجنود ، وأن ينسحبوا من حوله حتى يقتل بيد العدو .. وهكذا كان بيت الملك ، وقواد جيشه مشتغلين بهذه القصة الغرامية . ولما قتل الضابط (وكان من الحيثيين وهو أمر مستغرب) ! ضم داود المرأة الى زوجاته ، « وقبح ذلك فى عينى الرب » ! وعلى الرغم من ان الطفل الذى حملت به المرأة مات ، الا أن داود أتى منها بطفل آخر ، أصبح فيما بعد وريثه سليمان العظيم .

وقد عجب الباحثون فى التوراة لكثرة القصص الجنسية فى التوراة ، فلم تكن مأساة داود وزوج الضابط الا واحدة فى عصر هذا الملك من كثير .. فهى تروى مثلا ان ابن داود اغتصب أختـه من أبيه . فانتقم أخوها الشقيق بقتل مغتصبها وكان اسم القاتل « ابشالوم بن داود » . وهنـا تفاجئنا التوراة بأن داود بلغ السبعين من عمره ، وان ابنه « ابشالوم » ثار عليه ، فهرب الأب الى جبل الزيتون مع فريق من قومه ، وطارده ابنه بفريق آخر .

ويبدو من هذه المعركة بين الأب داود ، وابنه ، ان اسرائيل انقسمت فى آخر أيام الملك ، ووجد لديها من يرفع فى وجهه السلاح ، ويلجئه الى

الهرب من أورشليم وقد وقع للابن حادث ، اذ تعلق فى أغصان شجرة ، وهو على ظهر بغلة ، وعاجله أنصار أبيه بطعنات قضت عليه . ولما علم داود بهلاك ابنه هلع هلعا شديدا جدا . وكما رثى ملكه السابق شاول وكان خصما عنيدا له ، فقد رثى ابنه رثاء فتت القلوب ، وراح يصيح : يا ابنى .. يا ابنى .. يا ليتنى مت عوضا عنك ، وقد لامه قائد جيشه على هذا الجزع ، وقال له ان داود أخزى جمع أتباعه من رجال ونساء ... وصاح به : لو كان ابنك حيا ، وكلنا اليوم موتى لحسن الأمر فى عينيك ، وهدده اذا لم يخرج ويطيب خاطر أتباعه ، فان أعظم الاخطار والشرور سوف تحيق به من جنده . وصدع داود الملك بأمر قائده .

ولكن الانقسام الذى بدأه ابن داود بين الاسرائيليين ترك آثاره . وفى الأعوام الأخيرة لحكم داود ، أصابت قومه مجاعة طاحنة دامت ثلاث سنين . وتابع الفلسطينيون هجومهم على اليهود ، يوقعون بهم الهزائم ، حتى ان القوم لم يعودوا يتفاءلون بخروجه فى حروبهم .

وخطر لداود أن يحصى الشعب اليهودى ، ليرى اذا كان فريق اسرائيل أعز نفرا ، أم فريق يهوذا . وعلى عادة التوراة فى المبالغة ، اذا وصلت الى أمر الأرقام ، استمرت عملية الاحصاء تسعة أشهر على كره من اليهود ومعارضة شديدة . ولكن أرقامهم تقول ان اسرائيل ثمانى مائة ألف رجل « ذى بأس ! » يحملون السيوف ، ويهوذا كانوا نصف مليون رجل .. ولم تضف اليهم أى صفة من صفات البأس والقوة !! وهذه الأرقام تعنى أن اليهود قاربوا أن يكونوا خمسة ملايين بنسائهم وأطفالهم. وهو سخف من القول ، فما فى فلسطين كلها موارد ماء تنبت نباتا يطعم هذا العدد ، فاذا أضفت اليه الكنعانيين (سكان وسط فلسطين والساحل الشمالى) والفلسطينيين (سكان الساحل الجنوبى) والمؤابيين والعمونيين (سكان شرق الأردن) والادميين (سكان النقب) والمدينيين (سكان شرق العقبة) والعمالقة (سكان ما بين سينا وفلسطين) .. اذا أضفت كل

هؤلاء إلى اليهود ، فان سكان فلسطين كلها حسب تقدير التوراة كان يمكن أن يزيدوا عن عشرة ملايين !! وهذه خرافة واضحة ..

المهم ان داود أدركه الندم فيما تروى التوراة — على هذا الاحصاء . وعاقبه الرب بوباء أهلك سبعين ألف يهودى فى يوم واحد « وبسط ملاك الرب يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب (تعالى عما يصفون) عن الشر وقال للملاك المهلك للشعب كفى » . وحتى يرفع الرب غضبه عن اسرائيل بنى له داود مذبحا خارج أورشليم وذبح قطيعا من الأبقار وأحرقه .. فانتهى الغضب الآلهى !

ولما كان داود فى الثمانين من عمره ، ووصفت له « وصفة » تدفىء أطرافه وكانت فتاة عذراء أجمل ما فى اسرائيل ، وكلفت بالاضطجاع مع الملك وخدمته ، ولكنه لم يعرفها !

ولعلنا نلاحظ أن سن الأنبياء من بنى اسرائيل أخذ يتناقص ، فقد كانوا يتجاوزون المائة بعشرة أو عشرين عاما ، أو أكثر . فاذا بداود ، وكان أخا فتوة وقوة يتراجع بنهاية عمره ، الى المدى المألوف لدى كافة الناس .

ومات داود ، ودفن فى أورشليم .. وخلفه فى الملك سليمان ..

داود .. فى القرآن الكريم :

كان داود من الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وكرم كما يجب أن يكرم من اسبغت عليهم العناية الآلهية عطفها ورعايتها . وصورة داود فى نظر الاسلام مكرمة ، لايدانيها شيء مما نسبته له التوراة من أفعال لا تليق بمقام النبوة .. فهو أول الأنبياء بعد موسى الذى أوحى اليه بكلمات من ربه ، وكتاب اسمى الزبور ، لا نعلم عنه شيئا كثيرا . وما ورد فى التوراة الحالية على لسان داود هو نصائح عادية ، وان كانت مصوغة فى قالب أدبى جذاب . وسوف نعود اليها عندما نعرض لموضوع التوراة ككل .

وقد قال القرآن عن داود : « .. وآتاه الله الملك والحكمة » . وفى سورة الاسراء : « .. ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ، وآتينا داود زبورا » . وفى سورة الأنبياء : « .. وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ، والطير ، وكنا فاعلين » . وفى صورة ص : « اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ،انه أواب انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة ، كل له أواب . وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » .. وكذلك جاء فى هذه السورة : « .. وظن داود انما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب . يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » .

وهكذا نسب الاسلام فى عرضه لسيرة أنبياء التوحيد : ابراهيم ومن جاءوا بعده العفة فى القول ، والبعد عن المعاصى ، وكل ما يشين الخلق أو يجانب الفضائل ، على النحو الذى ورد فى الوصايا العشر . ولكن الفهم اليهودى للنبوة كما ورد فى التوراة المتداولة يخالف هذه القاعدة.

بل نجد ان الفهم اليهودى للالوهية يختلف كثيرا جدا عما سار عليه خاتم الأديان .. وشتان بين ادراك قبلى ضيق ، يحاول أن يغلق نفسه على معانى جافة ، كلها تتشابه ، أو معارضة للمفهومات القبلية المحيطة بالوجود اليهودى بفلسطين .

سليمان الملك :

ونعود مرة أخرى الى أورشليم (القدس) لنتابع سيرتها فى عهد خليفة داود ووارث ملكه .. سيدنا سليمان .

تقول التوراة ، ان سليمان بدأ حملة انتقام من الذين عارضوا توليه العرش ، ومنهم قواد الجيش أيام أبيه ، فبطش بهم ، وأمر بقطع رؤوسهم،

حتى هؤلاء الذين التجأوا الى خيمة الرب ، وتعلقوا باستار تابوته . وأمر كاهن المعبد بأن يقيم فى أورشليم لا يغادرها . وكل من خالف أمره قتله .

وعلى الرغم مما ورد فى تعاليم الأولين من اليهود ، وتشديدهم فى عدم الزواج من أجناس غير يهودية ، فقد تزوج سليمان بنت فرعون مصر . وهو على الأرجح شيشنق الأول . وهو من أصل ليبى ، وكان الليبيون يهاجرون بكثرة الى الدلتا ، وجندوا فى الجيش المصرى ، وكان منهم ضباط وقواد . وشيشنق الذى أسس الأسرة الثانية والعشرين ، واحد من هؤلاء الضباط ذوى الهمة والكفاءة . ولم يجد بأسا فى سبيل مد نفوذه الى فلسطين وما وراءها ، ان يزوج بنته الى ملك أورشليم سليمان بن داود ، وكما ذكرنا قبل ، لم تخرج القبائل الاسرائيلية بعد هجرتها من مصر عن السيادة المصرية . اذ ظلت تدفع الجزية للدولة القوية لتكون فى حمايتها . ولم يخرج سليمان الحكيم عن هذه القاعدة ، وقد ضم شيشنق لسليمان الولاية على مدينة جازر . وهى المدينة التى ورد أيام منفتاح انه استولى عليها كما استولى على عسقلون وأباد اسرائيل وجعلها أرملة لمصر ! والزمن بين منفتاح وشيشنق ثلاثة قرون ، ومع ذلك ظلت هذه المواقع تابعة لسيادة مصر . وتقول التوراة ان هذه المدينة استعصت على اسرائيل وكانت ضمن ما يملكه الكنعانيون ، فاستولت عليها القوات المصرية . احرقتها ، ثم سلمتها لسليمان فبناها من جديد .

ترك داود لابنه سليمان سلطانا على اسرائيل لاينازع ، واستقرارا ، حصل عليه اليهود ، بعد حروب طاحنة ، قبل داود ، وفى أيامه التى استمرت أربعين عاما . والاستقرار يؤتى ثماره ولا شك من الازدهار ، والرغبة فى التعمير . وكتاب سليمان الى ملك صور يقول له ان أباه لم يستطع أن يبنى للرب بيتا بسبب الحروب . وطلب من جاره أن يرسل له كميات من خشب الأرز اللبنانى ، وعددا من الصناع المهرة — ولا سيما الذين

يحذقون فن النجارة ـــ ولم يكن من بين اليهود من يحذق هذا العمل .. ودفع سليمان ثمن الخشب قمحا وزيتا وزيتونا .

وتزعم التوراة ان ١٥٠٫٠٠٠ (مائة وخمسين ألفا) من العمـــال والحمالين وقاطعى الأحجار اشتغلوا فى بناء المعبد ، واستغرق العمـــل أربع سنوات . والتوراة تذكر أن أبعاد المعبد كانت ستين ذراعا (الذراع ثلاثة أرباع المتر تقريبا) طولا ، وعشرين ذراعا عرضـــا ، وثلاثين ذراعا ارتفاعا .. وهى أبعاد متواضعة جدا ، فاذا أضفنا اليها ساحة خارج المعبد طولها عشرون ذراعا وعرضها عشرة أذرع ، فان هذا البناء لا يحتاج بحال الى الحشد الهائل من العمال الذى تحدثوا عنه . وحجم المعبد ، كان على أنماط المبانى المعروفة فى فلسطين . ولا يمكن مثلا أن نقارنه بالكرنك أو الهرم ، فهذه مبان توفر لها مهندسون عباقرة وحضارة شعب عظيم ، وبلد وافر الثراء مثل مصر . صحيح ان جدران الحجر للمعبد كسيت بخشب الأرز منقورا ووضعت فى الهيكل زينة الذهب ولكن هذه الزينة لم تحافظ على البناء ، بل جعلته هدفا لكل غاز وصل الى أورشليم ، فنهب الذهب ، وخرب الزينة والبناء .

وبنى سليمان لنفسه قصرا ، استغرقت عمليات تشييده وزينته ثلاثة عشر عاما . ولما كانت بنت فرعون مصر « شيشنق » قادمة للاقامـــة فى أورشليم ، فقد غالى سليمان فى اعداد القصر بما يليق بمكانة الاميرة . وكان من زينة القصر عمودان طول كل منهما ثمانية عشر ذراعا ، وعلى كل منهما تاجان من نحاس مسبوك ارتفاع الواحد خمسة أذرع . ونحت له مثالون قادمون ـــ ربما من مصر ـــ تماثيل أسود وثيران .. وأشرف عليه « حيرام » ملك صور . وكان القصر مكونا من خمسة وأربعين غرفة . وكان له بهو طوله خمسون ذراعا ، وعرضه ثلاثون . كما كانت بالقصر قاعـــة الكرسى ، التى يجلس فيها سليمان للقضاء بين الناس .

وعلى مأثور عادة التوراة فقد بالغت فى وصف مبانى القصر وزينته. فقد قالت ان الحجارة « الكريمة » استعملت فى البناء ، بنفس مقاييس

الحجارة المنحوتة ، وكانت أبعاد هذه الحجارة عشرة أذرع حينا ، وثمانية أذرع حينا آخر . اللهم الا أن يكون مفهوم الحجارة الكريمة غير ما نفمهه الآن .

وأقام سليمان حفلا عظيما دعا اليه كل أبناء اسرائيل مع مشيختهم ، ليشهدوا نقل تابوت الرب ، وألواح مرسى . « ولم يكن فى التابوت الا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى اسرائيل عند خروجهم من أرض مصر . وكان مما خرج الكهنة من القدس ، ان السحاب ملأ بيت الرب ، ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب . لأن مجد الرب ملأ بيت الرب . حينئذ تكلم سليمان ، وقال الرب انه يسكن فى الضباب . انى قد بنيت لك بيت سكنى مكانا لسكناك الى الأبد » .

وقد دونت هذه الأوصاف لاقامة معبد اليهود الأول فى أورشليم ، فى وقت متأخر ، ربما بخمسة قرون .. ولهذا كان مؤلفو هذه الأوصاف غير حذرين ، حين جرى قلمهم ، وهم يتحدثون عن بعض متعلقات المعبد بقولهم : « وهى هناك الى اليوم » وواضح ان هذه العبارة ، تشير الى وجود المؤلف أو المؤلفين فى مكان بعيد عن أورشليم ، ووقت بعيد عن مواعيد الاحداث نفسها ، والرأى الراجح انها كتبت فى وقت الأسر البابلى ، وعلى هذا استقر رأى معظم الباحثين الجادين .

وواضح من سياق الروايات أن التوراة كانت ما تزال تعد اله اسرائيل واحدا من بين الالهة الموجودة حولها ، ولكنه اكبر . أو على حد تعبيرهم على لسان سليمان : « ليس اله مثلك فى السماء من فوق ، ولا على الأرض من أسفل » .. ولكنا نجد أيضا عبارات تدل على أن الله موجود فى مكان غير تابوت المعبد ، جرت على لسان سليمان كأن تقول التوراة : « واسمع أنت فى موضع سكناك فى السماء » أو قوله : « هل يسكن الله حقا على

الأرض ؟ هو ذا السماوات ، وسماء السماوات لا تسعك ، فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت !! » .

وتذكرنا هذه العبارات ، بما سبق ان اقتبسناه من أناشيد اخناتون، وغيره من رجال الكهنوت المصرى القديم ، وفيها افكار عن التوحيد ، وعدم التشبيه للذات الالهية ، بما تعد أصرح وأقوى مما أوردته التوراة على لسان سليمان كأن تقول أيضا « فاسمع أنت من السماء مكان سكناك» أو « .. فاسمع من السماء صلاتهم » .

واستمرت احتفالات سليمان سبعة أيام .

وتمكن بعد ذلك من بسط سلطانه على القرى والمدائن غير الاسرائيلية وجعل من أهلها عبيدا لاسرائيل . وبتسخيرهم ، تمكن من بناء القلعةوسور حول أورشليم ، كما جدد بعض المدن التى دمرتها الحروب مثل حاصور، ومجدو ، وجازر .

واتسعت رقعة الأرض التى سيطر عليها سليمان ، أو تعاهد مع حكامها بعد أن اطمأن الى جانب مصر بمصاهرته فرعونها . وزاد فى توثيق صلاته ، انه اتخذ له من كل القبائل قريبها وبعيدها زوجات .. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السرارى (الاماء) ، ولم ترض قصص التوراة عن سياسة سليمان فى مصاهرته لقبائل وشعوب غير يهودية . وقالت ان قلبه فى شيخوخته مال الى معبودات غير اله اسرائيل ، مثل « عشتروت » اله صيدا ، « وملكوم » اله عمون . وتضيفه التوراة : « وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماما » . وذكرت التوراة ان سليمان بنى فوق الجبل معبدا للوثن المعبود فى مؤاب وآخر لمعبود المؤابيين .

وكان حريا أن يترفع مدونو التوراة عن نسبة الشرك لسليمان نبى الله ، وان نسبوا هذه الردة الى تأثير نسائه عليه . وذلك لأن حكمة النبوة

الكبرى ، هى التوحيد . ومن أجل هذه العقيدة بدأ كفاح سيدنا ابراهيم الأب الأكبر لهذه الأسرة ، ومن أجلها حدثت الأحداث الكبرى التى ذكرناها فى فرع أسرته من حفيــــده يعقوب ، ومنها ظهور نبى الله موسى عليه السلام . وسليمان هو فخر اسرائيل الأكبر . فهو الذى بنى أول معبد يهودى فى القدس ، وبسط سلطان أورشليم على أرض ماكانوا ببالغيها الا بحكمته وجهاده ، وقد هابته القبائل ، وساعدته ، وصاهره ملك مصر أكبر ملوك الشرق الأوسط فى ذلك الوقت ، وقدمت للقائه ملكة الجنوب العربى بلقيس التى حكمت منطقة سبأ فى اليمن ، وأهدت له أعظم الهدايا وقبلت منه مثلها ، ولما بهرها سليمان بفخامة قصوره ، ونظام حكمه ، وتفتح الحياة من حوله قالت له حسب منطوق التوراة : « صحيحا كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك . ولم أصــدق الأخبار حتى جئت ، وأبصرت عيناى .. زدت حكمة وصلاحا » .

ولكننا اذ ننكر على مدونى التوراة هذا الأسلوب فى ترديد الاشاعات والخرفات المتنــاقلة عن سليمان ، والزيادة عليها ، فلأن تفكيرنا اليوم لا يقبل على أنبياء الله مثل ما ذكره اليهود .. ولكنهم فى وقت التدوين . كانوا غارقين فى عبادة الأوثان ، وما من مرة ردهم عنها واحد من صلحائهم حتى عادوا اليها مرة أخرى .. بل يمكن ان نؤقت اشراك اليهود بالله من بعد موسى ، بفترات تتعاقب كل ثلاثين أو أربعين سنة . فلمـــا ظهر السيد المسيح عليه السلام ، كانت الأوثان اليونانية والرومانية مقامة فى معابد اليهود ، زلفى وتقربا لحكامهم الأوربيين من الرومان . ان خمسة عشر قرنا تلت خروج سيدنا موسى من مصر يمكن أن تحصى فيها مئات الحالات التى نبذ فيها اليهود عبادة « اله اسرائيل » وعبدوا أوثانا غريبة .. ولهذا فان دهشتنا تقل لمثل هذه العبارات الكافرة ، الجارحة لمعنى النبوة ، ودلالة الحكمة ، وكان سليمان نبيا حكيما .. أجل تقل دهشتنا اذا نحن وضعنا امامنا مسيرة العقيدة اليهودية الاسرائيلية (أى فرع يعقوب) وما فيها من مآخذ ومثالب .

قالت التوراة ان الرب غضب على سليمان ، وعاقبه بأن أنذره بتمزيق مملكته بعد وفاته وتولى ابنه « رحبعام » الحكم من بعده . وانما أبقى الرب وحدة هذه المملكة — لا من أجل سليمان — ولكن لذكرى والده داود ، وهي ذكرى طيبة لدى الرب .

سليمان فى القرآن :

لسليمان فى القرآن الكريم ذكر مرفوع ، وتاريخ ليس كالتواريخ .

فقد أوتى سليمان من قبل ربه علما ، مثل الذى أوتى به داود أبوه من قبله . وأوتى سليمان أدبا فى حق الله سبحانه وتعالى وخضوعا وعرفانا. وكان مما ناجى به ربه فى سورة النمل « وقال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ، وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .. وقد وعده الله سبحانه بالقرب والغفران فى الآخرة ، والتأييد والعون بقوى لم تسخر لأحد قبله ، ولا بعده من الناس : « هذا عطاؤنا ، فامنن ، أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

اما هذه القوى الخفية التى سخرت لسليمان ، فهى الريح ، وطاقة الجن ، ومعرفة لغة الطير والحيوان والحشرات . وروى القرآن قصة سليمان مع واحد من الطير هو الهدهد ، الذى كشف عن ديانة بلقيس ملكة سبأ وقومها ، وكانوا للشمس عابدين . وقصة سليمان مع النمل ، عندما همست واحدة بأن سليمان قادم مع جنده وخيله فليسرع النمل الى مخابئه لئلا يهلك فسمع سليمان هذا الهمس وتبسم ضاحكا . ولم يكن ملك أورشليم وخليفة داود طاغيا جبارا ، ولا كافرا مرتابا كما صورته التوراة ، وقد وجد تحت أمره كل هذه الطاقات مسخرة ، وكثيرا ما قال: « هذا من فضل ربى ، ليبلونى ، أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم » .

وعندما قدمت بلقيس الملكة اليمنية الشهيرة ، وبهرها سليمان بعلمه وحكمته وايمانه بالله الواحد الأحد ، آمنت بالتوحيد . وبهذا تكون هذه الملكة أول من قبل هذه الدعوة من سكان جنوب الجزيرة العربية موجهة لها من واحد من سلالة يعقوب . الا أن القرآن الكريم يشير الى أن أهل سبأ لم يقبلوا على دين التوحيد ، وان الله عاقبهم بسيل العرم الذى هدم سد مأرب ، وما تزال بقاياه حتى الآن خربة مدمرة .

وفى القرآن وصف جميل لساحة العرش فى قصر سليمان ، لم يرد ذكره فى التوراة . اذ يبدو ان أرض البهو كانت مرصوفة من مادة زجاجية شفافة ، تبدو كأنها بحيرة ماء . وقدأذهل بلقيس المنظر الفريد وخلب لبها : « قيل لها أدخلى الصرح . فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها . قال انه صرح ممرد من قوارير . قالت رب انى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

سليمان وأدبة :

تقول التوراة ان سليمان كان حكيما ، وانه أودع حكمته فى ثلاثة آلاف مثل . كما خلف ألف نشيد ازدادوا خمسة .. وتروى التوراة ان زوارا من جميع الشعوب كانوا يفدون الى أورشليم للاستماع الى حكمة سليمان وأناشيده .

وهكذا لم يكن سليمان ملكا للاسرائيليين وحدهم ، ولكنه كان ذا أفق واسع ، وأنه استطاع أن ينفذ ــ بسلطان من ربه ــ الى كثير من أسرار الحياة ، وآداب السلوك ، وأن يصوغها فى عبارات جذابة سائغة . ولم تقل لنا التوراة أن قومه من يهود احتفلوا بهذه الطاقة الأدبية التى تفجرت من قلب سليمان ووجــدانه ، أثرت فيهم ، أو رققت من طباعهم . ولكن كان هناك الملل والشكوى مما كان يدفعهم اليه من عمل فى البناء والتشييد سواء داخل أورشليم أو فى المدن الأخرى التى خربتها الحروب والثورات.

الا أن النظرة الفاحصة للطريقة التى حكم بها سليمان ، واللمسات الموسيقية ، والأدبية التى دخلت على حياة اليهود فى عهد أبيه وعهده ، جعلت الدين اليهودى فى عهدهم يمتاز بشىء من السماحة ، تبعده بعض الشىء عن الصرامة والقسوة وانهار الدماء البشرية والحيوانية التى لطخت هياكله منذ نشأته .. لقد كان البابليون والفرس والمصريون يشيعون البهجة فى أعيادهم الدينية ، ووصل الأمر باخناتون ــ كما ذكرنا من قبل ــ الى أن جعل الزهور والفاكهة فقط ، هى القربان لله . وألغى منظر الدم من طقوس العبادة ، وأعياد النيروز وشم النسيم وغيرها ، التى كانت سائدة فى بلاد الرافدين وفارس ، أعياد مرحة باسمة .

ولهذا وصف الباحثون فى اللاهوت المقارن ان الدين اليهودى يتصف بالقسوة الكئيبة . وتصيب الانسان بالفزع . وطقوس العبادة فيه قوامها الخفاء والرعب . وحسب التوراة أن تقول ان قصاص الرب من الذين يعصونه يمتد الى أحفادهم : « انا الرب الهك غيور ، افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء الى الجيل الثالث والرابع من مبغضى » .

رأى التاريخ :

وللتاريخ رأى فى سليمان وحكمه وأيامه ، التى ينعقد حولها تاريخ اليهود ، ويبتعد عنها آلاف السنين ، ثم يحاول اعادتها مرة أخرى . فسليمان اسم مشتق من كلمة السلام ، وقد حقق هذا الملك النبى لمدينة السلام ، أو أورشليم هذا المعنى على نطاق واسع ..

يقول ديورانت فى موسوعة تاريخ الحضارة : أصبحت أورشليم فى أيام سليمان من أنشط الأسواق التجارية ، فى الشرق الادنى ، وان لم تكن على الطرق التجارية الكبرى . وحافظ سليمان على ما أنشأه داود من صلات ودية مع حيرام ملك صور . وشجع التجار الفينيقيين على أن يسيروا قوافلهم التجارية داخل أرض فلسطين ، وازدهرت فى أيامه تجارة رابحة قوامها استبدال مصنوعات صور وصيدا بغلات اسرائيل الزراعية . وانشأ أسطولا تجاريا فى البحر الأحمر . وأغرى حيرام على أن يستخدم

هذا الطريق الجديد بدل طريق مصر فى تجارته مع بلاد العرب وأفريقية. والراجح ان جزيرة العرب هى التى استخرج سليمان منها الذهب وحجارة « أوفير » الكريمة . ومن بلاد العرب جاءت اليه ملكة سبأ تخطب وده ، ولعلها جاءت أيضا تطلب معونته . وكان وزن الذهب الذى أتى سليمان فى سنة واحدة ٦٦٦ وزنة ذهب . ومع أنه لا وجه للموازنة بين هذا القدر ، وبين موارد بابل أو نينوى أو صور ، فانه جعل سليمان من أغنى ملوك زمانه .. على أن سليمان قد استخدم معظم موارده فى تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته . ومن أعماله فيها ترميم السور الذى أقيم حولها . وقد أقام فيها كثيرا من الحصون ، ووضع حاميات فى المواضع ذات الأهمية العسكرية فى مملكته ، ليرهب بها الغازين والثائرين على السواء . وقسم بلاده ١٢ قسما اداريا وكانت حدودها متفقة مع حدود منازل الأسباط الاثنى عشر ، وكان يرجو من وراء ذلك ان يضعف النزعة الانفصالية بينهم ، وان يؤلف منهم شعبا واحدا . ولكنه أفلس فى هذا ، وأفلست بلاد اليهود معه .

ومن الوسائل التى استخدمها سليمان لتمويل حكومته اعداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ، ولاستيراد مواد الترف والسلع القيمة النادرة ومن بينها العاج والقردة والطواويس . وهذه كان يمكن بيعها للاثرياء المحدثين بأثمان غالية . واحتكر تجارة الخيوط والخيل والمركبات ..

وختم هذا المصدر كلامه على سليمان وعصره بقوله : « فلما مات سليمان ، كانت موارد اسرائيل قد نضبت ، ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك ، لا يجدون عملا دائما يرتزقون منه » .

وهنا يحسن أن نلقى نظرة فاحصة على مزامير داود أمثال سليمان ، التى تكون جزءا هاما من التوراة .. وقبل ذلك نسلط بعض الأضواء على التوراة نفسها .

الفصل السادس

التوراة .. والمزامير والأمثال

الوصايا العشر .. فى صيغتين :

تسمى التوراة بالعهد القديم .. وهى كلمة عبرية معناها الهداية .

واذا رتبنا مادة التوراة ترتيبا تاريخيا ، فكان يجب ان تبدأ بالوصايا العشر ، ثم بما سمعه الاسرائيليون من موسى عن قصة خلق الدنيا أثناء احتجازهم فى سينا أربعين سنة قبل أن يدخلوا فلسطين .

ثبت تدوينه فى هذه الفترة هو الوصايا وحدها . وما تبقى نقل من ذاكرة الناس خلال ألف سنة تالية . وقد ماتت اللغة التى تحدث بها موسى الى قومه ، وحلت محلها لغة الأقوام الجديدة التى عاش اليهود فى وسطهم ونعنى بها الكنعانية ، مع اختلاف فى اللهجات من قبيلة الى قبيلة أخرى . وأسفار موسى خمسة . وقد سمى فى التوراة بالشريعة ، وبكتاب موسى فى الانجيل .. وكذلك فى القرآن حتى سمى اليهود أنفسهم بأهل الكتاب. ولكن جملة أسفار التوراة — العهد القديم — تبلغ ٢٤ سفرا .. وتأتى بعد كتاب موسى خمسة أسفار أخرى تضم سير الأنبياء المتقدمين . ثم أسفار أشعيا وأرميا وحزقيال . ثم اثنى عشر سفرا للأنبياء المتأخرين . ثم المزامير والأمثال وأيوب وتسمى بالكتب العظيمة . ثم نشيد الانشاد وأشعيا والمراثى والجامعة واستير ، وتسمى بالمجلات الخمس . وتأتى بعد هذا أسفار تسمى الكتابات .

ويختلف اليهود فى تقسيم كتابهم هذا .. فمنهم من يزيدها الى ٣٩

سفرا ، بفصل أجزاء بعضها عن بعض ، ومنهم من ينقصها الى ٢٢ سفرا لتصبح فى تعداد الحروف الأبجدية .

وقد نالت التوراة عناية كبيرة جدا من العلمــاء فى دراستها وتحليلها وردها الى أصولها . والكشف عن الخلط الذى ورد فيها . والقول الشائع المسجل فى التوراة نفسها ان « عزرا » هو الذى جمع شتاتها ودونها فى القرن الخامس قبل الميلاد . ولكننا نجد من بينها سفر دانيال الذى كتب عام ١٦٥ قبل الميلاد . وقد اختلف الباحثون فى كل شىء فى التوراة ، وكثرتهم ترى أن سفرى الجامعة ونشيد الأناشيد حديثا التأليف وقــد أضافهما يهود مصر الى التوراة عندما ترجموها الى اليونانية .

ولم يقف الأمر عند الأسفار ، ما كان منها من التوراة ، وما لم يكن . بل امتد الخلاف الى الوصايا العشر نفســها .. ومن الذى اختلف فى الوصايا ؟ .. انه العهد القديم نفسه فقد وردت بالصيغة التى ذكرناها قبل كما نزلت على موسى أول مرة (اصحاح ٢٠) . ولما حطم موسى الألواح الأولى ، أمره الرب بعد ذلك بأن ينحت لوحين آخرين من حجر ويكتب عليها الوصايا .. وما ورد فى الكتابة الثــانية (اصحاح ٣٤) يختلف عن الأولى على النحو التالى :

« احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعــانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التى أنت آت اليها لئلا يصيروا فخا فى وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم . فانك لا تسجد لاله آخر . لأن الرب اسمه غيور . اله غيور هو . احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض . فيزنون وراء آلهتهم ويذبحــون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك . فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن .

« لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة . تحفظ عيد الفطير . سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك فى وقت شهر أبيب . لأنك فى شهر أبيب خرجت من

مصر . لى كل فاتح رحم . وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكرا من ثور وشاة . وأما بكر الحمار فتفديه بشاه . وان لم تفده تكسر عنقه . كل بكر من بنيك تفديه . ولا يظهروا أمامي فارغين . ستة أيام تعمل . وأما اليوم السابع فتستريح فيه . فى الفلاحة وفى الحصاد تستريح . وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة . وعيد الجمع فى آخر السنة . ثلاث مرات فى السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب اله اسرائيل . فانى أطرد الأمم من قدامك وأوسع تخومك . و لايشتهى أحد أرضك حين تصعد لتظهر أمام الرب الهك ثلاث مرات فى السنة . لا تذبح على خمير دم ذبيحتى . ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح . أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك . لا تطبخ جديا بلبن أمه » .

كشف مصادر التوراة :

وفى سفر الخروج نصوص تشريعية واردة فى اصحاح ٢٠ الى اصحاح ٢٣ . وقد ظهر بوضوح ان كثيرا من تفاصيل هذه الأحكام مستمدة من شرائع حمورابى التى كانت موجودة وسائدة قبل ذلك بوقت طويل . وقد أدخل كتاب التوراة عليها بعض التعديل الذى يناسب ظروفهم البيئة .

يقول برستد فى كتابه ، فجر الضمير :

من الواضح أنه حينما كتبت الوصايا العشر ، كان العبرانيون قد انتقلوا فعلا من حياة المرعى فى الأرض الصحراوية ذات الكلأ الى حياة الزراعة المستقرة فى المدن ، حيث كانت المؤثرات الاجتماعية تعمل فى تكوين الاعتقاد الدينى ، وتزيد فى موارده . ثم ان الملكية ، التى يجلبها البدو ، وكذلك الحياة التجارية الى حد ما فى المدن ، قد أخذتا فى تكوين طبقة صغيرة من الأثرياء فى المدن . فى حين أن أكثرية الشعب كانت لا تزال على حالتها الأولى من الفقر .. وقد ظهر بين العبرانيين (ما ظهر فى مصر من ألفى سنة قبلهم) رجال توافرت لهم الروح الانسانية والنظرة الاجتماعية فأخذوا يشعرون بايحاء الضمير كقوة اجتماعية . واستجابة لندائهم أخذ عصر الأخلاق فى الظهور بين بنى اسرائيل . ولذلك نجد أن الشعائر العتيقة

والعادات البالية ، بما فيها من الطقوس والضحايا ، أخذت تنحط فى قيمتها بموازنتها بالاخلاق الفاضلة .

وبهذه المناسبة ، نورد كلمات الملك المصرى الذى حكم من اهناسيا ، قبل ظهور موسى بألف سنة وهو يقول لابنه :

— ان فضيلة الرجل المستقيم ، أكثر قبولا من ثور الرجل (الذى يقدمه ذبيحة للرب) وهو يرتكب الظلم .

لقد ظلت هذه الحكمة متداولة ومعروفة فى مصر ، حتى التقطتها التوراة وأضافتها اليها على النحو الآتى :

— أنظر : ان الطاعة أفضل من الضحية .

والاصغاء أفضل من الكبش السمين .

وهذا الحث على حسن الاصغاء ، وكأنه صدى لنصائح بتاح حتب ، الذى سبق عهد صموئيل بـ ١٥٠٠ سنة .

وفى تفضيل الأخلاق على الشعائر الدينية ، فقد ردده سفر الأمثال فى كلمات ليست الا صدى لحكيم مصر الاهناسى القديم . فقد ورد فى هذا السفر :

ـ فعل العدل والحق أفضل عند الرب (يهوه) من الذبيحة .

وأخذا من الأدب المصرى القديم ، رددت التوراة أيضا فى سفر الأمثال :

— الرب (يهوه) وازن القلوب .

وهذا بالضبط ما عبرت عنه عقيدة مصر القديمة فى محاكمات أوزوريس للبشر ووزن قلوبهم .

وتحدثت التوراة باسم أحد أنبيائها بقولها :

— اليكم يا من تخافون اسمى .

تشرق شمس العدالة بالشفاء من أجنحتها .

وقد دلت الحفائر الحديثة فى سامرا ، على أن هذه التصورات المصرية

لاله الشمس العادل كانت شائعة فى الحياة الفلسطينية .. فقد وجدت رسوم اله العدالة المصرى « ماعت » على ألواح من العاج مما كان يحلى به الاسرائيليون أثاثهم .

وحينما حاول النبى أشعيا فى التوراة أن يبرهن على أن « آشور » لم تكن الا آلة فى يد الرب يهوه ضرب لذلك مثلا عن الآلات الجامحة اذ قال :

ـ هل تفتخر الفأس على القاطع بها . أو يتكبر المنشار على مردده ؟ كأن القضيب يحرك رافعه .. كأن العصا ترفع من ليس هو عودا .

وكان يظن أن مصدر هذا النوع من القصص والأمثال مستعار من الهند ، ولكن الأستاذ مسبيرو ، وجد أصل هذه المعانى فى لوحة مصرية قديمة محفوظة بمتحف تورينو .. واليك هذه المقارنة :

قال الحكيم المصرى القديم امينموبى :

ـ الرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد ، مثله كمثل شجرة نامية فى غابة . ففى لحظة يفقد فروعه ، ويجد نهايته فى مرفأ خشب ، وينقل بعيدا عن مكانه . والنار مأواه .

والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا . فانه مثل شجرة نامية فى حديقة ، يزدهر ، ويتضاعف ثمره ، ويجلس فى حضرة سيده . وثمرته حلوة وظله وارف ، ويجد آخرته فى الحديقة .

وفى نفس هذا المعنى نقلت التوراة عن النبى أرميا :

ـ ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الانسان ، ويجعل البشر ذراعه . وعن الرب يهوه يحيد قلبه ، ويكون مثل (شجر) العرعر فى البادية . ولا يرى اذا جاء الخير ... ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب يهوه ، وكان الرب متكله فانه يكون كشجرة مغروسة على مياه ، وعلى نهر تمد أصولها . ولا تخشى اذا جاء الحر ، ويكون ورقها أخضر ، وفى سنة القحط لا تخاف ، ولا تكف عن الاثمار .

بل لقد تسربت عقيدة قدماء المصريين الى الدين اليهودى عن الحساب واليوم الآخر ، وهم الذين لا تتضمن توراتهم أية نصوص واضحة فى هذا الشأن .. ففى المزمور الأول :

— طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لا يقف . وفى مجلس المستهزئين لم يجلس .....

ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعاصفة التى تذروها الريح .

لذلك لا تقوم الأشرار فى الحساب ، ولا الخطاة فى جماعة الأبرار .

ويعلق برستد على هذا المعنى بقوله :

« ونلاحظ أن الحساب المذكور هنا لم يرد ذكره فى سفر « المزامير » كله الا هذه المرة . وهذه ملاحظة لها خطرها . لأن فكرة الحساب فى عالم الآخرة ، هى من ثمرات التمدين المصرى القديم » .

وقد أفاض « برستد » فى ذكر أوجه الشبه بين أناشيد اخناتون ، والمزامير ، وأيد رأيه علماء آخرون . كما وجد أصل بابلى لقصة خلق العالم كما وردت فى التوراة . ثم انتقل بعد ذلك الى أمثال سليمان الواردة فى التوراة فقال :

وأمثال سليمان منقولة :

أدت العبارة الشائعة ــ أمثال سليمان ــ الى اعتقاد القارىء أنها من عمل الملك سليمان الحكيم . وفى الحق أنه يبتدىء بنسبة الكتاب الى سليمان فى مطلع الفصل الأول . ثم تكررت تلك التسمية فى بداية الفصل العاشر ، فى شكل عنوان لمجموعة أخرى من أمثال سليمان . كما توجد مجموعة ثالثة تحمل اسم سليمان ، وتبتدىء بالفصل الخامس والعشرين . فى حين أن الفصلين النهائيين من الكتاب ينسبان الى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم ، وأحدهما منسوب الى امرأة .

ويتضح من ذلك ، ومما يشهد به كتاب « العهد القديم » نفسه أن كتاب الأمثال هو مجرد مدونة جمعت من مجموعات متفرقة .. ثم ما لبث

جامعو التوراة أن أضافوا اليها كلمات الحكماء .. ترى من هم الحكماء الذين أشارت اليهم التوراة ؟

الواقع أن هذا السؤال ، عجز عن الاجابة عنه كل الباحثين الى وقت قريب جداً . غير أنه طبعت ورقة بردية ، كانت قد مكثت مدة طويلة فى المتحف البريطانى . فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى الحكيم المصرى القديم « أمينوبى » وجميع العلماء الذين يعتد بآرائهم يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال ، قد أخذ معظمه بالنص ، عن حكم « امينوبى » . أى أن النسخة العبرية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق .

ولم يتردد مصنف التوراة ، فى الاشارة الى العناصر الأجنبية الدخيلة على ما جمعه ، لأن الحكيم « أجور » ، الذى تؤلف حكمه الفصل الثلاثين ، والملك « لمويل » الذى يدين لأمه بحكمه (الفصل ٣١) لم يكونا بداهة من أصل عبرانى . أ . هـ .

وعند ما روجعت النصوص المصرية القديمة على النص العبرى وجدت بعض أخطاء فى الترجمة الى العبرية ، ولكنها أخطاء يسيرة .

وفى نهاية حكم « أمينوبى » المصرى القديم نجد هذا الختام :

ـــ تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين
حتى تكون مسرة لك وتعليما .

وفى ختام سفر الأمثال نقرأ النص التالى :

ـــ ألم أكتب لك ثلاثين فصلا
من جهة مؤامرة ، ومعرفة ..

واذن فقد كانت الفصول القديمة ثلاثين ، ونقلت الى التوراة فصول أقل ، اما لأن المترجم لم يفهم النص الذى أمامه ، أو لأنه لم يوافق على

معنى النص . ولكنه عند ما وصل الى آخر الترجمة نسى أن يحصي الفصول التى نقلها ، وأثبت الختام المصرى كما هو .

حقيقة حدث بعض التصرف فى الترجمة العبرية للأمثال المصرية القديمة ، تدل على أن اليهودى الغابر الذى غذى التوراة بما نقل ، كان ماهرا فيما اقتبس . فمثلا فى الحكمة المصرية نجد عند استعارة أجنحة واحد من الطيور دلالة التحليق ، يكون الطير هو الأوز المصرى .. ولما لم يكن الأوز معروفا فى فلسطين لأنها بلاد صحراوية ، فقد اختار المترجم العبرى النسر للدلالة على ما يريد .

ومصر بلد الماء الوفير .. فهى هبة النيل ولذلك كان طبيعيا أن يرد فى حكمة المصريين المثل التالى :

ــ لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى .

ولما جاء المترجم العبرى بعد ألف سنة يترجم هذا النص ليضيفه للتوراة ، تصرف تصرفا مناسبا ، اذ كتب :

ــ الغنى والفقير يتلاقيان . صانعهما كلاهما الرب (يهوه) .

ويرفض العالم الأمريكى برستد ، ومعه كبار الباحثين فى تاريخ الحضارة الفكرة القائلة بانفراد شعب واحد (اليهودى) بالتمتع بالوحى الالهى . وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا (الغربيون) عدة قرون عن التعرف الى ذلك التراث الخلقى الجليل ، الذى ورثناه عن تأملات والهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجاريب أى أمة من البشر بعينها » .

وهكذا تنتهى اصالة النصوص التوراتية ، برد أقسام منها الى أصول بابلية ومصرية . كما تنتهى فكرة « الشعب المختار » ، بعد أن تعذر الارتفاع بعقلية وروحانيات الشعب اليهودى ، لكى يكون نموذجا لأحد .

* * *

لا حيرة بعد الآن :

ولقد كان الباحثون فى حيرة من نصوص التوراة ، لأن الرأى القديم من أنها عمل متكامل قام به شخص واحد أو مجموعة من الناس فى وقت متقارب .. هذا الرأى كان أشبه بقميص الكتاف .. ولكن الآن أصبح مفهوما الآن أن الترجمة والتأليف والنقل على أماد بعيدة هو الذى أوجد لنا هذه التوراة .

فاذا قالت التوراة فى سفر التثنية عن موسى : « لا يعرف أحد قبره حتى يومنا هذا » فلا يعقل أن يكون موسى هو كاتب هذا الكلام ، حتى تنسب له الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة . كما لا يصح أن ينسب لموسى أن يقول عن نفسه فى ذات السفر : « لم يقم بعد نبى فى اسرائيل مثل موسى الذى عرفه يهوه وجها لوجه » .. أو أن يقول موسى عن نفسه : « أما الرجل موسى ، فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » .

وفى سفر التكوين ، وهو أول أسفار التوراة نص يقول : « وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض آدم قبلما ملك ملك لبنى اسرائيل (ص ٣٦ ــ آية ٣١) » . وسفر التكوين سابق طبعا لعصر الملوك بعدة مئات من السنين . فمن أين لسفر التكوين أن يعلم بأن هناك ملوكا ستأتى فى اسرائيل !!

ونجد تناقضا واضحا ، فى سفر واحد ، وهو سفر التكوين . فبينما يذكر أن الطوفان دام ٤٠ يوما ، و٤٠ ليلة . اذا به يعود فيذكر أن الطوفان دام ١٥٠ يوما .

وهكذا ، نجد باحثين ثقات ، انهمكوا فى ارجاع أبواب ، أو أسفار من التوراة الى أصولها ، أو اعادة تقسيمها . فمثلا الفترة التى كان يرمز فيها للرب بأنه « الوهيم » هى غير الفترة التى كانت تستعمل فيها كلمة « يهوه » . وطقوس العبادة مرحلة فى التأليف قام به كهان أرادوا أن يثبتوا

به سلطانهم ، فأوغلوا فى التفاصيل الى حد كبير .

وعند ما أورد سفر يشوع قصة وقوف الشمس فى كبد السماء يوما كاملا بعد موعد غروبها ، وكذلك القمر ، جاء فى النص أن ذلك كان مكتوبا فى سفر « هياشر » ! . ولا يوجد فى التوراة التى بين أيدينا سفر بهذا الاسم .

وفى التوراة سفر لأيوب .. ولم يكن أيوب من سلالة يعقوب ، ولكنه كان فرعا آخر من فروع الأسرة الابراهيمية ، وتبدأ قصته فى التوراة هكذا : « كان رجل فى أرض عوص اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا ... » . وهو أسلوب أشبه برواية الأساطير . وتعد صياغته من الأساليب الأدبية الراقية . ولهذا يرى العلماء أنه كتب وضم الى التوراة قبيل عهد المسيح بقرنين أو ثلاثة . ويرجع بعض العلماء أصل هذا السفر الى العربية . وكان أيوب شخصية حقيقة ، ورد ذكرها فى القرآن الكريم . وكان مثلا للصبر والايمان «انا وجدناه صابرا ، نعم العبد الأواب» (ص).

المزامير :

المزامير منسوبة الى داود ، والى الآلة الموسيقية ـ المزمار ـ وفى هذا دلالة قوية على أنها ترانيم دينية شعرية . وكانت أورشليم قد نقلت عن البابليين هذه الأناشيد ، وقبل ذلك عن المصريين ، وأطلقوا عليها الكلمة العبرية « تهليم » وهى من مادة هلل ، أى مدح .. واذن فهى مدائح ترتل فى الأعياد والمناسبات الدينية .

ومادة المزامير بعضها للتعبد ووصف الطقوس الدينية . وبعضها مراثى، والبعض تعبر عن التوبة أو الشكر . وعدد هذه المزامير أو الترانيم ١٥٠ (مائة وخمسين) أنشودة .

ولنأخذ أنشودة منها كمثال ، وهى من بين المزامير التى تحض على زيارة أورشليم :

فرحت بالقائلين الى بيت الرب نذهب

تقف أرجلنا فى أبوابك يا أورشليم

أورشليم المبنية كمدينة متصلة كلها

حيث صعدت الأسباط أسباط الرب شهادة لاسرائيل ليحمدوا اسم الرب
لأنه هناك استوت الكراسى للقضاء ، كراسى بيت داود

اسألوا سلامة أورشليم ، ليسترح محبوك .

ليكن سلام فى أبراجك ، راحة فى قصورك من أجل أخوتى وأصحابى

لأقول سلام بك

من أجل بيت الرب الاهنا ألتمس لك خيرا

(مزمور ١٢٢)

ونلاحظ من مطالعة هذه الأغنية ، أنها تتحدث عن القصور وبيت الرب. ولم تكن هذه المبانى أنشئت فى عهد داود .

ونجد المزمور ١٢٦ يتحدث عن عودة السبى الذى نقله البابليون من فلسطين الى الفرات ، والفرح بانتهاء أسر هؤلاء اليهود « عند ما رد الرب سبى صـــهيون ، صرنا مثل الحالمين . حينئـــذ امتلأت أفواهنا ضحكا ، وألسنتنا ترنما .. »

والنظرة المتأنية لهذه المزامير ، يمكن أن تدل على زمن تأليفها :

— فالمزامير التى تنتهى بالصلاة للملك الحاكم ، لابد راجعة الى عصر الملوك .

— والمزمور الـ ٤٥ مثلا منسوب الى « امام المغنين » وكذلك مزامير أخرى كثيرة . وقد أنشد لمناسبة زواج أحد الملوك . وتخاطب هذه الأغنية العروس بقولها : « اسمعى يا بنت ، وأنظرى ، وأميلى أذنك ، وأنسى شعبك وبيت أبيك ، فيشتهى الملك حسنك لأنه هو سيدك ، فأسجدى له .. »

— وهناك مزامير تنسب لآساف الذى كان رئيس المنشدين أيام داود نفسه .

— وفى التوراة أن ٧٣ من المزامير تنسب لداود واثنـان ينسبان لسليمان وواحد ينسب لموسى . ولم يكن موسى شاعرا ولا مغنيا . ولكن المعانى التى تضمنتها الأنشودة تنطبق على أحوال موسى .

— ومزمور سليمان موجه للملك : « اللهم أعط أحكامك للملك ، وبرك لابن الملك » .

وكان سليمان نفسه ملكا !!

وقد تكرر عدد من هذه المزامير ، بمعناه ، أو بمعناه وألفاظه . والرأى الراجح أن جمع هذه الأناشيد استغرق عدة قرون ، ثم أضيفت للتوراة بعد أن أعيد بناء هيكل سليمان الذى دمره الغزو والحروب .

أمثال سليمان :

أمثال سليمان الواردة فى التوراة ، اشتهرت أكثر من أى عمل أدبى آخر فخر به الاسرائيليون وكان مثار مباهاة ودراسات كثيرة منهم .. ويبلغ عدد هذه الأمثال ثلاثة آلاف مثل ، يضاف اليها ١٥٠٠ بيت من الشعر تصف الشجر والنبات والطير والحشرات .

وقسم اليهود المحدثون الأمثال الى أربعة وخمسين بابا ، تتناول أفكارا شتى . فمنها :

— أمثال فى الحكمة والعلم وحب المعرفة .

— أمثال فى الورع ، والنفاق والتوبة .

— أمثال فى الجدل ، وأدب التقاضى .

— أمثال فى العقوق والفساد ، واطاعة الوالدين .

— أمثال فى التحذير من الأشرار والفسقة .

— أمثال فى التحذير من التجاوز عن الزوجة الشرعية الى غيرها .. وهكذا .

ولنختر نماذج من هذه الأمثال :

« لا تفتخر بالغد ، لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم

« ليمدحك الغريب لا فمك ، الأجنبى لا شفتاك

« الحجر ثقيل ، والرمل ثقيل ، وغضب الجاهل أثقل منهما كليهما

ومنها :

« الجواب اللين يصرف الغضب ، والكلام الموجع يهيج السخط

« لسان الحكماء يحسن المعرفة ، وفم الجهال ينبع حماقة

« فى كل مكان عينا الرب مراقبتين الطالحين والصالحين

وفى رأى مراد فرج المحامى ، مؤلف كتاب أمثال سليمان ، ان الترجمة العربية للتوراة ، فى باب الأمثال اخطأت فى مواضع عدة .. يقول فى ص ٥ : وربما كان من الخطأ قلبا لمعنى رأسا على عقب . وذكر ان المثل القائل : رأس الحكمة مخافة الله خطأ فى الترجمة ، اذ أن أصله العبرى : رئاس الحكمة وراعة الله ! وهو قول جرى على لسان داود لا سليمان ..

ولكن هذه الملاحظات العابرة ليست بشىء . اما الأصل والمرجع هنا هو ما يعنينا . فى كتاب التوراة للدكتور فؤاد حسنين على أن البروفسور أدولف ارمان المتوفى عام ١٩٣٧ تقدم للمجمع العلمى البروسى ببحث قيم موضوعه « مصدر مصرى لأمثال سليمان » . وبهذا سجل حسنة جديدة من حسنات العقلية المصرية القديمة على الكتاب المقدس . وقد وجه هذا البحث الكثيرين من العلماء الى تتبع تتاج عقلية المصريين القدماء ، ومدى تغلغله فى تراث الشعوب الأخرى . فتناولت القرائح بالأبحاث الكثيرة التى تناولت التوراة نقدا وتحليلا ، حتى أمكن ارجاع كل قطرة الى نبعها الذى أخذت منه .

ويدور بحث البروفسور ارمان حول كتاب «تعاليم أمين ـــ آم ـــ أوبه» الذى يرجح انه عاش حوالى الألف الأولى قبل الميلاد . وقد اكتشفت هذه التعاليم المحفوفة فى بعض أوراق البردى الهيراطيقى ، بالمتحف البريطانى ونشرت عام ١٩٢٣ . ومن الغريب أن هذا الحكيم المصرى القديم ساق حكمه فى شكل نصائح من والد لولده . كما هو الحال فى حكم لقمان التى أوصى بها ابنه حسب ما ورد فى القرآن الكريم ..

ويستطرد هذا المصدر قائلا :

والآن وقد اتفق رجال المصريات ، مع نقاد الكتاب المقدس على ان هذا السفر ليس كله تراثا عبريا ، سقطت الحجة القائلة ان سليمان هـــو مؤلفه . أ . هـ .

ومراجعة نصوص الأمثال تدل فى وضوح على أنها تجميع من تراث شعبى عام ، لا يمكن نسبته الى فرد بعينه . وقد سارت فى نفس الطريق الذى سارت فيه أمثال جميع الأمم ، تلخص تعبدها للخالق وفلسفتها فى الحياة ، وآلامها ومخاوفها ، وآمالها فى العدل والرحمة ، وبناء الأسرة ، وضوابط التعامل اليومى بين الناس .. الخ .

وقد ذكرنا من قبل أن هذه الأمثال ١٥٠٠ مثل ، وعندما أراد مراد فرج ترجمتها من العبرية مباشرة لم يجد الا ٩١٥ مثلا . وذلك فى النسخة التى اعتمد عليها . وقد وجدت نسخ عبرية أخـــرى للتوراة تختلف عن النسخة المتداولة . والترجمة اليونانية القديمة ، وكذلك اللاتينية ، لاتتفق مع هذه النسخ .. وامام هذا الفيض من الاضطراب والتناقض ، من حقنا أن نسأل كما سأل الشاعر القديم : ليت شعرى ما الصحيح .. ومن حقنا أيضا أن نسأل أين كلام الله المنزل من هذا الفيض من القصص والأغانى والأمثال الشعبية ، والألغاز التى لم يفهم أحد منها شيئا . ان المسيحيين يحرصون على التوراة ، لأنها تضمنت تبشيرا ـــ أو بشارات ـــ بقرب ظهور السيد المسيح عليه أزكى صلاة وسلام . وما كان المسيح بحاجـــة الى تزكية من كتاب التوراة ، فانه حقيقة أسطع من نور الشمس ..

وفى تقديرنا أن ما ورد فى الانجيل ، ثم ما ورد فى القرآن عن أنباء السماء ، وكان فى التوراة ما يطابقه ، فهو كلام الله المنزل على ابراهيم واسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ومن بعده من الأنبياء والمرسلين .

النيل والفرات .. والتوراة :

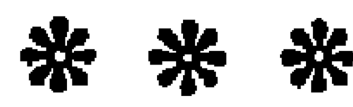
وهنا تأتى العقدة الكبرى ، عقد الأرض الموعودة ، التى تمتد من النيل الى الفرات ، والتى وعد « الرب » بها ابراهيم ، وسلالته فى أكثر من موضع ، بعد أن يكثر عددهم حتى يصبحوا كحبات الرمل ، أو ذرات التراب عددا !! ولكى يمكن الرب لسلالة يعقوب ، الذى اقتصر عليهم فيما بعد هذا الوعد ، فكان لابد أن يصبح « الرب » اله الجنود ، وان يسير أمام هذه الشعبة من اليهود ، وأن يفنى الناس من أمامهم : يفنى أهل مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق .. وقد أضاف اليهود المحدثون أهل شبه الجزيرة العربية كلها ، وكل ما ينقص ، هو أن يعثروا فى حفرة من الحفر على ملف عبرى فى اناء من الفخار ، ترد فيه هذه العبارات !!

ان التوراة بصورتها الحالية تضمنت من غير شك لمحات كثيرة من تاريخ هذه الفرقة اليهودية ، ونعنى بها سلالة يعقـوب ، الذى أسمى اسرائيل وجمعت شتاتا من الآداب والحكم والأفكار والقصص الشعبى ، ولكن نظرتها الى المستقبل وتخطيطها له ، انما بنى على الكوارث الكثيرة التى حلت بهؤلاء القوم أثناء وجودهم فى مصر ، وبعد خروجهم منهـا وذهابهم الى فلسطين ، وأثناء قتالهم لمن حولهم ، وقتال بعضهم مع بعض ثم بعد أن سحقتهم عصا الشعوب الكبيرة من حولهم القادمة من بابل ومصر وروما .. اسمع اليهم فى محنة السبى يقولون (حزقيـال ٢٣) : « ان ابراهيم كان واحدا وقد ورث الأرض . ونحن كثيرون . لنا أعطيت الأرض ميراثا » .

ولكنا نعلم أن الأرض لم يعطها الله لابراهيم ميراثا ، وانما بعثه فيها هاديا الى التوحيد . وبالتالى فلم تعط الأرض لأحد من سلالته ، وانما هى

تخيلات ومزاعم ، داخلة فى باب القصص الأدبى ، لا فى باب الواقع المادى ولكن أما وقد دونها أسرى اليهود فى بابل ، فقد أصبحت بعد ذلك توراة، هم صنعوها قديما ، وفى الشتات ، بعد ان زالوا من فلسطين كلها عاشوا أسرى أفكارها وأسرى أوهامهم .. لقد صنع اليهود التوراة فوقعوا فى حبائل هذا التخطيط عندما أتيحت لهم الفرصة ..

ولكن مادامت نصوص التوراة — فى كثير من أجزائها — قد ردت الى النبع الذى صدرت عنه ، اذن فلم يعد هناك مجال لخلط ارادة الله ، بهذا الكلام كله . فأرادة الله شاءت ان يكون الناس كلهم من مخلوقاته . وشاءت ان يخصهم مع اليهود وبعد اليهود بأنبياء ورسل علمنا أنباء بعضهم وحجبت عنا أنباء باقيهم ..



رأى فلهاوزن .. ومعارضيه :

يعد عالم الاستشراق الألمانى المشهور يوليوس فلهاوزن من أشهر الباحثين فى تاريخ التوراة . وقد لخصت آراء هذا البحاثة ومن جاراه فى آرائه فى كتاب الحضارات السامية القديمة ، وقد جاء فى التلخيص ان هذه المدرسة من العلماء نسبوا الى زمن يلى موت موسى بعدة قرون ، تأليف الأسفار الخمسة الأولى خاصة (الشريعة) . أو بالأحرى الأسفار الستة الأولى ، لأن سفر يشوع يدرج فى هذه المجموعة على أنه ليس جزء منها . والاختلافات فى الأسماء التى يشار بها الى الله . وتكرار بعض القصص ، والفروق الواضحة فى اللغة والأسلوب بين أجزاء مختلفة من هذهالمجموعة كل هذا أقنع العلماء الناقدين بأن الأسفار الخمسة المنسوبة الى موسى كانت فى الواقع من تصنيف مصادر مختلفة . وقد حددت أربعة مصـــادر أساسية هى :

١ — المصدر اليهودى الذى استعمل فى التعبير عن الله كلمة يهوه . وقد حددت سنة ٨٥٠ ق.م ميقاتا لتأليفه فى مملكة يهوذا (أورشليم) .

٢ — المصدر الالوهيمى الذى يعبر عن الله بكلمة ألوهيم . وقد ألف حوالى سنة ٧٧٠ ق.م فى المملكة الشمالية (اسرائيل وعاصمتها شكيم) .

٣ — المصدر الثالث ، هو التثنية ، ويرجح انه جمع عام ٦٢٠ ق.م فيمتاز عن المصدرين السابقين باحتوائه على بعض التشريعات . حاول هذا الجزء ان يركز عبادة الاله « يهوه » فى أورشليم .

٤ — ويجيىء بعد ذلك المصدر الكهنوتى ، الذى وضع شرائع الكهان. واشترك فيه كثيرون من أسرة اللاويين ، لأنه نظم طريقة الخدمة فى المعبد بعد أن أعيد للمرة الثانية فى زمن عزرا .

ولكن ما ان أظهرت الحفريات الحديثة فى أرض الرافدين الكثير من أصول الحضارة البابلية ؛ دخل بعض التعديل لنظريات الالمانى فلهاوزن ، بتقديم أجزاء على أجزاء أخرى ، وكثر التضارب مرة اخرى ، بحيث لم يعد هناك أى اطمئنان للمصادر التى أخذت منها التوراة . وان كان علماء الدين الكاثوليكى يرون أن الأجزاء الخمسة الأولى صادرة عن موسى ، الا أنها جمعت من مصادر مختلفة ، وربما اشتملت على تغييرات واضافات متأخرة .

ويقول هذا المصدر عن قصيدة « الجامعة » التى وردت فى التوراة بعد المزامير والأمثال فى أهميتها : ينتهى أدب الحكمة فى التوراة بقصيدة الجامعة التى تتحدث عن بطلان كل شىء ، وعن عبث الدنيا التى تدور بلا نهاية . وهذا السفر متأخر ، يظهر فيه التأثير اليونانى . بل انه يبدو أقرب الى طرق التفكير اليونانى منه الى طرق التفكير العبرى . ومن أمثلة ما ورد فى هذا السفر :

— ما الجدوى للانسان من كل تعبه الذى يعانيه تحت الشمس ؟
— جيل يمشى ، وجيل يأتى ، والأرض قائمة الى الأبد .
— كل الأمور متعبة . لا يستطيع المرء أن يحدث بها . العين لاتشبع من النظر ، والأذن لا تمتلىء بالسمع .

— ما كان هو ما سيكون . وما صنع هو الذى سيصنع . فليس تحت الشمس جديد .

وهكذا نجد اتجاها جديدا فى أبحاث العلماء عن التماس مصدر جديد لادبيات التوراة ، لا هو مصرى ، ولا هو بابلى ... ولكنه اغريقى من اليونان القديمة .

ولعل أقرب دليل على تعدد مصادر التوراة ، هو ظاهرة التكرار فيها لاسفار كاملة مع اختلاف أسلوب الكاتب ، وتغيير يسير فى الوقائع اشرنا الى أمثلة منه فيما سبق .

ويبدو أن بعض الشباب من اليهود المحدثين يريدون التخلص من قبضة التوراة — أو على الاصح رجال الدين الذين يحتكرون العهد القديم ويقيمون جدران سيادتهم على مجتمعهم من أوراق هذا الكتاب .. هؤلاء الكهان الذين يحاولون تطبيق سياسة العرق النقى لاسرائيل ، يرفضون الاعتراف بيهودية من كانت أمه غير يهودية . أو سلالة هذا الزواج حتى الجيل الثالث . وقد تقررت هذه القاعدة بقانون فى اسرائيل الحالية . ورفض رجال الدين تسجيل زواج فتاة يهودية من شاب يهودى لان امها غير يهودية . وسرح من العمل الحكومى ، والمنظمات النقابية آلاف الأشخاص فى اسرائيل المعاصرة لان دمهم « غير نقى » (١) .

وهكذا يعيش يهود هذه الأيام أسرى التوراة ، على الرغم من كل الحقائق التى ظهرت عن أصول كثير من موادها المستعارة من آداب وأديان أخرى .. والسبب واضح فى قوة رجل الدين اليهودى الآن ، وخلال الألفى سنة الماضية . وهو ان هذه التوراة ، هى التى كانت رايتهم المرفوعة علنا ، أو سرا لتبقى جنسهم من خلال المحن التى مرت بهم . ومن الواجب أن يحافظوا عليها ، مهما قيل عن نسيجها وألوانها ومصادره .

---

(١) قضية ضابط البحرية اليهودى « شاليت » انفجرت فى فبراير سنة ١٩٧٠ فقد اراد تسجيل أولاده فى سجل النفوس الاسرائيلى فرفض طلبه لان أم الاولاد غير يهودية . وعد التجاؤه الى المحكمة خيانة .

الفصل السابع

انقسام وإبادة

أربعون سنة من الحروب وترتيل الأغانى وضرب المزمار تحت حكم داود . وأربعون سنة من بذل الجهد فى البناء والتعمير ، وضرب الأمثال وصياغة الحكم ، تحت حكم سليمان .. وهذا هـو تاريخ الاسرائيليين الذهبى فى فلسطين ، منذ جاءها ابراهيم الخليل حتى ظهر فيها السـيد المسيح عليه سلام الله .. وحتى هذا العصر الذهبى ، لم يسلم من تشويه كتاب التوراة له عندما التجأ داود الى الوثنيين من الفلسطينيين سنين طويلة . وحروبه مع أبنـائه ، وانجابه سليمان من سـيدة تآمر على قتل زوجها . فلما جاء سليمان لم يسلم أيضا من اضافة بقع سوداء الى تاريخه نثرها كتاب التوراة هنا وهناك ، فى موضوع نسائياته ، وفى تماثيل الآلهة التى أقامها ، وقدم لها القرابين ، وحاشاه أن يفعل ، وهو النبى المرسل بكلمة التوحيد ، وبالحكمة التى لا يمكن أن توجد فى تقليب الوجه بين الاله الواحد الأحد ، وتماثيل عشتروت أو بعل أو ايل وغيرها من أوثان المنطقة .

مهما يكن الأمر ، فقد ترك سليمان ابنين : رحبعام ، ويربعام .. مالبثا أن اختصما ، واقتتلا ، واقسم ميراث سليمان بينهما ، واحد يكون فى منطقة أورشليم ، وأسمى مملكته يهوذا ، والثانى فى منطقة نابلس أو شكيم كما كانت تسمى ، وأسمى اسرائيل .

واشتد الخصام بين الأخوين ، حتى منع حاكم شكيم سكان منطقته من أن يزوروا القدس ، ويتعبدوا فى المعبد . والخصومة بين الأخوين ترجع

الى أيام أبيهما سليمان نفسه . فقد هرب يربعام الى مصر لما علم أن أباه اعتزم قتله . وسبب الخصومة ، أن هذا الابن الهارب كان يأخذ جانب الشعب اليهودى فى أنينه من اليد الثقيلة التى حكمهم بها سليمان ، ولا سيما تسخيرهم فى أعمال البناء . فلما « اضطجع سليمان مع ابائه ودفن فى مدينة داود أبيه » ، قدم الابن الهارب الى مصر ، وجمع وفدا كبيرا من الاسرائيليين وذهب الى أخيه وخاطبه قائلا :

— ان أباك قسى نيرنا (ظلمنا) واما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ، ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا ، فنخدمك .

ورفض ملك أورشليم أن يبدل شيئا مما ترك أبوه سليمان . فذهب الابن الثانى الى شكيم ، وحتى يوجد معبودا لأهل منطقته فقد سبك عجلين من الذهب ، مثل ما صنع أجداده الأول الذين خرج بهم موسى من مصر ، وأقام معبدين ، وطلب تقديم الضحايا لهذين المعبودين .. ويبدو أن اقامته لاجئا عند شيشنق ملك مصر ، أثرت على عقيدة التوحيد عنده ، وهزتها . وما أكثر ما اهتزت عقيدة التوحيد لدى قبائل يهود خلال القرون المتعاقبة . وما أكثر ما تركوا (يهوه) ربهم ، الى أرباب القبائل الكنعانية من حولهم .

واذا كانت هذه الردة قد حدثت فى منطقة اسرائيل ، فان منطقة يهوذا أو أورشليم لم تثبت على عقيدة التوحيد .. يقول مؤرخوهم فى التوراة :

« وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب ، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطأوا بها . وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات ، وأنصابا ، وسوارى ، على كل تل مرتفع ، وتحت كل شجرة خضراء .. فعلوا حسب كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل »

وفى وسط هذه الفوضى ، نرى جيشا مصريا يجتاح فلسطين ، ويصل الى أورشليم دون مقاومة تذكر . وكان شيشنق فرعون مصر ، يعلم أين توجد أكداس الذهب التى جمعها سليمان ، وكافة النفائس التى خلفها .

فأخذها جيش مصر ، وعاد بها ، فهى حق للأميرة المصرية التى عاشت ردحا من حياتها فى أورشليم . واضطر رحبعام بن سليمان ، أن يضع النحاس مكان الذهب . ولكن أين بريق النحاس من بريق الذهب النضار ؟

وظلت السنوات تمضى ، لا تحصى الا حربا مستترة بين الأخوين أبناء سليمان . الى أن مات ملك أورشليم . وجاء من بعدهم خلف ، ظهر فيهم اسم (آسا) ملكا على أورشليم ، « ونزع جميع الأصنام التى عملها آباءه .. وأما المرتفعات فلم تنزع » تماثيلها حتى أم هذه الملك كانت وثنية .

واستمرت الحرب مشتعلة بين أورشليم (يهوذا) وشكيم أونابلس (اسرائيل) لا تهدأ .. بل انقسمت المملكة الشمالية الى قسمين . يحارب بعضهما بعضا والذرة اذا انقسمت تعطى طاقة عظيمة ، أما هؤلاء عند انقسامهم فقد ضعفوا وهانوا ، بل وصل بهم الهوان ، الى أن اختاروا للأله الوثنى « بعل » ٤٥٠ نبيا !! والنبى الموحد الوحيد بينهم كان ايليا . وقد دبر كمينا للأنبياء الوثنيين وذبحهم جميعا .. أجل لم يرض بأقل من الذبح !

وتستمر هذه المعارك الصغيرة ، ويغلب عليهم قوم آرام ، (سوريا) ويسومون اسرائيل سوء العذاب .

وكان معبد أورشليم قد تلف وتهدم ، وكانت عطايا اليهود من الذهب والفضة ، مخصصة لاصلاح البناء ، واعادة زخرفته . ولكن كهنته آثروا أنفسهم بالمال . واضطروا الى عمل « حصالة » على السلم يودع فيها الزائرون نذورهم ، وبدأ الترميم . ولكن جيش آرام أطبق على أورشليم فأسرعوا بما جمعوه من ذهب وفضة ، الى هذا الغازى ، فقنع بهذه الغنيمة وعاد ونجت المدينة . وتدل هذه الوقائع على أن القوة الحربية لليهود ذابت فى المعارك الداخلية بين المدينتين أورشليم وشكيم . وقوة الأنبياء الصادقين ضعفت الى الحد الذى ترك أوثان الآلهة الأخرى فوق المرتفعات ، تشعل لها النار وتقدم لها الذبائح .

ونجد فى سفر الملوك الثاني وصفا لاذعا ، لبعض العقوبات التى حلت بأورشليم من القبائل غير اليهودية المحيطة بها ، وما كان أغناها عنها لو لم ينزل اليهـود فيها بطبائعهم الغريبة . فقد ظلت هـذه المدينة ، وأهلها اليبوسيون يحكمونها بمنجاة من المتاعب ..

ففى الاصحاح الحادى والعشرين ان « منسى » الذى حكم المدينة اثنين وخمسين سنة (تولى الحكم وسنه ١٢ سنة) ، نافس ملك اسرائيل الشمالى فى الاكثار من الأصنام والمذابح لاله الكنعانيين بعل ، بل أدخل هذه المعبودات الغريبة فى معبد سليمان « وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » .. أى أغاظه الرب !

قالت التوراة : « .. وتكلم الرب عن يد عبيده الأنبياء قائلا : من أجل أن منسى ملك يهوذا .. ها أنذا جالب شرا على أورشليم ويهوذا ، حتى ان كل من يسمع تطن أذناه .. وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الصحن، يمسحه ويقلبه على وجهه . وأرفض بقية ميراثى ، وأدفعهم الى أيدى أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبا لجميع أعدائهم . لأنهم عملوا الشر فى عينى ، وصاروا يغيظوننى من اليوم الذى فيه خرج آباؤهم من مصر الى اليوم ..

حروب الملوك :

اذا كان سليمان قد انشأ لنفسه عرشا فى أورشليم ، فقد أحاط وجوده بهالة من العظمة تناسب البيئة التى عاش فيها ، وهى بيئة عطاؤها قليل ، الا أن التجارة ــ ولا سيما تجارة الخيل ــ التى مارسها سليمان قدمت له ثروة طيبة . فلما جاء من بعده خلف من الصغار . كان لقب الملك الذى حرصوا عليه أضحوكة ، اذا قورنوا بالملوك فى مصر أو بابل وأشور .

وكانت الحروب بين سلالة سليمان ، صورة لانحلال هذا المجتمع الذى ما كاد يقوم حتى انهار .. وأول ما انهار فيه الاحساس الدينى الذى بنى عليه أساسا مجتمع هؤلاء اليهود الأول .

فهذا واحد منهم ــ الثامن بعد سليمان ــ واسمه « أمصيا » لمع فى حكم أورشليم . تقول عنه التوراة انه عمل المستقيم فى عينى الرب ولكن ليس بقلب كامل . ولما تثبت المملكة عليه ، قتل عبيده ، الذين قتلوا الملك أباه .. وجند هذا الملك جيشا ، واستأجر جنودا من « مملكة » اسرائيل الشمالية ، وراح يحارب الأدوميين ، وأخذ منهم عشرة آلاف أسير ، وتقول التوراة انه ألقى بهم من فوق الجبل ، فتكسروا جميعا ! وما أن حقق « أمصيان » هذا النصر ، حتى عدل عن عبادة « يهوه » ، مؤثرا عبادة الأوثان !!

وخطر لهذا الملك أن يواجه أبناء عمومته فى اسرائيل الشمالية (وكانت تسمى السامرة) ، ولكنه ما لبث أن وقع أسيرا فى يد ملك شكيم عاصمة اسرائيل . وتقدم المنتصر الى أورشليم فهدم سورها ، ونهب كل الذهب والفضة الموجودة فى بيت الله .

ولم يكن « أمصيا » هـذا ينتظر أن يكون قتلته من أبنـاء بلدته « أورشليم » ولكن هذا ما حدث له .

وتولى الحكم فى أورشليم ابنه الفتى ، ثم حفيده ، ثم ابن هـذا الحفيد وكان اسمه « آجاز » وقد اختار من بين الأوثان المعبودة فى القبائل المجاورة « البعليم » . وارتكب كل رجس ، وهاجمته جيرته من الآراميين وأخذوا الكثير من يهود أورشليم أسرى ، وساقوهم الى دمشق . وكذلك هاجمت أورشليم جيرتهم من يهود دويلة شكيم (أو اسرائيل) . وتقول التوراة ، ان قتلى هذه المعركة الأخيرة ، من أبناء يهوذا (أو أورشليم وما حولها) كانوا مائة وعشرين ألفا فى يوم واحد . أما الأسرى والسبايا فكانوا مائتى ألف من النساء والبنين والبنات ، وساقوهم من قراهم الى شكيم (نابلس) فى الشمال .

ويبدو ان بعض الصالحين من يهود الدويلة الشمالية ، نصحوا أبناء شكيم بان يردوا الأسرى فهم أخوتهم على كل حال ، فردوهم الى أريحا ، وأركبوا المرضى منهم والمتعبين حميرا .

ومرة أخرى نقف عند أرقام التوراة . فمن غير المعقول أن يكـون مائة ألف قتلى معركة واحدة كهذه ، حارب فيها اليهـود من السامرة ، يهود أورشليم وما حولها . وكم كان عدد الجرحى اذن . وكم كان عـدد الهاربين والناجين من المذبحة . فاذا أضفنا الى هذا الحصاد ، ضعفه من الأسرى .فلا شك فى أن تعداد اليهود يمكن أن يحصى بالملايين . وهذا أمر لا يقبله عقل ..

وقد ناقشنا فى أمر هذه الأرقام واحدا من المتعمقين فى دراسة التوراة والانجيل . فقال انه يرجح أن هناك تفسيرا للغة الاعداد فى التوراة غير ما نفهمه الآن . واستشهد بما ورد فى القرآن الكريم الذى قال : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (الحج) .. وقال : « تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . وقد أجبنـاه بأن هذا الرأى يتصل بتفسير كلمة يوم فى حال من الحالات ، أو فى أخرى .. اما اذا قلنا أن سكان مدينة هم عشرة آلاف نسمة ، فانما نعنى الرقم وتمييزه ، ولا شىء غير ذلك . وقتلى هذه المعركة ، أو جنود ذلك الجيش كانوا ألفا ، أو مائة ألف ، فلن نجد الا تفسيرا واحدا للأرقام هو ما تدل عليـه .

والتوراة بالذات دلتنا على أن الأرقام كانت نقطة ضعف عند اليهود. فهم يستعملونها للاخفاء لا للاظهار ، وهاك الدليل من الاصحاح ٢١ فى سفر أخبار الأيام الأول :

« ووقف الشيطان ضد اسرائيل ، وأغـوى داود ليحصى اسرائيل (قبل انقسامها الى دولتين) . فقال داود ليواب (قائد الجيش) ولرؤساء الشعب : اذهبوا وعدوا اسرائيل من بئر سبع الى دان . وائتوا الى فاعلم عددهم . واعترض يواب وأكد لداود أن التعداد اثم . فلما صمم داود تم الاحصاء . وتقول التوراة ان التعداد أوضح أن سرائيل كلها ألف ألف والجيش (مستلو السيف !) مائة ألف . وكانت يهوذا أربع مئة وسبعين

ألف رجل مستلى السيف وأما أسباط لاوى وبنيامين فلم يتم احصاؤهم.

وواضح أن هذا الكلام فيه خلط كثير . فلم يكن اليهود قد انقسموا فى عهد داود الى قسمين . وقد تم هذا بعده . ولكن المهم هو قول التوراة: « وقبح فى عينى الله هذا الأمر ، فضرب اسرائيل . فقال داود لله (هكذا مباشرة !) لقد أخطأت جدا حيث عملت هذا الأمر . والآن أزل اثم عبدك ، لأنى سفه تجدا » .

وكان من نتيجة هذه الخطيئة الكبرى ــ وهى التعداد ــ أن عرض الرب على داود ان يختار عقوبة من ثلاث : الجوع أو الهزيمة أو المرض والوباء . وكان الوباء هو العقاب الأمثل ، لأن داود قام بهذا التعداد ، فهلك فيه من اليهود سبعون ألفا . وكاد الرب يهلك أورشليم ، ولكنه عاد فندم على الشر (سبحانه وتعالى عما يصفون) ، وأمر الرب الملاك المكلف بابادة أورشليم أن يكف عن التنفيذ .. وكان الملاك واقفا عند حقل أحد اليبوسيين أهل أورشليم الأول ..

ومهما كان رأينا فى تفاصيل هذه القصة ، فان لها دلالة لا تخفى علينا ، وهى كراهة اليهود للارقام الكاشفة للحقائق . ومن هنا نستطيع أن نفهم هذه المغالاة فى ذكرها ، وأنها تعبر عن حالة نفسية ، أكثر مما تعبر عن واقع يمكن الاعتداد به .

طريق النهاية :

وهنا نأتى الى أمر فيه تجديد ، كما يقول الشاعر القديم . ففى عام ٧٢٧ قبل الميلاد تولى حكم أورشليم « حزقيا » .. ورغم أنه كان شابا ــ فى الخامسة والعشرين من العمر ــ الا أنه سار سيرة معقولة ، وعمل المستقيم فى عينى الرب حسب كل ما عمل داود . وجمع هذا الملك كهان المعبد من بيت لاوى ، أو ليفى ، وقدم للرب الذبائح قربانا وتكفيرا عن آبائه ، وأحضر آلات الموسيقا التى كان يستعملها داود ، من صنوج ورباب وعيدان وأبواق ، وردد المزامير والأدعية . ثم أرسل رسله يدعون جميع

اليهود من اسرائيل الشمالية ، ويهوذا فى جنـوبها حتى بير سبع ، لكى يحتفلوا كأسرة واحدة بعيد الفصح . وأزيلت من مرتفعات أورشليم معابد الاصنام الوثنية ، بعد أن ظلت متحكمة فى عبادات اليهود ، واليها تعنوا جباههم قرابة قرنين من الزمان أى من نهاية عهد سليمان الحكيم ..

ووسط ولائم حافلة ، طعم المحتفلون لحوم ألف ثور وعشرة آلاف من الضأن « وكان فرح عظيم فى أورشليم لأنه من أيام سليمان بن داود ملك اسرائيل لم يكن كهذا فى أورشليم » .

وحدث أن حاول ملك « سنحاريب » الاستيلاء على أورشـليم ، وحاصرها فعلا ، بعد أن استولى على ما حولها . ولكن « حزقيا » كان فطنا ، فطمر الآبار من حول المدينة حتى لا يشرب منها جيش آشور ، وقوى حصـون المدينة ، وصمم على المقاومة . وأنقذ المدينة من هـذا الغزو الآشورى ، ان أبناء سنحاريب الآشورى ثاروا عليه ، لانتزاع الملك منه ، وقتلوه فعلا « وخلص الرب سكان أورشليم من سنحاريب ملك آشور ، ومن يد الجميع ، وحماهم من كل ناحية » . وقام حزقيا باصلاح موارد المياه الى المدينة ، وأجرى بعضها تحت الأرض الى الجهـة الغربية من المدينة . وفى خلال حكمه الذى استمر تسعة وعشرين عاما جمع ثروة كبيرة جدا ، تكاد تعادل ما جمعه سليمان .

ولكن ما كاد ينتهى هذا الحكم ، حتى جاء الابن منسى ليحكم ، ويعود باليهود الى عبادة الأوثان . وطال عهد هذا الملك اليهودى الوثنى خمسا وخمسين سنة (ملك وسنه ١٢ عاما) ولم يترك معصية الا ارتكبها ، حتى الهيكل وضع فيه أصناما لمعبودات كل الأمم من حوله .. حتى ابنه وولى عهده أسماه آمون ، على اسم المعبود المصرى القديم .. وكل ذلك ليغيظ « يهوه » رب اسرائيل !!

وفى مناوشات بين « منسى » هـذا ، وجيش آشور ، وقع أسيرا فى يد الأعداء ، وقيد بالسلاسل ، ونقل الى بابل . ويبدو أنه هرب أو نجا من

الأسر ، وحاول اصلاح أخطائه قبل الرب . ولكن الموت عاجله . وتولى مكانه ابنه « آمون » ليتابع عبادة الأوثان ، وارتكاب الآثام ، فقتله أهل أورشليم .

العثور على التوراة :

وهنا نأتى الى موقف عجيب فى تاريخ الدين اليهودى ، وفى تاريخ أورشليم بالذات . ففى عام ٦٣ ق.م تولى الملك صبى صغير هو «يوشيا» ابن آمون . وكان فى الثامنة من عمره . وكان الكاهن الأكبر رجلا يوقره اليهود كثيرا ، اسمه « حلقيا » وصفته التوراة بأنه « الكاهن العظيم » . وقد بدأ فى هذه الفترة ترميم المعبد ومراجعة مخلفاته . وفجأة عثر المكلفون بمهمة التعمير على ملف ، ظهر لهم أنه التوراة ، أو كتاب الشريعة . وقالوا انه بخط موسى ، وظلت هذه النسخة مختفية عن الأعين عدة قرون ..

هذه الأسفار ، كما تذكر التوراة التى بين أيدينا عددها خمسة . وان كانت فى أواخرها تتحدث عن أمور بعد عهد موسى (عدد أسفار التوراة ٣٩ ، وعدد اصحاحاتها ٩٣٩ اصحاحا) والنسخة التى قيل ان موسى كتبها بخطه ، هى ولا شك النسخة التى أودعها سليمان الحكيم فى التابوت عندما بنى الهيكل ، أى أنها ظلت لمدة تقرب من ٣٥٠ سنة ، لا يعرف اليهود عنها شيئا ..

وما يجعلنا نؤكد أن سليمان كان يعلم بوجود هذه النسخة ، ما ورد فى القرآن الكريم عن تابوت اليهود اذ ورد فيه :

« وقال لهم نبيهم ان آية ملكه ، أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى ، وآل هارون تحمله الملائكة . ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (البقرة ٢٤٨) .

وواضح من هذه الآية القرآنية عدة أمور :

أولا : ان موسى عليه السلام دون توراة ضمنا ما أنزله الله عليه . وهى الشريعة التى طالب اليهود باتباعها .

ثانيا : ان هذه التوراة أودعت فى صندوق ، هو الذى تطلق عليه كلمة التابوت . وقد أطلقت من قبل على الصندوق الذى سبح فى ماء النيل ، وبه موسى نفسه ، وهو طفل : « أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم ، فيلقه اليم بالساحل » .

ثالثا : ان موسى عليه السلام ترك توراته فى هذا التابوت ، ثم رحل عن الدنيا . فما كان من اليهود من بعده الا أن جعلوا « الرب » نفسه يأوى الى الصندوق ، ولو قالوا ان كلماته تعالى هى التى أودعت فيه ، لكان ذلك أقرب الى العقل .

ظلت عقدة التابوت تعمل عملها فى طقوس العبادة اليهودية من بعد موسى . حتى اذا بنى سليمان الهيكل ، وأودع فيه التابوت، كان يعلم ولا شك ما بداخله .

خامسا : يبدو أن الحروب التى كان التابوت يحمل فيها فى مقدمة المحاربين بزعم أن « الرب » بداخله ، ثم وقوعه بعد ذلك غنيمة فى أيدى الفلسطينيين ، أفقدت التوراة جزءا من صحائفها . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله « وبقية مما ترك آل موسى » .

سادسا : والتعبير القرآنى بأن ما كان فى التابوت هو « بقية » مما ترك « آل موسى » ، وليس النص على موسى نفسه ، يشير الى أن ما كتبه موسى بنفسه ، قد لا يكون هو ما أودع فى التابوت أيام سليمان ، وانما نسخة منه ، ليست كاملة .. لأنه « بقية » وليس « كلا » .

ومهما يكن الأمر ، فقد حدث شىء يلفت النظر عند ما وجدت هذه « البقية » أو سفر شريعة الرب ، كما تعبر التوراة الحالية . فقد تلى الملف على ملك أورشليم . ولا بد أنه كان قد كبر فى السن ، ونما ادراكه . لأنه ما أن سمع نصوص المخطوط الموجود حتى مزق ثيابه ، اذ وجد قومه

يخالفون كلام الرب فى كل ما يعملون ، وما يعيشون به . وبعث الملك وفدا على رأسه الكاهن حلقيا ، الى امرأة من يهود وصفوها بأنها نبية . فأفتت بأن الملك سينال عفو الرب ، ويموت مؤمنا ، أما قومه ، فسيحل بهم النكال ، جزاء عصيانهم .

وحتى يبرىء الملك ذمته ، فقد دعا جميع اليهود فى كل مكان كانوا فيه ، وقرأ عليهم ما وجد من سفر العهد .

وقد عنى أحد علماء المسلمين ، وهو الامام أبى محمد على بن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هجرية ، بدراسة التوراة ، ومناقشة كثير من بياناتها مع الذين عاصروره من أحبار اليهود فى الأندلس . وكان مما صح لديه أنه كان لدى السامرية (يهود الشمال) توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود ، يزعمون أنها المنزلة ، ويقطعون أن التى بأيدى اليهود محرفة مبدلة . وسائر اليهود يقولون ان التى بأيدى السامرية محرفة مبدلة .

ولسنا ندرى أى صفحات أو نسخ من التوراة وجدت هنا . ولكن الواضح من النصوص التى وردت فيما تداول بين أيدينا ، أن أهل أورشليم عند ما سمعوا ما تلاه عليهم « يوشيا » وأعوانه ، بدا وكأنه شيء جديد عليهم ، ولم يسبق لهم علم به .. فهل كان اخفاء التوراة الموسوية — حتى عثر عليها — هو سبب الجهل بها ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فعلى أى شريعة كان يتعبد بها اليهود منذ عهد سليمان حتى هذا العهد ؟ وهل كان الاخفاء ، هو سبب ردتهم المتوالية ، حتى طردهم الأخير من فلسطين . فما نفع نبى ، ولا واعظ ، ولا كاهن ، ولا راء (قارىء المستقبل) فى دفعهم عن هذا الاثم .

وكان مما لاحظه ابن حزم فى كتابه : الفصل فى الملل والنحل : أن موسى حرم فى شريعته الزواج من الأختين ، وبهذا خالف شريعة يعقوب الذى تزوج من أختين هما ابنتا « لابان » وجمعهما معا . وهذا تناقض . وذكر أن التوراة أحصت المدن التى سكنتها بعض الأسباط وكانت نحو أربعمائة

مدينة غير القرى ، مع أن مساحة بقعة الأرض التى ورد أنهم نزلوها لا تزيد عن اثنى عشر ميلا فى مثلها ، وهذا بدوره يناقض الجغرافيا ... وما أكثر ما أورد ، مما خرج معه بنتيجة واحدة ، وهى أن المتأخرين الذين كتبوا التوراة لم يفكروا أبدا فيما هو معقول أو جائز .

وهكذا نجد أنفسنا أمام جزء من توراة موسى كان فى التابوت ، وهو جزء مؤكد ، وتوراة كتبت بأيدى السامرية ، وأخرى كانت بأيدى باقى اليهود .. ولا يعرف بعد هذا على أى من النسخ كان يعتمد اليهود فى عبادتهم . ولكنا سنرى فيما بعد أن تدوينا جديدا حدث ، واليهود فى الأسر أو السبى البابلى ، وأن حجم التوراة زاد أضعافا مضاعفة .

القارعة الأولى :

وحدث فى عام ٦٠٨ ق.م أن كان فرعون مصر نخاو الثانى فى طريقه الى حرب البابليين وكما يحدث أحيانا من بعض الحاكمين ، فقد أساء اليهود الحساب وحسبوا أنهم يستطيعون أن يتصدوا لقوات مصر ، بقواتهم الصغيرة . فسحقهم المصريون ومن معهم ، فى سهل مجدو ، وذبحوا ملكهم يوشيا . واختار اليهود ابنه ملكا عليهم ، ولكن فرعون مصر نخاو عزل هذا الحاكم ، وولى من قبله ابنا آخر حاكما لأورشليم . على أن يكون تابعا للتاج المصرى .

وبعد ثلاثة أعوام دارت المعركة الحاسمة بين البابليين والمصريين ، فدارت الدائرة على جيش مصر . وبالتالى أصبحت أورشليم تابعة لبابل . وبعد ثمانية أعوام ــ أى فى عام ٥٩٧ ق.م ــ زحف الملك البابلى « نبوخذ نصر » على أورشليم ، وأخذ معظم سكانها أسرى الى بابل . وبتحريض من مصر ثارت البقية الباقية من سكان المدينة على سادتهم الجدد . فقدم ملك بابل بنفسه وفرض على أورشليم حصارا استمر عامين من ٥٨٨ ق.م ، واستسلمت المدينة على أثره ودمرت ، ولم يترك البابليون فيها الا الضعفاء أما بقية أهلها فقد سيقوا فى الأسر الى نهر الفرات .

ومنذ ذلك الوقت انتهى وجود اليهود فى فلسطين كحكومة لها سلطة وشعب يتبعها . وبقى لهم المعنى الدينى ، وهو أنهم شعبة من القبائل ، تنتسب لابراهيم الخليل صلوات الله عليه .

هذه هى خاتمة اليهود فى أورشليم ، أى فيما كان يسمى مملكة اسرائيل التى أنشأها داود عليه السلام .. ثم انقسمت من بعده الى يهوذا ، واسرائيل كما ذكرنا من قبل .. وقد حكم فى أورشليم من بعد سليمان عشرون ملكا حتى ابتـداء السبى البابلى ، وذلك فى الفترة من عام ٩٣٠ ق.م (وفاة سليمان) حتى عام ٥٨٦ ق.م .

أما المملكة الشمالية ، التى كان اسمها اسرائيل ، وعاصمتها شـكيم (نابلس) . فقد حكمها الابن الثانى لسليمان الحكيم، أى من عام ٩٣٠ق.م وانتهى وجودها سريعا . ففى عام ٧٢٢ ق.م أغار عليها سرجون الثانى ملك بابل ،ودمر وجودها ، ونقل جميع أهلها الى شرق الفرات ، وأحل محلهم سكانا جددا من أبناء الرافدين . وكان عدد ملوك اسرائيل هذه تسعة عشر ملكا ، عاشوا فى شغب ، ومحالفات خائبة مع الوثنيين لمهاجمة أبناء عمومتهم فى أورشليم .

واذا حسبنا عمر هاتين الدويلتين ، تكون أورشليم (يهوذا) قد عمرت ٤٣٤ سنة بما فيها ملك شاول وداود وسليمان واسرائيل عمرت ٢٩٨ سنة فقط ، منذ عهد شاول (١٠٢٠ ق.م) .

وكما نرى فان سيادة اليهود على قطعة محدودة من أرض فلسطين انتهت قبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالى ستة قرون ، وبعد خمسة وعشرين قرنا وبعض قرن يحاولون أن يعيدوا هذا التاريخ السحيق مرة أخرى وياله من تاريخ .. ويالها من عودة .

ونحن هنا تتحدث عن « السيادة » على قطعة من الأرض ونهايتها . أما ختام الوجود اليهودى فى فلسطين فقد تأخر بعض الوقت .. تأخر الى عهد الرومان الى عام ٧٠ ميلادية ، كما سنرى فيما بعد .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هاتين النهايتين : تدمير سيادتهم بالأسر البابلى ، وانهاء وجودهم بالسحق الرومانى ، وذلك فى الآية الكريمة :

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا » .

« فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا » .

« ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيرا » .

« ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها » .

« فاذا جاء وعد الآخرة ، ليسئوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا ... »

(الاسراء — ٤ — ٨)

وهذا الدمار الأول ، الذى تم على أيدى البابليين ، وتحدث عنه القرآن الكريم على النحو الذى نراه ، كان بالغ التأثير على اليهود .. فقد أزال معظم الوجود اليهودى من فلسطين . وظهر من السهولة التى أجلى بها البابليون سكان منطقة اسرائيل ، على يد « سرجون » ثم سكان منطقة يهوذا على يد « نبوخذ نصر » ، ان جذور هؤلاء القوم لم تكن عميقة فى أرض فلسطين واذا استثنينا المعبد وقصر سليمان ، فلا تكاد تذكر لهم آثار خلال تسعة قرون قبل هذا الاجلاء . وكل ما يمكن أن نقوله أنهم أقاموا فى جزء من أرض كنعان ، بما فيها من قرى صغيرة .. وحتى المدن كانت أشبه بالقرى ، باستثناء أورشليم وشكيم (نابلس) .

ويصف ديورانت فى تاريخ الحضارة هـذه الحقبة من وجود اليهود فى فلسطين قبل السبى البابلى فيقول :

« كان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى ، والحرب الاقتصادية ، والانحلال الدينى ، هو الذى ظهر فيه الأنبياء . ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفظ العبرى (النبى) أول الأمر ، من طبقة عاموس وأشعيا الجديرة باحترامنا ، بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ، ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور . ومنهم متعصبون متهوسون، يستثيرون مشاعرهم بالأصوات الموسيقية الغريبة ، أو المشروبات القوية ، أو الرقص الشبيه برقص الدراويش . وينطقون فى أثناء غيبوتهم بعبارات يراها أصحابهم وحيا أوحى اليهم. أى بثها فيهم روح غير روحهم . وقد سخر « ارميا » سخرية لاذعة من كل رجل مجنون أو متنبىء . وكان منهم من هو ناسك نكد مثل ايليا . ومنهم كثيرون يعيشون فى مدارس أو أديرة مجاورة للهياكل . ولكن معظمهم كانت لهم أملاك خاصة وزوجات . ومن هذا الحشد الكبير من النساك خرج أنبياء بنى اسرائيل وأصبحوا على مر الزمن نقدة لعصرهم وشعبهم .. ونخطىء أشد الخطأ اذا اعددناهم أنبياء بالمعنى المألوف لهذا اللفظ . لقد كانت نبوءاتهم مزيجا من الوعد والوعيد.

« وقد قال عاموس عن نفسه أنه لم يكن نبيا ، وانما كان راعيا ريبا ساذجا .. ولما رأى بلدة « بيتال » لأول مرة ، هاله ما شاهده فيه من تعقد الحياة تعقدا غير طبيعى ، ومن الفروق الواسعة بين الثروات ، ومن القسوة فى استغلال الناس ، وراح يقول ، وتدون التوراة : « من أجل انكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ، ولا تسكنون فيها . وغرستم كروما شهية ، ولا تشربون خمرها .. ويل للمستريحين فى صهيون .. الخ » .

الأسر البابلى :

وصفت التوراة ما حل بأورشليم عند ما غزاها جيش الفرات بقيادة ملكهم البابلى (نبوخذ نصر) قالت :

« أصعد عليهم ملك الكلدانيين ، فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم . ولم يشفق على فتى أو عذراء ، ولا على شيخ أو أشيب ، بل دفع الجميع ليده . وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة ، وخزائن الملك ورؤسائه ، أتى بها جميعا الى بابل . وأحرقوا بيت الله ، وهدموا سور أورشليم ، وأحرقوا جميع قصورها بالنار ، وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة . وسبى الذين بقوا من السيف الى بابل . فكانوا له ولبنيه عبيدا ... » .

وواضح من هذا الكلام أن قصر سليمان ، ومعبده ، دمرا فيما دمر من مبانى أورشليم وراحت منشئات المدينة طعمة للنيران . وقد هرب الى مصر أعداد من اليهود ، وذلك لأن أورشليم وكل فلسطين كانت تحت سلطان فرعون مصر .

ويقول برستد فى تاريخ هذه الفترة :

فى صيف عام ٥٨٦ قبل الميلاد سقط بيت المقدس ، فخربه جيش بابل تخريبا ، وأسر الذليل صدقيا وقاده الى معسكر الملك البابلى ، حيث شاهد مصرع ولديه ، قبل فقء عينيه . وبهذه الطريقة ذلت الأمة اليهودية تماما .

« وصدقيا هذا كان آخر ملوك أورشليم فى هذا العهد . قالت عنه التوراة الحالية وهى تختتم سفر أخبار الأيام الثانى : « كان صدقيا ابن احدى وعشرين سنة حين ملك ، وملك احدى عشرة سنة فى أورشليم ، وعمل الشر فى عينى الرب الهه ، ولم يتواضع أمام ارميا النبى » .

وبقيت أورشليم خرابا ينعق فيها البوم سبعين سنة .

وما حدث لأورشليم فى الغزو البابلى ، يذكرنا بقول الله تعالى فى قرآنه الكريم :

« واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليهم القول ، فدمرناها تدميرا » .

وهذه هى المرة الأولى التى دمرت فيها أورشليم تدميرا تاما .

وعبور الاسرائيليين لنهر الفرات كان على دفعتين ، وهم فى ذل الأسر ، لم يكن أول عبور لهم . فقد ساقهم موسى عبر مستنقعات المنزلة المصرية ، وفرعون يطاردهم . ثم عبر بهم يشوع بن نون نهر الأردن ليخوضوا معه معركتهم الحربية من أجل قطعة من أرض فلسطين . وهذا هو عبور جديد فى مشرق منطقة الشرق الأوسط .

ولفظ « عبرى » الذى يطلق على اليهود ، هو تعبير عن القبائل الرحل ، التى يتحرك معها فقرها وبؤسها التماسا للرزق . وقد عرض الدكتور فؤاد على حسنين له بقوله (١) :

« لفظ عبرى ، كما جاء فى العهد القديم (التوراة) ، ان دل على قدمه ، فلا يقوم حجة على اصالته . فالآراء تكاد تجمع على أنه لفظ مصرى (خابيرى) كان يستخدم للاشارة لا الى شعب بعينه ، بل يعبر عن طائفة من الأجانب المستضعفين . فقد جاء فى الاصحاح العاشر من سفر التكوين ان أبناء نوح هم — سام ، وحام ، ويافث — ومن ذرية هؤلاء تكونت الشعوب والقبائل . واذا توخينا الحقيقة ، وجدنا أن هذه الأسماء تدل على شعوب ، وليست أسماء أفراد . وأن هذا الاصحاح ، لما عرض للأنساب لم يراع الصلات العنصرية واللغوية والاجتماعية ، بقدر ما راعى العوامل السياسية . ولا أدل على ذلك فى الآية السادسة أن الكنعانيين حاميون ، والواقع أنهم ساميون . وأن قوم سبأ ، وحويلة ، من نسل حام ، بينما يعود هذا الاصحاح فيذكر أنهم من نسل سام فى الايتين ٢٨ و٢٩ .. وهكذا .. وذكر لفظ عبرى لا يدل على قيمة جنسية .

ويستطرد هذا البحث قائلا : لفظ عبرى فى العهد القديم لم يستخدم نعتا قوميا للاسرائيليين أو اليهود . ولا نجد له أثرا فى لغة السياسيين

---

(١) بحث أعده الدكتور فؤاد حسنين للجامعة العربية ردا على بحث أعده كاتب يهودى تحت اسم الحياة والقيم الاجتماعية للشعب اليهودى ضمن موسوعة يوميات « تاريخ العالم » ونشره اليونسكو . والبحث اليهودى من أعداد ابن صهيون دينمور .

والمؤرخين والأنبيـاء والشعراء الذين رويت سيرهم ، قبـل أن تتكون للاسرائيليين قومية أو دولة ، مثل قصـة يوسف وموسى فى مصر ، وفى مواقع أخرى من هذا القبيل .

ولما ولدت دولة اسرائيل القديمة ، ورد لفظ « عبرى » للتعبير عن هذه الطبقة البائسة الشقية ، التى يتضور أفرادها جوعا ، ويعلنون اعلانا صارخا عن سوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد . وكان الفرد العبرى أو المرأة العبرية ، يباع ويشترى فى سوق النخاسة ، فيفقد حريته ويكدح فى الأرض عبدا ذليلا . وفى هذا تكررت الاشارة فى أسفار الخروج والتثنية وارميا . ونجد هذا اللفظ يرد أيضـا فى التوراة مرادفا للجبن والضعف والخـذلان كمـا فى سـفر صموئيل الأول (آيات ٣ و٧ و ١١ و ٢١) .

* * *

أشعيا .. النبى :

فى التوراة سفر من الأسـفار الطويلة يستغرق حوالى ٨١ صفحة ، اسمه سفر (أشعيا) وهو منسوب الى نبى من اليهود يحمل هذا الاسم ، عاش فى أورشليم ، وتزوج نبية ، وقيل أنه أعدم عام ٧٠١ ق.م. ، ولكنه ترك نبوءات تتحدث عما حـدث فى الماضى ، وتتحدث عما سـيحدث فى المستقبل . وما دام الأمر أمر مستقبل ، فقدت زيدت على نبوءاته أشياء كثيرة ، وتحدث عن الأهوال التى سوف تحل بالأمم المحيطة بدويلة يهوذا أو أورشليم ، مثل بابل ومؤاب ودمشق ومصر وبلاد العرب وصور ، وشعب آشور والحبشة وغيرها .

فيقول مثلا عن مصر فى الاصحاح ١٩ « ... يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان ، وتحلف لرب الجنود (اله اسرائيل) ، يقـال لاحداها مدينة الشمس . فى ذلك الوقت يكون مذبح (يهودى) للرب فى وسط أرض مصر ، وعمود للرب عند تخمها ... فيعرف الرب فى مصر ،

ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم .. بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر ، وعمل يدى آشور ، وميراثى اسرائيل » .

وطبعا لم يتحقق شيء من هذه النبوءة ، لأن الاسرائيليين لم يكونوا شيئا مذكورا فى نظر المصريين أو الآشوريين على جميع مراحل التاريخ ؛ اللهم الا أن تداس قراهم تحت أقدام جنود الدولتين الكبيرتين فى الصراع الدائر بينهما على مر القرون .

وتمتد تبوءات هذا السفر الى اليهود المشتتين بضربات جيوش الرافدين فيقول : « ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد ثانية ليقتنى (يجمع) بقية شعبه التى بقيت من آشور ، ومن مصر ، ومن فتروس ، ومن كوش ، ومن عيلام ، ومن شنعار ، ومن حماة ومن جزائر البحر ؛ ويرفع راية للأمم ، ويجمع منفيى اسرائيل ، ويضم مشتتى يهوذا من أطراف الأرض » .

ولا تنسى هذه النبوءة أن تخص مصر بقسط من أمانيها ، اذ يهز الرب يده ، على نهر النيل بقوة ريحه يجف بحيث يمكن السير فى مجراه بالأحذية ، بحيث يسير فيها الذين تبقوا من اليهود الأسرى فى آشور ؛ كما ساروا يوم خروجهم من مصر !!

ويعود أشعيا مرة أخرى الى مصر فيرى الرب راكبا سحابة سريعة ؛ وقادما الى مصر ، فيذوب قلبها داخلها ويحارب كل مصرى أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ، ومملكة مملكة .

(كانت مصر مملكة واحدة وليس الحال كما هو فى فلسطين) . أما البحر فيجف ، ونهر النيل ييبس ، وتتصاعد الروائح النتنة من الأنهار وتجف سواقى مصر ، ويهلك زرعها وينوح الصيادون ، وصناعة الكتان والأنسجة البيضاء تتوقف ، ويتعطل كل العاملين بالأجر ، وتملأ الكآبة نفوسهم ... وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر .

أما عرب الجزيرة ، فان الماء يمتنع عن قوافلهم ، والعطش يعمهم ، وسيف اليهود يطاردهم . ولبنان فى مدة يسيرة جدا تتحول بساتين لبنان الى وعر .

وفجأة يتحول هذا النبى عن البلدان واحدة بعد أخرى ، ليلقى نظرة شاملة على الشعوب كلها ، على سكان الأرض جميعا ، فيرى سيف الرب امتلأ دما ، وأخذ يدمر الحياة فى كل مكان ، فتتحول الأنهار الى زفت ، والتراب الى كبريت ، والأرض كلها تصير شعلة لهب ، ويصعد دخانها ليلا ونهارا الى الأبد . وتخرب الدور الى أبد الآبدين ، لا يجتازها انسان ، ولكن تكون مسكنا للغربان والقنافذ ، وينبت فى قصورها الشوك ، وتبيت فيها الذئاب .

أما بابل التى دمرت أورشليم ، فقد خصها أشعيا بلعنات تحترق غضبا (كتب هذا الكلام بعد عهد أشعيا) . فان الدمار سيحل بها . ولن تعود سيدة الممالك وذلك لأن الرب حين دفع اليه بشعبه اليهودى ، بسبب غضبه عليهم ، لم يجدوا رحمة فى منفاهم ببابل . وقد ثقلت يد البابليين عليهم .. الويل لهم . سوف يأتيهم الترمل والثكل معا .

وقد وصف أشعيا الرب بأنه قاس ، عضلاته من حديد ، وعنقه وجبهته من نحاس . وليس كمثله أى صنم منحوت أو مسبوك !!

وحرض اليهود فى الأسر على الهرب من بابل الى أرض الكنعانيين . ونادى أورشليم أن تستيقظ وتلبس أعز ثيابها . لانه لن يدخلها فيما بعد أى من الأمم الأنجاس ، غير اليهود .

وواضح أن الذين دونوا هذه الصفحات ، كانت مرارة الأسر فى بابل تملأ نفوسهم ، فراحوا يصبون غضبهم على البشرية كلها ، لا يستثنون منها أحدا . ونستطيع أن نتصور حالة البؤس والشقاء التى كانوا فيها ، ولا سيما أنهم شاهدوا وعلموا مصائر الذين سبقوهم الى الأسر من دويلة اسرائيل . فان حكم سرجون وخلفائه أفناهم وأذابهم بين الكلدانيين فلم

يبـق لهم وجود ، ولم يكن قد مضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان ، أو نحوهما .

وسفر أشعيا هذا ، كما انتهى اليه دارسو التوراة ، ليس الا ثلاثة أسفار ... جاء ترتيبهم فى التوراة قبل سفر « ارميا » . وقد دار هـذا السفر ــ أيضا ــ حول فترةالأسر البابلى ؛ واستوحى من ظروفها أفكاره .

ارميا النبي :

من الذين عاصروا فترة الأسر البابلى . وكانت أشور (شمال العراق) وقتها صاحبة السلطان فى الشرق الأوسط ، وفى مصر نفسها . وبهذا كانت كل فلسطين تابعة لها . ولكن ما لبثت بابل وأهلها الكدانيون أن حرروا أنفسهم ، وسقطت نينوى عام ٦٢٢ق.م وبهذا زالت سيادتهم عن أورشليم، فلما أراد المصريون استعادة سيادتهم فى هذه الاصقاع ، ورفض اليهود ، تحركت الجيوش وارتفعت الراية المصرية على أورشليم وحكمها يهودى من قبل مصر .

وكان اليهود فى هذه الفترة يعبدون « البعل » ، فظهر هـذا النبى « أرميا » يحارب البعل ، ويطلب عبادة « يهوه » رب اليهود . وطورد من أجل دعوته ، وسجن ، فهرب الى الصحراء مع تلميذه باروخ! . ولـكن حدث بعد ذلك الصراع المحتوم بين دولة الفرات المنتصرة بابل ، وبين جيوش مصر ، وكانت النتيجة النهائية سوق معظم اليهود أسرى الى بابل، أما النبى أرميا ، فقد هرب الى مصر ، ليتابع الدعوة الى عقيدته . وظل فى مصر لا تضيق به ، حتى مات فيها .

ويعد أرميا أكثر يهود هذه العصور شاعرية وأدبا . والذين ألفوا فيما بعد المزامير والأناشيد التى نسبت الى أنبياء سابقين ، انما تأثروا بالطاقة المعبرة لأرميا . ولا عجب ، بعد ألف سنة تقريبا من خروج اليهود من مصر أن نجد بينهم روحا أدبية شفافة .

راح أرميا يخاطب اليهود بعد أن حل بهم نكال البابليين ، قائلا لهم ان عبادتهم للأوثان والآلهة الغريبة ، ثم عقوبة الرب لهم ، جعلهم كسارق يكسوه الخزى لأنه ضبط متلبسا . واذ يبحثون فى المحنة عن ربهم ، يقول لهم اين اذن آلهتكم التى صنعتموها بأيديكم . لماذا لا يقوموا الآن ليخلصوكم فى وقت بليتكم . وعددهم صار كعدد المدن والقرى . وكان سيفكم مسلطا على أبدانكم .. لقد نسينى شعبى أياما بلا عدد . وكما أخزتك أشور ، سوف تخزيك مصر . وشبه دويلة اسرائيل ، ودويلة يهوذا فى عصيانهما للرب بأختين زانيتين ، لا تجدان جبلا ولا شجرة خضراء الا وترتكبان المنكر عندهما ، بعبادة الأوثان . ووصف اسرائيل بأنها الأخت العاصية ، ويهوذا بأنها الأخت الخائنة .

ونجد نسمات الرقة فى حديثه عن الرب ، فهو ليس الاها يقطر دماء ، كما يصفه أنبياء التوراة الآخرون . فهو يقول على لسانه : لا أوقع غضبى بكم لأنى رؤوف .. لا أحقد الى الأبد .. أرجعوا أيها البنون العصاة .. حى هو الرب بالحق والعدل والبر .

وقد بلغ الضيق بأرميا مبلغه . وهو يجد قومه موغلين فى الاثم والعار والهلاك يحف بهم من كل جانب .. نسمعه يقول : ياويلتاه يا أمى .. لماذا ولدتنى انسانا يخاصم كل الناس . لم أسأل أحدا قرضا ولا عطاء . والجميع يلعنوننى .. ولكن ربى يلهمنى انه يدخرنى للخير . وأن الذين يناصبوننى العداء سوف يتضرعون لى فى وقت يحيق بهم الشر والضيق .

تقول موسوعة تاريخ الحضارة عن أرميا : فى هذه الأزمة التى حاقت بأورشليم ظل أرميا أفصح الأنبياء وأشدهم حقدا على قومه ، يدافع عن بابل ، ويعلن على الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ، ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندين . وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله الى نبوخذ نصر ، حتى ليكاد من يقرأ أقواله فى تلك الأيام يظن أنه من صنائع بابل المأجورين . أنظر الى قول أرميا على لسان ربه :

« انى أنا صنعت الأرض والانسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة ، وبذراعى الممدودة ، وأعطيتها لمن حسن فى عينى . والآن قد وقعت كل هذه الأراضى ليد نبوخذ نصر ملك بابل عبدى .. فتخدمه كل الشعوب .. ويكون ان الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل ، أنى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده » .

وتستطرد الموسوعة : قد يكون الرجل خائنا أو لا يكون ، أما من الناحية الأدبية ، فان كتاب نبوءاته التى يقال انه تلقاها عنه تلميذه باروخ ليعد من أبلغ ما كتب فى الآداب كلها ، ومن أعظمها قوة .

وكان مما قاله أرميا عن قومه : طوفوا بشوارع أورشليم ، وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها ، « هل تجدون انسانا ، أو يوجد عامل وعم الفسق والفجور » . وروى على لسان الرب : « ولما أشبعتهم زنوا وفى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصنا (خيلا) ملعونة سائبة ، صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » .

ولما حاصر البابليون أورشليم أراد سراة المدينة أن يسترضوا الرب يهوه ، فأطلقوا من كان عندهم من عبيد عبرانيين ، فلما رفع الحصار فترة قصيرة م ن الوقت ، وخيل اليهم أن الخطر قد زال ، قبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين ، وأرغموهم على عبوديتهم القديمة . ويرى أرميا أن الكهنة والأنبياء ، لا يكادون يقلون فسادا عن التجار ، وأنهم كالشعب نفسه فى حاجة الى أن تطهر أخلاقهم وتصاغ من جديد ، وأن يختتنوا فى أرواحهم ، كما يختتنون فى أجسامهم .

وراح أرميا يرثى قومه ، وما سيحل بهم من نكال جزاء ذنوبهم قال : يا ليت رأسى ماء ، وعينى ينبوع دموع ، فأبكى ليلا ونهارا قتلى شعبى .

وكان نصيبه التنكيل به . فربطوا على عنقه كتلة خشبية مما تربط به الأبقار فى السواقى (النير) . وهم الكهنة بقتله ولكنه هرب . فقبض عليه

الأمراء وربطوه فى حبـال ، وأنزلوه فى بئر مملوءة بالوحل . ثم أخرج وسجن فى قصر ملك أورشليم . وهناك وجده البابليون عنـدما سقطت المدينة فى أيديهم .

وعندما شاهد أرميا ، قومه الذين آذوه ، يساقون أذلة الى الأسر ، وقد جندل السيف أشرافهم وامتلأت الأرض من جيفهم ، لم يشمت ولكنه دعا لهم بالخير ، والعودة ، وأن يبنيهم الرب ولا يهدمهم ، وأن يغرسهم ولا يقلعهم ، وأن يعطيهم قلبا ليعرفوا الههم ، ويرجعون اليه بكل قلوبهم .

ووصف « أرميا » ما صارت اليه أورشليم ، بعد أن حلت بها النكبة البابلية . فقد صار الضعفاء المخلفون بين أنقاضها أيتاما بلا أب ، وأمهات كالأرامل ضـعفا وثكلا . يدفعون ثمن المـاء الذى يشربونه ، والحطب الذى يوقدون به ، وباعوا جهدهم وعرقهم للأقوياء للمصريين والأشوريين، مقابل لقمات من الخبز . وهؤلاء هم الأبنـــاء يحملون خطايا الآباء ، ويصبحون عبيدا تسود جلودهم من وطأة الجوع .. توقف الشباب عن الشدو والغناء ، وصار الرقص بكاء ونواحا .. وسأل « أرميا » الطيب ربه أن يرد الى حظيرته الخارجين عليه .

* * *

وتجيء بعد هذا نبوءات نبى آخر من الاسرائيليين ، ساقه « نبوخذ نصر » معه الى بابل ، ضمن الأسرى . ويبدو أنه أراد أن يتقرب زلفى الى ملك البابليين ، فراح يكيل الشتائم لمصر ، ويؤكد لسيده الجديد ، أنه سوف يستولى على بلاد النيل ، ويذيق شعبها عذاب الهون . وينقل عن الرب أن سيف بابل سوف يملأ الأرض بجثث المصريين ويكسر ذراعى فرعون فتسقطان أمامه وهو يئن متألمـا ، ويشتت المصريين بين الأمم ، ويذريهم فى الأراضى ..

ونعجب لقوم فى محنتهم مثلما كان اليهود ، يفترون على الله كذبا ، ويقولون ما لم يقع ، ومصر دائما هى التى تحرق أفئدتهم وقلوبهم غيظا

وكمدا .. انها صحائف كثيرة ملأها حزقيال المتنبىء بشتائم مصر ، عسى أن ترضى عنه بابل .

* * *

وهذا نبى آخر هو دانيال ، أخذ مكانته فى قصر الملك بابل ، لأنه كان يفسر الأحلام . ويبدو أن هذا السفر ، أو قسما كبيرا منه ألف فى أورشليم بعد عودة اليهود من الأسر بثلاثة قرون أو أكثر . فقد حوى كثيرا من الأخبار الكاذبة ، على أنها نبوءات . ولم يكن المؤلف المتأخر على علم دقيق بالتاريخ ، فراح يكتب من ذاكرته ما عن له . فقد أخطأ فى ذكر خليفة نبوخذ نصر . وأخطأ فى ذكر ملك الفرس الذى غزا بابل وقال انه داريوس ، مع أن الذى قام بهذا العمل هو كيروش .. وهكذا .

ومن رأى دارسى التوراة أن اسم دانيال استعير كنبى ، لتوضع على لسانه أخبار احتاج اليها اليهود فى القرن الثانى قبل الميلاد . اذ انهم وقتها استغنوا عن النبوة والمتنبئين وكان لا بد من الرجوع الى أسماء قديمة يستترون وراءها ، ويقولون ما يريدون .

وأكثر قصص هذا السفر امتاعا ، حكاية تمثال الذهب الذى أقامه ملك بابل نبوخذ نصر وطوله ستون ذراعا وعرضه ستة أذرع (مثل عمارة ارتفاعها عشرة طوابق) ، وقد أمر الملك ان يسجد له الناس جميعا ، فلما رفض ثلاثة من اليهود السجود ألقى بهم الملك فى آتون ، ناره أشد سبع مرات من كل نار أوقدت فيه . فلم يمسهم ضر . فأمر الملك بتمجيد اله اسرائيل فى كل مملكة بابل ، وأيما بابلى يتكلم بسوء على (يهوه) يقطع اربا (ويصبح بيته مزبلة ، اذ ليس اله آخر يستطيع أن ينجى هكذا) !!

وهكذا يمكن أن نقول ان فترة الأسر البابلى ، انهت ما كان بين بعض اليهود والبعض الآخر من حروب عقيمة ، ومنافسات على عبادة الأوثان . وجعلت للوعاظ الذين ظهروا كأنبياء ، أو مفسرى أحلام ، أو كهان فرصة

الوجود ، ومحاولة التدوين ، وبهذا وضعت نواة الكتاب الذى يقدسه اليهود ، ثم تتالت بعد ذلك الاضافات .

ولما كان اليهود فى الأسر البابلى عبيدا لآسريهم ، فقد تماسكوا ، ووجدوا الأسرى من اسرائيل الذين سبقوهم بقرن وثلث قرن ، يكيفون حياتهم حسب الظروف التى وجدوا فيها ، ويكونون أول « حوارى » يهودية ، بعد اقامتهم فى مصر .

وكما حاول اليهود فى مصر أن يكونوا فى خدمة الهكسوس الغرباء عندما كانت لهم الغلبة على الدلتا وبعض الصعيد ، كذلك راح اليهود يبحثون عن سيد يكونون فى خدمته سرا . وكان هذا السيد ، دولة فارس التى لمحوا أن ساعدها يشتد ، فقدموا لها كل المعلومات التى تعينهم على تقويض دولة بابل ، ولا سيما ان منهم أفرادا تسللوا الى قصر الملك ، ونالوا حظوة ، وشغلوا بعض المناصب .. وأينما كان اليهود ، فان أهم مهنة احترفوها كانت ـ وما تزال ـ التجسس .

وفى عام ٥٣٨ قبل الميلاد انتصرت دولة فارس بقيادة ملكها (كيروش) وبعد عامين من زوال دولة بابل ، كافأ الفرس يهود المنفى على خدماتهم ، واذن لهم فى العودة الى فلسطين . وبعد خلافات بين فرقهم أعاد يهود أورشليم بناء المعبد وتمت هذه المهمة فى سنة ٥١٦ ق.م بعد أربع سنوات من ابتداء العمل .

يروى « نحميا » فى سفره ، انه بينما كان فى خدمة الملك ، جاءه واحد من المخلفين فى أورشليم . فسأله عن أحوال قومه هناك فقال : « هم فى شر عظيم وعار . وسور أورشليم مهدوم ، وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ونحت أياما » ثم صلى ، وطلب من الرب أن يسمع له وأذناه مصغية ، وعيناه مفتوحتان . ودعاه أن ينقذ شعبه . وكان « نحميا » ساقى الملك ، فأخذ منه اذنا بالذهاب الى أورشليم والعمل على تعميرها . ولم يكن معه شىء الا الدابة التى كان يركبها . ثم اجتمع مع

بعض قومه وبدأوا عمليات بناء الأسوار . ويبدو أن البناء كان هزيلا حتى ان أحدهم وصفه بأنه اذا صعد ثعلب ، فانه يهدم حجارة حائطهم . وأقام نحميا نظام حراسة حتى لا يفاجىء اليهود أعداؤهم التقليديون من العرب والعمونيين وأهل أشدود .

وكان بناء السور بعد أكثر من قرن (١١٣ سنة) من الاذن لليهود بالعودة الى أورشليم وقد قال نحميا فى سفره هذا انه أتم هذا العمل فى ٥٢ يوما فقط . وذكر ان المدينة كانت واسعة ، وسكانها قليلون فى وسطها، مما يدل على أن اليهود بعثروا ، وذابوا ، وان هذه البقية ، هى نواة جديدة لليهود فى فلسطين . وقد أحصى نحميا اليهود فى وقتهم ، وذكر أعدادهم ، فاذا هى من كل قبيلة مئات ، وربما عشرات . وقليل جدا منهم من صعد تعداده الى ألفين أو ثلاثة آلاف (نحميا اصحاح ٧). وربما كان أكبر رقم ذكره ، وهو يحصى الدواب ، كان للحمير اذ بلغت ٦٧٢٠ حمارا .

وجمع « نحميا » كل اليهود ، ودعا « عزرا الكاتب » لكى يقرأ عليهم التوراة ،ويترجمها الى اللغة التى يفهمونها . واذا بهم يجدون فيها ان موسى أوصى الا يكون الاحتفال فى داخل المبانى ، ولكن فى ساحات مكشوفة فذهب اليهود الى جبل الزيتون وأحضروا فروع الشجر ، وعملوا مظلات ، لأنه لم يعمل بنو اسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون الى ذلك اليوم .. أى أنهم كانوا يجهلون ما أوصى به موسى مدة ألف سنة ..

ويقول نحميا انه طلب من كل قبيلة ، ان تختار واحدا من كل عشرة ، ليسكن فى أورشليم ، وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى فى أورشليم . وشدد « نمحيا » فى ألا يسكن أى غريب معهم فى المدينة ، وخص العمونيين والمؤابيين بالنكير ، تنفيذا لوصية قال ان موسى دونها فى التوراة : « لا يدخل أحد منهم فى جماعة الله الى الأبد لأنهم لم يلقوا بنى اسرائيل بالخبز والماء » فى زحفهم الأول .

ولاحظ نحميا أن أبناء وبنات بعض اليهود لا يتكلمون باللسان

اليهودي ، لأن أمهاتهم من الشعوب المحيطة باسرائيل ، قال : «فخاصمتهم ، ولعنتهم ، وضربت منهم أناسا ، ونتفت شعورهم ، واستحلفتهم بالله قائلا : لا تعطوا بناتكم لبنيهم ، ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ، ولا لأنفسكم . أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك اسرائيل » وكان عظيما من الكهنة صهرا لواحد من الأمم الأخرى فطرده نحميا .

وواضح ان نحميا هذا حصل من ملك الفرس على سلطة الحكم على اليهود فى فلسطين على أن يؤدى الجزية المطلوبة . وكان يتردد على الملك الفارسى ليثبت ولاءه . وقد مات عام ٤١٥ ق.م . بعد أن وضع الأساس لليهودية الجديدة ، وجمع ودون فى التوراة ما رآه يصلح من شأن اليهود . واذا كانت التوراة هنا شددت النكير على زواج اليهود من أجنبيات . فان عزرا الكاتب ، وهو يدون سفره (له سفر أيضا قبل نحميا) كان أشد نكيرا ، لأن « الزرع المقدس » اختلط بشعوب الأرض ، يستوى فيهم الرؤساء والكهان . بلغ من انزعاج عزرا أن قال « مزقت ثيابى وردائى ، ونتفت شعر رأسى وذقنى وجلست متحيرا . وعد عزرا جميع النكبات التى حلت بقومه بسبب هذا الرجس والخيانة . وبدأ فحص لكل اليهود « وانتهوا من كل الرجال الذين اتخذوا نساء غريبة » .. ولم يذكر لنا عزرا كيف كانت هذه النهاية ، هل باعدام هؤلاء الخاطئين أم بابعادهم ..

وهنا نجد ان التوراة كما دونها عزرا عام ٤٤٤ ق.م وقرئت فى اجتماع عام احتاجت الى سبعة أيام ليتم قراءتها . فى حين ان النص الأصلى الذى وجد فى التابوت قبل ذلك قرىء فى يوم واحد . وان كانت كلمة « توره » أى الهداية ، ترجمت بعد ذلك الى اليونانية بكلمة « البنتاتوش » أى الأسفار الخمسة . وكأن العدد الأول ظل ملتصقا بالتوراة حتى بعد أن أصبحت تسعة وثلاثين سفرا .

يتساءل ديورانت : كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب فى الاجابة عليه

خمسون ألف مجلد ، ويجب أن نفرغ منه هنا (فى موسوعة الحضارة) فى فقرة واحدة ، ونتركه بعدها بغير جواب !!

ولا تهمنا هنا الدراسات اللاهوتية التى تلخص خمسين ألف مجلد ، ولكن ما يهمنا هو الغموض الكامل الذى أحاط بمنشأ التوراة ، فى حين نجد الكتابين المقدسين الأخيرين : الانجيل والقرآن ، لا غموض فى أصلهما ولا مصادرهما ، ويمكن الاجابة على أى سؤال يختص بهما فى سطور . بل نجد الكتب المقدسة الأخرى فى الأديان غير السماوية ، لا خلاف حولها ولا زيادة فيها أو نقصان . أما التوراة ، فما أكثر الغموض الذى يحيط بمجهود هذا الكاتب اليهودى القديم « عزرا » ..

وقد لاحظ الفيلسوف الفرنسى رينان ، ان الشريعة اليهودية (بما صنعه فيها عزرا) صارت أضيق رداء شد على جسم الحياة الانسانية . فقد جعلت الطعام والدواء والشئون الصحية والفردية ، وشئون الحيض والولادة ، والشئون الصحية العامة ، والحياة الجنسية للانسان .. كل هذه جعلتها من موضوعات الفروض والهداية الالهية .

واذا تذكرنا ما سبق أن عرضناه من تقدم علوم الطب فى مصر ، فانا نجد التوراة تحاول أن تحدد أنواع المرض ، وأنواع الوقاية والعلاج ، ولكن بغير الأسلوب المصرى العلمى ، الذى كان يجرى جراحة المخ من الأنف ، ويجرى العملية القيصرية فى الولادة . كانت الجراحة اليهودية قاصرة على الختان باستعمال القدوم . ولا ندرى اذا كان اليهود المحدثون والحاخامات يستعملون القدوم اليوم تأثرا بسنة أسلافهم أم لا بعد أن ظهرت فى الجراحة أدوات أخرى !!

ونرجو ألا يضيق القارىء بذكر هذه التفاصيل ، فهى النور الكاشف داخل العقلية اليهودية ، عاشوا بها قديما ويعيشون بها الآن .. كراهية للامم الأخرى ، التى تعد نجاسة ، ومحافظة على « الزرع المقدس » .. واذا ظهرت حالات اليوم تخالف هذه القاعدة ، فبسبب ألفين من السنين عاشوها بين

شعوب أخرى ، ولكن ما أن بدت لهم بارقة بتجمعهم مرة أخرى ، فانهم يعودون الى ما أوصتهم به توراتهم ، وعليها منهم حرس شديد البأس هم الحاخامات ، والأحزاب الدينية .

واذا كان قد بدا لنا بوضوح واضح أن قلوب اليهود ، منـذ خرج بهم موسى الى هذه المرحلة من تاريخهم ، لم تتشرب قلوبهم بالايمان ، فان فتنتهم عن دين التوحيد ، كانت أمرا ميسورا على الرغم من كثرة الدعاة ، الذين ظهروا بينهم منبهين ومحذرين ..

وقد علمت السنوات التى قضاها اليهود فى أرض الرافدين ، أنواعا من الفكر والحضارة لم تكن تخطر على بالهم . وان العالم أوسع وأرحب من رقعة الأرض التى يعيشون فيها .

فمن فارس كانت ديانة وعقائد « زرادوشت » تهب على المنطقة ، وفى الهند كانت العقائد البوذية تلح فى التجرد وقمع الشهوات ، وفى الصين علا صوت هادىء رزين هو صوت كنفوشيوس يدعو الى مبادىء أخلاقية قوية قويمة . وهكذا راحت آسيا كلها تبحث عن روحانيات تلائم كل بيئة من بيئاتها . وكان حريا بحملة رسالة موسى عليه السـلام ، وابراهيم الخليل من قبله ، أن تتحرك فيهم نزعة روحانية خيرة ، وان يقرأوا أو يعقلوا عقيدة التوحيد ، بدلا من أن يودعوها فى تابوت ، أو مخبأ ، ألف سنة لا يعلمون ما فيها .. وكان يهود اسرائيل الذين سبقوا الى النفى قبل يهود أورشليم وباقى يهوذا ، قد اقتنعوا أن عقدة الشعب المختـار التى لازمتهم دهرا طويلا ، لا تكفيهم لكى ينشئوا حياة جديدة عبر الفرات الى هضاب فارس . فراحوا يذوبون فى هـــذه المجتمعات الجديدة عليهم . ويأخذون منها ، لأنه لم يكن لديهم شىء يعطونه . فلما تحرك الفرس الى حوض الفرات غازين ، وكان ملكهم كورش يطبق عقيدة تخالف ما يوحى لليهود به ربهم : اله الجنود . الغضوب الذى ينتقم ويبيد .. عقيـدة سمحت له بأن يعفو عن أسراه اليهود ، وان يأذن لمن أراد العودة الى

فلسطين أن يعود ، ومن أراد أن يبنى معبدا فله ما يريد ، مع رد أسلاب المعبد القديم ..

وهنا يحسن أن نلقى نظرة سريعة على عقائد الفرس الذين بسطوا سلطانهم على المنطقة :

كان زرادشت نبى الفرس ، والمعبر عن دينهم فى عصر نهضتهم معاصرا لنبيين من اليهود هما عاموس (تنبأ سنة ٧٥٠ ق.م فى اسرائيل) واشعيا (تنبأ سنة ٧٤٠ ق.م فى مملكة يهوذا) وصيغت رسالته فى كتاب اسمه الابستا (الأبستاق) . وتعبر هذه العقيدة عن الصراع بين اله الخير (أهورا) واله الشر أو الشيطان (أهرمان) : والفضيلة العظمى عند زرادشت تتلخص فى كلمتين : الصدق والأمانة .

وفى خلق الكون يقول « زرادشت » لالهه « أهورا » : أسألك يا أهورا ، فاصدقنى الجواب : من الذى رسم مسار الشموس والكواكب؟ ومن الذى يجعل القمر يتزايد ويتناقص ؟ ومن الذى حفظ الماء والنبات ؟ ومن الذى أجرى الريح والسحب ؟ ومن الذى برأ العقل خيرا .. من يا أهورا ؟

وللرب عند « أهورا » اسماء حسنى أجملها زرادشت فى سبع صفات هى : النور ، والعقل الطيب ، والحق ، والسلطان ، والتقوى ، والخير ، والخلود . وللرب فى دين الفرس ، ملائكة ، كل منهم مكلف بعمل ، وما لبث هؤلاء الملائكة ، أو القديسون الخالدون ، أن عبدوا مع الله واختص كل انسان بملك من هؤلاء يتولاه ويحرسه بعنايته . والى جانب هؤلاء الملائكة ، وجد الشياطين : شيطان لكل واحد من البشر . واله الشر الذى يسيطر أعوانه هؤلاء ، هو الذى خلق كل سيئة من عمل الانسان ، وكل دابة على الأرض مؤذية مثل العقرب والثعبان والجراد والنمل ، وبرد الشتاء القارس ، والظلام والجريمة .

وهذه العقيدة الفارسية ، التى اختلطت بكثير من الأغانى والقصص والأساطير ، كانت سهلة الفهم ، خيـــالاتها قريبـــة الى أمزجة النـــاس ومحسوساتهم . فهى تركز على النور وتعده أكبر الخير ، وتحذر من الظلام وتعده أكبر الشر ، ومن من البشر لا يحب النور ولا يخاف من الظلام ؟ ولا سيما فى بلاد تنضح أرضها بالبترول ، وتشمل اللهب تجعل قطعـــا من الليل تتبدد وكأنها شياطين تهرب وتفر ؟!

وماذا تصنع اليهودية بازاء هذه الروحانيات والسبحات القـــادمة من آسيا : أقصى أرضها وأوسطها ، وأدناها ؟..

كل هذه الأفكار ساورت اليهود بعد عودتهم . فراح الراشدون منهم، من كاهن ، الى نبى ، الى راء يفتشون حولهم عن سر تعاستهم وهوان حالهم. ويراجعون عقائدهم ، ليدخلوا اليها ما يجعلها أداة صالحة لتقويم شعب، لا لتقويضه .. يدخلوا اليها شيئا يغنيهم عن معبودات وأوثان القـــبائل المنتشرة حولهم . وينجيهم من المذابح التى تثور فيما بينهم لسبب ، ولغير سبب .. انهم الآن أربعون ألفا ، عادوا من أرض الفرات ، ليلتقوا بحطام ممزق من أهلهم ، لم يستطع الفرار الى مصر ، أو جزر البحر أو أى مكان آخر ..

وما تمناه أنبياء اسرائيل ، وصار يتردد على ألسنتهم هو انتظار نبى مسيح يحمل عنهم ما سلف من ذنوبهم ويطهرهم ، ويفتح أمامهم طريق الخلاص .. كانت أقوالهم ، بشارات بقرب ظهور المسيح عليه السلام . لأن الحاجة مست اليه والظروف أصبحت مهيأة لرســالة تكمل الشريعة وتوضح الناموس الموسوى وتعزز الدعوة الابراهيمية . بعد ان أخفقت أجيال بعد أجيال وأنبياء بعد أنبياء وكهان منهم العظيم ومنهم الصغير ، فى أن يبدأوا مع الشعب اليهودى مجرد الوصية الأولى من وصايا موسى ، ونعنى بها نبذ عبادة الأوثان ، والاتجاه الى اله واحد أحد .

نسمعهم الآن يقولون على لسان مؤلف مجهول ، أضيف كلامه الى

سفر « اشعيا » ابتداء من الاصحاح الأربعين (ويوجد مؤلف ثالث أيضا لهذا السفر مجهول أيضــا من الاصحاح ٥٦ الى ٦٦) : « طيبوا قلب أورشليم ، ونادوها بأن جهادها قد كمل ، أى اثمها قد عفى عنه ، انها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطايا .. صوت صارخ فى البرية ، أعدوا طريق الرب ، قوموا فى القفر سبيلا لالهنا . كل وطأ يرتفع . كل جبــل وآكمة ينخفض ، ويصير المعوج مستقيما والعراقيب سهلا ، فيعلن مجــد الرب .. »

وفى هذا القسم من السفر للمؤلف المجهول ، تظهر كلمة الفــداء فى الآية ١٤ ، ثم تتكرر . ويظهر معنى الخلاص الذى هو لب المسيحية .

ومن أجل هذه الارهاصات أو البشارات تمسك المسيحيون بعد ذلك بالتوراة أو بالعهد القديم ، لان فيها ما يدل على قرب ظهور المسيح عليه السلام .

وسوف نعرض للصراع الهائل الذى دار بين اليهود ، وبين المسيح عليه السلام عندما ظهر . وكيف لجأت المسيحية الى شعوب أخرى تحمل اليهم عقيدتها ، وتركت لليهود عقيدتهم .

ولم تكن مجموعة أشعياء [1] هى وحدها التى تضمنت هذه البشارات ولكنها ترددت بعد ذلك فى الأسفار التــالية تاريخيــا لفترة العودة ، وما بعدها .

الاحداث تتعاقب :

اقتصر الوجود اليهودى بعد العودة من الأسر على أورشليم وحدها ، وقرى قليلة حولها . وذلك لقلة عددهم . ولأن أهل فلســطين الأصليين

(١) توجد أسفار كثيرة تداخلت فيها أفكار وأوراق المؤلفين لا علاقة لهم بصاحب السفر . وربما فصلتهم عنه سنين ، وقرونا . وتجد هذه الظاهرة بوضوح فى المجموعة التى وضع عليها اسم زكريا . فبعضها أقدم منه وبعضها له ، وبعضها جاء من بعده .

عادوا الى ما كان بيد اليهود واستولوا عليه ، كما ان الأشوريين والبابليين أسكنوا من بلادهم قبائل هجّروها من بلاد الرافدين . ولولا حماية الفرس لعودة هؤلاء اليهود القلائل ، لتخطفتهم القبائل العربيـة فى الطريق ـ والرحلة استغرقت ثلاثة أشهر بين العراق وأورشليم ـ أو لسحقتهم قبائل فلسطين القوية .

ولمـا تولى دارا الأول حكم الفرس تابع حماية الوجود اليهودى فى أورشليم . وقد عكف اليهود على توراتهم ، وعلى شئونهم الروحية يراجعون تفاصيلها ، بعد ان حمل عنهم الفرس مسئولية الادارة ، وأصبحت أورشليم مستعمرة فارسية . ولنسجل الآن تواريخ الأحداث حسب تعاقبها فى القدس وما حولها .

عام

٥٣٨ قبل الميلاد انتصر الفرس على البابليين

٥٣٦ ق.م السماح لمن أراد من يهود السبى أن يعود الى أورشليم . وكان حاكمهم اسمه زروبابل ، ونبيهم يوشيا .

٥٣٤ ق.م بدء بناء الهيكل فى وجه معارضة السامريين (بقايا يهود الدويلة الشمالية)

٥١٦ ق.م افتتاح المعبد المجدد للعبادة

٥١٠ـ٤٦٠ ق.م كان يحكم مبعوثون من فارس أورشليم . وقـد عادت العقيدة اليهودية الى التدهور فى نفوس اليهود .

٤٤٥ ق.م الفرس يوافقون على ترميم أسوار أورشليم . وقد قام نحميا بهذه المهمة ، تحت حماية فارسية .

٤١٥ ق.م موت نحميـا ، وبداية عصر الحاخامات ، أو الكهنة . وكان كبيرهم يتولى السلطة الدينية فى أورشليم ، ويحكم من خـلال السلطة الفارسية .

٤١٥–٣٧٣ ق.م تولى ثلاثة من الكهنة المسئولية ، وآخرهم (يوحنان) قتل أخاه ليستأثر بالمنصب . وأوقع الفرس غرامة مالية كبيرة على أورشليم لخلافاتهم .

٣٥٠ ق.م قامت اضطرابات فى أورشليم وفى سوريا فقدم جيش فارسى بقيادة ملك الفرس (ارتاكزرسيس الثالث) ، ودمر المعبد ، وساق عديدا من سكان أورشليم وقراها الى المنفى مرة أخرى .

٣٣٣ ق.م قدوم الاسكندر المقدونى بجيوشه الجرارة الى المشرق ، وتدمير دولة الفرس ، فى معركة « أسوس » وبهذا وجدت اسرائيل نفسها تحت حذاء جديد .

٣٢٣ ق.م بعد وفاة الاسكندر ضمت أورشليم ويهوذا كلها الى امارة سوريا .

٣٢٠ ق.م قاد بطليموس ليجوس جيشا ، لتأديب أورشليم ، واستولى عليها ، ونفى الى مصر أعدادا كبيرة من كهانها وسكانها .

٣٠٢ ق.م عاد بطليموس بقوة مصرية لتأديب أورشليم ، وكل مكان كان يسكنه اليهود فى يهوذا .

٢٨٥ ق.م أمر بطليموس فيلادلفوس بترجمة التوراة الى اليونانية ، وظلت أورشليم تحت حكم البطالسة .

١٧٥ ق.م أقام البطالسة ملعبا اغريقيا فى أورشليم .

١٦٥ ق.م كان قد حدث نزاع فكرى بين حكام فلسطين من خلفاء الاسكندر المقدونى واليهود . فقد حاول الاغريق فرض ثقافتهم فى أورشليم ، وأمروا بجمع نسخ التوراة واحراقها ، كما فرضت عقوبة الاعدام على كل من توجد معه نسخة منها . وأقاموا فى داخل المعبد

تماثيل آلهتهم وطالبوا اليهود بعبادتها فحدث تمرد وعصيان قادة يهوذا الميكابى الذى تمكن من تطهير المعبد . وهذه أول مرة ينظم فيها اليهود قوة محاربة ، بعـــد أن أعادهم الفرس من بابل الى أورشليم . وبهذا بدأ حكم سلالة الميكابيين الذى ظل حوالى قرن من الزمان .

وألف اليهود كتبا تدون احداث هذه الفترة . ومنها ان جمعا من اليهود أخذوا الى ملعب الاسكندرية الكبير ، وأطلق عليهم خمسمائة فيل لتهلكهم تحتأقدامها . ولكن الافيال رفضتواتجهت الى بطليموس الرابع .. وهذه طبعا قصص ترفع روح اليهودالمعنوية

٦٥ ق.م استولى الرومان على سوريا . وبعد عامين استولى القـائد بومباى على أورشليم وأصبحت تابعة لروما ، ومن بعده أصبح يوليوس قيصر سيد شرق البحر المتوسط .

ومن هذا الاستعراض السريع للقرون الخمسة التى تلت عودة بعض اليهود من السبى البابلى الى أورشليم ، ومحاولتهم تعميرها بعـددهم القليل ، نجد المدينة المقدسة ــ مدينة داود ــ خضعت بالتوالى لثلاث قوى : السلطة الفارسية ، ثم السلطة الاغريقية ، ثم السـلطة الرومانية . ونجد المدينة خضعت للغزو مرتين ، وحلت بمعظم سكانها من اليهود عقوبة النفى الى بلاد الرافدين ، والى مصر أكثر من مرة .

وقد اقتنع اليهود بمرارة الواقع الذى فرض عليهم . فآثر فريق منهم الاقامة والاندماج عبر الفرات ، وفى مصر ، وفى جزر البحر المتوسـط . وعندما أراد يهود أورشليم أن يشاركهم يهود مصر فى الاحتفال باعادة بناء المعبد بعد تدميره أكثر من مرة ، تردد المدعوون ، ثم امتنعوا عن الذهاب . ويبدو أن المصريين لم يطلعوا على ما كالته اهم التوراة من الشـتائم . وما حملته سطورها من الحقد الأسود على المصريين ، على أن مصر لم تقدم لهم الا خيرا سواء فى قدومهم الأول عندما دعاهم يوسف الصديق ، وفى

اقامتهم فيها أربعة قرون وبعض قرن ؛ أو فى التجائهم اليهــا كلما داست سنابك الغزاة مدينتهم وقراهم الصغيرة فى فلسطين .. اننا نجد التوراة فى مناســبات تكيل المدح البابليين ، رغم ما ألحقوه بهم من دمار وتقتيل ، وكذلك صنعت بالفرس الذين أفقدوهم استقلالهم نهائيا ، وسنرى تذللهم للرومان بعد حين .. والموازنة بين موقف فرعون وشعبه فى فترة عابرة من فترات التاريخ ، وهو مجرد الزامهم بالعمل ، لا يقاس بما حل بهم بعــد وجودهم فى مصر ؟! ستظل هذه الأحقاد اليهودية ضد مصر والمصريين لغزا يحير الباحثين ، ولا تجيب عليه أى دراسة متعمقة متأنية لتاريخهم منــذ وجد هذا التاريخ حتى الآن . ونرى هذا الميراث من الكراهية اليهودية لأبناء النيل يستمر على مر القرون والأجيال حتى ينفجر فى القرن العشرين بالصورة الكريهة البشعة التى نشهدها الآن .

ربما قيل أن مصر بلد كبير ، وان قوته الضــاغطة على مر التاريخ ، تكون حاجزا طبيعيا بين اليهود ، وتحقيق أطماعهم فى تحقيق الدعوة التى دسوها فى توراتهم ، وهى انشاء دولة لهم تمتــد من النيل الى الفرات . ولكن هل كانت مصر البلد الكبير الوحيد الموجود فى الشرق الأوسط ؟ لقد قامت فى المنطقة دول عظمى كثيرة ، رأينا منها دول البابليين والأشوريين والحيثيين والفرس والاغريق والرومان والعرب والأتراك العثمانيين . ثم جاء الى فلسطين بعد ذلك الانجليز والفرنسيون . فما نقم اليهود على عهد من هذه العهود نقمتهم على مصر.

ان بعض التفسير ـــ وليس كل التفسير ـــ لهذه الكراهية اليهودية ، هى ان الدول التى ذكرناها بادت وزالت ، ولكن مصر ، كانت وما تزال باقية ما بقى نهر النيل يجرى ، ويمد شعبه بمقومات الحياة . هــذه معالم العقدة التى تسيطر على العقل اليهودى من أقدم عصوره . ولا قبل للمصريين بعلاج هذه الحالة الا أن يكفوا عن أن يكونوا دولة كبيرة متحضرة ، قادرة على مقاومة الغزاة واستيعابهم واذابتهم ، وبقائها من بعدهم تنمو وتنمو ،

وهى فى مكانها الخطير ، قلب العالم ومركز مواصلاته الكبرى ، ومدرج حضارته ، ومعقد آمال المنطقة التى تتوسطها مصر فى حوض البحر المتوسط وشرق آسيا وافريقية كلها . اليها لجأت الأديان الكبرى ، وعلى شواطئها ، والى ربوعها هرع المتعبون المكدودون من أبناء الشعوب القريبة ، بعد أن رزأتهم الأحداث وألمت بهم الغير . وكان اليهود معهم ، كما رأينا ، وكما سنرى ..

الفصل الثامن

ظهور المسيحية

تركنا البطالسة فى الفصل الماضى يبسطون سلطانهم على فلسطين ، ومنها أورشليم وقد ظلت هذه السيادة المصرية مبسوطة على الأقاليم والمدن المكونة للشام الكبيرة مدة ١٢٠ سنة (٣١٨ – ١٩٨ ق.م) . وقد ترك الحكم الاغريقى بصمات واضحة فى الحياة اليهودية . فنشأت منهم ناشئة تسخر من الكهان ، ومن المعبد ، ومن حياة التقوى المزيفة التى يدعو اليها رب اليهود ، وأغرقوا فى اللهو ، وفتنتهم فلسفة اليونان ، بما تحمل من شك ، ومن دعوة للمجادلة ، واغراق فى اللذائذ الدنيوية ، والألعاب الرياضية .

وفى صراع السيادة بين السلوقيين أصحاب القوة فى شمال فلسطين والبطالسة أصحاب القوة فى جنوب غرب فلسطين ، أصابت أورشليم نكسة حادة . اذ كانت تنحاز لفريق دون فريق ، وكان المنتصرون القادمون من سوريا يذبحون ما طاله سفيهم من اليهود ، وينهبون المعبد ، ويخلونه من كنوزه . وفرضت على اليهود العبادة الاغريقية ، وتحول هيكل سليمان ، الى معبد اغريقى . وكل من يضبط من الأطفال مختونا يحكم عليه وعلى أمه بالاعدام . وكم من أمهات وأطفال ألقى بهن من فوق الأسوار . وكل من احتفل بأعياد اليهود أو امتنع عن العمل يوم السبت يعدم .. واحرقت كل نسخة من التوراة ، وكل ورقة تتصل بها ..

وفى علاقة البطالسة باليهود ينبغى أن نذكر أنهم ساروا على سيرة الاسكندر المقدونى وشجعوا هجرتهم من أورشليم وما حولها الى

الاسكندرية ، وأعطوهم حقوقا مساوية لما لليونانيين من حقوق ، وتبالغ بعض المراجع فتقول ان هذه الهجرات اليهودية الى مصر توالت حتى بلغت فى القرن الأول للمسيحية مليون اسرائيلى كان معظمهم فى العاصمة (الاسكندرية) وقد تعلم هؤلاء اللغة السائدة ، وهى اليونانية ، ونسوا لغتهم الأصلية . وكانت التوراة اليونانية بعد ترجمتها هى مرجعهم .

وهكذا نجد اليهود يعودون الى مصر ، لا فى مراعى الشرقية ، وشواطىء المنزلة كما كانوا عندما قادهم سيدنا موسى الى خارجها .. يعودون هذه المرة ، مطاردين من قوات غزو تكاثرت عليهم ، وفتن واضطرابات فيما بينهم كادت تطحن وجودهم طحنا .. ولم يعودوا رعاة منعزلين ، فقد تعلموا من الفينيقيين التجارة ، وأجبرتهم ظروفهم على الانزواء فى الحوارى الضيقة ، التى تساعدهم على حياة الخفاء بوصفهم غرباء عن البلاد ، وما تلبث أن تنقض عليهم قواتها النظامية ، أو تحركاتها الشعبية .

واذا كنا شككنا فى عدد المهاجرين اليهود الى الاسكندرية مرة أخرى، كما شككنا من قبل فى عدد الخارجين منها بقيادة موسى ، فان هناك اتفاقا على أن عددهم كان كبيرا وكانت الاسكندرية تتسع لهم .

والقرن السابق لظهور المسيحية ، شهد تغييرا فى مراكز القوى العالمية، ظل يأخذ وضعه فى عملية تطور استغرقت وقتا ليس بالقصير .

يقول كتاب : « مد التاريخ » (١) : فى أقل من خمسين سنة تغير ميزان القوى العالمية تغيرا عظيما . فقد انتصر البحر فى الشرق الأوسط على القارة . كانت العواصم الكبرى فى المنطقة هى منف ، وطيبة ، وبابل ، ونينوى . وقد انتهى دورها الآن ، وحلت محلها الموانى الكبرى : الاسكندرية ، وانطاكية ، وقرطاجنة ، وروما .

---

(1) The Tides of History by Jacques Pirenne

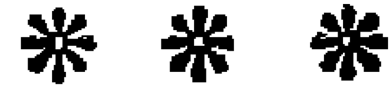
ان الحياة الاقتصادية للشرق ، لم تعد تعتمد على الطرق البرية ، التى تعبر آسيا وأفريقية وأوروبا . كانت هذه الطرق من آسيا تعبر جزيرة العرب مساحلة من الجنوب شمالا ، أو تعبر العراق . فقد بدأت السفن تقوم بمهمة النقل من آسيا واليها عبر السويس والبحر الأحمر . وفى أقصى الشرق تحرك العملاق الصينى ليأخذ مكانه . وفى وسط العالم قامت روما لتصبح دولة ثم امبراطورية هائلة .

وكانت الاسكندرية أكبر موانى البحر المتوسط ، أنشأها الاسكندر ونماها البطالسة وأخذت مكانها الآن فى صراع القوى العالمية . ومن أجل طرق التجارة ، بدأت المعركة بين الموانى الكبرى : انطاكية وصور وصيدا ، والاسكندرية ، والتسابق للسيطرة على جزر شرق البحر المتوسط ومنها قبرص ورودس .

واذا بحثت عن أورشليم فى المعركة الضارية الدائرة من أجل البقاء بين المدن والشعوب . لم تكن أورشليم قبيل ابتداء المسيحية ، ومنذ مر بها ابراهيم الخليل قبل خمسة وعشرين قرنا الا كرة تتقاذفها أقدام الغزاة . واذا كانت سيرتها ترددت على الألسنة ، فلأن كتابا أورد اسمها ، وكرره ، وسجله .. أجل هذا الكتاب هو الذى عاشت فيه أورشليم ، ولكنها لم تعش أبدا فى مدونات الدول والمدائن الكبرى ، التى خلفها المصريون والبابليون والأشوريون والفرس والاغريق .. أجل كتاب هو صاحب الفضل فى وجود أورشليم على الذاكرة حتى هذه الفترة . وهذا الكتاب ألفه عشرات ، وربما مئات الأفراد : ان اسمه التوراة . وما لبثت أورشليم أن بدأت بداية جديدة من خلال مأساة هى أروع مآسى التاريخ كله .. مأساة ظهور السيد المسيح فيها لثلاث سنوات ، جددت ذكرى الأنبياء فيها ، واضافتها بعد ذلك لنبى كان فى ضمير الغيب وهو محمد بن عبد الله .

واذا كنا قد أشرنا للهجرات اليهودية الكثيفة الى الاسكندرية ، فقد

آلقى عليهم « ديورانت » نظرة فاحصة ، ووجد أن حياتهم الجديدة فى مصر (التى ابتلعت الاغريق واذابتهم فيها) لم تكن بغير فائدة . فقد أضافوا فيها الى التوراة بعض أسفارها الرائعة ، كسفر الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الابوكريفية (١) .



ولنعد الآن الى أورشليم .. لنجدهم ظفروا فى عام ١٤٢ ق.م بحاكم وكاهن له عزم قوى ، وهو سيمون المكابى ، الذى حاول أن يمد رقعة الأرض التى يعيش عليها اليهود بالسيطرة على مدن أخرى . فقد وصلت حروبه الى آدوم ، ومؤواب ، والجليل ، وامتدت فتوحه السريعة الى غزة ورفح وما لبث الأمر بعد سبعين سنة أن دب خلاف أدى الى احتكام ورثة الحكم فى أورشليم الى القائد الرومانى بومبى ، الذى كان واقفا على رأس جيوشه الجرارة فى دمشق . فوجد ان الحل الأمثل هو أن يتقدم هو جنوبا ، ويلتهم الغنيمة ، فاذا أورشليم تستسلم له بعد معركة يسيرة . والذى سهل سقوط المدينة أن القائد الرومانى كان يعلم أن اليهود لا يعملون يوم السبت ، فهاجم حصونهم فى هذا اليوم ووجدهم يصلون فى الهيكل فذبح منهم ١٢ ألفا .

واختار الرومان لليهود حاكما منهم اسمه (هيرود) بن انتباتر .

ويعد مؤرخو اليهود هيرود هذا ثالث ملوكهم بعد داود وسليمان . وكان هذا الحاكم يهوديا بالاسم . ففى عروقه ، كان تجرى دماء عربية ، ورثها عن أبيه وأمه معا . فهو من سلالة أخلت بتعاليم التوراة ، وقت ان كان هذا النوع من الكفر مباحا وتزاوجت مع أجناس أخرى منها العرب . وقد عاش هذا الحاكم فى وقت كانت عبادة الأوثان هى السائدة لدى

---

(١) هذه الاسفار كانت أجزاء من التوراة اتفق على استبعادها من العهد القديم ، وان كانت الترجمة اللاتينية تضمنتها ، وقد اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية . ومعنى كلمة « الابوكريفا » الخفية . ومنها سفر الحكمة وسفر المكابيين الاول والثانى ، وسفر اخنوخ .

الاغريق الذين خلفوا آثارهم فى فلسطين ، ولدى الرومان الذين يحتلون البلاد الآن ، وكانوا فى طريقهم الى مصر ، لتبدأ قصة أنطونيو وكليوبترا كتابة فصولها الشائقة .

والطريقة عند هيرود للتمكين لنفسه من الحـــكم سهلة . فان حمل الألطاف والهدايا الى القادة والساسة فى روما وفى مصر تذلل كل عسير . وكانت فلسطين وقتها مليئة بقطاع الطريق واللصـــوص ، فأعد حملات بوليسـية للقضاء عليهم . وليكون كل مورد من حقه هو ، لا يغتصب منه لص شيئا . واذا كان هناك وارثون لحكم آورشليم من الأسر القـــديمة أحد ، فعلاجهم ميسور ، وهو قطع رقابهم . وما دام الرومان قد ضموا تحت حكمه كثيرا من المدن الفلسطينية التى تدين بالعقـائد اليونانية ، فليعمل على ارضـــائهم باقامة التماثيل لمعبـــوداتهم ، وتشجيع حفلاتهم وأعيادهم ، ودفع اليهود دفعا للاشتراك فيها ، والقضاء على المتزمتين من الكهان الذين يرون ان « يهوه » أحق بالرعاية ، وذبائح الهيكل أولى أن يحتفل بها . واذا كانت التماثيل الاغريقية والرومانية العارية شعار الحضارة فى ذلك ، فلماذا لا تقام فى أورشليم ، وان صدمت الاتقياء من اليهود .

والهيكل .. الهيكل الذى أقيم فى أورشليم بعد عودة السبى البابلى ، كان ضيقا تنقصه الفخامة ، فليهدمه ، ليقيم معبدا جديدا واسعا مزخرفا مكانه . واذا احتج أحد المتمسكين بتراث السلف ، فليدفنه تحت أنقاض الهدم . سويت قطعة منه ، وبدأت اقامة المعبد ، على طراز لم يكن سليمان يحلم به ، ولا الذين جددوا البناء بعد هدمه أكثر من مرة . فنقلت اليه كتل الأعمدة الفخمة ، وأقيمت بوابات مصفحة برقائق الذهب والفضة ، ومن ورائها قدس الأقداس بستائره المزركشة . ونقل التابوت وفتح ، فلم يكن فيه شىء مطلقا باعتراف « يوسفوس » مؤرخهم السكندرى الذى كتب تاريخه ، وهو قريب الى حد ما من هـــذه الأحداث . وقد دخلت زخارف العصر فى البناء ، ومنها نسر فى مقدمة البناء خلافا لمـا نصت عليه

الشريعة بمنع الصور المنحوتة . ولكن هذا النسر كان شعار الدولة الرومانية ، فوجب وضعه زلفى وترضية .

ولكثرة النساء اللاتى تزوجهن هيرود ، فقد أنجب أربعين ولدا . ولكنه قتل وسجن بعضهم لأنهم تآمروا عليه . ولما بلغ التاسعة والستين من عمره مات وهو مكروه من جميع الناس ، الا الرومان طبعا ، وكان ذلك عام ٤ ق.م . وكان الهيكل وقتها ما يزال يبنى . ولم يبق له من أبنائه الاربعين الا ثلاثة قسم بينهم مملكته قبل موته . وكان سكان أورشليم فى أيامه قد قاربوا المائة ألف . وسكان القرى حولها يشتغلون بالزراعة ، ولغة الشعب اليهودى الارامية ، ولغة الموظفين اليونانية . أما الكهنة فكانوا يفهمون العبرية القديمة التى لم يعد يفهمها أحد . ويقول المؤرخ اليهودى يوسفوس عن ذلك الوقت : « اننا لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش فى بلد عديم السواحل . ولا نميل الى الاشتغال بالتجارة » . وواضح من هذا الكلام أن حروب اليهود لامتلاك موانى على البحر المتوسط مثل صور أو أشدود أو غزة باءت كلها بالفشل . اذ ان الفلسطينيين تمسكوا بهذه السواحل . وكانت صور بالذات معقلا قويا ، تصد أى مغير عليها .

انقسامات :

كان من سلطة الحاخام الأكبر أن يختار من الكهنة سبعين شخصا يكون مجلس « السنهدرين » وهم أصحاب السلطة على جميع اليهود ، سواء أكانوا مقيمين فى نطاق وجود هذا المجلس ، أم فى أى مكان آخر . ولكن هيرود حدد سلطة « السنهدرين » بمباشرة النظر فى جرائم اليهود المتصلة بالدين فقط ، واصدار أحكام تصل الى الاعدام ، ولكنها لا تنفذ الا بموافقة السلطة المدنية ، أى الحاكم الرومانى . وفى هذا المجلس كان يوجد المحافظون . والصدوقيون ، نسبة الى الكاهن صدوق ، وهؤلاء كانوا يقصرون ايمانهم على أجزاء من التوراة الحالية دون أسفار الأحاديث والقصص الشفوية والأمثال . كما كان يوجد « الفريسيون » وهم الذين

ارتابوا فى خلود الروح ، وكانت دعوتهم الى التمتع وامتلاك ما تصل اليه أيديهم من مغانم الحيـاة . كما كان يوجد الصـابئة الذين يكثرون من الاستحمام ، وهذه الكلمة تحريف لكلمة السابحة ، من السباحة فى الماء . وكان عددهم قليلا ، الا أن عقائدهم كانت متأثرة الى حد ما بالبرهمـة والمجوسية . وكانوا يعيشون عبادا زاهدين تطول أعمارهم الى مائة عام ، وثروتهم جماعية ، ومن تقاليدهم ألا يتكلموا أثناء تناول الطعام وملابسهم دائما بيضاء ، ولغرابة عقائدهم ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، كأصحاب دين مستقل . مثل ما ورد فى سورة البقرة : « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم » ، وتكرر ذكرهم فى سورتى المـائدة والحج ، وكانت دعوتهم الى السلام ، والمحبة خير تمهيد للمسيحية .

وقد انتخب كاهن اسـمه « هلل » رئيسـا لمجلس السـبعين أو « السنهدرين » مدى حياته وظل الى العـام العاشر الميلادى عند ما توفى . وقد أجاز هيرود الحاكم اليهودى وجود « هلل » حاخاما أكبر ، لأنه كان يعارضه . ثم ظلت رياسة هذا المجلس فى سلالته بعد تشتت اليهود ، ولأربعة قرون تالية . وكان « هلل » هذا من الجرأة بحيث غير فى شريعـة موسى الواردة فى سفر التثنية . فقد نصت على سقوط جميع الديون بعد سبع سنوات . وهو ما يسمى بحكم الابراء . وبهذا تحول هيكل سليمان الى مصرف يقرض الناس ، ويضمن الديون ، ويقوم الكهان بهذه المهمة . ومن هذه اللحظة بدأ تدريب اليهود على الأعمال المالية ، وظلوا يتابعون عملية المصارف خلال الألفى سنة التالية ، بعد خروجهم من فلسطين ، حتى جمعوا ثروات هائلة .

واذا كان واحد من كهنتهم قد وجد أن فى استطاعته أن يغير الشريعة فى ذلك الوقت ، فما ذلك الا لأنهم وقتها كانوا يعلمون مصدرها . أو بالقليل مصـدر الـكثير مما جاء فى التـوراة ، وأنه من صـنع كهـان مثلهم

على مر خمسة عشر قرنا . وربما كان جعل الكهانة العظمى ميراثا ، من الأمور « العاقلة » فى تاريخ اليهود . فقد أدى التنافس بين اثنين على هذا المنصب ، أن قضم أحدهما أذن منافسه ليحول بينه وبين ما يريد . وذلك لأن رئيس الكهنة لا ينبغي أن يكون مشوها ، ومن التشويه أن يكون بأذن واحدة !!



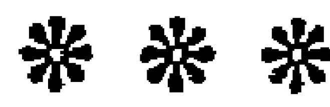
فى قرية صغيرة تبعد بحوالى ثمانى كيلو مترات جنوبى أورشليم ، ولد طفل ولادة معجزة .. كان اسم القرية بيت لحم ، وكانت هى مريم ، وكان الطفل ، هو يسوع . وكان الاسم وقتها شائعا بين اليهود ومعناه يهوه . أو معين الرب .

وقيل ان أسرة السيد المسيح انتقلت الى الناصرة بأرض الجليـل . ويقول العقاد فى كتابه عن المسيح ، ان الجليل كانت اقليما مفتوحا لجميع الأمم الشرقية والغربية ، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم فى زمن من الأزمان . ومعنى الجليل بالعبرية : الدائرة لأنها اتسعت لكثيرين من الذين يحال بينهم وبين الاقامة فى بلاد أخرى من فلسطين ولا سيماالجنوب. وكانت الجليل جزءا من أقاليم الشاطىء الشمالية التى عرفت فى التـاريخ القديم باسم كنعان ... وقد امتازت كنعان قديما بالموانىء الصالحة ، منها صيدا وصور وحيفا . وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر فيها ، اذ لم تكن فى الشواطىء الجنوبية موانى ذات أهمية . وكانت العلاقة بين مملكة يهودا وبلاد كنعان علاقة حذر وجفاء . وان كان اليهود تعلموا منهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات وحدثت غارات فى مملكة يهودا على أرض الجليل لاسترداد اليهود المقيمين فيها ، لأنهم سرعان ما كانوا يهجرون يهوديتهم وطقوسها الى طقوس الكنعانيين .

وقد اتفقت آراء المؤرخين على أن جمهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عربا يتكلمون اللغة الأرامية ، وكانوا اليهود منهم يلفظون اللغة العبرية

بلهجة أجنبية . وكان من الأمثال السائرة فى أورشليم أنه « لا خير يأتى من الجليل » وفى انجيل يوحنا أن رجال الهيكل فى أورشليم ، عند ما بلغتهم دعوة المسيح كانوا يقولون متهكمين : « انه لم يقم نبى قط من الجليل ».. وقالوا أيضا : « أمن الناصرة يجىء شىء صالح ؟ » .

وهكذا تبدو لنا البيئة التى ولد فيها المسيح أنها بيئة تسامح ، ورحابة أفق ، ومحبة . وهذه صفات تختلف بطبيعتهـا عن مجاورى الهيكل فى أورشليم الذين كانوا صورة للتعصب والجمود .



الا أن الأمور ، لم تسر هكذا بين سكان هذه المنطقة من فلسطين .. بين متسامح ، ومتشدد . وذلك لأن الشام الكبير كان محتلا بجنود الرومان ، ومركز قيادتهم فى دمشق . وكانت العبادة الوثنية التى تأتى بتطبيقها تعاليم من روما تكون فى نفوس اليهود غضبا مكبوتا .. فاذا كان من طبيعتهم أن يتأثروا بالمعبودات التى حولهم ، وهذا ما دل عليه تاريخهم خلال الخمسة عشر قرنا الماضية ، الا أن فرض عبادة معينة عليهم ، كان أمرا آخر . ولهذا مالوا الى التمرد على سلطان الرومان .

وحدث فى العام الرابع قبل ميلاد المسيح أن تحركت حملة تأديبيـة رومانية وانتهزت تجمع اليهود فى أحد أعيادهم ، وهاجمتهم بأسلحتها هجوما عنيفا قتل فيه كثيرون من اليهود ، وأحرقت أروقة الهيكل ، ونهبت كنوزه . واختل الأمن اختلالا كبيرا ، فتحركت قوة كبيرة من سوريا ، اجتاحت مدن اليهود وقراهم ، وصلب قائدها ألفين من اليهود ، وأخذ ثلاثين ألفا أسرى باعهم فى أسواق الرقيق .

يوحنا المعمدان .. أو يحيى المغتسل :

كل الظروف تهيأت للرسالة الكبرى التى توشك أن توجه لليهود ، تجديدا لرسالة موسى التى مضت عليها فترة من الزمن ، تبلغ خمسة عشر

قرنا ، واكمالا لها بعد أن قامت دول وسقطت دول ، وتغيرت طبائع اليهود ولفظت قلوب معظمهم دعوة التوحيد ، وذابت الأغلبية الكبرى منهم فى الشعوب المحيطة ، بعقائدها ومذاهبها ..

وظهر من بين اليهود ناسك صوفى اسمه يوحنا ، وأمه اليصابات قريبة مريم ، أم المسيح . وصف مرقس ومتى يوحنا بأنه كان يرتدى ثوبا من الشعر ، ويعيش على الخبز الجاف وعسل النحـــل ، ويقف على شاطىء الأردن ، يدعو قومه الى التوبة . ولم يكن يوافق على أن مجرد التعميـــد مرة واحدة يكفى لكى يكون الانسان صالحا .

وكان لسان يوحنا حادا ، ونذره قوية لاذعة .. كان يقول لليهــود الذين يتجمعون حوله على شاطىء النهر :

« يا أولاد الأفاعى ، من آراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم : لنا ابراهيم أبا . لأنى أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم » .

ويمضى يوحنا مبشرا بالمسيح وقائلا « كما ورد فى انجيل متى » :

« أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى ، هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه . هو سيعمدكم بالروح القدس ، ونار ».

وولد المسيح ، وهيرود ملك اليهود ، يدين للرومان بالطاعة . وقد سمع من المجوسى أن يسوع المسيح يوشك أن يظهر ، وأن مولده فى بيت لحم . والمجوس كانوا مشهورين بالسحر . حتى أن هذه الكلمة فى اللغة الانجليزية اشتقت من اسمهم . وصدق هيرود هذه النبوءة ، فأمر بجمع الأطفال الرضع حتى سن عامين وأمر بقتلهم ، ولم يكتف بأطفال بيت لحم ، بل ضم اليهم الجيرة القريبة .

وقد نجا يسوع من هذه المجزرة المنكرة .. أخذته أمه ، تركب حمارها وذهبت به الى مصر . وهـــذه الرحلة تثبت أن الحقد الذى حمله اليهود للمصريين كان من جانبهم . وهو حقـــد قاتل مخز . ذكرنا لمحـــات منه

فيما مضى .. أما مصر ، فكانت كعهدها دائما ، رحبة الصدر ، مضيافة ، متسامحة ، شأن شعوب الحضارة الأصيلة . وهـذه هي تفسح صدرها لزائرين : المسيح وأمه ؛ يقيمان فيها وادعين ، ويتنقلان في أرضـها حتى الصعيد الأعلى .

وكما كانت مصر معتصما وموئلا لابراهيم وسلالته حتى موسى . وعلى أرضها تلقى رسالته . فنحن نراها هنا تحتضن داعي المسيحية ، حتى يأذن الله ، ويبلغ رسالات ربه ..

وكذلك صنعت بدعوة الاسلام ، عند ما بلغتها أول مرة ، وعند ما دهمت العالم دواهي الغزو الساحق من التتار في مشرق الأرض ، وجاءته جحافل الصليبيين من مغرب الأرض .. بالصمود والتضحيات الغالية دفعت مصر الثمن ، وانتصرت عقائد السماء وتوفرت لها الحماية والرعاية .. وهذا قدر مصر ، ودورها على مر التاريخ .

ونجد كتاب الغرب ومؤرخي الأديان لا يعترفون بأن المسيح جاء الى مصر ، ولا يوافقون على قول متى في انجيله : ان يوسف النجار رأى في المنام الخطر فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا ، وانصرف الى مصر . وكان هناك الى وفاة هيرودس . لكى يتم ما قيل من الرب : « بالنبي القائل من مصر دعوت ابني » .

وفي عودة المسيح وأمه ويوسف النجار ، اتجهوا هذه المرة الى الناصرة ، لأن شبهات الحاكم الجديد ــ وكان ابن هيرود ــ كانت ما تزال تحط على بيت لحم .

وتمضى فترة شباب المسيح لا يعرف فيها الكثير عنه . ولكنا نراه وهو شاب يأتي الى نهر الأردن لكى يستمع من يوحنا وينال التعميد على يديه . وقد كشف يوحنا السر الالهي الذى أودعه الله في يسوع ، فصاح به دهشا : « أنا محتاج أن أتعمد منك ، وأنت تأتي الي !! » ولكن يسوع أصر على

أن يعمده يوحنا . وما أن خرج من الماء حتى رأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه ، وصوت من السماوات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت .

ولم يمض وقت طويل على هذا اللقاء بين يوحنا والمسيح ، حتى أمر حاكم منطقة الجليل بالقبض على يوحنا لأنه انتقد زواجه من سيدة كانت زوجة لأخيه ، مع طلاق زوجته الأولى .

وهنا تأتينا فى أنجيلى متى ومرقس ، قصة سالومى ، أو سلامة ، التى رقصت للحاكم رقصا أذهل لبه ، وكانت مكافأتها التى طلبتها رأس يوحنا المعمدان .. وقد كان . وذهب الرجل الصالح ، لأن واحدة من النساء كادت له كيدا محكما ..

لما سكت يوحنا عن وعظه وارشاده ، ارتفع صوت جديد ، هو صوت يسوع المسيح . بادئا مواعظه بالناصرة .. وكانت هذه البلاد كما رأينا من قبل ، قد خلفتها هجمات الرومان التأديبية ، أشبه بالخرائب . الأحياء من أهلها يئنون من جراحهم وجوعهم وعريهم . والقبور اتسعت واتسعت لتضم عشرات الآلاف .. والبؤس الشامل لا تخطئه عين ولا سمع .

بدأ المسيح يقول للناس مبشرا كما ورد فى انجيل لوقا : « روح الرب على ، لأن الرب مسحنى ، لأبشر المساكين . أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى للمسبيين (العبيد) بالعتق ، وللمأسورين بالاطلاق ... وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية » .. وقد لمح المستمعون لهذا الصوت تجديدا لما ورد فى سفر اشعيا ، وغيره من الذين بشروا بكلمة الله تأتيهم لتنقذهم .

وتدريجيا أخذ صوت المسيح بين اليهود ، يحل محل صوت يوحنا المعمدان .. ويعلو ، ويتسامع به اليهود خارج منطقة الجليل . وقد يتساءل بعض الباحثين عن سبب الحدة التى كان يخاطب بها المسيح قومه من اليهود

.. والسبب واضح ، فعلى الرغم من الأرزاء والمحن التى حلت بهم جيلا بعد جيل ، ما تزال عبادة الأوثان أقرب الى قلوبهم . واليها تهوى نفوسهم . وما تزال المعاصى من كل نوع ولون ترتكب على الرغم من نذر من سبق من الأنبياء والكهان الصالحين ... ان المسيح لم يكن فى انكاره هــذه المعاصى ، الا واصفا ما يرى ، وما رآه من قبله .

ولنسمع الى بعض ما قال لهم :

عندما التقى المسيح عليه السلام بكهان اليهود فى معبدهم بأورشليم ، دارت بينه وبينهم مناظرة حادة كشفت عن طبيعة هؤلاء القوم ، وما صاروا اليه بعد خمسة وعشرين قرنا من قيام ابراهيم بدعوة التوحيد ، وبعد خمسة عشر قرنا من قدوم موسى بوصاياه العشر .. قال المسيح لهؤلاء الكهنة :

— انكم مراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل . ويل لكم أيها القادة العميان ، القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشىء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم !!

— أيها الجهال والعميان . أيهما : الذهب ، أم الهيكل الذى يقدس بالذهب.

— من حلف بالمذبح فليس بشىء ، ولكن من حلف بالقربان الذى عليــه يلتزم أيها الجهال والعميان : أيهمــا أعظم : القربان أم المذبح الذى يقدس القربان .

— أيها القادة العميان . يصفون عن البعوضة ، ويبلعون الجمل .

— ويل لكم أيهــا المراؤون ، لأنكم تنقون (تنظفون) خارج الكأس والصفحة ، وهما من داخل حملوا اختطافا ودعارة . أيها « الفريسى » الأعمى نق !ولا داخل الكأس ، والصفحة : لكى يكون خارجهمــا أيضا نقيا .

— ويل لكم أيها المراؤون ، لأنكم تشبهون قبورا مبيضة ، تظهر من خارج جميلة ، وهى من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة ، هكذا أنتم

أيضا من خارج تظهرون للناس أبرارا ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما .

— أنتم تشهدون على أنفسكم ، أنكم أبناء قتلة الأنبياء .

— أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم ؟

— ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة . فمنهم تقتلون ، وتصلبون . ومنهم تجلدون فى مجامعكم ، وتطردون من مدينة الى مدينة ، لكى يأتى عليكم كل دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق ، الى دم زكريا بن برضيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق أقول لكم أن هذا كله يأتى على هذا الجيل .

— يا أورشليم .. يا أورشليم .. ياقاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين اليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا . (كان هيرود وقتها يبنى معبدا هائلا) .

ولما أراد تلاميذه أن يصحبوه لمشاهدة الهيكل قال لهم :

— أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم انه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض . (وقد حدث هذا فعلا بعد أعوام قليلة) .

ثلاثون من الفضة :

ولما آذنت حياة المسيح عليه السلام الى انتهاء ، سخر له القدر تلميذه الثانى عشر — يهوذا الأسخريوطى — كى يشى به ويدل على مكانه مقابل ثلاثين من الفضة .

وقد أوفد رؤساء الكهنة وشيوخ اليهود مع يهوذا الخائن جمعا كبيرا يحملون السيوف والعصى ، وقبضوا على المسيح ، وهرب تلاميذه الأحد عشر . وساقوه الى « قيافا » رئيس الكهنة .

وبدأت محاكمة المسيح . فلما قال لهم : « الآن تبصرون ابن الانسان جالسا عن يمين القوة ، وآتيا على سحاب السماء » . مزق رئيس الكهنة ثيابا ، وحكم على يسوع بالتجديف دون الحاجة الى شهود .. وصاح اليهود من كل مكان : انه مستوجب الموت . حينئذ بصقوا على وجهه ولكموه . وآخرون لطموه .

وكان الحاكم من قبل الرومان هو بيلاطس ، فدفعوا له يسوع موثوق الكتاف ليمضى فيه الحكم .

ويبدو أن يهوذا ندم على خيانته فأرجع للكهنة الثلاثين فضة ، وانتحر .

ولما أراد الوالى الأجنبى أن يطلق سراح المسيح ، لرؤيا رأتها زوجه . ولما يعلمه من أن رؤساء اليهود يتحركون ضده حسدا . رفض الكهنة وصاحوا جميعا : ليصلب . ونادوا بأن وزر دمه يقع عليهم ، وعلى أولادهم. وهم لهذا قابلون . وهذا هو نص الانجيل الذى أراد اليهود المحدثون تحويره بموافقة المجامع الكنسية فى الفاتيكان ، يقول النص — انجيل متى : اصحاح ٢٧ — « فأجاب جميع الشعب ، وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا » .

وظهر السيد المسيح عليه السلام بعد ذلك بثلاثة أيام ، وقابل أمه مريم البتول ، وتلميذته مريم المجدلية .. ثم قابل تلاميذه — أحد عشر تلميذا — ودعاهم للتبشير بدينه بين جميع الأمم . وذلك لأن شعبه اليهودى رفض الاستماع له ، وأراد له الهلاك ، ولولا هذه المجموعة الصغيرة من صيادى الأسماك : لما بقى أحد يحمل عن المسيح رسالته .

الرسالة وموضوعها :

وكل دعوة دينية ، انما توجه نداءها لقوم ، أو لأقوام تحتاج يقظة ضميرهم ، وسلوكهم العام والخاص الى هذه الدعوة .

حقيقة ، ان كلمات الله منذ الأزل لا تبديل لها ، ولهـذا قال المسيح صلوات الله عليه :

« لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس (الشريعة) أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فانى الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل » .

وصلب الدعوة المسيحية ، هى دعوة الى الحب ، والتمسك بالفضائل . وأن تزول طبيعة الافتراس التى عاش بها ولها اليهود . انه كان رقيق الطباع ، شفاف الحديث ، ويريد لقومه أن تلين قناتهم ، ويهبط عدوانهم الى حده الأدنى .. فقد عاشوا بسفك الدماء ، وعاشوا لسفكها .. وتبدأ طقوسهم بسفك دماء البهائم ، وتنتقل الى الأطفال ثم الكبار رجالا ونساء ..

وقد أدت رائحة الموت التى نشروها حولهم بغير حساب ، الى أن تسلط عليهم من لا يرحمهم ، وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يصنعون .

قال المسيح عليه السلام لقومه :

— القتل محرم من قديم .. ولكنه يضيف أن الغضب الباطل مثل القتل .. وأن الذى يرضي غيره بالحمق يكون كمن قتله .

— من أغضب أخا له ، وذهب يتقدم الى الله بقربان عليه أن يترك القربان لا يقدمه ، ويعود ليصطلح مع أخيه .

— من كان عليه دين ، لا يتكاسل فى أدائه أو يأكله بالباطل ، بل يجب أن يؤديه الى الفلس الأخير .

— لا تحلفوا بالسماء — لأنها كرسى الله — ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه .. لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء بل ليكن كلامكم نعم نعم . لا لا .

— العين بالعين والسن بالسن . والمسيح يقول لكم لا تقاوموا الشر . بل

من لطمك على خدك الأيمن ، فحول له الآخر أيضا . ومن أراد أن يخاصمك ، وأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين .

— من سألك فاعطه .. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

— سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك . وأما أنا فأقول لـكم أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم .

— لا تعلنوا عن صدقاتكم . فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ماتفعل يمينك . لكى تكون صدقتك فى الخفاء .

— ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس ، بل يخلص .

— سامحوا الناس ، واغفروا لهم حتى تستحقوا غفران الله .

— لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض ، حيث يفسد السوس الصدأ .

— لا تقدرون أن تخدموا الله والمال .

— الأمم الأخرى (غير اليهود) كانت تهتم بالمال ، والأثرياء . وقد دعا المسيح اليهود الى التقشف فى اللباس ، ودعاهم الى تأمل زنابق الحقل وزهوره كيف تنمو فى ألوانها وبهاء منظرها مما لم يتح لسليمان نفسه فى كل مجده أن يلبس مثله « فلا تهتموا قائلين ماذا تأكل . او ماذا تشرب . أو ماذا تلبس فان هذه كلها تطلبها الأمم (الشعوب الأخرى غير اليهود) » .

— اسألوا تعطوا ، اطلبوا تجدوا . اقرعوا يفتح لكم . ان الله يهب خيرات للذين يسألون . فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا مثله أنتم أيضا للناس .

* * *

من جملة هذه التعاليم ، وما دار فى نطاقها مما ورد فى بقية الانجيل ،

نجد المسيح عليه السلام أراد أن يسير باليهود فى طريق ممهد تنمو على جانبيه أشجار من نوعين :

١ — الحب الذى يتنافى مع الكراهية والأحقاد التى عاشها اليهود . . الحب بغير دماء وآلام ومذابح .. الحب الذى ينقى الجماعة اليهودية من هذا التناحر الذى عاشت فيه قرونا طويلة .

٢ — ألا يعبدوا مع الله المال .. الذهب والفضة .. وقد ارتكب اليهود فى سبيله كل آثام الدنيا .

الحقد الأسود والذهب الأصفر هما العدوان اللذان حاربتهما الدعوة المسيحية فى محاولة جريئة جادة لتطهيرها . ولكن قلوب اليهود كانت كالحجارة أو أشد قسوة فما قبلت شيئا من هذا ، على بساطته ، ونقائه .. وهى لم تكتف برفض هذه الرسالة ، ولكنها صممت على أن تعاقب صاحبها بالموت ، بعد ما أصابوه من أذى ... ثم يأتى من بعد ذلك خلف من الكذابين يقولون : مالنا ولدم المسيح .. اننا أبرياء ولسنا كما ورد فى الانجيل !!

بعد المسيح بقليل :

وقبل أن ننتقل من رأى الانجيل فى اليهود ، نقف قليلا عند رأى بولس الرسول فيهم :

كان بولس (سانت بول) يهوديا من سبط بنيامين . ولد فى طرسوس . وكان اسمه شاول . وقد أرسله أبوه الى أورشليم ليتعلم شرائع اليهود . وشارك فى اضطهاد المسيحيين الذين ساروا وراء المسيح عليه السلام . ثم اعتنق المسيحية ، وأصبح من أكبر دعاتها . وكتب ١٣ رسالة يتحدث فيها عن ايمانه ، وعن أحوال الناس ما عرفهم . ومات عام ٦٦ م .

قال فى رسالة الى أهل روما : « ان اليهود واليونانيين (الوثنيين) أجمعين تحت الخطية ، كما هو مكتوب أنه ليس بار ، ولا واحد .. حنجرتهم قبر مفتوح . بألسنتهم قد مكروا . سم الاصلال (الثعابين) تحت شفاههم .

وفمهم مملوء لعنة ومرارة . أرجلهم سريعة الى سفك الدم . فى طرقهم اغتصاب وسحق . وطريق السلام لم يعرفوه . ليس خوف الله قدام عيونهم » .

وتذكر بولس ما حدث للنبي ايليا مع هذا « الشعب المعاند المقاوم » فقال فى رسالته : « أم لستم تعلمون ماذا يقول الكتاب فى ايليا ، كيف يتوسل الى الله ضد اسرائيل قائلا : يارب قتلوا أنبياءك . وهدموا مذابحك، وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي . لكن ماذا يقول له الوحي حين أبقيت لنفسي سبعة آلاف رجل ، يحنو ركبة لبعل (أحد الأوثان) ... أعطاهم الله روح سبات وعيونا حتى لا يبصروا وآذانا حتى لا يسمعوا الى هذا اليوم وداود (النبى) يقول : لتصر مائدتهم فخا ، وقنصا ، وعثرة ، ومجازاة ، لهم لتظلم أعينهم حتى لا يبصروا ، ولتحن ظهورهم فى كل حين » .

هذه شهادة واحد يصف فى صدق طبيعة قومه اليهود ، الذين انسلخ عنهم وأصبح من أكبر دعاة المسيحية .

نهاية اليهود فى فلسطين :

كانت أورشليم فى القرن الأول الميلادى أشبه بأتون يغلى . الحكم فاسد ، ويتولاه يهود تحت اشراف الرومان . والغلاء والبلاء والمرض والفوضى تسود كل مكان . وأخذت عصابات الجائعين تهاجم أغنياءهم ، حتى حدثت فى يوم واحد من عام ٦٨ م مجزرة قتل فيها اليهود ١٢٫٠٠٠ يهوديا من أهل أورشليم تضم كل أغنيائها . تقريبا . وسفك الدماء ، وصل بهم الى محاصرة حامية رومانية صغيرة وابادتها .

وفى نفس اليوم حدثت فى بلدة قيصرية مجزرة أخرى ، وكانت تضم يهودا ، وغير يهود من أهل البلاد . وقد هزم اليهود ، وقتل منهم فى يوم واحد عشرين ألفا ، وبيع آلاف غيرهم رقيقا . وفى دمشق ذبح أهلها عشرة آلاف يهودى .. ورد اليهود باحراق المدن .

وتحرك الجهاز الحربي الروماني لقمع هذه الفتن . ولم يكن هناك سبيل لاقرار الأمن فى فلسطين الا السبيل الذى حدث فعلا . فقد حاصر الرومان اليهود فى كل مكان ، ومنعوا عنهم الطعام والماء ، وكل من حاول اختراق الحصار أمسك وصلب ، حتى سكان أرض فلسطين زرعت صلبانا ..

واستولى القائد الرومانى « تيطس » على أورشليم ، وأوقد النار فى الهيكل الذى بناه هيرود ، وكان قسم كبير منه مشيدا من كتل الخشب . وما لبث المعبد أن تهاوى كتلا من اللهب والرماد . ومن يأس اليهود الباقين ، ألقوا فرقا تعدم الأحياء منهم ، لأن مصيرهم على أيدى الرومان لا يختلف .

وقد سيق منهم ٩٧ ألفا ، الى ملاعب الرومان فى روما ودمشق وبيروت وغيرهم ، لكى يتسلى بهم مشاهدوا الأسود وهى تفترس الآدميين ... وقدماء المؤرخين — ومنهم اليهودى يوسفوس — أحصى الذين هلكوا فى هذه المجاز بمليون ومائة وسبعة عشر ألفا . الا أن مؤرخين أكثر احتياطا قدروا قتلى اليهود بنصف هذا العدد .

وحدث هذا المشهد الدموى الرهيب بين اليهود والرومان عام ٧٠ ميلادية واستمرت التصفية النهائية بعض الوقت . ولكن هدم الهيكل وتحريقه ، وشتات اليهود الباقين فى أنحاء الأرض ، حولت اليهودية الى المعابد التى تصرح الدول المختلفة باقامته فيها ..

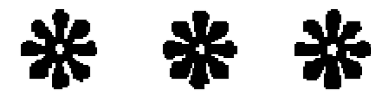
وكان من أهم قرارات الرومان حظر عودة أى يهودى الى فلسطين .

ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى سنة ١٩٤٨ ، ظل اليهود مبعدين عن فلسطين الا المتسللين منهم .

ولعل خير ما وصفت به حياة اليهود القديمة فى فلسطين ما قاله عنهم هـ . ج . ويلز فى مختصر تاريخ العالم أنهم كانوا أشبه بشخص أصر على أن يقيم فى طريق مزدحم ، مهما احتاط أو صاح ، فلا بد من أن تطأه العربات والأقدام المسرعة . ! ومن المبدأ الى النهاية لم تكن مملكتهم فى فلسطين سوى حادث طارىء فى تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقيا .

وحدث فى سنة ١٣٢ ميلادية أن حاول بعض المخلفين من اليهود ، أن يتسللوا الى ما تبقى من خرائب أورشليم ، وأن يحاولوا الشغب على الحامية الرومانية ، وما لبث هؤلاء المتسللون أن أبيدوا وحتى يفقد اليهود كل أمل فى دعوتهم الى المدينة ، فقد حرثها الرومان حرثا ، ولم يبقوا فيها حجرا على حجر . وأقاموا على موقعها مدينة جديدة ، وأعطوا اسم الامبراطور الرومانى فى ذلك الوقت (اليوس هادريانوس) . وقد أقيمت فى المدينة المجددة معابد للالهة الرومانية : باكوس ، وفينوس ، وسيرابيس، كما أقيم مسرح وحمامات وظل الأمر كذلك مدى قرنين .

الا أن الرومان سمحوا للمسيحيين ، وان كانوا من أصل يهودى أن يقيموا فى المدينة . ومن هنا احتفظت المدينة باسمها القديم « أورشليم » فيما بينهم . وللوجود المسيحى فيها ، وسط هذه المظاهر الوثنية قصة سنفصلها فيما بعد .



وقد زرعت كراهية اليهود فى نفوس الشعوب التى تكون الامبراطورية الرومانية . وعندما بدأت المسيحية تجهر بدعوتها بعد تفرق دعاتها فى الأمصار ، حل بالدعاة والمسيحيين الأول غضب السلطة والشعوب ، وكان ذلك امتدادا لكراهية الناس لليهود . وهكذا أشعل اليهود نارا احترقت المسيحية الناشئة بلظاها .

ولم ينس اليهود أن داعية المسيحية الأكبر كان من بينهم ، وأنهم انكروه ودبروا لصلبه ، بأمل القضاء على أفكاره . ولكن ما لبث مشتتوهم والسابقون منهم للهجرة فى قبرص والاسكندرية وبرقة ــ وقد ذكرنا طرفا من أنباء هؤلاء من قبل ، أن دبروا بعد نهاية القرن الأول للمسيح ، مذبحة هائلة فى سلامس كبرى مدن قبرص فى ذلك الوقت ، وفى الاسكندرية عاصمة المصريين . وكانوا المسيحيون هدف هذه المذبحة . ونجحوا فى قتل ١٦٠ ألف مسيحى وهدم مدينة سلامس ، التى ما تزال بعض آثارها

موجودة حتى الآن . وما حدث فى الاسكندرية لا يقل بشاعة ، وان كانت التواريخ لم تفصله كما فصلت مأساة سلامس القبرصية .

وهكذا اليهود اينما وجدوا وملكوا فرصة على غيرهم ، من أى دين كان ، أن ينتقموا ويدسوا ، فاذا استطاعوا قتلوا وأبادوا . وسنذكر بعد حين ما صنعوه فى اليمن بأصحاب الأخدود .

وكانت جزيرة العرب هى أقرب الأماكن الى فرارهم من فلسطين ، كلما حلت بهم النوائب فيهـا وتذهب مراجع تاريخيـة كثيرة ، الى أن هروبهم من نكال الرومان لهم عام ٧٠ ملادية ، كان الى الجنوب .. الى الحجاز .

والآن ، فلنسر معهم بعض الوقت فى شبه الجزيرة العربية ، لنرى كيف اصطدموا بالدعوة الاسلامية بعد خمسة قرون من استضافة الحجاز لهم ــ ومرة أخرى ، وليست الأخيرة ، كان صدامهم وبالا عليهم .

الفصل التاسع

اليهود فى جزيرة العرب

مضت على جهاد المسيح عليه الصلاة والسلام ، خمسة قرون وبعض القرن ، انتشر فيها تلاميذه ، يحملون رسالة المحبة ، الى أنحاء الامبراطورية الرومانية ، متصدين لبغيها وطغيانها .. ووجدت الشعوب ، فى هذه النسمات الندية روح دعة واطمئنان تحببهم الى الحياة بغير بغى ، وبغير آلام .

وفى خلال ستة قرون الا قليلا نزفت دماء المسيحية امام عسف اليهود، واضطهاد الرومان ، حتى جرت الدماء أنهارا . مما سنذكر بعض تفاصيله فى الفصل القادم .

واقتضت ارادة الله ، أن تشرق نور دعوة جديدة ، تناسب ما بلغته الأسرة البشرية من نمو عقلي ومادى ، وان تكون هذه المرة خارج الجماعة اليهودية .

كان صاحب هذه الدعوة الجديدة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله ، الذى ينتمى الى نسل اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، وقد استوطن الحجاز.

ونمت أسرته وتكاثرت بعيدا عن الفتن والمذابح التى كانت دائرة فى أرض الشمال وغذتها وزادت فى سعيرها هجرة باقى هذه الأسرة مع موسى الكليم من أرض مصر .

وكان اسماعيل أبا لعرب الحجاز ، وأمه المصرية ، هاجر .. وثمة نسل

عربي آخر لابراهيم الخليل من زوجه قطورة ، عاش ونما عدده في الشمال وامتد الى العراق وسوريا .

وكان العرب جميعا ، وهم أهل الانساب ، عاشوا بها ولها ، يعلمون هذا جيدا .. ويدركون أن اليهود ما هم الا سلالة محدودة من نسل يعقوب الذي أصبح اسمه اسرائيل .

ولنسر الآن مع رحلة اليهود الى الجزيرة العربية ، حتى ظهور الاسلام واصطدامهم به ، كما اصطدموا من قبل مع المصريين والحبشيين والأشوريين والكنعانيين .

اليهود يتحفزون :

عرفت أديان فلسطين طريقها الى جزيرة العرب ، الا أن كل دين استقر هناك بوسيلة تخالف صاحبه .. فأما اليهودية ، فقد نفذت الى شبه الجزيرة من الهجرة .. هجرة بني اسرائيل وعلى وجه دقيق قبيلة شمعون طلبا للمرعى وبحثا وراء القوت . وكانت هذه الهجرة قديمة قبل ميلاد المسيح بقرون . ويقال أنها استقرت في المنطقة شمال يثرب ثم جنوبها .

وقد تسربت اليهودية من هذه الأماكن الى اليمن فاعتنقها ملوك حمير ولا يهمنا أن نفصل في خصومات العلماء حول الأسباب التي دعت هؤلاء الملوك الى اعتناق هـذا الدين ، وهي أسباب سياسية قـد ترجع الى خصوماتهم مع الدول القوية المحيطة بهم . وعلى الأخص دولة الرومان .

اما المسيحية فقد سارت في جزيرة العرب ، ولكن على أيدي دعاة ورهبان جدوا في نشر تعاليمها ، وتلقينها للعرب . وكانت نجران في جنوب الجزيرة أكبر موطن لهذا الدين .

ولما قوي شأن المسيحية واعتنقها أباطرة الرومان ، نكلوا باليهودية النكال الأعظم وشردوا أهلها في آفاق الأرض بعد أن هدموا الهيكل ، ونزح الى جزيرة العرب عدد غير قليل من اليهود ونزلوا على المهاجرين

السابقين من ذوى قرباهم ، فى يثرب وما حولها . وكان من هذه القبائل الهاربة من وجه قيصر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل .

واذا كان قدماء اليهود بعزلتهم عن العمران قـد فقدوا الكثير من مزاياهم ، فرق دينهم وتطبعوا بطابع البيئة التى يأوون اليها ، فقد جاءت هذه الهجرة تجدد دين بنى اسرائيل فى الحجاز وتعيد له طابعه كله حادا قويا كما كان .. خصوصا ان المهاجرين كانوا فارين من وجه ظلم شـديد واعنات بالغ يحل بهم ، فكانت بهم حاجة ان يحتملوا آلام التشرد بالايغال فى التمسك بالعقيدة التى يفرون بها .

وقد وجدت اضطهادات المسيحية صداها فى اليمن حيث توجد دولة يهودية ، فعمد ملك حمير (ذو نواس) الى التنكيل بنصارى نجران ، فدعاهم الى اليهودية ولما امتنعوا ، حفر لهم أخدودا ، وأعمل فيهم السيف وألقى أجداثهم فى الأخدود وكانت النيران تشتعل فيه وقد ورد ذكر هذا الحادث فى القرآن الكريم ، الذى ندد بمن حفروا الأخدود فى قوله :

« قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم »
« عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، »
« وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. »
(البروج ٥ ــ ٨)

وقد انتقم نجاشي الحبشة من دولة اليهود فى اليمن فأزالها . ولم تقم لها قائمة .. ومضى الزمن وجزيرة العرب تشهد صراع الأديان على ظهرها وفيما حولها . فلا تتأثر به الا قليلا .. حقيقة لقد اعتنق بعض عرب الجنوب النصرانية ، ولكن انتقام اليهود حـرقهم بالنار تحريقا . ولم يبق منهم الا أقل عدد . ولما زالت دولة اليهود من الجنوب لم يبق منها الا أخفى آثارها .. ويهود الحجاز لم تكن لهم حاجة بالدعوة الى دينهم ، فقد كانوا فى شغل عن كسب القلوب بكسب الجيـوب . . بل لعل أموالهم التى اكتسبوها من الزراعة والتجارة زادتهم عزلة عن العرب ، فبنوا القصور

والحصون فى قمم الجبال ، واعتصموا بها ، وكونوا لأنفسهم شبه ارستقراطية لا ترى فى بقية الناس الا أداة لكسب المال منها عن طريق الرياء والخداع فى المتاجرة والزراعة .

وكان أكثر العرب الذين يسكنون يثرب من قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج . كما كانت تقيم بالقرب من القرية قبائل أخرى أهون شأنا وأقل عددا . وهذه القرون الخمسة التى أقامها اليهود الجدد . فى الحجاز بعد طرد الرومان لهم ، وهذه القرون العشرة أو الأكثر التى أقامها من سبقهم الى الهجرة ، كانت تكفى لأن يتزاوج بعض اليهود من بعض العرب ، وأن تختلط الدماء ولكن فى حذر واحتياط ، وبذا يمكن القول أن العرب الذين اعتنقوا اليهودية هم قلة لا تعد .. وظل بقية الوثنيين من الأوس والخزرج ينظرون الى اليهود نظرة حسد حينا وحيرة حينا آخر .. أما الحسد فلأنهم يجدون أنفسهم فقراء يتشاجرون ويقتتلون ، ومن حولهم هؤلاء اليهود يتاجرون ، ويصنعون السيوف والدروع ويكنزون الذهب والفضة . وأما الحيرة فلهذا الدين الذى يعتنقه اليهود ، والذين يقولون ان نبيا جاء به من السماء ، ودون لهم فى كتبهم الوصايا : كما أنبأهم من أمر الغيب بالشىء الكثير .

ولقد كانوا فى أمس الحاجة الى معرفته . فان نفوسهم تعلن عن قلقها وشكها فى هذه الأوثان التى لا تسمن ولا تغنى ، وأن هذا القلق ليزداد ، عند ما يصل اليهم من أحاديث يهود أن فى مسطور الغيب نبأ عجيب ، هو أن نبيا يوشك أن يظهر فى قرية من قرى العرب ، يدعو الى الله الواحد الأحد ، ويبشر وينذر ، ويجاهد حتى يكون الدين كله لله .

ولقد جاء الوقت ، وانتقلت مع القوافل أحاديث عن رجل ظهر فى مكة من أرفع قبائلها شأنا ، ومن أحسن أهلها خلقا ، ومن أوفرهم أمانة وصدقا يدعو الى دين جديد .. فأما عرب البوادى فقد تلقوا أنباء مكة كما تعودوا أن يتلقوها : بآذان مصغية وعيون مفتوحة ، وذاكرة واعية ، ولكن بعقول صامتة جامدة لا تصل منها الأنباء الى منطقة التصديق أو التكذيب .

وصلت هذه الأنباء الى يثرب ، وتلقاها أهل يثرب بوجه آخر : فأما اليهود فقد عظم قلقهم ، وحسبوا لهذا الطارق الجديد والدين الوليد ألف حساب . وأما عرب القرية من أوس وخزرج فخفقت قلوبهم ، فقد يكون هذا النبى من مكة هو الذى حدثهم عنه جيرانهم اليهود .. وقد يكون فى دينه ما يعصمهم من الفتن الجامحة التى كثيرا ما تثور بينهم فتعصف بهم وتذهب بزهرة شبابهم ، واليهود يطلون عليهم من دورهم باسمين يشحذون السلاح ويبيعونه ليقتل به بعضهم بعضا ..

وكانت قوافل الحجيج تختلف بين يثرب ومكة ، وتنقل الأنباء حتى كانت عودة النبى من الطائف بعد ما لقى فيها من اعنات وارهاق ، وقرر أن يعرض نفسه على القبائل يطلب منها نصره وتأييده . وكانت وفود القبائل تسمع منه بقلوب مغلقة وتنصرف عنه كذلك . حتى لقى وفدا من يثرب قوامه ستة من الخزرج .

لقيهم النبى فيما يروى ابن اسحق فقال لهم من أنتم ؟ :

قالوا :

— نفر من الخزرج .. قال : أمن موالى يهود ؟ ، قالوا : نعم ، قال :

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى

فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلى عليهم القرآن .

يقول ابن اسحق :

وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا هم أهل كتاب وعلم . وكان العرب أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم فى بلادهم . فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض :

— يا قوم .. تعلمون والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم اليه .

فأجابوه فيما دعاهم اليه . بأن صدقوه . وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وما أن وصل هؤلاء الستة الى يثرب . وتحدثوا عما دار بينهم وبين محمد عليه السلام ، حتى كثر الحديث ، واشتد الجدال ، وتدخل فيه اليهود بين مكذب ومنكر . الا أن العرب الذين ذاقوا مرارة الذل من سطوة اليهود واعتزازهم بالمال ، وبهذا الدين الذى يعتنقون ، ما كانوا ليلقوا بالهم الى قول اليهود .

ومكثت يثرب عاما كاملا . ولا حديث لأهلها الا هذه الأنباء التى جاءتها ، ولم يبق بيت من بيوتها الا وفيه ذكر عن النبى ، وفرد يهيىء نفسه لاعتناق الدين الجديد ، فلما كان الموسم القادم ، ذهب وفد جديد من الخزرج . وتمت بيعة العقبة الأولى ، وهكذا حيل بين اليهود وبين ما أرادوا من صرف أهل يثرب عن اعتناق الدين الجديد .

ولكن الأمر سار شوطا أبعد مما قدر اليهود . فقد كانت هذه البيعة الأولى . مقدمة لبيعة ثانية أحكم وأتم ، ثم كانت التمهيد الذى لا بد منه لهجرة النبى نفسه الى يثرب ليتخذها مقرا له ومركزا لدعوته .

* * *

وبدأت هجرة المسلمين من مكة الى المدينة بعد أن أذن لهم رسول الله بها ، واليهود يراقبون هذه الحركة مشفقين ، ويدبرون الأمر بينهم . فهم بازاء حدث جديد ، يوشك أن يبدل معالم الحياة فى يثرب بل يوشك أن يبدل معالم حياة العرب جميعا .. ماذا سيكون من شأن هؤلاء المهاجرين معهم ؟ وماذا سيكون موقف النبى الجديد منهم وموقفهم منه ؟ . انه — كما بلغهم — جاء بكتاب . وهم أصحاب كتاب . وأنه يتحدث عن سير السالفين وهم أصحاب حديث عنها . وأنه يدعو الى عبادة وطقوس ، وأن لهم عبادات وطقوسا .

ووصل عمر بن الخطاب الى يثرب ، وقال : لم يبق بمكة غير أبى بكر وغير رسول الله . وأنه يرجح أنهما قادمان فى الطريق .. وهنا خفق قلب هذه القرية خفقانا شديدا ولم يكن اليهود بأقل لهفة من الانصار ، وتطلعا الى مشاهدة المهاجر العظيم وهو يختم رحلته من بلدته الى بلدتهم.

قال ابن اسحق فى رواية عن أحد الأنصار : « حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله . جلسنا كما كنا نجلس حتى اذا لم يبق ظل ، دخلنا بيوتنا . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت . فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : « يا بنى قيلة (اسم جدة للأنصار) هذا جدكم قد جاء » .

وجها لوجه :

اشتد ضغط الدعوة المحمدية على أهل مكة واخذتهم قوتها من كل وجه من وجوههم ، وحاولوا أن يستعينوا باليهود لتعرف الحق من أمر محمد .. وكانت مكة . كما كانت القرى جميعا . تعرف من أمر اليهود ما ينبغى أن يعرف . بل كانت هناك زيارات تترى بين أهل مكة وبين مستعمرات اليهود فى يثرب وضواحيها . فقد ذكر الواقدى أن أسرة أبى الحقيق اليهودى تخصصت فى صناعة الحلى وأدوات الزينة . وكان يفد اليها أناس من مكة يشترون منها الحلى لعرائسهم ونسائهم .

يروى ابن اسحق أن قريشا أرسلت وفدا من النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط الى أحبار اليهود بيثرب وقالوا لهما : سلاهم عن محمد . وصفا لهم صفته . وأخبراهم بقوله فانهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجا حتى قدما يثرب فسألا أحبار يهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم بقوله . وقالا لهم انكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار اليهود :

— سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وان لم يفعل فالرجل متقول .. وقولوا عنه ما شئتم :

١ — سلوه عن فئة ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم .. فانهم قد كان لهم حديث عجيب ؟

٢ — وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه ؟

٣ — وسلوه عن الروح ما هى . ؟

فان أخبركم بذلك فانه نبى ، وان لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره مابدا لكم .

فأقبل الرسولان حتى قدما مكة على قريش فقالا :

— يا معشر قريش . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد !! قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فان أخبركم عنها فهو نبى وان لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فجاءوا رسول الله فقالوا :

— يا محمد . أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح ما هى :

قال لهم رسول الله :

— أخبركم بما سألتم عنه غدا .

فانصرفوا عنه .. فمكث رسول الله خمس عشرة ليلة لا يحدث الله فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكه . وقالوا :

وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، قد أصبحنا منها لايخبرنا بشىء مما سألناه عنه .

وقد أحزن رسول الله امتناع الوحى عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاء جبريل فتلقى محمد الوحى فى لهفة المنتظر وقال له :

— لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا ، فقال له جبريل آية من من آيات سورة مريم (رقم ٦٤)

« وما تتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا »

ثم لقن الوحى محمدا عليه الصلاة والسلام سورة الكهف .

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ، لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا » .

وقد ردت سورة الكهف على السؤالين الأولين من أسئلة اليهود الثلاثة ، فقصت نبأ الفتية الذين آووا الى الكهف ، وذكرت نبأهم بالحق . وسردت حديث ذى القرنين . وتلت عليهم منه ذكرا . ثم قالت سورة اسراء عن الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

واذن ، فقد كانت بين اليهود وبين رسول الله محاورات قبل الهجرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يعرف من غير شك قوة هذه الفئة العاتية ، وما أحاطت به نفسها فى مقامها بيثرب من منعة وترابط ، وما أذاعت عن نفسها من أنها الشعب المختار ، وأنها طبقة فوق طبقات الناس جميعا .

فلما جاء النبى الى المدينة ، لم يمهله اليهود حتى جاءوا يستطلعون نبأه ، ويحاورونه فيما رد به على أسئلتهم ، وخصوصا ما نزل به الوحى من قوله : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

عن ابن عباس أنه قال : أما قدوم رسول الله الى المدينة قالت أحبار اليهود :

— يا محمد .. أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » : ايانا تريد أم قومك .

قال : كلا .. قالوا : فانك تتلو فيما جاءك انا قد أوتينـا التوراة فيها بيان كل شيء .. فقال رسول الله :

— انها فى علم الله قليل وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

وأنزل الله تعالى قرآنا فى هذا الحوار هو قـوله فى سورة لقمان (٢٧) :

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سـبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » .

وقد آثر النبى فى أول الأمر أن يحاسن اليهود ويصافيهم ، وان لم يغب عنه أنهم يضمرون له شرا ، وأنهم لا يمكن لهم أن يقبلوا دعوته ، وأن يسيروا فى ركابها ، وهـم المعتزون بما لهم ، المعتصمون بحصـونهم وآطامهم :

وقد ذكر الدكتور ولفنسون (يهودى) فى كتابه عن تاريخ اليهود فى جزيرة العرب :

« كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى اسرائيل يدعو الى توحيد الاله والى تعاليم التوراة والى تمجيـد ابراهيم وموسى انما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى .

« ولا شك انهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية ، وأنه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفسهم جعلهم يؤملون فى هجرة النبى الى يثرب آمالا كبارا » .

وكان يكون جميلا أن يتخلق يهود يثرب بهذا الخلق ، وأن يروا فى نبى التوحيد الجديد هاديا ومنقذا للبشرية من ضلالات تردت فيها لا أول لها ولا آخر . ولكن هل كان يقبل « الشعب المختار » هذا الوضع . وهل

يجيز العقل أن يكون موقف اليهود ـ محتكرى التوحيد اسما كما يحتكرون التجارة وغيرها ، موقف ترحيب من النبى الذى ظهر فى مكة ، وهو ليس من بنى اسرائيل . وقد جاء فى التلمود أن الأنبياء ختموا ببنى اسرائيل .

لم يذكر المؤلف سندا واحدا ، أو نصا واحدا يمكن أن يستند اليه فى زعمه هذا . بل ان محاورات النبى مع اليهود ، منذ قدم ، تدل فى وضوح شديد على أن اليهود قابلوا محمدا عليه السلام بروح التحدى البالغ ، وحاولوا أن يشككوا فى كلامه وأن يزيفوا ما بين أيديهم من علم . وقد ورد فى القرآن تقريع شديد لهم فى أكثر من موطن يدحض هذا القول . ولكنها محاولة ساذجة من هذا المؤلف اليهودى ، تشبه محاولتهم الأخيرة تبرئة اليهود من العمل على صلب المسيح .

* * *

كان النبى يعلم ان اليهود لن يرضوا عن مقامه فى المدينة ، ولكنه مع هذا أراد أن يحاسنهم وأن يضع نظاما يحقق وحدة هذه المدينة ، فيقضى أولا على العداوة بين الأوس والخزرج ثم يضم اليهود الى دائرة هذا الاتحاد الجديد كحلفاء .

ويورد ابن هشام وثيقة تتضمن عهدا كتبه النبى عليه الصلاة والسلام ليحقق به هذه الوحدة . ويجعل سكان يثرب جميعا ، أمة واحدة فى مواجهة الوثنيين .

وقد وقع هذه الصحيفة اليهود الذين ورد ذكرهم فيها ، وثمت قبائل أخرى من اليهود أكثر قوة ومنعة ، مثل بنى قريظة وبنى قينقاع لم تشارك فيها ، ولعلها أرادت أن تظل بعيدا ، لترى ما يكون من تقلب الأمور ، وسيرها . ولكنها على كل حال تحالفت مع النبى بمعاهدات خاصة .

ومضى رسول الله شوطا آخر فى سبيل تأليف قلوب اليهود ، فأحل للمسلمين الأكل من طعام اليهود ، كما أحل لهم التزوج من بناتهم .. وجاء

فى القرآن الكريم نص على هذا فى سورة المائدة :

« اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ، ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ولم ير النبى بأسا من أن يتخذ بيت المقدس قبلته ، وهى قبلة اليهود ، كما أنه أمر المسلمين بصوم عاشوراء وهو من أعياد اليهود . وكانت هذه الخطة ترمى الى احتواء اليهود فى داخل الدين الجديد .. الاسلام !

الا أن اليهود أخذوا يسحبون يدهم التى مدوها للتعاهد وأخذوا يكيدون للمسلمين بعد أن رأوهم وحدة واحدة لا أوس ولا خزرج ، وانما اسلام ومسلمون .

ولعل آخر ما كان يمكن لليهود توجيهه للنبى ، هو التشكيك فى دعوته فهم أهل كتاب ، وهم يقولون انهم يعلمون من أمر النبوة الجديدة ما لم يعلمه غيرهم لأنه مسطور فى كتابهم .

ولقد كثر جدال اليهود للنبى وللمسلمين . واشتد عنادهم حتى ضاقت الصدور بما يفعل بنو اسرائيل ، وحتى أخذ القرآن ينزل تباعا يرد عليهم ويزجرهم زجرا شديدا لعلم ينتهون . فمن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء :

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

(النساء ١٥٣)

وقوله :

« وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ،

قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس . تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟.. قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

(الانعام ٩١)

وقوله :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (يحملوها أى يعملوا بها) .

(الجمعة ٥)

وقوله :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

(البقرة ٧٩)

وقوله :

« ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » .

(البقرة)

وهكذا قضى القرآن فى وضوح واضح ان هذه الأجيال من اليهود التى لم تعترف بالاسلام لهم يوم القيامة عذاب أليم .. ومثلهم فى هذا كمثل الكافرين .

وهذا دليل قاطع على أن علو اليهود الذى ورد ذكره انتهى بسقوط دولتهم للمرة الثانية على يد الرومان عام ٧٠ م .

ويظهر أن اليهود حاولوا أن يفتنوا بعض المسلمين عن دينهم ، كما

وقد وردت فى القرآن قصة الأحزاب وقصة بنى قريظة :

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (١) ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقـا تقتلون ، وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضا لم تطؤوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »

(الأحزاب ٢٦ — ٢٧)

وكانت غزوة بنى قريظة نصرا كلها وغنما كلها ، وخسر المسلمون فيها البطل الفارس المؤمن سعد بن معاذ .

الى خيبر :

تقع خيبر فى الطريق الشمالى الذى يربط المدينة المنورة بفلسطين . وكانت حصنهم المنيع ، ومستقر جمعهم الكبير .. وكان حريا بهم بعد أن انتهى وجود اليهود فى قلب المدينة وفى أطرافها القريبة ، أن يتحركوا للثأر أو للفرار . وحتى لا يحسبوا أن حصونهم المنيعة مانعة لهم من أن تطولهم يد المسلمين ، فقد توجه خمسة من مسلمى الخزرج أثر الفراغ من أمر يهود المدينة ، واقتحموا حصن أكبر زعماء اليهود ، وأكثرهم ثراء ، فى حركة جريئة ،وفروسية بالغة ، وهو سلام بن أبى الحقيق ، وأعملوا سيوفهم فيه ، ثم انسحبوا يخفيهم الليل ، والمطاردة بالمشاعل من ورائهم .. وحتى يتثبتوا من أن غريمهم قد هلك ، عاد أحدهم واندس وسط الزحام أمام الحصن حتى تأكد من هلاك سلام ، ثم عاد الى أصحابه بالنبأ اليقين .

وكانت هذه الغارة السريعة على بيت من بيوت خيبر شبه انذار للبقية الباقية ، من اليهود فى الحجاز ، أن يهدأوا فالمسلمون بعد اليوم بخير . وأن لهم من القوة ما يمكنهم من القضاء عليهم .

***

---

(١) صياصيهم : حصونهم

خلفهم مع المنافقين أصحاب وحدة المدينة التى أرادها رسول الله بثغرات كان لا بد من سدها . وقد أحزنت النبى هذه الحال ، وأسلمته الى تفكير طويل .

وقد عرض القرآن لهذه الحال فقال فى سورة المائدة ــ ٤١ :

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه ، وان لم تؤتوه فأحذروا » .

ونهى القرآن المسلمين عن مخالطة اليهود والاستماع لهم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ... » (المائدة ٥٧).

وقوله :

« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل * والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » . (النساء ٤٤ ــ ٥٤)

وقوله :

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم اذن مثلهم ، ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » .

(النساء ١٤٠)

بل لقد صرح القرآن بأن أشد الناس عداوة للمسلمين اليهود وساواهم بالمشركين فى قوله : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا » ، ولا نريد أن نمضى فى سرد الآيات التى جادلت اليهود، وقرعتهم على كفرهم أعظم تقريع . فهى تستغرق من القرآن قسما كبيرا ،

مما يدل على عظم الجهد الذى بذله الاسلام فى الدفاع عن نفسه ضد الأكاذيب الاسرائيلية ، ومكائد هذا النفر منهم الذى كان يسكن يثرب وضواحيها .

ولم يبق بد بعد كل هذه الجفوة بين المسلمين واليهود ، الا أن يعدل النبى عن محاسنتهم ، فأخذ يدعو ربه حتى يهديه الى قبلة غير قبلة اليهود ، فولاه قبلة يرضاها هى البيت العتيق ، أى الكعبة ، كما أمر المسلمين أن لا يكون لباسهم مثل لباس اليهود . وألا يكون تصفيف شعرهم وصبغه مثل ما يصنع اليهود . وأن يحذروا من سخرية اليهود فى السلام عليهم والرد على سلامهم . وعدل عن اتخاذ البوق لدعوة المسلمين الى الصلاة ، وذلك لأن اليهود كانوا يستعملون هذا البوق فكرهه .

ولكن هذه الحرب الفكرية التى كان سلاحها اللسان لم تحل دون أن يقبل على الاسلام ويعتنقه اثنان من أحبار اليهود المعروفين هما الحصين بن سلام ومخيريق .

وكان اسلام الحصين بن سلام هذا سببا فى شدة خوف رؤساء اليهود من أن تقبل بقية الطائفة على الدين الجديد فتحمى الاسرائيلية من الحجاز . ولذا كان دفاعهم ، الى جانب باعث الغرور الذى يحركه ، يستند الى غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس ، وقد اتخذ اسلام ابن سلام هذا مظهرا رائعا .. فقد كان يعلم أن نبيا (١) يوشك أن يظهر ويعم هداه الناس مما وجده مسطورا فى كتبه لأنه كان من الأحبار العلماء ، فلما جاء محمد عليه السلام الى المدينة ، ذهب الى النبى وأسلم . ثم قال له :

— يا رسول الله ، ان يهود قوم بهت ، وانى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا اسلامى . فانهم ان علموا به بهتونى وعابونى . فأخفاه النبى فى احدى الحجرات ، ثم أقبل وفد اليهود فقال لهم النبى :

(١) من أنباء التوراة الصادقة أكثر من بشرى بظهور المسيح . وأكثر من بشرى بظهور محمد عليهما الصلاة والسلام .

— أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فقالوا :

— سيدنا وابن سيدنا . وحبرنا وعالمنا .

فوثب اليهم الحصين ، وقال :

— يا معشر يهـود . اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به . فوالله انكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فانى أشهد أنه رسول الله وأومن به وأعرفه . فقالوا : كذبت :

ثم أخذوا يعيبونه ويجرحونه ، وأظهـر ابن سلام اسـلامه وتسمى عبد الله كما أسلمت أسرته .

وكان مخيريق من أغنياء اليهود وكبار أحبارهم . وقد اكتفى بمنابذة اليهود . وحبه للنبى . فلما كان يوم أحد وتخلف اليهود عن تنفيذ حلفهم الحربى مع النبى بحجـة أن اليوم سبت . أنكر مخيريق عليهم تصرفهم ، وخرج للقتال ، وأوصى ان هو قتل أن تكون أمواله لرسول الله . وقد قتل فعلا ، وقال عنه النبى عليه السلام : « مخيريق خير اليهود » وورث النبى أمواله ونخله الكثير ورصده لصدقات أهل المدينة .

وعمد اليهود الى أسلوب من أساليب الدس والمكر فأوعزوا الى بعض دهاتهم أن يظهروا اسلامهم ليطلعوا على خطط النبى ويعلموا كلامه . ولكن النبى لم يكن غافلا عن هذا النوع من الجاسوسية . وقد تحدث ابن اسحق عنهم أنهم كانوا يحضرون الى المسـجد فيسـمعون أحاديث المسـلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم .

دعوة اليهود للاسلام :

— ولقد ورد فى صحيفة العهد الأولى ، التى أراد النبى أن يقر بها النظام السياسى فى المدينة ، أن يكون اليهود على دينهم ، ولم يفرض عليهم الجزية أملا فى أن تكون القدوة والمحافظة الحسنة هى التى تحببهم الى الاسلام فيدخلون فيه طائعين . فلما أغراهم شيطانهم بأن يسلكوا مسلك

المعارضة للنبى فى أعز ما جاء به . وهو رسالته .. لما تعذر أن يكون اليهود مع المسلمين أمة واحدة .. رأى النبى أن يدعوهم الى الاسلام ، وقد أورد ابن اسحق صورة كتاب النبى الى يهود خيبر مرويا عن ابن عباس وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صاحب موسى وأخيه . والمصدق لما جاء به موسى . ألا ان الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة . وانكم لتجدون ذلك فى كتابكم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه (أنبت نبتا جديدا) فآزر ، فاستغلظ على سوقه . يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ... وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما .

« وانى أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى ، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، ألا أخبرتمونى هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم ، قد تبين الرشد من الغى فأدعوكم الى الله والى نبيه » .

وكانت هذه الدعوة الكريمة الى الله ونبيه التى احتكم فيها محمد عليه السلام الى أسفار اليهود نفسها ، كأنما لم تكن ، فقد صموا عنها آذانهم ولجوا فى عتوهم وطغيانهم .

بل لقد جاء الى النبى أحد أحبارهم يرد على دعوتهم للاسلام بدعوته هو لليهودية فرد عليه القرآن بقوله :

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم

وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

(البقرة ١٣٥ ـــ ١٣٦)

وكان من موضوعات النقاش أمام النبى عليه الصلاة والسلام البحث فى دين ابراهيم . قال أحبار اليهود : ما كان ابراهيم الا يهوديا .. فكان رد الاسلام قويا رائعا :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون ؟ * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين * ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » . (آل عمران ٦٥ ـــ ٦٨)

وكان النبى فى جداله لليهود فى مركز القوة دائما . لأنه لم ينكر رسالة من قبله بل اعترف بموسى وبأنبياء اسرائيل . كما اعترف بالمسيح عيسى فكانت دعوته بعيدة عن روح التحدى . وكان خصومه فى الجدال لا يجدون حجة يجابهونه بها الا أنه ليس هو النبى المنتظر الذى تحدثت عنه الكتب السابقة عليه .

لا يهود بعد اليوم :

أخفق اليهود فى منع العرب عن الاسلام ، فلجأوا الى أسلوب الجبناء !!

دبر اليهود أكثر من مؤامرة لقتل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم باءوا بالخذلان فلما كان نصر بدر تلقى اليهود أنباءه وهم أشد ما يكونون هما وغما ، حتى أنهم كذبوا البشير الذى سبق بالأنباء .

وكان حى من اليهود . هم بنو قينقاع ، يقيمون وسط المدينة المنورة ، وقد نشطوا فى حرب الدعاية ، واذاعة الأكاذيب ، كما كانوا يأوون بينهم

المتآمرين . وقد تعاهدوا على العمل مع كبير المنافقين عبد الله بن أبى سلول، وكان لهم حلف قديم مع الخزرج وهم من الأوس القبيلتان العربيتان اللتان أسلمتا .. وقد أسقط الاسلام هذه الأحلاف القديمة .

وكان لا بد من عمل يرد على اليهود كيدهم ، فقرر النبى عليه السلام طرد اليهود الذين يسكنون قلب مدينته ، واجلائهم عن الجزيرة العربية كلها . وكان منهم سبعمائة رجل قادرين على حمل السلاح ، وأدى اجلاؤهم الى أن تخفف الاسلام من عبثهم .. ولم تتم هذه الحركة الا بعد حصار لهم استمر ١٥ يوما . وقد صادر المسلمون أسلحتهم وأموالهم التى خلفوها ، وكان رحيلهم الى بلدة أذرعات بالشام .

وجاء دور بنى النضير من قبائل اليهود ، وقد بنوا لأنفسهم فى ظاهر المدينة حصونا منيعة ، وكان كبيرهم كعب بن الأشرف من أكثر الناس كيدا للاسلام والمسلمين ، وقد أمكن لبعض الفدائيين من المسلمين استدراجه من حصنه ، وقتله . ثم أمنهم رسول الله عشرة أيام وحاصر دورهم بعدها ، ولم يجرؤ أحد من حلفائهم على التعرض للمسلمين . فلما مضت ستة أيام على الحصار ، لاحظ النبى أن حصون اليهود تعصمهم ، ثم أنهم فى مدة الانذار كانوا قد جمعوا من المؤونة ما يكفيهم مدة طويلة . فرأى النبى أن يرهبهم ويهددهم بحرق حصونهم عليهم فأمر باشعال النيران فى النخيل الذى يحيط بها . فما أن رأوا النار تعلو رءوس النخيل حتى دب فى قلوبهم الرعب ، وآثروا النجاة بحياتهم ، وبعثوا رسلهم بالأمان حتى يغادروا الحصون . فأعطاهم الأمان بحقن دمائهم ، وأن يحملوا من الأموال ما تطيق دوابهم ، على أن يتركوا السلاح وراءهم لا يأخذون منه شيئا .

وقد تركوا ديارهم . فسار قليل منهم الى خيبر ، منهم حيى بن أخطب وسلام بن الحقيق وما لبث يهود خيبر أن دانوا لزعامة هؤلاء الوافدين — وأما بقية بنى النضير فقد لحقوا بمن سبقوهم الى الشام .

وجمع النبى أموالهم الباقية وسلاحهم . وقد نزلت سورة الحشر تتحدث عن هذا الحصار ، وتنعى على كبير المنافقين والذين معه خذلانهم لجيرانهم .

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

(الحشر ــ ٢)

وكان النبى حريصا على أن يكثر السلاح فى أيدى جنوده ، اذ اشترط على اليهود أن يتركوا سلاحهم وراءهم ، وكان ما تركوه عددا غير قليل من السيوف ، وعددا آخر من الدروع أحصاها الواقدى فى مغازيه فكانت ثلاث مائة وأربعين سيفا وخمسين درعا .

ومما يدل على روح الاسلام العظيمة أن اثنين من بنى النضير أعلنا اسلامهما ، وكانا من أغنياء اليهود فأبقى لهما النبى جميع ثروتهما ، ولم يمسها بسوء ، ذلك أنه من قال : لا اله الا الله ، فقد عصم نفسه وماله الا بحقه ، والله وحده بعد هذا ، يعلم سرائر النفوس وما انطوت عليه .

* * *

وحدث بعد حصار قريش للمدينة المنورة ، وحفر الخندق لصدهم عنها ، أن عاون يهود بنى قريظة المهاجمين ، ونقضوا ، فى أحلك ساعات الشدة ، حلفهم مع المسلمين . ولولا يقظة فائقة ، لانهار الدفاع عن المدينة ، وسقطت فى يد الكافرين وانتهى الاسلام والمسلمون .

هل كان يمكن أن يترك هذا الغدر بغير عقاب ؟ وهل تكون المدينة آمنة ، وهؤلاء اليهود يقيمون غير بعيد عنها ، ويضمرون العداء الأسود ، الذى لا يرضى بشىء الا باستئصال الاسلام والمسلمين ، وهو اللفظ الذى

كرره اليهود أكثر من مرة وهم يتهيأون لغزو المدينة وحصارها .

لقد كان النبى حتى ليل أمس يدافع ، يدافع حراب وسيوف عشرة آلاف من الأعداء تألبوا عليه . أما اليوم فليهاجم ، وليكن هدفه هؤلاء الذين مزقوا صحيفته ، ونقضوا ميثاقه .

اجتمع المسلمون عند الظهر فى المسجد ، بعد أن رأى كل منهم أهله وأبناءه ، فاذا هم فى عافية وأمان ، واذا البشر يعم الوجوه التى لم تعرف منذ أسابيع الا الجهد فى حفر الخندق ، والا الصبر فى لقاء الأعداء ، وترقب الموت فى كل دقيقة من دقائق النهار أو الليل .

ترى ماذا سيقول لهم رسول الله ، وهم يجتمعون به لأول مرة بعد انصراف الأحزاب ؟ وهل سيكون حديثه عن بنى قريظة وخيانتهم كما رجح الالباء منهم :

لقد كان الأمر كذلك .. فما أن صلى الناس الظهر وهم بعضهم بالانصراف حتى أذن فيهم أحد الصحابة قائلا ما لقنه رسول الله « من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة » .

فأسرع المسلمون الى بيوتهم خفافا يحملون سلاحهم ويلبسون دروعهم ، وعادوا بأسرع مما ذهبوا ، فاذا على بن أبى طالب يحمل راية القوم ، ويتقدمهم وهم وراءه .

وما أن أشرف على بن أبى طالب على حصون بنى قريظة حتى أطل بعضهم منها ، وقذف رسول الله والمسلمين بأقبح الشتائم . فتراجع « على » ليرى هل وصل رسول الله فلمحه قادما عن قرب . فقال له :

— يا رسول الله . لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث ؟ فقال النبى :

— لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى ، فأجاب على :

— نعم يا رسول الله . فقال له النبى :

— لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

— ثم دنا النبى من حصونهم : وصاح بهم :

— يا اخوان القردة . هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

وهناك أدرك اليهود أن الموقف ليس موقف سباب يقذفون به محمدا وأصحابه .. لا ، وانما هى ساعة القصاص قد جاءت . فهؤلاء هم المسلمون قد أقبلوا عليهم سلاحهم يتقدمهم فرسانهم وشجعانهم ويقودهم رسول الله بنفسه .

وطاف رسول الله بحصون بنى قريظة وظل أصحابه يتوافدون حتى وقت العشاء وهم غير قادرين على أن يصلوا العصر . فقد أمرهم النبى أن تكون الصلاة فى بنى قريظة .. ثم أمر عليه السلام بأن يحاصروا المكان كله وألا يتركوا منفذا للمرور الى الحصون وألا يخرج واحد منها الا عاجلوه بحتفه.

وكانت عدة جيش النبى فى هذا الحصار ثلاثة آلاف . ولم يتخلف أحد .. وكانت خيل المسلمين فى هذا الحصار ستة وثلاثين فرسا وكان بدء الحصار يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة سنة خمس هجرية . وظل مضروبا عليهم خمسة وعشرين يوما حتى استسلموا .

وقد ذكر الواقدى أنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء الحصار ، حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة . كما يذكر ابن هشام أن بعض الأنصار من الخزرج وبنى الحارثة قتلوا ، ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الحصون الا مرة واحدة طول مدة الحصار لأن عدد المسلمين كان يربو على الآلاف (كان ثلاثة آلاف كما ذكرنا) . بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز السبع مائة الا قليلا .

وانتهت هذه المعركة بانتصار المسلمين على بنى قريظة وحكم بالأعدام على المحاربين منهم ، والأسر على غيرهم وأرسلت نساؤهم الى نجد ، واشترى بثمنهن سلاح .

بعد انصراف الأحزاب مخفقين من حول المدينة كانت غايات المدينة السياسية قد تركزت وبانت معالمها ، وظهر للنبى بوضوح أنه لكى يفتح مكة . لا بد له من التخلص من العدو الذى كان لا يأمن شره وهو اليهود . ورأى من ناحية أخرى ، أن من الممكن أن يعاود اليهود الاجتماع مع قريش ، فتكون أزمة جديدة قد لا تقل عن أزمة الأحزاب شدة .. ولذا أخذ رسول الله يراقب يهود خيبر بعناية وحذر . فرأى أنهم أعز اليهود نفرا ، وأكثرهم عددا ، وأوفرهم مالا ، وأنهم يكونون الخطر الفعلى على الاسلام اذا هم اتجهوا لكيده متحالفين مع يهود شمال الحجاز ، ومع أعداء المسلمين من العرب كما أن وجودهم فى هذه الحصون المنيعة فى شمال المدينة وبالقرب من غطفان قد يكون سدا يحول دون ما يجول فى ذهن النبى من الاندفاع بالاسلام والمسلمين صوب الشمال .. صوب هذه الامبراطورية التى تستعمر فلسطين والشام وهى امبراطورية الرومان .

اذن لا بد أن يبدأ الزحف نحو الشمال بازالة يهود خيبر من الطريق .. ولا سبيل الى ازالة هؤلاء اليهود من غير أن يأمن النبى جانب قريش ولو الى حين حتى لا تفاجأ المدينة أثناء غيابه عنها فى الشمال بغارة من مكة قد تخرب البلدة . وتهلك نساءها وأطفالها وثروتها ..

ولذا سار النبى الى مكة من غير قتال . وكان صلح الحديبية الذى سكن ريح قريش وأطفأ نار عداوتها ، الى حين .

ولم تكن الأنباء التى ترد من خيبر تحتمل البطء فى أمرهم ، فان أحد كبرائهم سلام بن مشكم كان دائم الاتصال بقبائل اليهود فى أقصى الشمال التى تسكن تيماء وفدك وأم القرى ، حتى يتعاونوا مع أهل خيبر للزحف على المدينة . وقد أراد يهود خيبر هذه المرة أن يستفيدوا من أخطاء بنى قريظة . فيكونوا أكثر جدا فى الحرب وجلدا على القتال ... كما أنهم كانوا يختلفون عن غيرهم من اليهود بأنهم أهل حرب وصدام ، فقد كان مقامهم بجوار غطفان وغيرها من قبائل العرب التى كثيرا ما يغير بعضها على

بعض ، سببا فى تعودهم حياة الكفاح المسلح . ولم يكونوا مثل يهود يثرب يعتمدون فى أكثر الأحيان على حلف الأوس والبعض الآخر على حلف الخزرج .

ولم يكن النبى فى حقيقة الأمر يحتاج الى سبب جديد يحمله على المسير الى خيبر . فقد تذكر أنه فى أثناء مفاوضات القبائل لكى تهجم على المدينة مع الأحزاب ، وعد اليهود غطفان بثمار خيبر مدة عام كامل ، مما يدل على أن يهود خيبر وان لم يشتركوا فى القتال الا أنه لم يكن لديهم ما يمنع من النزول عن ثروة النخيل مدة عام اذا هم خلصوا من الاسلام والمسلمين !!

وصلت الى النبى أنباء أخرى أكدت أن اليهود فى الشمال يسعى بعضهم الى بعض التآزر ، وجمع جيش يهاجم المدينة . وأنهم عاودوا التفكير فى تأليب غطفان . وهى من أقوى القبائل العربية ، للسير معهم . وأن كبيرا من اليهود ـ أسير بن رزام ـ هو الذى يتولى المفاوضة وقد تولى زعامة خيبر بعد قتل ابن أبى الحقيق .

تأكدت لدى النبى عليه الصلاة والسلام الأنباء من أكثر من مصدر ؛ حتى أن خارجة بن حسيل جاء يقول انه ترك اليهود يجتمعون فى كتائب ويزحفون .

ورأى النبى أن يلجأ الى وسيلة أخيرة ـ كعادته دائما ـ يسكن بها هذه الريح التى توشك أن تهب . فبعث وفدا كبيرا من أصحابه عدته ثلاثون رجلا ، وعلى رأسه عبد الله بن رواحة ، لكى يفاوض اليهود فى أن يرضوا بحكومة المدينة ، وأن يكون حاكمهم من دينهم يختاره النبى عليه الصلاة والسلام ..

وصل الوفد الاسلامى الى خيبر . وفاوض أسير بن رزام ، فقبل . وعارض بقية اليهود قائلين ان محمدا لن يرضى أن يتولى أمرهم يهودى ، ولكن أسير أصر على الذهاب الى المدينة ، لكى يفوز بأمارة رسمية على

خيبر . وأخذ معـه ثلاثين من أعوانه ، وبخلوا بدوابهم فلم يحضروها ، فأركب كل مسلم أحد اليهود على دابته حتى اذا كانوا فى الطريق على بعد ستة أميال فقط من المدينة عدل أسير بن رزام عن رأيه ، وخشى أن يحبس عنـد المسلمين . ولم ير وسيلة يعود بها الا أن يتـآمر مع قومه على قتل المسلمين على حين غرة . وكان عبد الله بن رواحة متنبها فطنا فما بدأ اليهود فى تنفيذ غدرهم حتى عاجل عبد الله كبير اليهـود بضربة سريعة فى ساقه أخلت توازنه ، وكان يركب معه ، ثم تواثب المسلمون على اليهود فقتلوهم وعادوا الى المدينة بتفصيل ما حدث فقال لهم رسول الله : « لقد أنجاكم الله من القوم الظالمين » .

وكانت هذه الحادثة قبيل المسير الى خيبر مباشرة .



تقع خيبر كما قلنا شمال المدينة المنورة ، وهى على مسيرة أربعة أيام منها بالسير المعتدل أو ثلاثة أيام بالسير السريع .

عند عودة رسول الله من الحديبية فى ذى الحجة . أقام عشرين يوما . وفى الثلث الثالث من شهر المحرم سنة سبع للهجرة أمر بأن يجتمع أقوى رجاله وأكثرهم جلدا وبصرا بالحرب ، فكانت عدة جيشه ألفا وثمان مائة رجل ، ومائتى ، فارس ــ وقيل أقل من هذا قليلا .

وهذه هى المرة الأولى التى يزحف فيها النبى الى مكان بعيد بهـذا الجيش . وانا نراه يترك فى المدينة بقية جيشه الذى رأيناه فى الخندق ، وعدته ثلاثة آلاف ، حتى لا يدهمها خطر وهو بعيد عنها . كما أننا نرى هنا عدد الفرسان يزيد ستة أضعاف عما كانوا عليه فى حصار بنى قريظـة وذلك لأن النبى عنى بشراء عدد كبير من الخيل من نجد . ومما لا شك فيه أن جيشه هذه المرة كان كامل العدة والسلاح فهو مقبل على مهاجمة مواقع

من أمنع حصون جزيرة العرب بنيت فى الحال وسدت منافذها بالصخور ، وأقيمت على أطرافها الأبواب الضخام .

وجد المسلمون فى السير فلما أشرفوا على خيبر ، وبانت لهم حصونها من بعيد قال رسول الله :

« قفوا .. » ثم دعا ربه بقوله :

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن . ورب الرياح وما أذرين . نعوذ بك ونسألك خير هذه القرية ، خير أهلها وخير ما فيها . ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها » ..

وهتف بجيشه :

« أقدموا باسم الله » .

وكان وصول النبى الى خيبر ليلا ، فعسكر بعيدا عنها ، وأمر الجيش ألا يشعل نارا حتى لا يتنبه له من فى الحصون ، فلما كان الصباح ، خرج زراع اليهود فرأوا المسلمين ففروا هاربين ، فصاح النبى : « الله أكبر .. خربت خيبر .. انا اذ أنزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين » .

واختار النبى أن يكون الهجوم على خيبر ، ومقر معسكره بوادى الرجيع الذى يفصل غطفان عن خيبر حتى لا يأتى هؤلاء العرب المشركون مددا لليهود . ويقول ابن اسحق ان غطفان همت فعلا بمساعدة جيرانها ، ولكن ما أن تحرك محاربوها وتركوا مساكنهم حتى أحسوا كأنما استعد المسلمون لتطويقهم واقتحام المساكن وهم بعيدون عنها ، فآثروا العودة وحماية دورهم وتركوا اليهود والمسلمين وجها لوجه .

* * *

كانت حصون خيبر كثيرة ومفرقة فى سفوح الجبال المحيطة ، ولذا قسم النبى الجيش الى وحدات ، وحاصرت كل وحدة حصنا : وبدأ الهجوم

بشدة حول حصن يسميه الواقدى حصن نطاة ، فكان جرحى المسلمين خمسين مما يدل على مناعة هذا الموقع .

وحدث فى أثناء الحصار أن مات كبير اليهود سلام بن مشكم ، فتولى مكانه الحارث بن زينب ، وكان أول حصن فتح هو حصن ناعم ، ثم القموص .

ويذكر ابن اسحق رواية تدل على شدة القتال ، وأن يهود خيبر كانوا غير يهود يثرب .. قال : خرج مرحب اليهودى من حصنه قد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول : من يبارز فقال النبى : من لهذا ؟ فانبرى محمد بن سلمة وقال : أنا يا رسول الله أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس . فقال له النبى : « فقم اليه . اللهم أعنه عليه » فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة . فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها ، حتى برز كل منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها غصن ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه ، فاتقاه بدرقة (درع) فوقع سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته وضربه محمد بن سلمة ضربة قتلته .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر ، فانبرى له الزبير بن العوام وكانت أم الزبير تشهد المعركة ، فقد خرجت مع الجيش ، وتمكن الزبير من قتل منافسه .

وكان النبى يرسل أصحابه واحدا واحدا لمهاجمة الحصون فكانوا يعودون ولم يفوزوا منها بطائل . أرسل أبا بكر فرجع ولم يفتح ، وأرسل عمر فكان نصيبه نصيب صاحبه . وكان علي بن أبى طالب مريضا بعينه . ولكنه لما رأى هذه الحال تقدم والمسلمون من ورائه يسرعون ، حتى وصل الحصن فركز رايته وهجم عليه اليهود فأخذ يقاتلهم وهم يتراجعون امامه حتى احتموا وراء باب الحصن . فتكاثر عليه مع نفر من أصحابه حتى خلعه واقتحم عليهم مكانهم فرفعوا راية التسليم .

وكذلك فتح حصن الوطيح وحصن السلالم . وعفا النبى عن أهل هذين الحصنين وأمر بأن يتركوا أموالهم كلها وسلاحهم وأن يسيروا الى الشام .

وتنقسم حصون خيبر التى دانت للنبى الى قسمين : قسم فتح عنوة وأسر من فيه وأزيل أهله عن مكانهم وقسم عرض الصلح قبل الهزيمة ، فأبقاهم النبى يزرعون الأرض لحساب سادتهم الجدد من المسلمين . وذلك ان هذه القرى قسمت عليهم من مهاجرين وأنصار وشرط على من يقيم فيها من اليهود الذين عفا عنهم النبى ، أن يكون لهم نصف الثمار وأن يكون للمسلمين من أصحاب الأنصبة فى الأرض النصف الآخر .

وقد أصاب سقوط خيبر بقية قوى اليهود فى فدك وأم القرى وتيماء بزلزال شديد فقررت فدك أن تسلم دون قتال ، على أن يكون لها نصف أموالها ونصف غلتها كل عام والباقى جزية للمسلمين . فرضى عليه الصلاة والسلام بهذا . وكانت فدك كلها من نصيبه عليه السلام لانها لم تفتح عنوة ولم يتكلف اخضاعها جهدا حربيا من الجيش .

وكان اليهود يحسون بمرارة بالغة من هذه الهزيمة العاتية التى حلت بهم . وقد ظهرت آثار هذه المرارة فى بعض حوادث أبقتها لنا كتب السيرة منها أن زينب ابنة الحارث بن مشكم أهدت النبى شاة مشوية ، ووضعت السم فى ذراع الشاة لما علمت ان النبى يحب هذا الجزء منها . ولكن الله صان رسوله وعصمه من أن يأكل هذا الطعام المسموم ، ودعا الفتاة اليهودية وسألها : ما حملك على ذلك ! قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبيا فسيخبر !!

وقد عفا رسول الله عن هذه الفتاة لأنه أعلم بطبائع النفوس وأعرف بحقيقة البواعث التى تحركها ، وقد مات من أكل هذه الشاة أحد المسلمين هو بشر بن البراء .

واختلف الرواة كثيرا فى المدة التى أقامها النبى فى خيبر وفى رواية لابن عباس ستة أشهر ، وفى رواية أخرى أربعين يوما ، وفى رواية ثالثة أقل من هذا ولا نستطيع الجزم بحقيقة المدة التى أتم فيها المسلمون فتح هذه الحصون ولكنا نرجح انها مدة ليست بالقليلة ، وقد تصل الى شهور لأن النبى كان يهاجم المواقع حصنا حصنا ، وبعضها كان يستعصى على الفتح ويكبد المسلمين عناء كبيرا ، وكانت هذه المواقع كثيرة ، وان لم يعرف لها احصاء دقيق لكثرة الأسماء التى ذكرت لها .

ولما ذهب النبى بجيشه الى أم القرى ، وكان حريصا على دعوة يهودها الى الاسلام فرفضوا هذه الدعوة باصرار ، وعلى الرغم من أن جميع من خرج منهم للمبـارزة قتل . (قتل منهم أحد عشر يهوديا) الا أنهم بقوا على دينهم . واستمر حصارهم أربعة أيام ثم فتح المسلمون منطقتهم عنوة وغنموا أموالهم وتركت الأرض والنخيل بأيدى اليهود . وذكر البلاذرى ان النبى أمر عليهم عمرو بن سعيد بن الغاص .

ولما بلغ أهل تيماء ما حل بوادى القرى ، نهجوا نهج أهل فـدك فصالحوا المسلمين على الجزية الأولى ، وولى بلادهم يزيد بن أبى سفيان كما ذكر البلاذرى .

وقد اختلفت كتب السير كثيرا فيما فتح عنوة وما فتح صلحا من مدن اليهود . وذلك لأن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته أخرج اليهود من ديارهم هذه . فلم يبق منهم أحدا لافى فدك ولا فى خيبر ولا فى تيماء . فقد رأى أمير المؤمنين أن بلادهم فى طريق الشام ولا يوجد دليل واحد على أنها تقبل الاخلاص للحكم الاسلامى ، وطريق الشام كان طريق الامـداد والجيوش والرسل تغدو وتروح ، ولا بد أن يكون طريقا آمنا تماما . وبهذا تطهرت الحجاز كلها من أى أثر لليهود فيها . وما زالت كذلك حتى اليوم . وان كان يهود هذه الأيام قد بدأوا يمدون أبصارهم اليها .

* * *

كانت غنائم المسلمين بعد فتح قرى اليهود وحصونهم فى الشمال وفيرة جدا ، حتى أن سيرة ابن هشام تورد تفصيل قسمة المغانم فى نحو ثمانى صفحات من القطع الكبير . ولا عجب ، فان خيبر وما جاورها كانت من أغنى بقاع الحجاز وهكذا تخلص المسلمون بعد خيبر ، من أخطر خصم كان ينافسهم فى جزيرة العرب لأنه كان مسلحا بعدة أسلحة . أولها كتابهم الذى كثيرا ما حرفوا آياته وهاجموا بنصوصه المسلمين . وثانيهما أموالهم التى كانت تضمن لهم صلات قوية مع كثير من قبائل العرب . وثالثها قوتهم المادية ومناعة حصونهم وقدرة بعضهم على الحرب . وخصوصا أهـل خيبر .

وقد رأينا فى كل ما سبق أن رسول الله كان شديد الحرص على أن يصل الى اتفاق مع اليهود فلم يستطع . ولم يحص عليه فى مرة أنه كان يغض من دين اليهودية أو يجرحه : اللهم ألا التزييف الذى أدخله الأحبار على أسفار التوراة بغية الكيد للمسلمين والدس لهم .. وفى تاريخ اليهود لولفنسون :

« وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغانم التى غنمها المسلمون من غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم .

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبى بالبنان ، ويحفظون له هـذه اليد ، اذ لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة . ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان المتعصبون من النصارى فى اضطهاد اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام « أ . هـ » .

وفى فتوح البلاذرى أن النبى أوصى عامله معاذ بن جبل ، حين وجهه

الى خيبر « بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم » . وكما ورد فى نفس المصدر انه لم يكره يهود البحرين على ترك دينهم واكتفى منهم بالجزية .

وما لنا نترك صحيفة العهد التى كتبها النبى أول قدومه المدينة ونذهب بعيدا ، وفيها أنه يترك لليهود حريتهم الدينية .. اللهم قد أثبت نبى الاسلام فى جميع مراحل حياته أنه كان بعيدا عن التعصب ، وأنه نفذ مبدأ « لا أكراه فى الدين » تنفيذا حمل اليهود المتأخرين من أمثال اسرائيل ولفنسون على أن يكبروا هذه الناحية من تاريخ الاسلام أى اكبار .



وينبغى لنا أن نقف وقفة قصيرة عندما جاء فى كتاب مارجوليوث(1). تعليقا على سقوط خيبر : « وقد عاش محمد هذه السنين الست بعد هجرته الى المدينة على السلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه . وكذلك بالنسبة الى القبائل اليهودية فى المدينة . فقد كان هناك على أى حال سبب ما ــ حقيقيا كان أو مصطنعا ــ يدعو الى انتقامه منهم . الا أن خيبر ، التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها فى حقه ولا فى اتباعه خطأ يعتبر تعديا منهم جميعا ، لأن قتل أحدهم رسول محمد لا يصح أن يكون سببا يتذرع به للانتقام » .

وعلى الرغم مما فى هذا القول من بذاءة وسوء أدب ، ففيه أيضا مجافاة لروح الصدق ولما ينبغى أن يتصف به العالم من أمانة ، فقد ذكرنا فى أسباب فتح خيبر أن النبى كان يستند فى تصرفه مع أهلها الى ثلاثة أسباب رئيسية :

أولا ــ انها كانت من أهم العوامل على انضمام غطفان الى الأحزاب . وقد وعدها اليهود بنصف ثمار خيبر ، رشوة لها ، ولا يعقل أن

(1) وقد ترجم النص الدكتور حسن ابراهيم فى كتابه « تاريخ الاسلام السياسى » .

يكون نصف الثمار ملكا لفرد حتى يقال أنه لا يعبر عن رأى خيبر كلها ، وانما خيبر كلها اشتركت فى هذا التحريض .

ثانيا — وفضلا عن أنها آوت أعداءه من بنى النضير ، وولتهم زعامتهم وتركتهم يسافرون فى أنحاء الجزيرة . يؤلبون على النبى ، فان خيبر عاودت تأليب الأحزاب من جديد على أن تزحف هى ويهود أم القرى وتيماء وفدك ، لكى تستأصل « الاسلام » حتى ان شخصا جاء الى النبى يقول له ان كتائب اليهود فى طريقها الى المدينة ولقد حاول النبى أن يفاوضهم ، ويأخذ ميثـاقهم على طاعتهم ، فأوفد لهم وفدا كبيرا من ثلاثين شخصا وكاد الصلح أن يتم بينهم ، الا أن وفد اليهود هم بالغدر فى الطريق فأبيد عن آخره .

ثالثا — ثم أن النبى ما كان يمكن أن يسكت عن بقاء اليهود وهم من غير شك يحملون له أكبر الضغائن ، بسبب ازالة يهود يثرب عن مكانهم بالنفى والقتل ، اذ المعروف أن اليهود شعب واحد ، وهاهم هؤلاء قد اختاروا لزعامتهم بعض من نفاهم النبى من بنى النضير . نقول ما كان يمكن ان يسكت عن بقاء هذا العنصر المعادى وهو ينتقل بجيشه فى القبائل المجاورة ويتجهز لغزو مكة .. ترى هل كان مارجوليوث يستريح لو أن النبى غادر عاصمته فى رحلة بعيدة مع جيشه ثم أقبل اليهود من الشمال وخربوا له مدينته وسبوا نساءها وأطفالها ؟ !! لقد كانت كل الغزوات الحربية توجب على النبى ، كقائد حربى بصير ، أن يؤمن المناطق التى حوله ويطهرها من العناصر المعادية حتى يشرع فى عمل واسع النطاق ضد الشرك والمشركين .

وأخيرا ليس السلب والنهب والتلصص هو ما أثار مارجوليوث ،ولكن اثاره وضغط على أعصابه حتى كادت تتمزق ، النتائج الحاسمة لسياسة

النبى مع اليهود ، ولولاها لما أمكن للاسلام أن يخطوا فى أعوام قليلة ، هذه الخطوات الواسعة فتدين له العرب كلها . ومما يكشف عن السبب الحقيقى لحنق مارجوليوث قوله بعد قليل :

« .. وهذا يبين لنا ذلك التطور الذى طرأ على سياسة الرسول الأولى منـــذ كان فى المدينة عندما أعلن معـــاملة اليهود كمعـــاملة المسلمين ، وأن يترك الوثنيين (١) لا يتعرض لهم بسوء ماداموا بعيدين عن اظهار عدائهم للمسلمين ، أما الآن فان مجرد القول بأن جماعة ما ، مشركة أو يهودية ، غير مسلمة ، يعتبر كافيا لشن الغارة . وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التى سيطرت على نفس محمد والتى دفعته لشن غارات متتابعة كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبله ونابليون من بعده » .

وأكثر من هذا دلالة على عقلية ونفسية مارجوليوث قوله أيضا : « ان استيلاء محمد على خيبر يبين لنا الى أى حد قد أصبح الاسلام يهـــدد العالم !! »

حقيقة لقد كان الاسلام خطرا يهدد العالم .. ولكن أى عالم ، عالم الشرك وعالم الاثم وعالم الظلم وعالم الخطايا .. عالم العرب فى أوثانهم حتى تحطم الأوثان ، وعالم اليهود فى أحقادهم حتى تنطفىء الاحقاد . وعالم الفرس والرومان فى ظلمهم واثمهم حتى يزول الظلم وتمحى الاثام .

ولقد أدى محمد عليه السلام رسالته ورسم الخطة للذين جاءوا بعده فنفذوها كاملة يحدوها التوفيق الآلهى .. ولم يوقف سير الزمن سخفـــا كهذا السخف الذى انطوت عليه نفسية حقود باسم العـــلم أو آلاف الحاقدين مهما لبسوا من مسوح واختفوا وراء أستار .

***

(١) هذا خطأ فاحش ، فقد هادن النبى اليهود ، لانهم أهل كتاب . اما المشركون فلم يتحول النبى قط عن عزمه على حربهم او يقبلوا الاسلام .

واذا كنا قد عرضنا بتفصيل لموضوع خيبر منذ أربعة عشر قرنا .. فلأن يهود اليوم يعلنون من اسرائيل أن خيبر ، حقهم ، وانهم يستعدون للزحف عليها . أى الزحف على الحجاز ، واستعادة خيبر ، والثأر من المدينة المنورة .. هكذا يقدرون ، ولكن للاقدار حديثا غير حـديث اليهود باذن الله .

الانبياء والقرآن الكريم :

وليس هذا التفكير بغريب على اليهود . فانهم يزعمون لأنفسهم حقا فى فلسطين لأن فريقا منهم كان يسكنها قبل الاسـلام بخمسة قرون . ويزعمون أن لهم حقا فى العراق ، لأن ابراهيم الخليل ولد فيها منذ خمسة وثلاثين قرنا وعلى هذا فان خيبر ، وضواحى المدينة المنورة كانت آخـر موقع قدم لهم فى المنطقة العربية .. وما داموا يزعمون ان لهم حقا فى أول مواقع أقدامهم ، فان أبصارهم ستمتد الى آخر ما كانوا يعيشون فيه من أرض ..

والحقيقة أن القرآن الكريم ، ونبى الاسلام عليه أزكى صلاة وتسليم بذلا أعظم جهد لكى يتحول اليهود الى قوم قابلين للتعايش السلمى مع بقية الناس ولكن أحدا منهم ــ باستثناء أفراد قبائل ــ لم يعدل عما سار فيه هو وأسلافه منذ فجر تاريخهم ، من العتو فى الكفر ، والكراهية للبشر أجمعين .

لقد أنفق القرآن نحوا من ثلث آياته فى استعراض تاريخ التوحيد وأنبيائه ، ومجادلة اليهود فى عقائدهم وما يزعمون . وليست هناك وسيلة للمقارنة بين ما حشدته التوراة عن هؤلاء الأنبياء من حقائق قليلة ، وأباطيل كثيرة ، وهذا الأسلوب العف الأمين الذى عرض به القرآن لسيرة أنبيائهم وعقائدهم .

ان القرآن يتحدث عن تأمل ابراهيم فى الكون من حوله ، ويستهدى ملكوت السموات والأرض .. تأمل فى الشمس والقمر ، والليل والنهار ،

وأيقن ان لها جميعا خالقا فوق كل هذه المخلوقات . وبدأ حواره مع أهله من عبدة الأصنام .

ولقد كان ابراهيم عفا ودودا لمخالفيه ، فلما هدده أبوه بأن يرجعه عن دين التوحيد ، لم يرتد الابن ، وقال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى أنه كان به حفيا .

وما أجمل وأعذب ما عبر به ابراهيم عن احساسه بالذات الآلهية وهو يقول :

« الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والـــذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ، واجعل لى لســـان صدق فى الآخرين ، واجعلنى من ورثة جنة النعيم ، وأغفر لأبى ، انه كان من الضالين ، ولا تحزنى يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » .

(الشعراء ٧٨ ــ ٨٩)

ونرى ابراهيم فى هذا الدعاء يتحدث عن أمرين عامين :

أولهما : البعث بعد الموت . وهو من الكلمات الأولى التى نزلت على لسان أبى الأنبياء . ولا نجد للبعث ذكرا واضحا على ألســـنة أنبياء التوراة من قبل ابراهيم ، وبعده ، حتى ظهر المسيح عليه السلام .. وانما وردت اشارات يصعب تأويلها عن الهاوية ــ أو جهنم ــ فى سفر أيوب اصحاح ١٩ :

« وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » .

وحتى فى عصر المســـــيح كانت طوائف من اليهــــود

ـ الصدوقيون مثلا ـ تنكر البعث تماما .

وفى هذا نجد التوراة دونت عقيدة ينقصها ركن من أهم أركان الايمان .

ثانيهما : أن ابراهيم . دعا الله لخلفائه أن يكونوا من بعده لسان صدق ووصف القرآن اسحق ويعقوب أجمل وصف . اذ قال :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات ، وأقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

(الأنبياء ـ ٧٣)

فأين هذا الاعداد السليم الكريم لحمل رسالة التوحيد ، مما أورده مؤلفو التوراة عن ابراهيم واسحاق من انهما تاجرا بزوجتيهما التماسا للثراء والأمن . وكيف خدع يعقوب أباه اسحاق لما كف بصره ، وأخذ منه عهد الولاية على قومه بالكذب والغش ، على نحو ما مر بنا ، نقلا عن نصوص التوراة .

ولما دعا ابراهيم ربه ، بأن تكون ذريته أئمة للناس ، رد الله سبحانه وتعالى فى قرآن مبين : « قال لاينال عهدى الظالمين » . واذن فليس يكفى أن ينتسب أى انسان لأب من الصالحين ، ولكن ينبغى أن يكون هو صالحا فالنبوة والولاية على مناسك الناس ليست ارثا ، ولكنها عمل ومجاهدة .

واسماعيل أبو عرب الحجاز .. الذى أسقطته التوراة من حسابها ؟ لقد وصفه القرآن الكريم أنه كان من الأخيار وقال عنه :

« واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادقا الوعد ، وكان رسولا نبيا » .

(مريم ـ ٥٤)

هل أهمل كاتبو التوراة اسماعيل ، لأنه كان من أم مصرية ، وهم يحملون للمصريين حقدا دفينا ، وكيدا عظيما ؟ ربما كان هذا هو السبب ؟

ولماذا ينقم اليهود على المصريين ؟ لقد جاؤوهم أيام يوسف الصديق عشرات قليلة حددتهم التوراة بأنهم كانوا سبعين فردا بما فيهم أطفال يوسف . وخرجوا منها ، وقد تضاعف عددهم عشرة آلاف مرة !!

لقد غذتهم مصر ، ووفرت لهم الحياة ، والعمل . ولكن العمل هو الأمر الذى ظل يزداد عبئه على اليهود ، وهم رعاة غنم لا أهل انتاج .. فلما قسا عليهم المصريون ، ولم يوفروا لهم حرية الحياة على طريقتهم ، وألزمهم تحتمس الثالث وابنه ، بأن يشاركوا فى بناء معابده ــ معابد لآلهة لا يدينون لها ــ كان هذا هو الظلم الذى وقفت السماء بجانبهم فيه، وأنجتهم منه وعاقبت ظالميهم .

ان الله خلق الناس أحرارا فى عقيدتهم ، وفى عملهم ، وفيما يملكون ، على ألا يكون فى هذه الحرية مضرة وغبن للآخرين .

وهذا ما سارت عليه شرائع السماء من يومها الأول : معاونة الانسان الذى توفر له الحرية الهداية ، والايمان .. وتوفر له الحرية سبل العمل والسعى فى مناكب الأرض .. وتوفر له الحرية الاحساس بحاجة الآخرين الى الحرية ، فيعمل على أن يسود الأمن جماعته .

فكما اهتدى ابراهيم الخليل لربه بالتأمل والتفكير .. كذلك صنع واحد من نسله ــ وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ــ اذ انقطع فى غار حراء سنين طويلة يتأمل فى الكون ثم يهتدى الى نفس النتيجة : اله واحد أحد .

ولقد دعا ابراهيم قومه الى الرشاد بغير اكراه ، كذلك صنع المسيح عليه السلام ، وكذلك صنع محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

لا آكراه فى الدين

لا ظلم للناس .

وتمتعوا ودعوا غيركم يتمتعون .

« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » .

(القصص — ٧٧)

ولقد فتح الله باب رحمته فى أول الأمر لليهود ، عسى أن يكونوا شعبا مختارا يسير الناس فى أثره مهتدين ، ولكنهم لم يصلحوا لحمل هـذه الامانة ، وغلب عليهم الشقاء ، كما غلب على ابليس فى بدء الوجود .. وما أروع وصف القرآن الكريم لهم :

« ثم قست قولبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون » .

(البقرة ٧٤)

وقال :

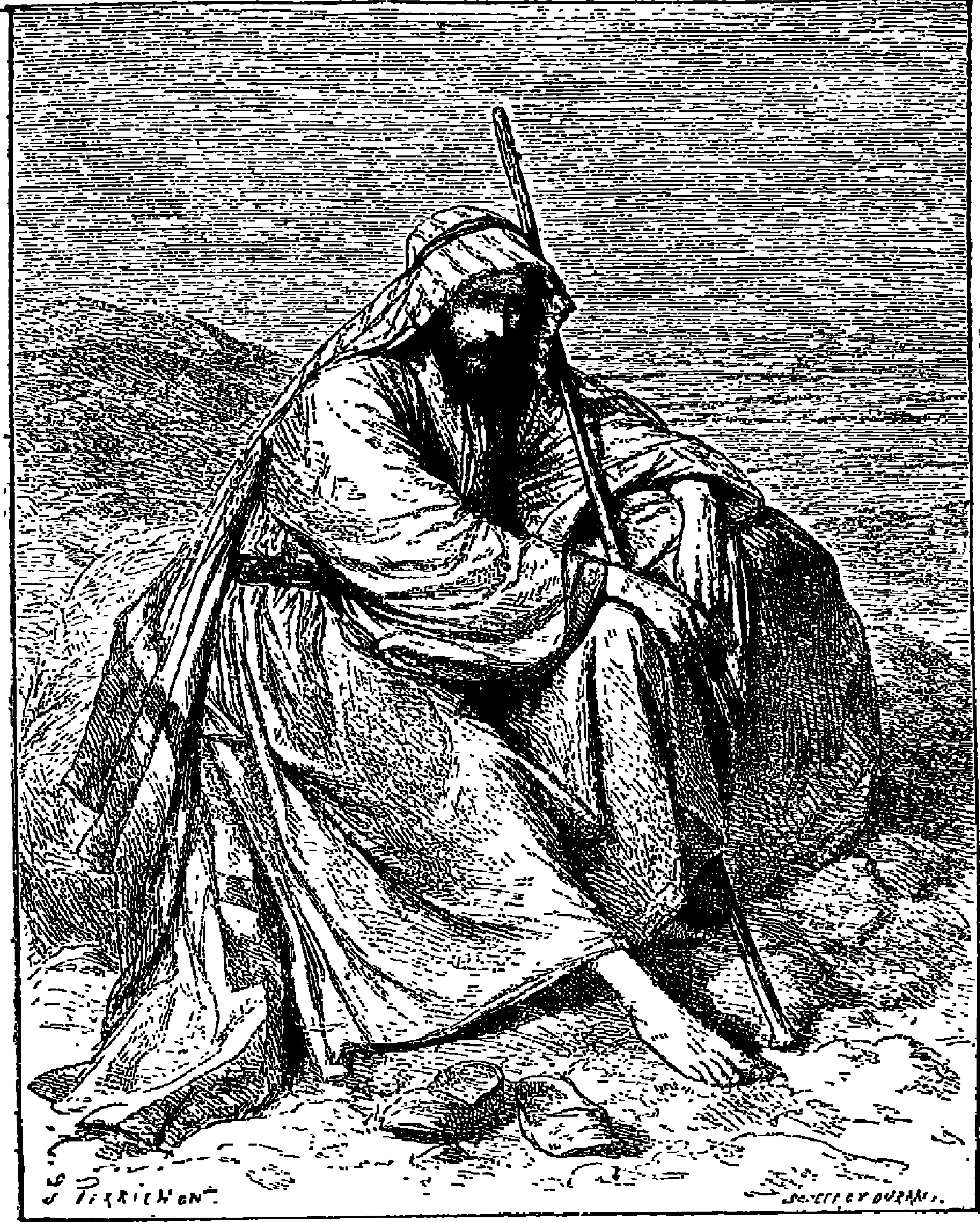
« وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله »

(البقرة ٦١)

وقال :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

(المائدة ٧٨ — ٧٩)



المسيح عليه السلام كما تخيله رسامو القرن الماضى فى اوربا ،
وهو فى زى عربى يختلف عن ازياء اليهود

الفصل العاشر

اليهود والدولة الاسلامية

ذلك كان تاريخ اليهود فى حياة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .. وقد كرروا ــ كما رأينا ــ حربهم ضد المسيح والمسيحية ، مع الاسلام والمسلمين .

وقبل أن نمضى الى مرحلة جديدة من تاريخهم معنا ، نقف قليلا عند شبهات لاحت لبعض الذين يقرأون القرآن الكريم ، ويسمعون قوله تعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وانى فضلتكم على العالمين » . ولا ينبغى أن نقف عند هذه الآية ، دون أن نتبين أسباب نزولها ، والميقات الذى تتحدث عنه ، والآيات الأخرى التى توضح معناها وتحدده . ونحن نعلم أن القرآن يفسر بعضه بعضا ..

فقد كانت محاولة من السماء ، فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما بعده ، أن يدل هذا الفريق من البشر من سلالة يعقوب على طريق الخير والفلاح ، عسى أن تكون منهم أمة صالحة ، يقتدى بها سائر الناس. وما أكثر محاولات السماء لاصلاح ما أعوج من أمرهم . ولتبصيرهم وترشيدهم عن طريق الأنبياء ، وعن طريق الأحداث المتعاقبة ، ولكن لم تثمر فيهم كلمة الخير ، ولم تطرح شجرتهم الا مرا وحنظلا .. فماذا كانت نتيجة كفرانهم وعصيانهم ؟ .. كانت النتيجة فى قوله تعالى :

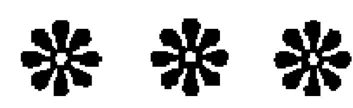
« سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » .

وكان تفضيل بنى اسرائيل ، على العالمين فى وقت نصرتهم ، واخراجهم من مصر بقيادة موسى ، وارسال الألواح بوصاياها لهم . وانه تفضيل ينسحب على فترة بعينها وأحداث محددة .. وآية ذلك قوله تعالى :

« ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين . من فرعون انه كان عاليا من المسرفين . ولقد اخترناهم على علم العالمين . وآتيناهم من الآيات مافيه بلاء مبين » .

فماذا كانت نتيجة هذه الرعاية الآلهية ، التى خص بها هؤلاء القوم ؟.. كانت صحائفهم السود ، من كفران بالله ، وعبادة للاوثان صاحبتهم طوال تاريخهم القديم وتحريفهم كلام الله وتبديله ، وقتلهم الأنبياء والمرسلين والهداة بغير الحق . واختلافهم بعضهم مع بعض . وعبادتهم الذهب . وخديعتهم ووضع كل طاقاتهم فى خدمة القوى الأجنبية رعاية لمصالح عاجلة ، أو كسب قريب . وهكذا مهدت كل نفس منهم طريق دمارها ، وسوء حسابها فى يوم آت لاشك فيه « ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون » .

وهكذا نقول ان تفضيلهم كان بداية التجربة ، وعدم جدارتهم بحمل الأمانة ، كان نهاية التجربة ، وخاتمة مطافها : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » .



واذا نحن تابعنا ما حدث من تبديل وتحويل فى صلب العقيدة اليهودية ، منذ استقر الاسرائيليون فى جزء من فلسطين ، نجد الملامح الأولى تغيرت من صفاء التوحيد ، الى ذبذبات واضافات صادفتها على مر خمسة عشر قرنا بين موسى والمسيح . ولما جاءت رسالة يسوع لتقوم ما اعوج من أمر المعبد وكهانه ، كان التغيير المستمر قد تحجر ، وأحكمت على قلوب القوم اقفالها .. ومضت خمسة قرون وبعض قرن ، لتشرق

الدعوة المحمدية بين « الأميين » أى الأمم الأخرى غير الاسرائيليين . وكما انكر اليهود ان يجيىء خير من نبى ظهر فى « الجليل » ، وهى على مرمى حجر من « ايليا » ، أو « أورشليم » ، كذلك كان الحال مع نبى ظهر فى الحجاز أرض الاسماعيليين .

عادت الدعوة الاسلامية بالتوحيد الى صفائه ، كما جاء به ابراهيم الخليل . وطوى الزمن ثلاثين قرنا لكى يتصل ما بين أبى التوحيد ، وحامل شعلته من جديد محمد بن عبد الله .. وتركز الخلاف مع اليهود — كما مر بنا — فى انكارهم الرسالتين المسيحية والاسلام . وكان طعنهم أشد وأقسى على المسيح وعلى أمه مريم .

يقول الدكتور على سامى النشار (١) :

« اذا نظرنا الى طبيعة اليهود والاسلام ، فاننا نرى أنهما يتفقان فى أشياء ويختلفان فى أشياء : يتفقان فى أنهما ناديا بالتوحيد ، ويختلفان فى تجسيم اليهود للاله الواحد ، ونفى الاسلام للتجسيم . ظهر الاسلام ينادى بأنه دين وسط ، ويحاول أن يخفف من غلواء المادية اليهودية الطاغية .. ويختلفان فى أننا لا نجد فى اليهودية نظرا عقليا فى الوجود . ولا يحاول العهد القديم أن يربط الظواهر الكونية فى وحدة فلسفية متسقة . انما يصور حوادث الكون كلها خاضعة لقوة قهرية مادية تسيطر ، ولا يستطيع العقل أن يتسامى الى كنهها . اما الاسلام فانه ربط الظواهر الكونية فى وحدة فلسفية متسقة .

وقال : « ويختلف الاسلام مع اليهودية فى صورة موسى — فموسى التوراة جبار عنيف يقتل ويغرم بالدماء . اما قصة موسى فى القرآن ففيها أجمل المعانى النفسية والروحية . ومن العجب ان تلهم قصته بعد ذلك كثيرا من المعانى الصوفية الدقيقة « فخلع النعلين » فى الوادى المقدس .

(١) أستاذ الفلسفة الاسلامية فى كلية آداب الاسكندرية وكتابه نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام .

« ومقام لن ترانى » أثارت أجمل النظريات الصوفية . بل نرى الحلاج فيما بعد ينادي ـ وقد قطعت قدماه وذراعاه بسيف الشرع ، ينادى بآية موسى القرآنية : « وعجلت اليك ربى لترضى » . فموسى القرآن غير موسى التوراة . لقد وضعه القرآن فى نسق الأنبياء الانسانيين الذين تنبثق منهم أغنيات الروح ، بينما وضعه اليهود منذ القدم ، وحتى الآن ، قاتلا جبارا ، يقتل من يشاء من غير اليهود ، ولا تحركه غير عاطفة اليهود ، ولا يتجه الا الى اليهود . جعله الاسلام « روحا » وجعله اليهود مادة . جعله الاسلام نبيا انسانا ، وجعله اليهود نبيا صنما » .

وهذا الرأى الفلسفى الناجح ، واضح مما قدمنا من مقارنات قبل ذلك .. ولعل السلام الذى خاض به اليهود معركتهم التالية ضد السلام ، هو اختلاق الأحاديث والمواقف ، ودسها على الفكر الاسلامى ، والجماعة كلها . فمنهم من أسلم خداعا وزيفا .. وأخذ على الفرقة فى الرأى والتأويل ، ويجند أعوانا يحارب به غيرهم . وعلى الرغم من المتاعب التى لقيتها العقيدة الاسلامية فيما بعد من هؤلاء المندسين ، الا أنها كانت شديدة اليقظة عظيمة الحذر ، بحيث تغلبت على هذه الأضرار ومحتها مع مسيرة الزمن .

قبيل الفتح الاسلامى :

هناك فترة من الزمن تبلغ خمسة قرون ، انقضت منذ خرج آخر يهودى من أورشليم حتى وصلت اليها جيوش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فلم يكد يمضى على انتقال المسيح عليه الصلاة والسلام خمسون يوما حتى بدأ أصحابه التبشير بتعاليمه ، وقد زايلهم الرعب ، واتقنوا التخفى . فأنشأوا لعبادتهم مكانا ، يعد أول كنيسة فى العالم .. ثم بدأت الدعوة تمتد بهؤلاء الذين خرجوا يبشرون ويكافحون عن دعوة الحب والسلام .

واذا كانت أورشليم قد انتهت من حناة اليهود بعد دمارها . واعادة بنائها كقرية رومانية ، على الأنقاض القديمة ، فان فئات قليلة ظلت مبعثرة فى بعض المدن الفلسطينية ، ولا سيما فى طبرية ، التى أنشأها اليهود بعد

هيرود وحملت اسم الامبراطور الرومانى طباريوس ، تقربا من اليهود اليه . وفى عام ١٨٠ م بدأ كاهن منهم يحمل اسم « يهودا » فى جمع وتدوين قوانين يسير اليهود المشردون بمقتضاها . واستمرت هذه المحاولة قرنا ونصف قرن بعد ذلك حتى جمعت « المنشنا » . وقد أضاف يهود بابل اليه « الجمارة » ، ومن الاثنين كان التلمود ، أى التعاليم وهى من خمسة عشر جزءا ، وتعد شروحا واضافات للتوراة ، ويحافظ اليهود قدر استطاعتهم على سريتها .

وهكذا كان انتزاع السلطة الزمنية منهم مفيدا لهم فى عملية التدوين المستفيضة ، ومن القرن الثالث حتى الآن ، واليهود يعيشون فى هذه الصحائف التى خلقوها فى وحشة الهزيمة ، وقرون الضياع ، ثم ما لبثت هى أن خلقتهم ، وعاشوا بها ، مهما تباعد بهم المقام ..

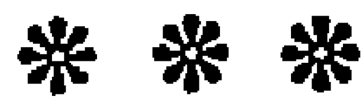
التوراة والتلمود ، كتبا فى العراق ، وفى فلسطين ، فى سبعة قرون ، وهى أطول فترة فى التاريخ دون فيها كتاب ، بأقسامه المختلفة ، وقد خلق الانجيل للمسيحيين روحا معنوية قوية ، جعلتهم يصمدون لكل أنواع الارهاب والعذاب ، حتى انتصرت عقيدتهم . والقرآن خلق للمسلمين عقيدة واعية ، وايمانا راسخا مكنهم فى نصف قرن من أن يطيروا على أجنحته من قلب الجزيرة العربية الى المحيط الهادى فى أقصى الشرق والمحيط الأطلنطى فى أقصى الغرب .. أما التوراة ، وتلمودها ، فلم تصنع لليهود الأول بعد سقوط أورشليم النهائى شيئا يذكر . بل كان المخلفون منهم فى فلسطين يباعون فى سوق الرقيق ، وكان سعر الحصان أغلى من سعر اليهودى . وكانت سوق بيعهم تقام فى ضواحى حبرون التى هى مدينة الخليل .

وكان سقوط اليهودية ، مؤذنا بارتفاع أعلام المسيحية تدريجيا .

اختفت اليهودية فى فلسطين بعد قرن أو قرنين من ميلاد المسيح ، وما أسفت عليهم أرض الكنعانيين ، ولا اهتزت فى جبل الزيتون شجيرة ..

وأين هذا من وقت ، مدتهم السماء بعنايتها وموسى يقودهم ، وفرعون يغرق مع جنده ..

ان ما ينطبق على اليهود فى هـذه الفترة ، هو ما انطبق على فرعون وجنـده من قول كريم : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .



يقول « جيبون » فى مرجعـه الكبير : « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها : « ان المسيحية انتشرت ، لأنها صححت الكثير من تطبيقات اليهود لعقيدتهم فى الرب ووسائل عبادته » .. وبدلا من التدشين بالدم ، حل شىء أقل ضررا وهو التدشين بالماء .. وبعد أن كان الوعد برضا الله محصورا فى ذرية ابراهيم — تحيزا وتحزبا — أصبح فى المسيحية قدرا مشتركا للأحرار والعبيـد ، واليـونان والمتبربرين ، واليهود والأمميين (الأميين) ... وكان تحرير الكنيسة من قيود هيكل بنى اسرائيل ، على أية حال ، عملا يتطلب وقتا ، كما أنه شاق نوعا .

وكان الأساقفة (المسيحيون) الخمسة عشر الأولون فى أورشليم من المختتنين . وجمع شعب الكنيسة الذى ترأسوه بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وأصبحت كنيسة أورشليم الأرثوذكسية هى الكنيسة الأم ، حتى قامت كنائس أخرى كبيرة فى انطاكية والاسكندرية ومدن اليونان وروما نفسها . وبعد أن كان أتباع المسيح من اليهود السابقين ، أخذت جموع كبيرة من أديان وثنية ، تستظل براية الايمان الجديد . وقد عاق دخولهم من قبل ثقل الطقوس الموسوية ، وفداحة تكاليفها النفسية والمادية . وأخذت الهوة تتسع بين المسيحيين واليهود . وزاد فى عمق الهوة ما كشفت عنـه صحائف التوراة من المذابح الهائلة التى أجراها اليهود فى أرض كنعان على كل من قدروا عليه من البشر ، وأنه لا يمكن لشعب ربانى أن يأتى مثل هذه الجرائم .

وكانت نظرية البعث والحياة الثانية وخلود الروح التى بشرت بهـا المسيحية سببا أقوى ، فى ابتعاد الدين الجديد عن اليهودية ، التى لا تؤمن بشىء من هذا .

واستقلال العقيدة المسيحية بطقوسها ، وانفتاحها على الناس جميعا ، هزم الفلسفة الوثنية فى جانب ، والعبادة اليهودية فى جانب آخر . وبدأ ذلك كله بهدم الهيكل ، وكل مكان كان يجمع اليهود كقومية .

وكانت قوة الدولة الرومانية أخذت تذوب ، وتتداعى . حتى أن سبعة وثلاثين رجلا نودى بهم أباطرة فى فترة خمســة وثلاثين عاما من القرن الثالث الميلادى .

وفى عهد الامبراطور قسطنطين ، كانت مقاومة المسيحية لما حل بها من اضطهاد قد فاقت كل حد متصور ، وأصبح واضحا أن العسف يزيدها قوة، ولا يطفىء لها نارا أبدا . وبدأت خطة التسامح مع المسيحية فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، فأعفيت أملاك الكنائس من الضرائب ، وجعلت الكنيسة وارثة لأملاك الشهداء الذين لم يتركوا ذرية ، الى جانب هبات الدولة للمسيحيين وانتهى هذا كله باعتناق قسطنطين الامبراطور الدين المسيحى.

وفى وسط الخرائب القديمة البيزنطية ، أقام قسطنطين مدينة جديدة تحمل اسمه ، مديرا ظهره لروما ، وكان ذلك عام ٣٣٠م . وانتهت بذلك قصة الدولة الرومانية ، التى حكمت العالم من وسط ايطـاليا ، وشهدت انتصارات هائلة ، حولت البحر المتوسط الى بحيرة رومانية ، وضمت اليه بحر الشمال أيضا .. وكانت المسيحية عاملا هاما فى هذا التطور (١) .

وكان رد الفعل فى أورشليم لهذا التطور التاريخى عظيما . فقد أصبحت المدينة تابعة للدولة الجديدة . وفى سنة ٣٣٥م زارت الامبراطورة هيلانة المدينة ، وبنت كنيسة القيامة ، وكان على الصخرة بناء صغير ، هدمته ،

(١) احتفلت روما عام ١٩٣٦ بمرور ٢٦٨٩ عاما على تأسيسها .

وجعلته مقرا للقمامة ! ونكاية فى اليهود المبعثرين هنا وهناك أمر قسطنطين اليهود أن يتنصروا ، ومن يرفض دين الدولة الجديدة يقتل ، أو يغـادر البـلاد .

وهؤلاء اليهود المبعثرون الذين كانوا يتسللون الى فلسطين ، ثابروا على انتهاز فرصة ضعف فى الدولة ، أو غفلة من الحكام ، لينشئوا فى أورشليم هيكلا جديدا يتجمعون حوله .

وجاءت الفرصة أيام الامبراطور جوليان ، الذى بدأ سيرة أخرى ، اذ أعلن ميله لمساعدة اليهود ، وحمايتهم ، ومساعدتهم على بناء الهيكل ، وذلك كراهية منه للمسيح والمسيحية .

يقول « جيبون » فى تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية أن ماجذب هذا الامبراطور الى اليهودية هو أنه كان شديد الشغف بالقرابين الدموية الى درجة أن كان يريد أن يبز الملك سليمان حين نحر فى عيد التقدمة ، ٢٢ ألف ثور و ١٢٠ ألف خروف . وحتى يغيظ المسيحيين وكنيسة القيامة التى أقامتها الملكة هيلانة ، فقد أمر باقامة معبد يهودى فوق مرتفع جبل مورية، تتضاءل الكنيسة الى جانبه ، وكانت مقامة على تل كلفارى المجاور . وعلى عادة اليهود فى الاحتفال بمثل هذه الانتصارات ، فقد تقدم أغنياؤهم فى كل مكان بمعاول مصنوعة من الفضة ، وكانت الأتربة تنقل فى عبـاءات من الحرير .

وكان المسيحيون مغضبين أشد الغضب ، حانقين على هـذا العمل ، يتمنون فرصة أو مناسبة تدمر ما يحاول اليهود اعادته . وحدث حادثان لا واحد : موت الامبراطور جوليان بعد ستة أشهر من ابتداء هذا العمل . ثم حدوث زلزال ، وثورة بركانية ، دمرت كل ما شيده اليهـود لاعادة الهيكل . وبهذا زالت القيود والمصادرات الرهيبة التى طبقها جوليان على المسيحيين . فالى جانب مصادرة الأموال ، حرم عليهم تعليم فنون النحو والبلاغة . قال فى مرسومه : ان أولئك الذين لا يجهرون بديانة اليونان

(الوثنية !) ويرفضون عبادة آلهة هوميروس وديموستين ، يجب عليهم أن يقنعوا بشرح انجيل لوقا ، وانجيل متى فى كنائس الجليليين . وشمل مرسوم جوليان علوم الطب والفنون الحرة . وبدأت حركة هدم للكنائس. وكان من العقوبات التى طبقها الحكام فى هذه الردة الوثنية المفاجئة ، وطرب لها اليهود ، عقوبة وقعت على أسقف مسيحى اسمه مرقس عجز عن دفع غرامة كبرى وقعت عليه ، فبعد جلده بطريقة وحشية ، علقوه فى شبكة بين شجرتين ، وطلوا جسده بعسل النحل ، وترك عرضـة للهواء والحشرات مدة ، فتحمل الأذى صابرا ، الى أن كفوا عن تعذيبه .

وكانت نهاية جوليان هذا عام ٣٦٣ م عند ما أصيب بجرح مميت فى حربه مع الفرس ، فهلك .. وأخذت المسيحية تعود تدريجيا الى مجدها ، وينزوى اليهود ، منسحبين الى حوارى العالم المظلمة . وأخذت الكنائس ترتفع مرة أخرى فى أورشليم ، التى أصبح اسمها « ايلياء » . ثم كان ما أشرنا اليه من توالى أباطرة ضعاف على رأس الدولة ، فاستغل الفرس الفرصة ، وهاجموا مواقع الامبراطورية المسيحية فى آسـيا ، وسقطت فلسطين فى أيديهم .

وفى سنة ٦١٤م احتل كسرى (ايلياء) أو « أورشليم » ، وأمر قائده « خزرويه » بذبح تسعين ألفا من سكانها المسيحيين ، وهدم الكنائس ، ومنها كنيسة القيامة . وكان اليهود عيونا وجواسيس للفرس الوثنيين فى هذه المجازر ، وساعدوا بدورهم على ابادة المسيحيين ، بل تقول مراجع كثيرة أنه هلك على أيديهم من المسيحيين أكثر من الذين قتلهم الفرس .

وفى هذه الفترة كانت الدعوة الاسلامية ، تكافح للظهور والانتصار فى الحجاز ، وجاءت الأنباء بما حل بالمسيحيين ، وكيف هزم الرومان وولوا مدبرين . وهنا نزلت آية قرآنية تتناول هذه الحرب ، وتتنبأ بمصير آخر ، وأطلق اسم الروم على السورة التى افتتحت بها هذه الآية :

« ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى

بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم . وعد الله ، لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

واهتمام المسلمين ، وهم ما يزالون بعد فى مكة ، لم يهاجر منها سيدنا محمد ، له دلالة عميقة ، على أن الحجاز لم يكن بمعزل عن الأحداث العالمية . وتغلب الفرس وهم بعد وثنيون ، على المسيحية فى منبع رسالتها واستيلائهم على الصليب ، وتذبيحهم لأتباع المسيح بهذه الأعداد الهائلة ، أنزل الله الوحى بآيات تبدد جزع المسلمين الجدد ، من أن ترتفع رايات الوثنية على المنطقة كلها .. وكانت جيوشهم قد وصلت الى مصر ، بعد أن اجتاحت الشام وفلسطين ..

ولم يمض وقت طويل ، حتى استولى هرقل على الحكم فى القسطنطينية ، وكان شابا فى الخامسة والثلاثين من العمر . وقد كافح كفاحا مريرا حتى تمكن من هزيمة جيوش كسرى واسترد صليب المسيح الذى كان قد وقع غنيمة فى يد الفرس وأودع فى كنيسة « صوفيا بالقسطينية » ، كما أطلق سراح « زكريا » بطريق بيت المقدس .

وفى السنة التالية — ٦٢٩ م — سار هرقل الى بيت المقدس ومعه صليب المسيح ، لكى يحج الى هناك . وعندما وصل الى طبرية ، تلقاه وفد من اليهود يحملون له أكداسا من الهدايا ، ربما فاقت كل ما حصل عليه من اسلاب الحرب ، كى يأخذوا منه عهدا بألا يعاقبهم على تعاونهم مع الفرس .. فعلوا ذلك ، قبل وصوله الى بيت المقدس ، وقبل أن يسمع شكاة أهلها مما صنع بهم اليهود . وقد نجحوا فى الحصول على هذا العهد ، بعد تقديم الثمن . ولعل هرقل كان قد كفاه ما رأى وما سمع من سفك الدماء ولم يجد مبررا لمزيد منها .

يصف « الفرد بتلر » فى كتابه الشهير : فتح العرب لمصر ، وصول هرقل الى بيت المقدس على النحو التالى (١) :

« سار الامبراطور فى سبيله ، الى أن لاحت له المدينة المقدسة عن بعد ، ومن السهل أن تتصور سير موكبه فى خيل تلمع عدتها ، من حديد يبرق ، وألوية على الخيل تخفق ومن رماة بالنبال ، وكماة فى يد كل رمحه وعليه درعه ، وقد احتقب كنانته ، وفى وسطهم سار هرقل فى خاصته ، وهم جميعا كقطعة تتلألأ من الذهب ، وزاهى الألوان ، حتى اذا اقترب من المدينة ، خرج اليه موكب من القسوس والرهبان ، يحملون الأناجيل والشموع والمجامر ، كما كانت عادتهم فى احتفالاتهم ، وجاءت من ورائهم جموع كبيرة من الأهلين . وهكذا سار حتى بلغ الباب الذهبى (٢) فى الجانب الشرقى من المدينة . وكان فى انتظاره هناك البطريق زكريا ، فسلم عليه ، وأظهر الخضوع ، ثم أخذ يعنفه على فخامة ملبسه ، وأمره أن يخلع رداءه الارجوانى ، ويطرح ما عليه من الذهب حتى يقترب من المواضع الطاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع . وسار الامبراطور المظفر بعد ذلك فى لباس الحاج المنيب الى ربه . وكان يرى اينما ولى وجهه ، آثار الخراب الذى جره الفرس على المدينة منذ أربعة عشر عاما . وشكر رجال الدين على ما بذلوه فى سبيل التعمير ، ولا سيما بناء كنيسة القيامة، وكنيسة الرأس ، وكنيسة قسطنطين . ثم كان بعد ذلك الاحتفال الأكبر المشهور باسم — اعلاء الصليب — ولا تزال ذكراه الى اليوم تحييها الكنيستان الشرقية والغربية كلتاهما فى ١٤ سبتمبر من كل عام » .

وما كادت ضجة الاحتفالات تهدأ ، حتى بدأ أهل بيت المقدس يروون لهرقل ، ما صنعه بهم اليهود فى فترة تغلب الفرس ، وقد هالته الفظائع التى ارتكبوها ، فلم يحفل بالعهد الذى أعطاه لهم فى طبرية . وبدأت

(١) ترجم هذا الكتاب المرحوم الاستاذ محمد فريد ابو حديد فى اسلوب ادبى رائع .

(٢) فى القرن الثانى عشر الميلادى اقتصر استعمال هذا الباب فى أحد السعف تذكارا لمرور هرقل منه .

مذبحة الانتقام تحصد أرواح اليهود لا في فلسطين وحدها ، ولكن في كل مكان وجدت فيه المسيحية . وقد ذكر المقريزي ان مصارع اليهود عمت « حتى لم يبق منهم أحد في دولة الروم ومصر والشام الا من هرب واختفى » .. وكان ذلك عام ٦٣٠ ميلادية .

وأصدر هرقل مرسوما بألا يقترب يهودي في المستقبل من القدس الى مسافة ثلاثة أميال من أسوارها .

اليرموك :

وحدث بعد ذلك ، ما سبق أن شرحناه من صراع بين يهود الحجاز ، والعقيدة الاسلامية في فجر ظهورها . واذا كان القرآن الكريم ، والمسلمون حول رسول الاسلام ، والرسول نفسه ، قد اتجهت انظارهم الى فلسطين من اليوم الأول ، فقد تجلى ذلك في أمور :

١ — رحلات رسول الاسلام ، وتجار الحجاز الى فلسطين ، متاجرين وزائرين في رحلات الصيف والشتاء . وقد مكنتهم هذه الرحلات من معرفة تفاصيل ما يدور في المنطقة التي تقع شمالهم .

٢ — وجود عرب كثيرين في الشام كله ، حتى ان حاكم دمشق من قبل هرقل كان عربيا ، هو جبلة بن الايهم . وساند بقوات من عنده الجيش الروماني عندما بدأ الفتح الاسلامي ثم ما لبث قومه أن انحازوا لأهلهم العرب ، وبعد انتهاء المعارك في المنطقة أسلم جبلة ، وفي مفاجئة تطبيق قواعد الاسلام ، لم يطق ، ما أراد عمر بن الخطاب أن يلزمه به ، ففر الى القسطنطينية ، ولحق ببلاط قيصر مرة أخرى .

٣ — اسراء سيدنا محمد الى القدس ، وفي هذا الحادث ، نزل قرآن : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله .. » ، ورويت أحاديث ربطت القدس

بالاسلام رباطا لا ينفصم ، ومنها قول النبى : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

٤ — كان آخر عمل حربى قام به رسول الله قبيل وفاته ، هو اعداد جيش يقوده أسامه بن زيد ، لكى يغير على تخوم فلسطين ، ويشتبك مع القوات الرومانية فى فلسطين ، كرد على معركة « مؤتة » التى سبقتها وانتصر فيها الرومان . وقد انفذت هذه البعثة العسكرية لأداء مهمتها بتصميم من أبى بكر الصديق ، ومعارضة من عمر بن الخطاب لم يؤخذ بها .

٥ — وكان هذا العمل العسكرى ، تمهيدا لحركة الفتوح الكبرى ، واعطاء أولوية لهذه المنطقة . وقد ندب الخليفة الأول وأعظم رجال المسلمين بعد نبى الاسلام : أبى بكر الصديق .. أربعة من خيرة الصحابة لقيادة قواته الى هذه الجبهة ، وهم : عمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وأبو عبيدة بن الجراح ثم ما لبث أن امدهم من جبهة العراق بخالد بن الوليد عبقرى الحرب فى ذلك الزمان .

وقد ظلت فتوح الشام مضطربة بين المراجع القديمة ، تقدم مكانا على آخر . حتى أزال هذا الغموض أخيرا ، رجل عسكرى من خبراء الاستعمار الغربى المعاصر هو الجنرال باجت جلوب الذى كان قائدا لجيش الاردن لسنوات طويلة . اذ اقتضت ظروف وجوده فى المنطقة أن يدرس تاريخنا القديم ، وأن يطبق على الطبيعة ، أى على الأرض نفسها ، تحركات الجيوش الاسلامية ، وبهذا أمكن استخلاص الحقيقة ، وازالة الغموض الذى صاحب الرواية القديمة للاحداث .

وكان السبب المباشر للدراسة ، ان القوات البريطانية فى الحرب العالمية الثانية خشيت من هجوم ألمانيا على شرق البحر المتوسط عن طريق

تركيا ، والوصول الى مصر عبر سوريا وفلسطين . وكان من أهم واجبات القيادة البريطانية أن تعثر على موقع تستطيع أن تصد فيه جحافل الالمان ودباباتهم ، فى هذه الجبهــة ، كما عثرت على موقع العلمين فى موقــع الصحراء الغربية المصرية . وكلف جلوب بارتياد الأرض ، فى منطقة درعا..

قال فى وصفه :

« يعد نهر اليرموك المسيل المائى الذى يصرف مياه منطقة حوران . وقد قام هذا النهر مع مر ألوف السنين ، بحفر أخدود عميق ، يسهل فيه ليصب فى وادى الاردن الذى ينخفض نحوا من ثلاثة آلاف قدم عن سهل حوران . ويبدأ هذا الأخدود عند بلدة درعا . وتقوم الى الشرق ، والشمال الشرقى من هذه البلدة ، سلسلة ضخمة من الجبال التى ولدتها البراكين الخامدة ، والتى تكتظ سفوحها بكتل ضخمة من السوائل البركانيــة المنصهرة . وتصعب الحركة فى بعض الجهات فى هذه المنطقة حتى على المشاة بينما يتعذر السير فيها على الجمال أو الابل أو العجلات مهما كان نوعها . وتهبط هذه النتوءات البركانية نحو السهل تدريجيا الى أن تصل تقريبا الى نقطة يصبح فيها نهر اليرموك ضيقا لا يصلح للمرور مطلقا . وهــذه الفجوة الصغيرة بين الأرض البركانية ، وبين اليرموك كانت تعتبر فى عام ٦٣٤ م ، وما زالت تعد الى يومنا هذا ، الطريق الرئيسى بين دمشق ، وبين فلسطين وعمان والعقبة » .

ذكرنا هذا التفصيل ، الذى قد لاتكون له علاقة وثيقة بموضوع كتابنا ، ولكن علاقته لا تخفى بواقعنا هذه الأيام .. ومراجع الفتــح الاسلامى تتحدث عن الروم والعرب عنــد اليرموك ، ثم تذكر انفضاض اللقاء دون نتيجة . ويتكرر ظهور اليرموك فى الروايات .

ويستأنف جلوب وصفه بقوله : كان المسلمون سريعى الحركة الى درجة هائلة ، وكان أسلوبهم المعنوى يتركز فى هجوم عنيف شرس ، وفى حركات تقدم ، وتراجع ، والتفاف ، تتم بسرعة مع قطع طرق المواصلات

والتموين . ولم يكن فى وسع القوات البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة ، أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراضى فسيحة منبسطة .. وقد فزع البيزنطيون من حرب العرب الصاعقة ، فأقام جيشهم فى عام ٦٣٤ م (كما أقام الجيش البريطانى فى عام ١٩٤١) معسكرا دفاعيا منيعا على مقربة من درعا فى الثغرة الواقعة بين اليرموك والأراضى البركانية ، فكان العرب يقدمون على الاشتباك مع الروم أمام هذه المواقع الدفاعيـة ليعودوا ، فينسحبوا . وكانت عمليات خالد بن الوليد حول تدمر وقرب دمشق ، تهدف الى اقناع الروم بالانسحاب من درعا لحماية مؤخرتهم ، وهو هدف لم يتحقق على أى حال .

ولم يكن خالد من طراز القادة الذين يخلدون الى السكينة ، والى محاصرة موقع الروم على نهر اليرموك . ولذا فسرعان ما تحولت العملية الى حركة هجوميـة دائمة . وكان أول عمل قام به خالد ، هو احتـلال مدينة بصرى ، وهى احدى المدن الاغريقية العشر التى بناها الاسكندر المقدونى قبل عشرة قرون . وكان عمرو بن العاص لا يزال يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية ، وجمع المغانم منها ، من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة . وكان هرقل مقيما فى حمص ، مشتغلا باعداد جيش جديد يبعث به الى جنوب فلسطين . ويبدو من فكرة ارسال هذا الجيش أن هرقل كان على ثقة من صمود تحصينات اليرموك فى وجه العرب ، والا لما كان يغامر بارسال جيش الى ذلك المكان النائى عن طريق طبرية ، فالناصرة ، فقيسارية ، للاشتباك مع عمرو بن العاص فى منطقة بير سبع . ثم قطع مواصلات المسلمين مع الحجاز باحتلال العقبة . وبهـذا يرغم المسلمين على التراجع من منطقة اليرموك .. وقد وقع التأثير المطلوب على قوات المسلمين فى اليرموك ، ولكن تحققت نتيجة أخرى . فبحركةانسحاب خاطفة من هذا الموقع ، وبزحف سريع مذهل ، أمكن أن يدرك خالد بن الوليد الجيش البيزنطى البليد المترهل بما يحمل من معدات الحضارة فى ذلك الوقت . وفى شهر يوليو من عام ٦٣٤ م حدث لقاء القوتين بين

الرملة وبيت جبرين ، عند موقع حملت اسمه هذه المعركة الحاسمة ، وهو أجنادين . وكانت المفاجأة تامة للروم ، وهزموا هزيمة ساحقة .

وهكذا أخفق الهجوم المضاد الذى رتبه هرقل ، وبمثله انتصر فى الماضى على جيوش الفرس . اذ هاجم عاصمتهم نينوى ، فى العراق ، فى الوقت الذى كانت جيوش كسرى تحاصر القسطنطينية ، مما أجبرهم على العودة مذعورين لانقاذ عاصمتهم ، ولكن بعد فوات الآوان .

وفى الشهر التالى مباشرة ــ أغسطس ــ كانت جيوش المسلمين تعود الى مواقعها عند اليرموك ، يزيد من حماستها ويقظتها النصر المؤزر الذى فازت به فى أجنادين . ولم يجد هرقل بدا من تجنيد جيش جديد ، ضم اليه عناصر من المسيحيين العرب فى سوريا ، واضطر العرب لتقصير خطوطهم فسحبوا وحداتهم التى كانت تحمى فتوح خالد فى سوريا عندما قدم اليها من العراق . واستغرقت عمليات هرقل للسيطرة على سوريا حوالى عامين الا قليلا .. ومرة أخرى تركزت العمليات كلها فى منطقة اليرموك .. وتعززت قوات العرب بمن انضم اليهم ، وتخاذلت قوات هرقل بالانقسامات العنصرية التى تكونت منها . فضلا عن ان البقاء عامين فى موقع واحد ، يورث الجنود الملل ، وهم لا يدافعون عن وطن وراياتهم ليست واحدة .

وفى الثلث الأخير من شهر أغسطس عام ٦٣٦ (بعد أجنادين بعامين كاملين) وجد العرب فرصتهم اذ هبت رياح عاتية فى هذا الشهر القائظ حملت سحبا من الرمال والأتربة ، واغرقت بها معسكرات الرومان وأحلافهم ، ومنعت الرؤية تقريبا ، وتحت هذا الستار الطبيعى الذى كان العرب يألفونه بحكم بيئته ، ومع حركة الريح نفسها تسلل فريق من قوات العرب الى جسر درعا خلف مواقع الروم ، وانطلقت فى وسط الريح المدوية صيحات الهجوم : الله أكبر .. الله أكبر ، وما استطاع الروم ان يفيقوا من دهشتهم الا وسيوف العرب تطيح برقابهم ، ورماحهم تغرس فى قلوبهم

وقائدهم « تيودوزوس » يخر مجندلا .. وكانت نساء الغرب مع رجالهم قوة دافعة ، فى المعركة ، حتى ان هند زوجة أبى سفيان كانت من بين من عاون فى القتال . وزوجها الشيخ حارب بعينه الواحدة ، وأبلى أحسن بلاء فى صف الاسلام ، وكان من قبل قائد المشركين ضده ..

لم ينج من جيش الرومان انسان بين قتيل وجريح وأسير . وسمع هرقل ، وكان فى انطاكية بالأنباء المفزعة ، فلوى عنان جواده شمالا الى بلاده ، وهو يقول : « سلام عليك يا سوريا ، سلاما لا لقاء بعده » .

وبهذه المعركة فتح طريق دمشق وحمص وبعلبك أمام أبى عبيدة بن الجراح ، ووصلوا الى المواقع التى سبق أن انسحبوا منها ، وكان استقبال الشام لأبناء عمومتهم حافلا ، وكان من رأى المسيحيين ان عدالة المسلمين أحب اليهم من ظلم الكنيسة الرومانية لهم .

وبسقوط مواقع اليرموك ، أصبحت القدس هى الهدف الرئيسى للقوة التى كان يقودها عمرو بن العاص وتعمل فى جنوب فلسطين وعلى المنطقة الساحلية . وبدأت مفاوضات بين رسل أبى عبيدة بن الجراح القائد الأعلى وصفرونيوس بطريق القدس ، وأكبر رجل فيها . وطالت المفاوضات ، وقد حرص المسلمون على أن يدخلوا المدينة صلحا لما لها من مركز القداسة فى نفوسهم ، وخشية أن يحل بها دمار المعركة ، وحسبها ما حدث فى معاركها بين الفرس والرومان ، واليهود والمسيحيين .

وكان شرط البطريق صفرونيوس ، أن لا يتم تسليم المدينة الا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه .

العهود المزيفة والصحيحة :

وهنا تبدأ الملحمة الانسانية الرائعة فى ذهاب عمـــر الى فلسطين ، يتبادل ركوب ناقته مع تابعه . فان المجهود الحربى استلزم تخصيص كل شىء للمعركة المصيرية التى دارت فى الشمال وفى الشرق . والعرب أدركوا

عن يقين أنهم اذا لم ينتصروا على الفرس والرومان معا ، تأمينا لدعـوة نبيهم ، ولدينهم الجديد ، فان القوات الشمالية قادرة على ان تزحف جنوبا وتنهى الحياة فى الحجاز كله .

وفى مشاورات عمر لأصحابه فى المدينة المنورة ، وافقوا على سفره ، لما « لايلياء » أو بيت المقدس من منزلة كبرى فى نفوسهم . فضلا عن ان قواده ما كانوا يستطيعون مغادرة مواقعهم لمشاورته فى تدبير أمور البلدان المفتوحة ، وهى بلدان الحضـارة ، ولأهلها من التقاليد والعـادات ، ما يحسن معه ان يرى أمير المؤمنين بعضا منها بنفسه .

وكان من أول ما قابل الخليفة أول وصوله عبر حدود الحجاز ، الى أذرعات ، أهلها الذين خرجوا للقائه مهللين منشدين وسيوفهم فى أيديهم وخيلهم تركض تسابق الريح ونساؤهم تدق الدفوف دقا عنيفا . ولم ير عمر منظرا كهذا من قبل . وكان أبو عبيدة على رأس مستقبليه عنـد هذا الموقع ، فرد أبو عبيدة ، قائلا ان منعهم يؤذى شعورهم ، وقـد يحسبون أن عهدهم بالامان نقض . فسكت الخليفة على مضض .. ثم تأمل عمر قواد المسلمين ، وحرسهم ، وهم يلبسون ثيابا مزركشة ، وجيادهم تخب فى الديباج ، ففزع من هذا الزى وقال انما شبعتم بعد سنتين ! وسألهم ماذا سيفعل خلفـاؤهم بعـد قرنين ! ولكنـه اقتنع بأن هيبتهم فى نظـر هذه الشعوب الجديدة تحت الحكم الاسلامى لا تكتمل الا اذا ظهر لهم حكامهم الجد بما ألفوه من مظاهر الحكم . فسكت على مضض .

وأخذ عمر بن الخطاب الى القدس طريق نابلس مارا بحقول القمـح ومزارع الكروم ، وهناك فوق جبل الزيتون ، كان لقاؤه مع البطريق صفرونيوس ، وقد حضر يحف به جمع من الأساقفة والقسس فى ملابسهم التقليدية ، وجمع من الشمامسة يحملون الصلبان . وقد رحب بهم الخليفة ترحيبا حارا ، لم ينكر من هيئتهم شيئا .. ولا من تراتيلهم ، وهم فى الطريق اليه يترنمون بصلواتهم .

وتأمل الخليفة المدينة القديمة ، الجاثمة تحت سفح الجبل وشاهد كنائسها ومساكنها . وأسوارها وأبوابها . ولعل بعض أعوانه أخـذوا يشرحون له المشهد ، ويشيرون الى مواقع جيوش الحصار .. وهذا مشهد يملأ نفس رجل عظيم الايمان مثل عمر خشوعا لله تعالى وعرفانا ، اذ أمكن بعد كفاح استمر أكثر من ثلاث سنوات ، أن يضم المدينة التى استقرت بها التوراة ، ثم الانجيل ، وقدر لها أن يحتويها ثالث كتب السماء ، وهو القرآن الكريم .

وقدم البطريق صفرونيوس لعمر كتابا سبق الاتفاق عليه مع أهل المدينة وهذا نصه :

« هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة ايلياء .. انكم لما قدمتم علينا ، سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرارينا ، وأموالنا ، وأهل ملتنا . وشرطنا لكم أن لا نحدث فى مدينتنا ، ولا فيما حولها ديرا ، ولا كنيسة ، ولا قلاية ، ولا صومعة راهب (غير ما بها) . ولا نحبس منها ما كان فى خطط المسلمين ، ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل أو نهار . وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وان ننزل من مر من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم . ولا نوارى فى كنائسـنا ، ولا فى منازلنا جاسوسا ، ولا نكتم غشا للمسلمين ، ولا نعـلم أولادنا القرآن . ولا نظهر مشركا ، ولا ندعو اليه أحدا . ولا نمنع أحدا من ذوى قرائبنا الدخول فى الاسلام ان أراده . وان نوقر المسلمين ..

وقال هذا العهد أيضا :

« ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نحمله معنا » وذلك لكى يأمن المسلمون آية ثورة مسلحة قد تثور فى المدينة ..

وأملى عمر بن الخطاب عهده على بطريق المدينة وأهلها ، وهذا نصه ، وقد أضيف الى ما ورد فى كتاب صفرونيوس جملة هامة خاصة باليهود تلفت لها النظر . .

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان

« أعطاهم أمانا لأنفسهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها .

انه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

« ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .

« وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية ، كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم ، فهو آمن . وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلى بيعهم وصلبهم ، فانهم آمنون على أنفسهم ، وعلى بيعهم وصلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله ، فانه لا يؤخذ منهم حتى يحصدوا حصادهم .

« وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، والمؤمنين ، اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب سنة ١٥ للهجرة

« شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

وكل ما فى هذا العهد تؤيده سماحة الاسلام ، وحب المسلمين وخليفتهم لهذه المدينة العزيزة عليهم . وتسامحهم ، بل معزتهم لاتباع المسيح عليه السلام وللكنائس التى أقيمت تمجيدا له ..

ولكن النص على ابعاد اليهود عن مدينة القدس ، وعدم السماح لهم بسكناها أمر يلفت النظر .. انه ليس أمرا جديدا على المدينة . فبهذا قضى هرقل ، قبل سنوات قليلة بل حدد ثلاثة أميال خارجها لا يتخطاها يهودي كما ذكرنا من قبل .

ولم يرد فى عهد البطريق صفرونيوس للخليفة عمر نص على ابعاد اليهود . واذن فقد استوحى المسلمون هذا النص بما علموه من عداوة اليهود للمسيحيين ثم المسلمين ، وما كان من وقائعهم ابان ظهور الدعوة الاسلامية .

وهذا النص من عمر بن الخطاب أمر ملزم لكل حكام المسلمين وحكوماتهم ، وهو شبيه بالنص على ألا يدخل مكة أو المدينة من ليس مسلما . وقد احترم المسلمون القاعدة الثانية ، ولكن الأولى ظلت محترمة ، حتى أمكن بطريقة ما تزال غامضة ، أن يسحب من خزائن الكنيسة فى القدس العهد الأصلى ، وكان مكتوبا على رق من جلد ، ويوضع بدلا منه نص مزيف ورد بعد ذلك فى كتب الكنائس ، وقدم الى السلاطين العثمانيين ورد فيه ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بالاسلام ، وأكرمنا بالايمان ، ورحمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهدانا من الضلال ، وأنقذنا من التهلكة ، ووحد قلوبنا ، ونصرنا على الأعداء ، وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين . فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة .

أما بعد ، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفرونيوس ، على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف فى الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان ، لأن الذى اذا حفظ أحكام الذمة وجب

له الأمان والصون منا نحن المؤمنين ، والى من يتولى بعدنا . وانقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع . وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم التى بيدهم داخلا وخارجا وهى : القيامة وبيت لحم مولد عيسى (عليه السلام) والكنيسة الكبرى ، والمغارة ذات الثلاثة أبواب قبلى وشمالى وغربى ، وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الأفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريرك المذكور ، ويكون متقدما عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبى الكريم والحبيب المرسل من الله ، وشرفوا بختم يده الكريم [1] وأمر بالنظر اليهم والأمان عليهم ، كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم ، ويكونون معافين من الجزية والغفر والمواجب . والمسلمين (كذا !) من كافة البلاد فى البر والبحر ، وفى دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم ، لا يؤخذ منهم شىء ، وأما الذين يقبلون الى الزيارة الى القيامة (كذا !!) ، يؤدى النصرانى الى البطريرك درهم (كذا ..) وثلث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطانا أم حاكما أم وليا يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن زيد ، وعبدالرحمن ابن عوف ! وبقية الأئمة الصحابة الكرام . فليعتمد على ما شرحنا فى كتابنا هـــذا ويعمل به ويبقى فى أيديهم ، وصلى الله على سيدنا محمـــد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية . وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن الى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضا .

---

(١) اشارة الى العهدة الممنوحة من النبى الكريم ذاته ، عليه الصلاة والسلام لرهبـــان طور سيناء .

ورد هذا النص فى دليل الأرض المقدسة للأرشمندت بنيامين ، طبع سنة ١٨٧٧ ، ونقله عنـه تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية المطبوع عام ١٩٢٥ ..

ومن له أقل المام بتاريخ الفتوح العربية ، يعلم أن هذا النص الأخير مزيف ، وذلك لتضمنه أخطاء لغوية وأسلوبية .. فمثـلا لم تكن كلمة « بطريرك » معروفة فى الأسلوب العربى القديم ، وانما اسـتعماو' كلمة بطريق بالقاف أو الكاف . ولم يعرف العرب فى صدر الاسلام كلمات : الغفر والمواجب ، فهذه ضرائب استحدثت أيام المماليك . وغنى عن البيان أن عمر بن الخطاب كان يعرف أن المبتدأ يرفع ، ولا يعقل أن يخطىء ويملى كلمة المسلمين ، وهى المسلمون . وتدل كلمة « سلطان » الواردة فى هذا العهد المزيف على الوقت الذى ابتدعت فيه الوثيقة ، وهو عهد السلاطين المتأخر جدا عن صدر الاسلام . ولم يكن عثمان بن عفان من شهود هذه المعارك ولكن لم يجد المزور بأسا من اضافة اسمه كشاهد . ويكفى أن هذه الوثيقة اسميت « مرسوما » وهى كلمة محدثة فى عهد الأتراك .

وأما لماذا زور هذا العهد ، فهناك ثلاثة أسباب :

١ — حذف النص بمنع اقامة اليهود فى بيت المقدس .

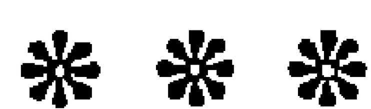
٢ — اضافة بعض امتيازات مالية لرجال الكنائس مثل تحصيل رسوم على زوار الكنائس الأثرية ، والاعفاء من الجزية .

٣ — تقديم هذه الوثيقة بامضاءات مزورة للسلطان العثمانى سليم الأول، لكى يقر ما زعموا أن عمر بن الخطاب أقره .

ومنذ ذلك الوقت زالت أو اختفت العقبة الكبرى فى تسرب اليهود الى بيت المقدس ، وهذه العقبة كانت عهد أمير المؤمنين عمر .

وأصبح واجبا علينا الآن أن نصحح تاريخنا ، وأن نلفت نظر أخواننا الذين يؤلفون عن تاريخ الكنيسة فى بيت المقدس الى عدم التورط فى نشر

هذا النص المزور والنص الأصلي موجود فى مراجع التـاريخ الاسلامى الأصلية مثل الطبرى ، وقد نقلناه هنا عنها .. وكذلك نلفت نظر الباحثين فى تاريخ فلسطين الى ضرورة عدم نقل هذا النص المزور ، لأننا بذلك نساعد الصهيونية على تحقيق أهدافها .



ولقد سقطت فى يد المسلمين بلاد أكبر وأعظم من « ايلياء » أو بيت المقدس ، مثل المدائن ودمشق وبيروت وحمص وصور والاسـكندرية وقرطاجنة وغيرها . ولم يفكر خليفة من خلفاء المسلمين فى أن يذهب بنفسه لاستلامها تلبية لرغبة كبير أو حاكم فيها . ولكن كان لبيت المقدس مركز خاص فى عقائد المسلمين . فهى ثالث مدنهم المقدسة ، وكادت تكون الأولى حتى وجه الله تعالى رسول الله الى أن تكون مكة هى الأولى ، وتكون قبلة لهم .

وتحرك موكب عمر بن الخطاب الى داخل القدس ، تحف به كوكبة من جنوده تعدادها أربعة آلاف ، وهم يهتفون هتافا كالرعد مكبرين مهللين، وسيوفهم مشرعة ، ووجوههم مستبشرة وكان أول مكان زاره عمر ، هو كنيسة القيامة . وحان وقت صلاة الظهر وهو فى هذه الزيارة فأشار عليه البطريق بأن يصلى مكانه . ولكن عمر بنظر ثاقب ، أبى أن يصلى فى داخل الكنيسة حتى لا يتخذها المسلمون من بعده مسجدا لهم ، وصلى خارجها، وغير بعيد منها ، فى المكان الذى أقيم عليه بعد ذلك مسجد يحمل اسمه . وقد قابل نصارى بيت المقدس عمله هذا بالشكر والعرفان ، وأدركوا أن عهدا جديدا سوف يظلهم ، يمارسون فيه عباداتهم بغير تضييق ولا اعنات.. بعد ستة قرون من المخاوف والمذابح .

وزار عمر مكان الهيكل ، هيكل سليمان وهيرود بعـد ذلك ، فاذا الصخرة التى كان عليها تحولت الى مزبلة ، لا اهمالا ، ولكن بأمر من حكام الرومان المسيحيين .. فراح عمر يحمـل التراب بنفسه ، وتبعه الصحابة

والجنود ، حتى نظفوا المكان في وقت قصير ، وبانت الصخرة وأمر عمر أن يقام فوقها مسجد ، فشرع المسلمون في اقامة مسجد من خشب .

ثم طاف عمر بن الخطاب بشوارع المدينة وأزقتها ، ورأى بنفسه ما خلفته الحروب وآخرها الغزو الفارسى ، قبل ربع قرن من هذه الزيارة ، وأخذ مع رجاله من صحابة رسول الله ، يضع نظام حكم مستقر ثابت ..

أمر بأن يكون التاريخ الهجرى هو تاريخ البلد . ثم قسمها . البلاد المفتوحة الى مناطق يقوم بأمر كل منطقة أمير (حاكم) . ثم رتب البريد بين المدن والقرى ، وبينها وبين المدينة المنورة . وعين قضاة يفتشون ويتأكدون من أن العدل مطبق والأمن مستتب وأسس ديوان الحسبة لمراقبة المكاييل والموازين .وعين من يقوم بنظافة الأزقة وازالة الفضلات ، ويرعى الرفق بالحيوان .

وكان لأبى عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الشام كله ، منزل فى بيت المقدس فذهب عمر يزوره فيه ، فلم يجد له فراشا غير لبد فرسه ، وكان طعامه لقيمات يابسة فى كوة البيت وبعض ملح واناء ماء من خزف ، وتقاسم الرجلان العظيمان هذه الوجبة .

وجعل عمر على حكم بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان على أن يأتمر بأمر أبى عبيدة ، وقسم فلسطين الى قسمين : شمالى وعاصمته الرملة ، وجنوبى وعاصمته ايلياء .

* * *

وكان بلال بن رباح الصحابى الجليل ، ومؤذن رسول الله حاضرا استلام القدس وكان قد عزم على ألا يؤذن لأحد بعد رسول الله . وفى يوم سفر عمر بن الخطاب عائدا الى المدينة نودى فى الناس للصلاة . قال عمر لبلال :

— يا بلال! ألا تؤذن لنا رحمك الله . قال بلال :

— يا أمير المؤمنين ، والله ما أردت أن أؤذن لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن سأطيعك اذا أمرتنى فى هذه الصلاة وحدها .

فلما أذن بلال ، بصوته العميق الخاشع النفاذ الى مجامع القلوب ، حتى تبينه آلاف المسلمين المجتمعين للصلاة ، فتذكروا نبيهم ، وأيامهم معه ، فهطلت الدموع من مآقيهم لجلال الذكرى ، ولم يكن أحد أطول بكاء فى هذه المناسبة من أبى عبيدة ، ومعاذ بن جبل ، حتى قال لهما عمر : حسبكما رحمكما الله .

وكان هذا الآذان آخر ما سمع من بلال ، وقد دل على عظيم مكانة القدس فى نفوس المسلمين ، وعن رسول الله أخذوا هذه المحبة ، وتوارثوها من بعده ، وانهم لحاملوها فى حبات قلوبهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وكانت رحلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة الى القدس ثم عودته منها ، قد استغرقت ثمانية أشهر .. وحمل بعد عودته الى الصحابة الذين انتظروه فى لهفة الشوق ، أطيب الأنباء عن اخوانهم الذين يرفعون رايات الجهاد فى الشمال ، فقرت عيونهم وطابت نفوسهم جميعا بنصر الله ، ان الله منجز وعده ، وانه على كل شىء لقدير .

القدس بعد عمر :

فى سنة ٢١ هجرية (٦٤١ م) تغير النظام الادارى للمنطقة ، بضم بيت المقدس الى الشام ، وخضوعها لحكم مباشر من أمير الشام فى ذلك الوقت معاوية بن أبى سفيان . وندب لها أميرا من قبله .

وباستتباب الأمن فى القدس ، وانتهاء الصراع الدينى فيها ، تحولت الى مركز تجارى كبير وأخذ العمران ينتشر فيها .. والمسلمون اذ تركوا الناس أحرارا فى عباداتهم ، انما كانوا يصدرون عن نصوص صريحة فى القرآن ، وتوجيه ثابت من رسول الله ، وما يزال عهدهم به قريبا .

فقد قال الاسلام فى صراحة صريحة لا اكراه فى الدين . وليس معنى هذا أن ينصرف المسلمون عن دعوة غيرهم للاسلام .. لا . فقد جاء هذا الدين خاتمة لدعوة السماء كى تبلغ للناس كافة .. ولكن كيف يكون البلاغ ؟ ليس السيف ولا السجن ولا التخويف هو السبيل ، وانما بقول

القرآن الكريم : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » . وفى حساب الدعوة أن يكون لها رافضون .. فان حدث « فتول عنهم ، فما أنت بملوم » فاذا لحق الدعاة أذى فالصبر أولى « ومالنا ألا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » .

وزاد الاسلام على ذلك ، انه اعترف بالأديان الكتابية ، عند ما قال فى سورة المائدة ، وفى مواضع أخرى كثيرة :

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم ، مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل » .

« فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين » .

« وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون » .

بهذه السماحة الكاملة ، احتوى الاسلام التوراة الصحيحة ، واعترف بالانجيل واذن فلماذا الخلاف ، ولماذا الكراهية ؟ ... لم يعد هناك مجال لأى نزاع ، بعد وصول المسلمين الى فلسطين ، والى بيت المقدس .

بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة :

السلام ترفرف ألويته على المدينة الحبيبة ، ترتفع فيها صلوات المسلمين ، وصلوات المسيحيين ، والجميع أخوة ، والطرق الى الله متعددة ، ولكن نهايتها واحدة . وتثور على الخلافة بين المدينة ودمشق خلافات ، وتثور حروب ، والقدس بعيدة عن هذا النزاع ، حتى اذا استتب الأمر للأمويين ، وبدأ ملكهم بمعاوية ، وفى سنة ٦٥ هـ (٦٨٤م) آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان . فنالت مدينتنا عناية كبرى فى عهده .. فقد زار بيت

المقدس ، بعد أن بعث الى الأمصار يقول لولاته فيها ان الله وجهه الى بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وأنه لا يريد أن ينفذ هـذا الأمر الا اذا أقرته الرعية . فجاءته الكتب من أنحاء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت تحبذ الأمر وتقول ان عليه أن يمضى فيما عزم عليه .

ويشـير كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليـل (١) الى أن عبد الملك بن مروان انما جد فى بناء القبة والمسجد الأقصى لكى يصرف الناس عن الحج الى مكة وقت سيطرة عبد الله بن الزبير على الحجـاز . ويشير مؤلف هذا الكتاب الى أن هذا الادعاء مرفوض لأن المنافسة بين ابن الزبير والأمويين هى التى أملته .

جمع عبد الملك أمهر رجال الهندسة والبناء والزخرفة من أنحاء بلاد المسلمين .. وبدأوا فأقاموا نموذجا لقبة الصخرة ، عرض على الخليفـة عبد الملك ، وشاور فيه أعوانه فأقروه . ورصد لهذا العمل الجليل مبالغ طائلة . اذ خصص خراج مصر سبع سنوات متوالية للانفاق عليه . وجعل واحدا من علماء عصره ، أمينا على الانفاق ، وهو رجاء بن حياة الكندى . وأشرف على التنفيذ مهندس من أهل القدس ، هو يزيد بن سلام . وكانت أوامر الخليفة الأموى ألا يضحى المشرفون على هـذا العمل بمال مهما عظمت النفقة . فلما تم انجاز البنائين : المسجد والقبة ، كتبا بالحساب الختامى للعمل الى الخليفة وذكرا له : ان البناء تم ، ولم يبق لمتكلم فيه كلام ، وقد بقى مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم مائة ألف دينار ، فليصرفها أمير المؤمنين فيما أحب .

رد عبد الملك ، وهو فرحان جذلا يقول للرجلين :

ـــ قد أمرت بها (الـ ١٠٠٫٠٠٠ دينار) لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك ـــ فكتبا اليه :

(١) مؤلفه هو قاضى القضاة مجير الدين الحنبلى وقد ألف كتابه سنة ٩٠٠ هجرية أى منذ خمسمائة سنة تقريبا .

— نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا ، فضلاً عن أموالنا ، فاصرفها (الجائزة) فى أحب الأشياء اليك .

فرد عليهما عبد الملك يأمر بأن تسبك الدنانير ، وتفرغ على القبة . فسبكت ، وأفرغت عليها ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها ممـا علبها من الذهب . وصنع غطاء عظيم للقبة من جلود ولبود ، لتحمى ذهبها من الأمطار والرياح والثلوج اذا كان الشتاء .

وكان مما أضيف الى مبنى القبة ، « درابزين » وزين ما بين عمد القبة بأستار من الديباج . ومرتان فى الأسبوع ، كل يوم اثنين وكل يوم خميس ، كان بعض خدم المسجد يعطرون الصخرة المشرفة تحت القبـة ، بالمسك والعنبر ، ويطوفون بمجامر الذهب والفضة ، حول الأعمدة ، ورائحـة البخور العبق تطوف بها ، وتتصاعد . وكانت الروائح الزكية تطـير مع الريح فيشمها من كان فى سوق القدس .

وكان ينادى فى الناس عند رفع أستار القبة ، كى يهرعوا للصلاة عند الصخرة . وذكر القـاضى مجير الدين ، أنه كان فى السلسلة المدلاة من وسط قبة الصخرة ، درة ثمينة ، وتاج كسرى . ونقلت الحليتان الثمينتان بعد ذلك الى الكعبة المشرفة فى مكة . وقد استغرق بناء القبة والمسجد الأقصى سبع سنوات (٦٦ هـ الى ٧٣ هـ) .

وكان سقف المسجد الأقصى عند بنائه معروشا بستة آلاف كتلة من الخشب وأنشأوا له خمسين بابا . وقد أطلقت على الأبواب أسماء الأحداث التاريخية والشخصيات .. مثل باب داود ، وباب سليمان ، وباب محمد ، وباب التوبة ، وباب الرحمة ، وستة أبواب للأسباط وباب الوليد ، وباب الخضر ، وباب السكينة . وقد أقيم سقف المسجد على ستمائة عمود من الرخام ، وعدد المحاريب سبعة . وكان عدد السلاسل التى علقت بها قناديل الاضاءة فى المسجد الأقصى ٢٣٠ سلسلة وفى قبة الصخرة ١٥٥ سلسلة طولها اذا مدت على الأرض : أربعة آلاف ذراع ووزنها ٤٣ ألف رطل .

واذا أضيء المسجد أشعلوا لنوره خمسة آلاف قنديل وفى الأعياد وليلة الجمعة كانت تقوى الاضاءة بألفى شمعة . وحتى لا يتأثر سقف المسجد ، فقد صفح أعلاه بآلاف من رقائق الرصاص . وكان يقوم على خدمة المسجد والقبة ٣٠٠ خادم يتوارث أبناؤهم مكانهم من بعدهم . وقد أقاموا ٢٤ صهريجا للماء ، تحمله اليها قنوات خاصة .

وتوفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) وتولى الخلافة بعده الوليد بن عبد الملك وكانت هناك اضافات للمسجد الأقصى أنجزها . وقد تلقى البيعة تحت قبة الصخرة ، وكان واليا على الرملة ، فرحل الى بيت المقدس ، وأخذت له البيعة فى المسجد الأقصى . وكان من شغفه بالقدس وبمسجدها أن الناس ظنوا أنه سينقل اليها مقر الخلافة . فلما استخلف من بعده الخليفة العظيم عمر بن العزيز ، قالوا : يرحم الله سليمان افتتح خلافته بخير (البيعة فى المسجد الأقصى) ، وختمها بخير (استخلافه عمر بن عبد العزيز) .

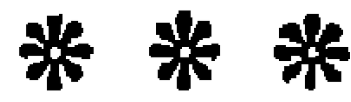
القدس فى عهد العباسيين :

حدث فى عام ١٣٠ هـ زلزال خطير هدم جوانب من المسجد الأقصى فى شرقية وغربية . وما كان فى وسع آخر الأمويين أن يعمل شيئا ، لأن دولتهم دالت بعد عامين اثنين (١٣٢ هـ — ٧٥٠ م) . فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة العباسية ، وكان منهمكا فى بناء بغداد لتكون عاصمة الدولة ، لفت نظره الى ما حدث للمسجد الأقصى من عطب . وكانت ميزانية البلاد موجهة الى بناء العاصمة ، فأمر بأخذ سبائك الذهب والفضة من أبواب المسجد ، وسكب دنانير وأعيد بناء ما تهدم من المسجد .

وتكرر حدوث الزلزال بعد ذلك ، وحدث تهدم جديد ، قام الخليفة العباسى المهدى باصلاحه ، وجاء لزيارة المسجد وهو يقول لمن حوله سبقنا بنو أمية بهذا البيت ، لا أعلم على ظهر الأرض مثله . وكان طول المسجد وقتها ٧٨٤ ذراعا وعرضه ٤٥٥ ذراعا .

وفى عهد الأمويين كانت معاملة الخلفاء والولاة للمسيحيين من أهل القدس طيبة جدا ، حتى أن بعضهم انضم الى خدمة المسجد ، وكان أبناؤهم يتوارثون عملهم أسوة بالمسلمين . ويظهر أن أفرادا من اليهود تسربوا الى القدس ، بل انضموا الى الذين يخدمون المسجد ، فلما تولى عمر بن العزيز أمر بتنفيذ ما أمر به عمر بن الخطاب ، وأخرجهم من المدينة .

وفى صدر العهد العباسى — فى أيام هارون الرشيد بالذات (٧٨٦م) . نشأت علاقات خارجية تتصل بالقدس . فقد تبادل الخليفة العباسى الشهير بعثات دبلوماسية وهدايا ، مع أكبر حكام المسيحية فى ذلك الوقت وهو شارلمان . وذلك بعد أن قامت فى الأندلس دولة أموية ، ما لبثت أن ازدهرت وكادت تنافس دولة العباسيين فى الشرق . واقتضى التنافس بين دولتى المسلمين ، أن تجتذب بغداد مودة فرنسا .. ولهذا أذن هارون الرشيد أن يمول شارلمان ترميم كنائس القدس ، وأن ينفق على انشاء كنيسة جديدة هى كنيسة العذراء . وسوف نفصل هذه العلاقة فى الفصل القادم .



يحوى كتاب « تاريخ القدس » (1) ان العالم برنارد الحكيم ، وصف للبابا القدس فى عام ٨٧٠م ، ونال رضاه . قال فى وصفها :

« ان المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . وأن الأمن مستتب للغاية ، حتى أن المسافر ليلا يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته . والا زج فى السجن حتى يحقق فى أمره . واذا سافرت من بلد الى بلد ، ونفق جملى أو حمارى ، وتركت أمتعتى مكانها ، وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة ، عدت فوجدت كل شىء على حاله لم تمسه يد » .

ووصف برنارد هذا ، الفندق الذى نزل فيه ، وهو معد للحجاج القادمين من بيزنطة أو ايطاليا ، فقال ان الذى أسسه هو الملك شارلمان .

---

(1) تأليف عارف باشا العارف ، نشرته دار المعارف بمصر عام ١٩٥١ .

وكان بجانبه سوق يترتب على التاجر الذى يعمل فيه ، أن ينقد المحتسب قطعتين من الذهب كل سنة .

وعند ما قامت الدولتان الطولونية والأخشيدية بمصر كانت فلسطين تتبعهما . ولم يحدث شيء يستحق الذكر اللهم الا أن أمراء آل أخشيد كانوا يوصون بأن يدفنوا فى القدس عند ما يحين حينهم . حتى كافور الاخشيدى دفن فيها .

* * *

وفى عهد الفاطميين ، عين العزيز ، بن المعز لدين الله الفاطمى ، حاكما قبطيا لفلسطين هو الشيخ أبو اليمن قزمان . وحتى هـذا الوقت كانت فلسطين ، والقدس بصفة خاصة تتمتع برعاية كاملة وأمن مستتب حتى تولى من الفاطميين الحاكم بأمر الله . وفى عهـده تبدلت أمور كثيرة ، تخالف ما ألفه الناس من منطق .

حدث سنة ١٠٠٧م أن انطلقت فى أوربا اشاعة مؤداها أن القيامة ستقوم فى وقت معين : فتقاطر على القدس أعداد لا حصر لها من المسيحيين الأوربيين يريدون أن تنتهى حياتهم ، وهم فى جوار كنيسة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . فلما انقضى الأجل المضروب للحدث العظيم ، ولم يقع طبعـا ، استشاط الحاكم بأمر الله غضبا ، وأمر بطرد الأوربيين من القدس ، ونسب لهم النقائص ، وهدم بعض الكنائس . وقد نفخ اليهود فى نار هذه الفتنة ، وزادوا من تحريض هذا الخليفة الفاطمى . فأمر النصارى بلبس السواد ، ومنعهم من الاحتفال بعيد الشعانين .

وثاب الحاكم بأمر الله الى رشده (كان اسمه الأول المنصـور) ، وتدخلت فى الأمر أمه « ماريا » وأخته سيدة الملك ، وفطن الى سوء نوايا اليهود ، بما قدموه له من معلومات زائفة ، فعفى عن رعاياه من المسيحيين ، وأعاد لهم حرية العبادة ، وسمح لهم ببناء كنائسهم التى هدمت ، ورد أملاك الأديرة والكنائس . وقرعت النواقيس ابتهاجا .

أما عاقبة اليهود الذين خدعوه ، فكان أيضا على الطريقة (الحاكمية !) اذ أمر بعمل أقنعة يلبسونها على وجوههم على هيئة العجول . وقد اختار شكل العجل بالذات ، لأن اليهود عنـد خروجهم من مصر عبدوا عجلا من ذهب .

وقد أنشأ الفاطميون فى القدس مستشفى ، كان يسمى « بيمارستان» رصدت له أموال طائلة . وكان أطباؤه يتقاضون رواتب ثابتة . كما أنشأوا دارا للعلم رفعت من شأن الحركة الفكرية فيها .

وعلى ذكر المناخ العلمى الذى توفر للقدس ، نذكر ان فيلسوف الاسلام الكبير ، ومفكرها الكبير الأمام أبو حامد الغزالى ، أقام فى القدس فترة من الزمن .. يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى (١) ان الغزالى قدم عام ٤٨٩ هـ الى دمشق ، وأقام بها مدة قصيرة ، ورحل الى بيت المقدس ، وأخذ فى تأليف كتاب « الاحياء » فى القدس . ثم أتمه فى دمشق . وفى بيت المقدس كتب الرسالة القدسية فى قواعد العقائد ، وجعلها قسما من ربع العبادات فى كتاب « الاحياء » وقد كتبها لأهل بيت المقدس ، ومن هنا جاء اسمها . ومن القدس توجه الى الخليل لزيارة مقام ابراهيم .

والاسم الكامل للكتاب المذكور هو : احياء علوم الدين .

* * *

وصف السائح « ناصرى خسرو » فى كتابه سفرنامة القدس التى زارها عام ١٠٥٧ م بقوله :

« يحج اليها السوريون وسكان البلاد المجاورة للقدس عندما لا تتيسر لهم وسائط الحج الى مكة . ويشبعون عواطفهم الدينيـة ؛ فيضحون الضحايا ، ويصلون ، ويتقربون الى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة .

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوى هو فيلسوف الامة العربية المعاصر . ويقـوم الآن بالتدريس فى السوربون بباريس وكتابه الذى ننقل عنه هذه الفقرة هو : مؤلفات الغزالى .

ويصل عدد الحجيج فى بعض الأعوام الى عشرين ألفا . وكثيرا ما يأتون معهم بأطفالهم ليختنونهم بالقرب من مساجدها .

« والقدس مزروعة زرعا جيدا ، ينبت حولها القمح والتين والزيتون. كما تنبت أنواع كثيرة من الأشجار . أسعارها معتدلة ، وزيتها كثير ، ويحفظ الزيت فى الابار والأحواض . ويصدر الى خارج البلاد . ويستعملون القار المجموع من مياه البحر الميت فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان . ويستعمله الصيادلة من أجل صيانة العقاقير من الحشرات .

« يحيط بالمدينة سور منيع مبنى بالحجارة . وللسور أبواب من حديد .. يقطن فيها عشرون ألفا من السكان . بينهم صناع كثيرون . ولكل صنعة سوق خاصة بها » .



وحدثت بعد هذا خلافات بين مراكز القوة فى العالم الاسلامى : السلجوقيين والفاطميين .. ومهدت حروبهم ، وضعف الروح العامة ، لظهور الحركة الصليبية فى أوربا ، وبدأ الصراع الهائل الذى دار فى المنطقة كلها. ثم تحرك الاعصار المغولى من أقصى الشرق ليزيد فى البلاء الذى حل بشرق البحر المتوسط ، وفلسطين هدف من أهدافه .

اليهود فى الاندلس :

ولكن قبل ان ننتقل الى مرحلة جديدة من هذه الدراسة ، نلقى نظرة فاحصة ، على مكان ابتعد عن منطقة الصراع العالمى لفترة من الزمن ، وهو الاندلس .

كانت اسبانيا من بين البلدان التى فر اليها اعداد من اليهود ، بعد أن طردهم الرومان من فلسطين فى القرن الأول الميلادى . وما ان دانت اسبانيا بالمسيحية ، حتى بدأت تتحرك للثأر من الفظائع التى عملها اليهود ضد

المسيحيين فى شرق البحر المتوسط . وفى سنة ٥٨٩ م وافق المجلس الكنسى الاسبانى على القرارات الآتية (١) :

١ — منع استخدام اليهود للمسيحيين فى أى نوع من الأعمال .

٢ — ضرورة عتق أى مسيحى مملوك لليهودى .

٣ — فصل كل اليهود الذين فى خدمة الحكومة ، ومراعاة عدم تعيينهم مستقبلا .

٤ — منع زواج المسيحيات باليهود .

٥ — منع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم وخدمهم ومعاقبة أى يهودى يطبق ذلك بمصادرة أملاكه .

٦ — ضرورة تعليق اليهودى شارة مميزة فى مكان ظاهر حتى يعرفه الجميع .

وزاد التضييق على يهود اسبانيا بعد ذلك ، بحيث أعطوا مهلة سنة ، لكى يعتنقوا المسيحية ، أو يغادروا البلاد . ومن بقى منهم كان عليه أن يحضر الصلوات المسيحية ، ويتظاهر بخروجه من دينه . وكان أبناء اليهود يسلمون الى الكنيسة لتعميدهم . وايما يهودى يظهر أنه ما زال على دينه يتحول الى عبد رقيق . ومن يضبط من اليهود ، وهو يمارس طقوس دينه سرا ، كان يقتل رجما ، أو حرقا . فلما دار همس بأن يهود اسبانيا المتنصرين رغم هذه الأوامر ، كان يحتفلون سرا بأعيادهم فى بيوتهم الزموا بأن يلازموا الكنائس طوال فترات أعيادهم تحت رقابة صارمة . وزاد من كرب اليهود المتنصرين أن صودرت أملاكهم ، وأصبحوا جميعا عبيدا دون استثناء .

وفى وسط هذا الظلام المخيف الذى عاشه اليهود فى أواخر القرن السابع الميلادى ، ظهرت بارقة نور .. فقد كان العرب يكتسحون شمال

(١) كتاب اليهود فى الاندلس تأليف الدكتور محمد بحر عبد المجيد .

افريقية ، ويرفعون رايات الاسلام على شواطيء المحيط الاطلنطي . وفى سنة ٧١١م اجتاز طارق بن زياد المضيق الذى حمل اسمه وبدأ غزو اسبانيا .

وغنى عن البيان ، أن يهود اسبانيا ، الذين تنصروا ، واسترقوا ، طربوا لهذا الغزو ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة العرب الغزاة ، وكانوا جواسيسهم .

وتطبيقا لتعاليم الاسلام : « لا اكراه فى الدين » فقد أطلقت لليهود والمسيحيين بطبيعة الحال حرية التعبد ، وردت أملاكهم المصادرة . وشاع أمر الافراج العقائدى عن يهود الاندلس فى كل أوربا ، وكانت تعامل اليهود نفس المعاملة ، فهرعت أفواج منهم بعد أفواج للاقامة فى الأندلس تحت ظل الراية الاسلامية السمحة .

وبدأ اليهود نشاطهم التجارى فى استجلاب حرير الصين وتوابل الشرق الأقصى . ولكن تجارة الجوارى والعبيد ، درت عليهم ارباحا طائلة . وقد اتقنوها ، منذ كانوا هم عبيدا فى اسبانيا ، وبلاد أوربية أخرى .

وفى ظل الحرية التى لم يتمتع بها اليهود فى أية فترة من تاريخ حياتهم قبل طردهم من فلسطين ، وبعد طردهم منها ، وفى ظل المال الوفير الذى بدأ يتدفق عليهم ، أخذوا لهم مركزا فى الحياة الاجتماعية والثقافية والوظيفية . يذكر تاريخ الاندلس منهم : « حسداى ابن شفروط » الذى عينه خليفة الاندلس عبد الرحمن الثالث طبيبا للقصر الملكى ومترجما بينه وبين وفود البلدان الأجنبية التى كانت تفد الى قرطبة . وقد انشأ هذا اليهودى مكتبة نافست مكتبات أعيان الاندلس ، وضمت كثيرا من المخطوطات العبرية . وما لبث هذا اليهودى أن عين حاخاما أكبر للأندلس . ووفد الشعراء يمدحونه ، على عادة شعراء العرب مع أمراء الأمة الاسلامية .

واقتبس اليهود موازين الشعر العربى لينظموا أشعارهم العبرية على منوالها . ولم تلق هذه الحركة ترحيبا كبيرا حتى أن أحدهم نقد هـذا الأسلوب « لأنه أتلف اللسان المقدس بوزنه العبرية بموازين أجنبية » .

وقد أشرنا من قبل الى عناية عالم عصره « ابن حزم » الأندلسى ، صاحب كتاب الفصل فى الملل والنحل ، بتدوين مناقشاته للتوراة المتداولة . وفى وقتـه ــ أواخر القرن الرابع الهجرى ــ كان اثنان من اليهود ظهرا فى غرناطة ، هما اسماعيل ، ثم ابنه يوسف ابن النغريلة . وقد استوزرهما على التتابع ابن باديس . وقتـل يوسف وكان سبب مصرعه (1) توسع شأن اليهود ، وتسلطهم على المسلمين فى حكومته ، وحكومة أبيه من قبله ، ونفور المسلمين من دفع الجبايات لهم . وانتشار المؤامرات النسائية ونقده وتطاوله على الأديان . وقد هرب يوسف من ثورة الشعب الى داخل القصر ، فوجدوا اليهودى مختبئا فى مخزن للفحم وقد سود وجهـه حتى لا يعرف. ولكنهم ظفروا به وقتلوه . ومال الشعب على آخرين من اليهود فى غرناطة ، فقتلوا منهم أربعة آلاف ، ونهبوا أموالهم ، وذلك ثأرا لدينهم الاسلامى ، وقرآنهم الذى قال اليهودى انه سينظمه شعرا .

ومن يهود الاندلس موسى بن ميمون الذى انتهى به المطاف الى مصر حيث عمل طبيبا للملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبى . وقيل انه ترك اليهودية آخر أيامه ومات عام ١٢٠٤ م .

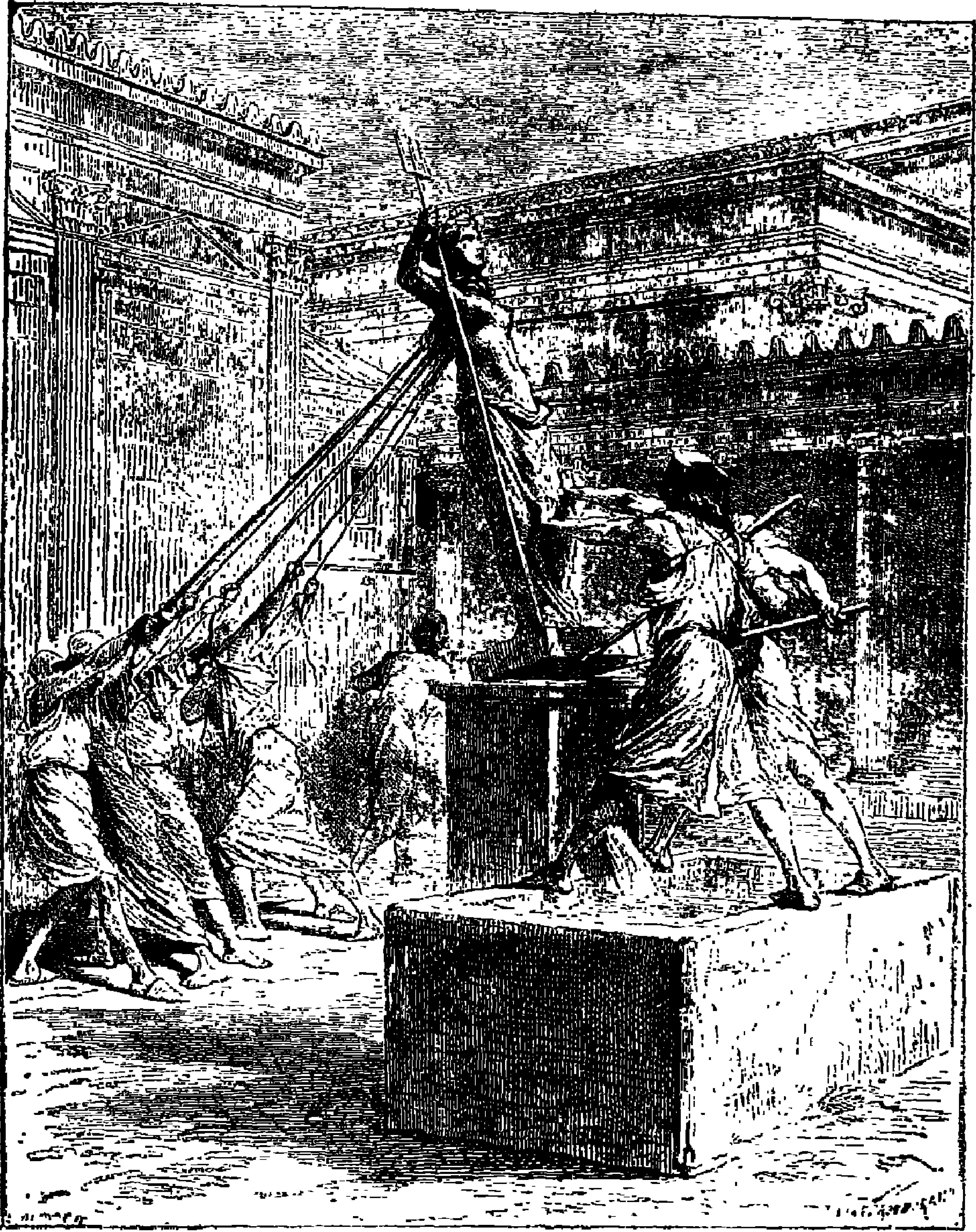


وبانتهاء الوجود الاسلامى فى الأندلس ، انتهت أيام اليهود السعيدة فى القرون الوسطى ، والتى لم يتكرر لها مثيل الا فى القـرن العشرين الميلادى .

ونترك اليهود عند هذا الحد ، لنعـود الى مدينتنا الحبيبة : بيت المقدس .

---

(1) كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودى لابن حزم الاندلسى تحقيق الدكتور احسـان عباس الاستاذ بجامعة الخرطوم .



الاله الوثنى مثرا الرومانى ، وبعض المؤمنين ينزلونه من على قاعدته
فى القدس ، وما أكثر ما عبده اليهود من دون الله

الفصل الحادي عشر

المسلمون في قلب أوروبا

نمت العقيدة المسيحية فى أوربا ، وتأصلت جذورها . وكانت اليهودية تزداد امعانا فى التخفى، والاستتار داخل الأزقة المغلقة عليهم ، فما من مدينة كبيرة ، الا عرفت فيها « حارة لليهود » وكانت تسمى الـ « جيتو ». وكانت فرصة اليهود الذهبية ، عندما تبدأ حرب بين بلد وآخر . فان اليهود يتقدمون ببيع المعلومات ، وغالبا ما يكـون التجسس لصالح المهاجمين ، مقابل ثمن ، وقد ينالون الحظوة لدى المنتصرين مثلما رأينـا فى غزو العرب للأندلس ، فقد كانوا فى ركاب المنتصرين ، وفعـلا نالوا امتيازات كبيرة نتيجة خدماتهم .

وفى نمو المسيحية ، حدث ما كان لابد أن يحدث ، وهو انقسامها الى كنيسة غربية ، وأخرى شرقية . والكنيسة الشرقية تحمل لواء الاصالة والعراقة ، لأن القدس مركز من مراكزها الكبرى ، وفى هذا ميزة لا تخفى وبابوات روما لا يستريحون لبقاء القدس بعيدة عن نفوذهم ، على الرغم من أن الحكم الاسلامى لم يعترض حجيجهم ، ولا وضع فى طريقه أى عقبة من العقبات .

وهناك عامل هام زكى ريبة الدول المسيحية فى أوربا ، هو الميراث الذى حفظته ، من غزو العرب لاسبانيا ، ومتابعة عملياتهم الحربية فى جزر البحر المتوسط ، وفرنسا وايطاليا وسويسرا وألمانيا .. وكثير من كتابنا وقفوا بالعرب ، عند معركة تور أو بواتييه ، فى حين أن النسر العربى لم يكف عن التحليق بعد هذه المعركة ، بل ظل يتراءى لأوربا الغربية والوسطى مـدة قرون بعد غزو أسبانيا . فلما جاء الوقت ؛ وتضعضع الحكم العربى فى

اسبانيا بهجمات جريئة وجهت له ، وبفعل التفكك والتخاذل والتباغض والتحاسد بين الحكام العرب أنفسهم ، قررت أوروبا أن يكون ثأرها الأكبر فى فلسطين.

ولنبدأ قصة الحروب الصليبية من أجل السيطرة على القدس ، بعرض شامل لما حدث بين الدولة الاسلامية ، ودول أوروبا ، لتكون الصورة كاملة أمامنا .

لم يكن الشرق شرقا والغرب غربا بالنسبة لأوربا والبلاد العربية فى القرون الوسطى .. لقد أحس الأوربيون بقيام الدولة العربية الكبرى ، احساسا شغل ايامهم لقرون طويلة .

ان فرنسا وسويسرا والمانيا وايطاليا ظلت تتوقع وصول العرب الى مدنها وقراها . وتترقب هؤلاء الفرسان ، الذين يطلقون صيحة الحرب : الله أكبر .. أحد أحد ، ثم لا يقف امامهم أحد .

وانا لنجد تفاصيل التسرب العربى الى أوربا ، فى شكل حملات عسكرية ، مدونا فى كتب علماء تلك البلاد .. ومن أشهر المراجع هذا الكتاب الذى ألفه جوزيف رينو ، وأطلق عليه اسما طويلا يدل على موضوعه هو :

« غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا على سافوى وبيدمونت وسويسرا فى القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادى حسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » .

وكان هذا المؤلف يعرف العربية واللاتينية الى جانب اللغات الاوربية المعاصرة ولهذا جاء بحثه شاملا .

ويهمنا ، ونحن نقدم للحروب الصليبية ان نستعرض هذه الغارات العربية الى قلب أوربا ، وما تجمع فى نفوس الاوربيين من احساس بالخوف ثم بالمرارة ، ثم بالرغبة فى الثأر التى توارثوها جيلا بعد جيل .. هذه

الغارات التى جاءتهم من أفريقية ، وهى غير الحروب عند بابهم الشرقى فى الأناضول . وبلاد الاغريق .

ونعود الى كتاب رينو الذى لخصه الأمير شكيب ارسلان ، فبعد أن استعرض المراجع التى اعتمد عليها فى بحثه قال :

« فى جميع البلاد التى احتلها العرب طويلا أو قصيرا بقيت لهم آثار ، وسرت عنهم أخبار . فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يجتاحون تلك الأرض . وهناك كانت مخاضة نهر ، أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسما على المارين . وهنالك كهف فى واد كانوا يضعون فيه الغنائم. وعلى تلك الجبال ابراج كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم .

معارك العرب فى فرنسا :

أربونة هى أول المدن الفرنسية التى احتلها العرب مدة من الزمن . وقد صادفها حظ حسن حتى انها كانت تنافس مرسيليا وذلك قبل ميلاد المسيح بقرن من الزمان . يمر بالقرب منها نهر الأودز . ولا يزيد عدد سكانها الآن على ٣٠ ألف نسمة وحاصلاتها من الكروم والتين والزيتون .

وفى سنة ٧١٩ م هاجمها السمح بن مالك أمير اندلس واستولى عليها بعد حصار استمر أربعة أسابيع .. وكان يفطن الى أهميتها الجغرافية . من حيث كونها رأس رمح الى جنوب فرنسا . وبعد معركة بواتييه (صد فيها شارل مارتل غزو العرب) حاول الفرنسيون الاستيلاء عليها دون جدوى . وفى سنة ٧٥٢ جرت محاولة ثانية عاون فيها أهل المدينة المهاجمين من الخارج ولم تسلم الحامية العربية حتى فنى آخر رجل فيها .. وكان حصار الفرنسيين لها قد استمر سبع سنوات كاملة .

ولكن فى سنة ٧٩٢ م عاد العرب فحاصروا المدينة فبعث شرلمان ــ وكان ملكا لفرنسا قائده الفارس المشهور غليوم على رأس عشرين ألف مقاتل ، غير حاميتها الفرنسية . وتلاقى الجمعان : العربى والفرنسى . واستأصل

العرب الجيش الفرنسى ، وقد أبيد عن آخره ، ولم ينج منه الا هذا القائد وثلاثة عشر جنديا .

ولكن غليوم عاد بجرح ظل شارة هذه المعركة طول عمره . اذ قطع أنفه . ولهذا سمى بذى الأنف القصير .

وفى كتاب نفح الطيب ان عساكر العرب استولوا فى سنة ٧٧ هجرية على أربونة ومقاطعتى جيروند فى جنوب فرنسا الغربى وبرتانى فى غربى فرنسا (تقع مقاطعة نورماندى شمالها) (١) .

ويبدو ان مدينة أربونة هذه تداولها العرب والفرنسيون اكثر من مرة .

ومضى هذا القائد الباسل السمح بن مالك الخولانى الى مدينة تولوز الفرنسية وحاصرها ، وضربها بالمنجانيق وسائر آلات الحصار . وأوشك أهلها أن يسلموا .. ولكن « أود » دوق مقاطعة اكيتانية خف لنجدة المدينة بجيش يسد الفضاء ، حتى قال مؤرخو العرب : ان العثير المتطاير من زحف أقدامهم كان يغطى عين الشمس من كثرتهم . فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية :

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » ولما تدانى الجمعان خيل للناس ان الجبال تلاقى بعضها ببعض . وكانت المعركة من أهول ما يتصوره العقل. وكان السمح يظهر فى كل مكان كالأسد الثائر يحمل على العدو ، فلا يقف أحد فى وجهه . فما هو الا أن اصابته طعنة خر بها صريعا عن جواده فلما رآه العرب مجندلا فت ذلك فى عضدهم . ونكصوا على أعقابهم ، وتركوا قتلاهم فى العراء . وكانت هذه المعركة فى شهر مايو سنة ٧٢١ ميلادية (١٠٣ هجرية) ، وقد خسر فيها العرب كثيرا من فرسانهم المغاوير الذين

---

(١) يشك الامير شكيب أرسلان فى أن العرب وصلوا الى شمال فرنسا ، ويذكر أن هذا الاقليم كان مستقلا عن فرنسا وانضم اليها فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، وقد اعتمدنا على تحقيقات شكيب أرسلان فى كثير من التفاصيل الخاصة بهذه المرحلة .

شهدوا الفتوح السابقة . وقد تولى القيادة بعد مقتح السمح نائبه عبد الرحمن الغافقى ـ وعاد بالجيش الى الاندلس .

وهكذا خسرت هذه الغزوة قائدا باسلا عظيما هو السمح بن مالك الذى يقف فى نفس الصف الذى وقف فيه الرواد الأول من بناة القومية العربية من أمثال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص . وعقبة بن نافع . وطارق بن زياد .

وبعد ثلاث سنوات أى فى سنة ٧٢٤م عادت جيوش العرب مرة ثانية الى فرنسا .. بقيادة عتبة الكلبى .

وكانت البلاد المفتوحة فى فرنسا تدفع الضرائب للعاصمة « برشلونة» أو الخراج ، كما كان يسمى فى ذلك الوقت . ولكن لم يستمر كفاح هذا هذا القائد الباسل طويلا ، فقد لحق بسلفه السمح فى سنة ٧٢٥ ، ولكن خلفه « جديرة » ، واصل المهمة وعادت ريح الاسلام فعصفت ببلاد النصرانية ، من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخى العرب ووصلت قوات العرب الى حدود الرون .

وصل العرب الى مقاطعة دوفينيه ، وعاصمتها جرينوبل ووصلوا أيضا الى مدينة « ليون » الشهيرة . وبلاد برجونيا .

وتذكر مراجع هذه الفترة قائمة طويلة باسماء المدن التى وصلوا اليها ، وتهتم المراجع الفرنسية باحصاء الكنائس التى حرقت أو هجرها رهبانها .

وربما اختلط الأمر على بعض المؤرخين الفرنسيين فأضافوا الى حساب هذه الحروب ، ما فعله الوندال المغيرون من المانيا على بعض البلدان . ولا سيما فى مقاطعات الالزاس واللورين .

ويستطرد رينو فى عرضه لتاريخ هذه الفترة :

« انه تحقق مجىء العرب الى فرنسا ، وتغلغلهم فى احشاء البلاد .

ولم تكن لهم خطة مرسومة معينة فى غزواتهم . ولم يجدوا أول الأمر من أهل فرنسا الا مقاومة واهية . واذا كان الأهالى فى أسبانيا قد انضموا الى العرب ودانوا بدينهم ، فان الفرنسيين لم يتحازوا لهم . ولم يتخلوا عن دينهم ، باستثناء قلة قليلة من الاشراف والنبلاء » .

وفى كتاب نفح الطيب للمقرى ، ان الفرنجة (الفرنسيين) اجتمعوا الى ملكهم الأعظم قارله (هو شارل مارتل) فقالوا له :

— كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس (المشرق) حتى أتوا مغربها ، واستولوا على بلاد الاندلس ، وعظيم ما فيها من العــدة والعدد ، بجمعهم القليل ، وقلة عددهم ، وكونهم لا دروع لهم .

فقال لهم ما معناه :

— الرأى عندى الا تعترضوهم فى خرجتهم هذه . فانهم كالسيل يحمل من يصارده ، وهم فى اقبال أمرهم . ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . ولكن امهلوهم . حتى تمتلىء ايديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرئاسة . ويستعين بعضهم على بعض . فحينئذ تتمكنوا منهم بأيسر أمر .

ويستطرد المقرى فى كتابه : فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية ، وصــار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء !!

وهذه الحالة التعسة التى تجعل العربى يواجه العربي بالدماء . ويستعين بالاعداء ، لمنافع عاجلة . هى الحكم . هذه الحالة هى التي ما أن تصادف الأمة حتى يصيبها التخاذل والضعف ، وهى الحالة التى تحاول الأمــة العربية أن تبرأ من بقاياها فى أيامنا هذه .

وفى ســنة ٧٢٨ م (١١٠ هـ) تولى امارة الاندلس عبــد الرحمن الغافقى ــ وهو من عكا وكان أميرا حكيما ، وظل عامين يطوف فى البلاد ،

ويزيل المظالم ، ويعزل الولاة الجائرين ، وينفذ العهود ، ويعيد الكنائس للمسيحيين ، التي كانت من حقهم وفق العهود التي أبرمت معهم .

وحشد جيشا قويا ، وجاءه مدد من أفريقية ، وكان همه الأكبر أن يطبق على فرنسا ويضمها الى الاندلس .

وكان على مقدمته قائد اسمه عثمان بن أبى نسعة ، فأمر بالمسير الى مقاطعة اكيتانية .. ولكن هذا الأمر لم ينفذ لأن عثمان هذا قد تزوج بنت دوق هذه المقاطعة « أود » ، ووجد ان مصاهرته الجديدة تمنعه من الغزو ولهذا عقد معاهدة مع أبى عروسه تنص على السلم ، والهدنة !

فلما جاء أمر الزحف تردد ، ثم أخبر الأمير عبـد الرحمن الغافقى بمصاهرته ومعاهدته ، فسارعت قوة تقتص من تصرفه ، فهرب عثمان الى الجبال مع فتاته ، ولكن القوة ادركته وقتلته ، وأخذت الفتاة الفرنسية أسيرة ، لكى ترحل الى دمشق ، وتضم الى بلاط الخليفة الأموى .

وسارت كتلة الجيش الى بوردو ، وتابع زحفه شمالا ، وهنا دوى نداء عام فى فرنسا ، بأن تتكتل ولاياتها وامراؤها لوقف هذا الزحف ، مهما كانت الخلافات بينهم .

وهناك عند مدينة « تور » التى تقع على نهر اللوار ، تجمع جيش كل الفرنسيين تحت قيادة شارل مارتيل .

وكان أفراد الجيش العربى مثقلين بالغنائم ، وهم قائدهم بأن يأمرهم بتركها ، ولكنه خشى ان تفتر همتهم ، فتركها على مضض ، ثم هاجـم « تور » على مرأى من الجيش الفرنسى ، واستولى عليها عنوة .

وفى مكان لعله بين تور وبواتييه (على مسـافة ٣٢٢ كيلو مترا من باريس) دارت الموقعة الحاسمة فى تاريخ اوربا كلها ، لا فرنسا وحدها « وكان عبد الرحمن هو البادىء بالمناجزة ، فاستمرت المعركة مدة طويلة ، قبل أن يترجح النصر للافرنج ولما رأى عبد الرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر

فى صفوفه ألقى بنفسه فى وسط المعمعة ، يصطليها بيده ، ودخل بين الصفوف يقاتل ، الى ان خر صريعا » . وكما هى العادة ، ما ان رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر حتى نكصوا على أعقابهم ، فأعمل فيهم الفرنسيون سيوفهم ، ومات منهم الوف .

وقد دوى وقع هذه الهزيمة فى انحاء الامبراطورية العربية كلها ، وكانت حديث أمصارهم كلها .. وصمم الجميع على الثأر لمقتل عبدالرحمن الغافقى ، وأمر الخليفة فى دمشق بأن تؤخذ فرنسا كلها بأى ثمن ، وتخمد مقاومتها نهائيا .

ولكن نتيجة أخرى حدثت لهذه المعركة ، فقد ثار البربر فى أفريقية ، وبعد أن كانت الجيوش تتأهب لزحفها الجديد ، وتنفيذ واجباتها التى عهد اليها الخليفة بها اضطرت الى الالتفات لما حدث فى أفريقية من مشاكل .

ولو ان هذا الزحف تم حسب الخطة الموضوعة له ، لسهل سقوط فرنسا كلها ، لأن نصرها الأخير وغزوات العرب السابقة كلفها الكثير من التضحيات والمتاعب ، بحيث كان يتعذر عليها الصمود طويلا .. ولا سيما ان القوات التى استعانوا بها من وراء نهر الراين ، لم تكن لتستمر طويلا فى الحرب عند نهر الرون وفى سهول فرنسا .

أما ومعركة الثأر لم تأت فى وقتها ، فقد اعتز شارل بقوته ، وأخذ يغير على المقاطعات ، ويوحد تحت رايته المقاطعات الأخرى ، ويجلى العرب عن مواقعهم ، ومات سنة ٧٤١ م ، قبل ان يتمكن من الاستيلاء على أربونة ، ولكن هذا تم فى عهد ابنه « بيبين » الصغير .

يقول « رينو » .. ان هدف عبد الرحمن الغافقى لم يكن فرنسا وحدها ولكنه كان يريد أن يتخذها طريق عبور الى ايطاليا وألمانيا والقسطنطينية .

وفى سنة ٨٣٤ م كان حاكم أربونة العربى قد تعاقد مع دوق مرسيليا الفرنسى على حلف ، ألفوا بمقتضاه جيشا مشتركا ، وزحفوا فى اقليم البروفانس حتى مدينة افينيون ، وظلوا أربع سنوات فى هذه الانحاء .

ووصل العرب مرة ثانية الى مدينة ليون واحتلوها ، وهنا عادت صرخات الفرنسيين تدوى لا داخل فرنسا ، ولكن خارجها طلبا للنجدة. وقد سارع اليها الايطاليون من لومبارديا . ويبدو ان خطة العرب فى احتلال ايطاليا والمانيا واليونان ، وتحويل البحر الأبيض المتوسط الى بحيرة عربية ، أصبحت معروفة .

واذا كان هذا هو الموقف فى مغرب الارض .. فى فرنسا التى تدفع عن حياتها غزوا خطيرا يتقرر فيه مصيرها ومصير أوربا .

فان شرق العالم العربى حدثت فيه أيضا أحداث هامة ، فقد تولى العباسيون الحكم ، وانتقلت الخلافة من دمشق الى بغداد .

ويقول الأمير شكيب ارسلان فى كتابه تاريخ غزوات العرب :

ومما يدلك على بعد المدى الذى تصل اليه أهواء النفوس — اذا استحكمت العداوة — ان أمراء قرطبة كانوا فى نزاع دائم مع خلفاء بغداد وكان هم كل من الفريقين النكاية بالآخر ، أكثر منه فى الفتوحات ببلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا فى حرب مستمرة مع مسلمى الاندلس ، وكانت لذلك العهد قد بدأت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب وسارت السفن بين مرسيليا ومرافىء سوريا ومصر ، تنقل تجارة البهارات والعطور والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الاخطار ،وذلك أن المسيحيين فى الغرب كانوا فى أثناء الحروب بينهم وبين العرب ، لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة فى فلسطين .

وفى سنة ٧٢٣ م ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصرة ، وكانوا يجولون آمنين فى فلسطين والشام ، وزاروا قصر الخليفة نفسه فى دمشق ، ولم يعترضهم أحد ، ولا خافوا ، ولا حزنوا !

وكان خلفاء الدولة العباسية يعاملون الدولة الفرنسية أحسن معاملة، ويتبادلون واياها التحف والهدايا .

وعندما أرسل الخليفة العباسى المنصور الى الاندلس أسطولا لمقاتلة عبد الرحمن الأموى الملقب بالداخل ، سارع « بيبين » حاكم فرنسا الى انشاء علاقات مع بغداد وفى سنة ٧٦٥ م أرسل رسلا الى العاصمة العباسية لبثوا ثلاث سنوات وعادوا الى فرنسا ومعهم رسل الخليفة . فنزلوا فى مرسيليا ، وصعدوا الى مقر « بيبين » فبالغ فى الاحتفاء بهم ، وقضوا ذلك الشتاء فى مدينة « ميتز » باللورين . ثم أمر باقامتهم فى قصر على ضفاف نهر اللوار ، ثم أعيدوا الى الشرق ، عن طـريق مرسيليا ومعهم الهدايا الى الخليفة .

وفى بدء القرن التاسع الميلادى زار فرنسا وفد من قبـل هارون الرشيد ، الى بلاط شرلمان ، وكان شرلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهوديا اسمه اسحق مصحوبا باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبل الخليفة العباسى ، وقد أمر شرلمان هذا الوفد بان يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ويتوسط لدى الخليفة فى تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين الى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيون من عهد هانيبال لم يروا فى بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يبتهج برؤيته أهـل فرنسا . فلما وصل الوفد الى بغداد استقبلهم الخليفة أحسن استقبال ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس واعلاء مقامهم عند ما يفدون عليه . ولم يكن فى دار الوحوش التى عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد الى شرلمان ومعه هدايا أخرى من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها فى فرنسا .. ومن طيوب ومعطرات وأشـياء أخرى .. وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم، وساعة من نحاس أصفر أيضا تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد

ساعات النهار . وكذلك أرسل له مفاتيح كنيسة القيامة والقبر المقدس وقد أشرنا الى ذلك من قبل .

ونزل الوفد فى عودته من الشرق ، فى مدينة بيزه وحملت الهدايا بابتهاج عظيم الى (اكس لاشابل) مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة . وأبلغوه ما قاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك . وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شرلمان بأن يتوجه الى قرطجنة فى أفريقيا ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس فبريانس المدفون فى قرطجنة وغيره من القديسين المدفونين هناك . فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضا رسولا وراءهم الى الامبراطور يتودد اليه . وقد كان لذلك فى هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظرا لانقطاع العلاقات تقريبا بين الأقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان وان الله أعطاه فى ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب .

وعلى الرغم من هذه الصلات ، التى تحمل طابع الالفة الدولية ، لم تكف الحرب المسلحة عن فرض نفسها على هذين المعسكرين .

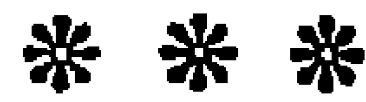
* * *

تولى حكم الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام فدعا الناس الى القتال . ومواصلة ما بدأه « السمح » واخوانه الأفذاذ .. وكان ذلك فى سنة ٧٩٢ م أى بعد ستين سنة من هزيمة العرب فى تور أو بواتييه .. وفى العام التالى دخل العرب فرنسا مرة أخرى ، وكان شارلمان يومئذ يحارب على ضفاف الدانوب فى وسط أوروبا ..

انتصر العرب فى زحفهم بعد ان أوغلوا فى جنوب فرنسا ، وظفروا بغنائم ضخمة جدا .. وساقوا الأسرى الفرنسيين ، وقد حمل كل واحد منهم فوق ظهره كمية من تراب الأرض الفرنسية ، لكى يبنى به هشام قسما جديدا من جامع قرطبة الذى بدأه أبوه ..

وهكذا نجد فرنسا وايطاليا ــ وربما المـانيا ــ ظلت قرنا من الزمن يلقى عليها النسر العربى ظله الكاسر ، وتعيش فى خلال هذا القرن لا يغمض لها جفن ، ولا سيما فى المواقع القريبة من أرض العرب .

ومما يلفت النظر ، ان العـرب القـادمين من الصحارى والسـهول المنبسطة ، دربوا على حرب الجبال ، منـذ وقائعهم المشهورة فى جبـال الأطلس الافريقية ، فلما وصلوا الى جبال البرانس الفاصلة بين فرنسـا والأندلس ، لم تكن عائقا يذكر بالنسبة لهم ، بل ان دروبها ومسـالكها كانت خير معين لهم على الكر والفر ، والاقبال والادبار كما يقول الشاعر العربى القديم ..



وننتقل الآن الى ميدان آخر غير السهول والجبال .. ننتقل الى البحر وما حدث فيه ، وكيف كانت السفن العربية تضغط على جزره وموانيـه ضغطا شديدا .. وقبل كل شىء نحب أن نتحدث عن صلة العرب بالبحر ، فنقول انها كانت صلة خوف ورهبة ، حتى وصفه أحدهم لعمر بن الخطاب، بأن راكبه اشبه بدود على عود ، حتى وصل الأمر بالخليفة عمر الى أن نهى النـاس عن ركوب هـذا الكافر ، ويعنى به البحر . . ولـكن الأمر لم يستمر طويلا ، فقد تجرأ العرب على البحر ، بل أعطوه من لغتهم أسماء لاصطلاحات غريبة ما تزال شائعة حتى اليوم ، فقـد ذكر الأمير شكيب أرسلان ان القائد البحرى فى أيام العرب كان يلقب بـ « أمير المـاء » وهو لفظ اميرال الحالى مع تحريف يسير . وذكر ان لفظة « ارسنال » الأجنبية والتى حرفت فى العامية الى ترسانة ، ما هى الا « دار الصنعة » وهى اللفظ الذى أطلقه العرب على المعامل التى كانت تبنى فيهـا السفن البحرية . « فنرى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة فى صور ، أو أسس الأمير فلان دار الصنعة فى تونس ، أو كانت صنعة الأندلس بالمرية ، وما أشبه ذلك » .

وفى عهد معاوية غزا معاوية وهو أمير للشـام بعـد وفاة الرسـول

بخمسة عشر عاما فقط — جزيرة قبرص وذكرت المراجع العربية ان « أم حرام » زوجة أحد الصحابة ماتت فى غزوة بحرية لقبرص وفى سنة ٦٦٩ م غزا العرب جزيرة صقلية . وتكرر الهجوم البحرى على صقلية .. وأثر عن رسول الله انه قال : ان الجهاد فى البحر فيه عشرة أمثال الجهاد فى البر ..

وقيل أن طارق بن زياد لم تكن لديه غير أربع سفن لعبور المضيق من أفريقية الى أسبانيا ، ظل ينقل عليها رجاله وعتاده ، على دفعات كثيرة .

وفى سنة ٨٣٦م أنشأ العرب ترسانة عظيمة فى تونس .

وفى سنة ٨٠٦ ميلادية استولى اسطول عربى على جزيرة كورسيكا ، فقامت من جنوه [1] قوة بحرية ترد هذا الغزو ، فانسحب العرب فى البحر وأطمع هذا الانسحاب أهل جنوة ، فانطلقوا وراءهم ، واذا بالسفن العربية توقعهم فى كمين بحرى وتقضى عليهم . وتأخذ من سفنهم ٤٠ راهبا ، بيعوا فى الأندلس ، فدفع شرلمان فديتهم وفك أسرهم .

ودارت معارك بحرية كثيرة بين الشاطىء الايطالى وجزيرة كورسيكا ، نزل العرب فيها الى شاطىء الريفييرا فى نيس ، وشاطىء بروفنس ، والشاطىء المواجه لروما ..

وينقل الأمير شكيب ارسلان عن بعض الايطاليين انه توجد على مسافة أربعين كيلو مترا من روما قرية « سراسينشو » أى العربية ، أصل أهلها من سلالة الغزاة العرب الأول ، لم يتمكنوا من الجلاء بحرا ، فوقعوا فى أسر الايطاليين . وما تزال ملامح وجوههم تدل على أصلهم العربى ، بل ان

---

(١) يورد كتاب تاريخ غزوات العرب ، ان كتاب تاريخ جنوه ذكر ان العرب فى سنة ٩٣٤ م حاصروا الميناء الايطالى حصارا شديدا ، ولكن الاعاصير بددت هذا الحصار . وبعد عامين عاود العرب الهجوم وتمكنوا من الاستيلاء على الميناء ، واصابوا مغانم كثيرة حملوها الى سفنهم . وكان اسطول جنوة فى كورسيكا فلما بلغه ما حدث طارد السفن العربية واستنقذ منها الاسرى، ثم حصن اهل جنوة مدينتهم تحصينا شديدا .

مآكلهم ومشربهم وألحان غنائهم تدل أيضا على عروبتهم .. وكذلك توجد آثار عربية قرب نابلى .

ولكثرة الغارات العربية البحرية على شواطىء فرنسا ، سعى شرلمان الى عقد معاهدة أمان بحرية مع العرب ، فسافر الى « اكس لاشابل » عاصمة شرلمان أمير الماء يحيى بن حكم لابرام الاتفاق الذى كفل الهدنة لمدة ثلاث سنوات .

وفى أثناء ثورة حدثت فى قرطبة ، اضطر الحاكم لأن ينفى ١٥ ألف شخص من محدثيها فركبوا البحر الى الاسكندرية ، ولكن الاسكندرية رفضتهم فتابعوا الابحار الى جزيرة كريت حيث أقاموا فيها .

وفى دائرة المعارف الاسلامية أن العرب احتلوا كريت فى زمن مبكر (٦٧٣م) ثم احتلها أهل قرطبة المنفيون فى سنة ٨٢٥م وظل الحكم العربى فيها ١٣٥ سنة وانشأوا فيها عاصمة سموها « فانديا » ، ثم حاصرها البيزنطيون واستولوا عليها ،ونقلوا حاكمها العربى الى القسطنطينية ، وخضع العرب فى الجزيرة لحكم بيزنطة .. ويقول البلاذرى : ان كريت أو « اقريطش » كما كانت تسمى ، كانت « أعظم بلاد المسلمين نكاية فى الروم » ويظهر أن حنق بيزنطة كان شديدا عليها ، حتى أنها بعد سقوطها فى أيديهم خضعت لارهاب شديد ، فقد هدمت مدنها ، وحمل منها البيزنطيون ٣٠٠ سفينة من النفائس والمتاع والسبى والأسرى . وألقوا حجارة المدينة المهدمة فى الميناء حتى لا تدخلها سفن العرب مرة أخرى (١).

ونعود مرة أخرى الى ايطاليا وجنوب فرنسا ، فقد ذكر المؤلف «رينو» أن مرسيليا كانت هدفا لهجوم بحرى فى سنة ٨٣٨م . وقد استولى العرب على الميناء الفرنسى الكبير ، وتروى كتب المسيحية قصة القديسة أوزيبيا

(١) ذكر من بين غزوات البحر ، انه كان للعرب بارجة متناهية فى الكبر يظنها الرائى من بعيدا بناء عاليا سائرا فى البحر غزت مرة جزيرة « أوي » فى مقاطعة بريتانى الفرنسية عند مصب نهر اللوار .

والأربعين راهبة ، اللاتى خفن من الغزو العربى ، وأن يؤخذن سبايا ، فقطعن أنوفهن ، حتى ينصرف عنهن الغزاة .

يقول : ولم تكن ايطاليا بأحسن حالا من فرنسا لأن العرب استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من الأمراء الايطاليين بقرب نابلى يتنازعان على الحكم ، فاستعان أحدهما بمدد من العرب فى صقلية ، فجاءته نجدة من هناك ، ودخل العرب الى الأرض الكبيرة ، واستولوا على قسم كبير منها .

و فى سنة ٨٤٦م ، وصل الغزاة العرب الى روما عاصمة الكاثوليكية ، وأكبر مدن أوروبا الجنوبية ، وصعدوا فى نهر التيبر ، ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس .. ووصلوا الى جنوة ، وعطلوا سدود نهرها .

ويروى المسعودى فى مروج الذهب أن الغزو العربى لايطاليا وصل الى تورنتو . ووصفها بقوله : ومدينة « طارينتو » ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ، ثم أن النورمنديين أخرجوا العرب من مدنهم بعد حرب طويلة ..

ويذكر شكيب ارسلان أن العرب ظلوا فى ايطاليا الى أيام فردريك الثانى امبراطور المانيا ، وملك صقلية الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر المسيحى ، وكان قد اتخذ جيشا من المسلمين ، وكان يعرف العربية معرفة جيدة .

واذا كان الحكم العربى فى بعض أنحاء ايطاليا ـ حتى شمالها ـ قد تراجع بعد مدة ، فانه ظل أمدا أطول فى جزيرة صقلية .

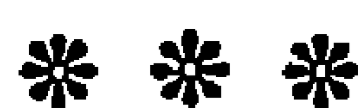
وقد روى محمد الخانجى البوسنوى (١) أن جزيرة صقلية فتحت بتمامها سنة ٢١٣ هـ على يد قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وكان رجلا صالحا فقيها أدرك مالك بن أنس ورحل اليه (٢) . وبقيت صقلية فى أيدى

---

(١) كتابه اسمه الجوهر الاسنى فى تراجم علماء بوسنة .

(٢) يروى صديقنا الدكتور عبد الهادى أبو ريدة أن شمال أفريقية كله يدين الى الآن بالمذهب المالكى . وان المذاهب الشيعية لم تبق لها آثار رغم ان الدولة الفاطمية نشأت فى المغرب . وقد أقام الدكتور أبو ريدة سبع سنوات فى جامعة ليبيا وأنشأ بها دراسة الفلسفة .

المسلمين مدة . واهتدى أهلها ، فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع ، حتى أنه كان فى مدينة واحدة من مدنها وهى «بلرم» (العاصمة) نيف وثلاثمائة مسجد . قال ابن‌حو قل : رأيت فى بعض الشوارع من بلرم ، على مقدار رمية سهم عشرة مساجد ، ودام ملك العرب لصقلية الى سنة ٤٦٤ هـ . وبعد زوال ملكهم منها ، بقى الاسلام فيها مدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى بلاد ايطاليا .. وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية .



ومر ابن جبير الرحالة الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ هجرية ، وكانت خرجت من ملك العرب . ولكن كانت منهم بقية هناك .. خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى أنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة ، وكثرة الخصب مشحونة بالأرزاق على اختلافها ، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها . لكنها معمورة بعبدة الصلبان ، يمشون فى مناكبها ، ويرتعون فى أكنافها . والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم ، قد أحسنوا السيرة فى عملهم .. وفى « بلرم » سكن الحضريون من المسلمين ولهم فيها المساجد ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها .. وملك صقلية يستعمل المسلمين (العرب) ، وهو كثير الثقة بهم ، وساكن اليهم فى أحواله ، حتى أن الناظر « المشرف » فى مطبخه رجل من المسلمين . وله جملة من السود المسلمين وعليهم قائد منهم ..

وهو يقرأ ويكتب بالعربية .. وعلامته « لقبه فى التوقيع » : الحمد لله حق حمده .. وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكرا لأنعمه .

وروى ابن جبير عن شخص قابله هناك ، من ذوى الشأن أسر اليه أنه وبعض قومه يكتمون الاسلام على أنفسهم (١) .

---

(١) زار مؤلف هذا الكتاب جزيرة مالطة ، فوجد أن الكثير من ألفاظ اللغة المالطية عربية، متبقية من أيام وجود العرب فى الجزيرة . مثال ذلك قول احدى صحفهم فى عنوانها الرئيسى : « نريدي مالطة ايطالية » مكتوبة بالحروف اللاتينية ، وهى « نريد مالطة ايطالية » بالعربية .

العرب فى الألب وسويسرا :

ونتنقل الى مرحلة جديدة من التغلغل العربى فى قلب أوروبا ، وهى مرحلة السيطرة على جبال الألب ..

ففى سنة ٨٨٩م تسلل عشرون ملاحا عربيا من سواحل الريفييرا الى الجبال المشرفة على اقليم بروفنس السفلى ، وهى أطراف الألب ، وأنشأوا فيهـا معاقل ثم بعثوا يستدعون اخوانهم من عرب الأندلس وأفريقيـة ، وزادوا فى معاقلهم الجميلة الحصينة ، وأحسنوا استعمال الغابات ، وانتشروا فى اقليم السفواى وشمال ايطاليا وسويسرا .

وكان أهم معقـل جبلى فى الألب لهؤلاء العرب البواسل اسمه « فراكسينتوم » وتبين من أبحاث تاريخية حديثة أن العرب انشأوا أكثر من مركز يحمل هذا الاسم .

يقول « ارسلان » : وكان العرب يتقدمون يوما فيوما نحو جبـال الألب ، تعلقـا وتسلقا ، حتى وقفوا على أعلاها .. ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسا وايطاليا . واحتلوا جميع مضايق جبال الألب ، فصار مرور الناس عائدا الى أذنهم وسنة ٩١١م كان رئيس أساقفة أربونة يريد السـفر الى روما لأمر عاجل فلم يسـتطع خوفا من العرب .. وكانوا لا يسمحون لأحد أن يمر بدون أن يأخذوا منه رسما معلوما .. وكان من عادة أهالى فرنسا وأسبانيا وانجلترا أن يذهبوا حاجين الى روما ، ولو مرة فى العمر .. ولكن معابر الألب صارت كلها فى أيدى العرب .

وكان الأساقفة الذين فروا من وجه العرب فى بروفنس ، قد لجأوا الى بلاد (فاليه) من سويسرا ، فجاء العرب ، ودخلوا هذا الوادى واكتسحوه ، وتقدموا فى سويسرا الى مقاطعة « جريزون » .

« وازدادت جرأة العرب ، واستقرت قدمهم فى البلاد ، وأصبحوا كأنهم سـيلبثون أبدا فى قلب أوربا ، فأخذوا يتزوجون من بنـات الأهالى ، ويحرثون ويزرعون كسائر الفلاحين . وكان أمراء النواحى يكتفون بأن

يأخذوا منهم أتاوة خفيفة .. أما سكان الجبال ، ولا سيما جبل سان برنار الكبير ، فقد كانوا واسطة الاتصال بين ايطاليا وسويسرا ، ولما استولى عليه العرب تمكنوا من سائر النواحى المجاورة .. وأقاموا على ضفاف بحيرة كونستنزا ..

ويظهر أن أهل سويسرا وشمال ايطاليا ، جمعوا قوات كبيرة والتحموا مع العرب ، ليخلصوا منهم جبال الألب . كما يبدو أن قوات من المجر التى أغارت على اقليم الألزاس هبطت الى سويسرا والتحمت بهم أيضا .

وكانت أواخر المواقع فى هذه الأنحاء بين أهلها والقوات العربية حوالى سنة ٩٦٠ م وبعدها لم ترد فى مراجع التاريخ أخبار مواقع أخرى ، ولا سيما فى سير القسيسين والكنائس الذين دونوا أخبارا عن العرب فى هذه الانحاء من وجهة نظرهم .. والراجح أنهم انسحبوا منها الى أفريقية والأندلس .

بعد أن عرضنا هذه الصورة السريعة ، لامتداد الفتح العربى الى كل جزر البحر المتوسط ، وشواطئه « والأرض الكبيرة » الممتدة بعد هذه الشواطىء فى فرنسا وايطاليا وسويسرا .. بعد هذا العرض نود لو أن مؤلفى الكتب الدراسية فى التاريخ لا يقفون بالفتوح العربية فى تلك الحقبة ، عند سنة ٧٣٢م ، حيث دارت موقعة تور أو بواتييه .. ويجب أن يمتد بحثهم وعرضهم الى هذه الصحائف التى كانت مطوية ، وجد مؤلفون من الأجانب والعرب فى تمحيصها والكشف عنها .

واننا نريد أن نعيش لحظات بفكرنا وخيالنا ، عند هذه الحقبة ، مع هؤلاء الأبطال الصناديد ، الذين لم تقف جبال البرانس ، أو جبال الألب الشاهقة ، دون نشاطهم ، وعظيم مغامراتهم .. انهم رجال لم ير آباؤهم نهرا ، ولم يعرفوا من الجبال الا هذه السلاسل الجرداء عند تهامة ، فاذا بهم يرتقون القمم الثلجية ، وينحتون فى صخرها ، وجوفها بيوتا لهم ، كما تصنع النسور المحلقة فى أجواز الفضاء ، اذا ما آن لها أن تستريح .

ولا نحسب أن سيطرة العرب على جبال الألب ، وعلى السهول والبحيرات المنبسطة فى شمالها وجنوبها ، كان نزهة عسكرية ، أو مغامرة شخصية .. انا نرجح أنه كان جزءا من الخطة العربية الكبرى ، التى تريد أن تصل الى القسطنطينية من بابها الخلفى ، بعد أن ردت العرب عنها من بابها البحرى .. ولقد انتظر العرب من نسور هذه الجبال ، والقابضين على مسالكها شهورا وسنين ، كى تفد الجيوش العربية ، فى طريقها الى الهدف المرجو .. ولكن هذه الجيوش لم تصل ، لأن الآفة الكبرى دبت فى الوطن الأم . آفة الخلاف على الحكم ، ثم امتدت الى الأقاليم والأمصار . وشغل الشعب بالتطلع الى هذه المأساة الدامية .. مأساة التمزق التى تحجب فى ضجتها الأهداف الكبيرة ، وتضيع فيهـا معالم الخلق والعزيمة ، وقوة الاندفاع ، التى شحنت بها القومية العربية أبناءها . منذ انطلق المثنى بن حارثة من شواطىء الخليج الى أرض الرافدين .. دجلة والفرات .

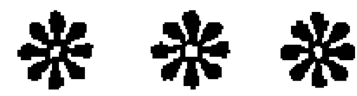
ان صورة المجد العربى ، فى ارتفاعه العظيم ، لا تتراءى لنا من قمم سانت برنار ، المتوجة بالثلوج فقط .. ولكن تبدو أكثر روعة وتأثيرا ، فى هذه السفن العربية ، التى تسيطر على أمواج البحار وتتنقل فوقها من غزو الى غزو ، ومن نصر الى نصر ، ولا ترى من حولها الا الزبد الأبيض يتكسر ، ثم ينحسر الى وراء ، ليخلى الطريق لهذه القوة العربية الأصيلة ، كى تمخر العباب وتتطلع الى الآفاق .

اننا نسأل عن حدود القومية العربية ، ونراها تقف عنـد كل أرض خالطها الدم العربى .. ولكننا هنا نمد هذه الحدود ، مع السفائن المنطلقة ، والسواعد المدربة ، التى تستخدم تيار الهواء وتيار المـاء ، ومد البحر وجزره لكى ينفسح أمامها الأفق البعيد الى مالا نهاية من المسافات والأبعاد.

كم من « أمير ماء » عربى ، وقف على مقدمة سفينته فى خليج بسكاى ينظر الى مياه الأطلنطى ليسأل الريح عما وراءها .. وكم من « أمير ماء » مد بصره ، ليرى اليابسة تقترب ، فيصيح فى رجاله أن يستعدوا ليأخذوا برقاب مدن كبيرة وشهيرة مثل مارسيليا وجنوا ونابلى والبندقية .

ان كتاب الفرنجة أسموا هذه القوة البحرية التى جعلت من البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندى مياها عربية ، أعمال قرصنة .. وما كانت كذلك .. انها كانت أعمال أستاذية وارتياد للمجهول . علمت أوربا ما البحر وما الموج . وما السفينة .. حتى اذا فت فى عضد الأمة العربية، ركبت أوروبا البحر من بعدنا بسنين وسنين ، وتابعت سيرنا ، وبحثت عنا ، فلم تجدنا ، لأن « لعبة » الحكم استغرقت وقت قادتنا ، ولأن « جرثومة » الخلاف تمكنت من جسم قوميتنا .

وسنرى بعد حين ، كيف انتهزت أوربا وآسيا البعيدة هذه الفرصة ، لتضربنا ضربات فى الصميم ، أخرت تقدمنا قرونا وقرونا .



لم تمض على هذه المواقع غير فترة يسيرة ــ حوالى قرن واحد من الزمان ــ حتى كانت أوربا قد استيقظت ، وتناولت الكرة بين يديهــا ، وأخذت ترد على العرب فى الحملات التى اســتمرت قرنين من الزمان ، وسموها « الحروب الصليبية » .

واذا كانت هناك أسباب مباشرة لهذه الحروب سنذكرها فيما بعد ، الا أن أسبابها الأصيلة هى هذه الحروب التى شملت غرب وجنوب ووسط أوروبا وكان الطرف الأقوى فيها سواعد العرب ومهارتهم ودماؤهم .

الفصل الثانى عشر

الصليبيون فى الشام الكبير

ارتفعت الشمس فوق طبقات الرذاذ التى غطت الحقول وعلت أصوات الأجراس فرددتها أسوار مدينة (كليرمون) الفرنسية . وانتشر رنينها فى الفضاء قويا عميقا ..

ووقف رجل مهيب طويل القامة . على منصة الخطابة . وقد تجعدت خصلات الشعر الأشقر فى رأسه ولحيته .. وزاد مهـابته رداؤه الأبيض الناصع ، والصليبان اللامعان اللذان ارتفعا الى يمينه ويساره . يحملهما رجلان فى ثياب بيض .

والى جوار المنصة جلس الكرادلة . وتلاهم الأساقفة ثم الرهبان .. واجتمع معهم بضعة آلاف من عامة الناس والأشراف والفرسان وانتشر بينهم بضع سيدات من الأشراف مع وصيفاتهن وخادماتهن .

واتجهت أبصـار الجميع نحو المنصة . يحملقون فى ذلك الخطيب الأشـقر ، المديد القامة . البـابا اربان الثانى . أو البـابا الذهبى كما لقبه البعض .

وكانوا جميعا آذانا صاغية . وكان صوته يفعل فيهم فعل السحر . وأخذ يشعل حماستهم وسخطهم فيقول :

« هؤلاء الأتراك والعرب . أسروا الكثيرين من المسيحيين . وهدموا كنائس ، ووطئوا معـابد بخيولهم . وأصبحت فى أيديهم كنيسة مارى المقدسة ، حيث يرقد جسدها الطاهر .

اسمعوا : هؤلاء المعتدون ينجسون مذابح العبادة بما تلفظه أجسادهم

من أقذار . اسمعوا .. انهم يعذبون المسيحيين أشد العذاب . يقيـدونهم بالأغلال .. ويثخنون أجسادهم بالأسـهم والحراب .. اسمعوا . انهم يكرهونهم على أن يسجدوا ويحنوا رءوسهم كي يختبر هؤلاء الفجرة ، قدرة سيوفهم على قطع رقاب المسيحيين ، بضربة واحدة ..

أنتم فرسان أقوياء .. ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم . ولكن تعالوا وحاربوا الكفار . يا من تنابذتم اتحدوا . يا من كنتم لصوصا ، كونوا الآن جنودا .

تقدموا للدفاع عن المسيح . لا تمنعكم عراقيل ، ولا تلهكم نساؤكم ، ولا أولادكم ولا أموالكم عن القتال في سبيل الله » .

وهنا شاب صوت البابا ، نغمات الاغراء والترغيب وهو يقول :

« تقدموا ، الى البيت المقـدس ، انتزعوا تلك الأرض الطـاهرة ، واحفظوها لأنفسكم فهي تدر سمنا وعسلا .

انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ، وان خذلتم فستقضون حيث مات يسوع ، فتخلدون في النعيم الدائم .

اذهبوا الى القتال . وسنرتب أموركم وأموالكم في غيابكم .

سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التي زودني بها الله .

فأعدوا أمركم واجمعوا جحافلكم . حتى اذا انقضى الشـتاء وعاد الربيع ، ابدأوا رحلتكم تحت رعاية الله » .

ولم يكن قد انتهى من خطابه بعد ، ولكن صيحة دوت ، فغطت على كلمات البابا ، وكان البعض ينتحبون ، والبعض يخبئون وجوههم في أكفهم . ثم رددوا جميعا تلك الصيحة المدوية :

« انها مشيئة الله » .

وصمتت الجموع ثانية ، فالبابا تتحرك شفتاه ليقول :

« لو لم يكن الله معكم ، وفى أفئدتكم ، لما هتفتم هكذا . انى أقول لكم ، لقد أخرج الله هذه الصيحة من أفواهكم وقلوبكم . فلتكن صيحة الحرب . عندما تقفون أمام العدو فلتكن شـارة الصليب على أرديتكم وأعلامكم ولترفعوا هتافكم : انها مشيئة الله » .

ويروى باركر فى كتابه « تراث الاسلام « (١) :

ولم يكن الأمر ، أمر أناس من المسيحيين يعذبون ، فلم تكن هـذه الدعوى صحيحة ولكن ، قصدت البابوية من دعوة الاستغاثة توحيـد الكنيسة فى الشرق والغرب تحت سلطانها ، فضلا عن استرداد بيت المقدس من العرب واستثمار أراضيهم . ولهذا أضحت قضية السلام الداخلى فى غربى أوروبا مرتبطة بفرص الحرب المقدسة ضد المسلمين (الكفرة !) وكانت المجامع الكنسية على التوالى تربط فى نغمة واحدة بين السلام الالهى والحرب الصليبية المسيحية .

كان ذلك فى أواخر سنة ١٠٩٥ ميلادية .

ولم تمض سنة ١٠٩٨ حتى كان الصليبيون قد اكتسحوا المسـلمين أمامهم وامتلكوا منهم الرها ، وأنطاكية ، وحصونا عديدة .

وفى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ فتحوا أبواب أورشليم . وسرى فى أعصابهم جنون الانتصار ، وانتابتهم حمى الفرح وزادتهم جنونا واشتعالا ، حرارة الشمس التى توسطت رقعة السماء .

وأخذت سيوفهم ترتفع وتهوى ، وتنسحب وتندفع تاركة دماء المسلمين تجرى وجثثهم تهوى . وحشرجات الموت تؤلف صوتا رهيبا !

ودخلوا البيوت ، يمزقون بسيوفهم أجساد النساء ، ويقطعون الأطفال كما تشرح الدجاجة عند أكلها ، ويتلذذون بفقء عيون الفتيات الصغيرات .

---

(١) ترجمة على أحمد عيسى .

وفى الطرقات والمساجد ، تناثرت الأشلاء . وتفجرت الدماء ، وكانت خيول الظافرين ، تجوس فى لجج القتلى ، وسيوفهم تزيدها تمزيقا وتمثيلا .

واجتمعت أسرات فى المساجد ، لا لتقاوم ، بل تنتظر حتفها فى رهبة . ووقف منهم الرجال المسنون ، فى هدوء المؤمنين العاجزين ، يرون رءوس أبنائهم وبناتهم تطاح ، فتتدحرج على أبسطة المسجد حتى جاء دورهم وهم يتمتمون :

أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

وبعد أن هدأت قليلا وحشية الظافرين ، أخذ بعض رؤسائهم يذرعون شوارع (القدس) ، فيرون كنائس هنا وهناك ، وقد دوت أجراسها ، فيهتفون من أعماق نفوسهم : « انها مشيئة الله » .

حقا ، لقد شاء الله وأراد .

وكتبوا الى البابا « الذهبى » خطابا يهنئونه . وفيه يقولون : اذا أردت أن تعرف ما يجرى لأعدائنا . فثق أنه فى معبد سليمان ، كانت خيلنا تغوص الى ركبها فى بحر من دماء الشرقيين .

ولكن الخطاب لم يصل اربان . فبعد أسبوعين من فتح أورشليم ، مات فى روما قبل أن تصله أنباء الانتصار الأخير .

هكذا مشيئة الله

وهكذا ، فى نفس المكان المقدس الذى علم فيه المسيح الحب والرحمة حتى مع الأعداء . حدثت هذه المجزرة البشرية التى قتل فيها جنود المسيح، أكثر من سبعين ألفا من العرب (١) .

* * *

وفى كتاب تاريخ القدس لعارف باشا العارف :

يقول المؤرخون الذين بحثوا وضع القدس فى ذلك الحين أنه كانت

(١) كتاب الشهر صلاح الدين للدكتور مصطفى الوكيل ومحمد صبيح .

هناك أسباب للحملة الصيلبية غير تلك التى ذكرها البابا فى رسالته .. وأن المسيحيين فى فلسطين كانوا يومئذ يعيشون مع المسلمين اخوانهم فى الوطنية واللغة فى سلام وصفاء وأن الأسباب الحقيقية تتلخص فى :

١ — حب التخلص من الثقافة والفلسفة العربية ، تلك الثقافة التى تناقض الانجيل وكانت منتشرة فى ذلك الحين .

٢ — الحيلولة دون اصطدام الأمراء الاقطاعيين فى أوربا وتقاتلهم وشغلهم بمقاتلة أعدائهم المسلمين .

٣ — جعل الأرض المقدسة لاتينية وملاشاة الأرثوذكسية منها .

وقال آخرون ان الغاية الحقيقية لا هذه ولا تلك ، وانما هى غاية تجارية بحتة .

ومهما تكن الأسباب فان الحملة الصليبية الأولى كانت مؤلفة من ثلاثمائة ألف مقاتل ينتمون الى مختلف الشعوب والأقوام الأوربية من فرنسيين وألمان ونمسويين ومجريين وبولنديين وغير ذلك . واقترف هؤلاء فى طريقهم الى الأرض المقدسة ألوان الفظائع والآثام . وذلك مما حدا بالأمم التى لاقوها فى طريقهم الى مقاتلتهم . فقتل عدد كبير منهم . وعاد عدد آخر الى بلاده قبل أن يصل الى هدفه .

ولما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس كان عددهم قد هبط الى خمسين ألفا .

حاصر الصليبيون القدس من جهاتها الأربع ولا سيما من ناحيتها الشمالية وكان على رأسهم جودفرى دوبويون أمير مقاطعة اللورين من أعمال فرنسا والكونت روبرت أوف نورمندى أمير مقاطعة نورمنديا والكونت روبرت أوف فلاندرس أمير مقاطعة فلاندره والكونت ندكريد ريموند أمير مقاطعة طولوز والكونت سان جيل ، وريكادوس أمير سالارنوس ، وكيرمونت وجراد ، وبلدوين ، وغيرهم .

بدأ الحصار فى ٧ يونيو سنة ١٠٩٩م وكان فى المدينة يومئذ « افتخار الدولة » يديرها باسم الخليفة الفاطمى المستعلى بالله . ولم تكن البلاد فى الحقيقة قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعضع الحكم السلجوقى بعد مقتل « نظام الملك ١٠٩٢ ، والتنافس القائم بين الطامعين فى العرش » وكانت قوة الدفاع عن المدينة مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . ولم يترك أحد الفريقين وسيلة من وسائل التغلب على خصمه الا لجأ اليها وكثيرا ما كانوا يتقابلون فى ساحات الوغى وجها الى وجه فيقتتلون بالسلاح الأبيض .

ومضوا على تلك الحال فى كرو وفر أربعين يوما الى أن نفد ما لدى المسلمين من عتاد ومؤن ، فانهارت مقاومتهم وتغلب الصليبيون عليهم فدخلوا المدينة فى تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة ١٥ يونيو ١٠٩٩م.

وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقى فيها بالموت وشرعوا من فورهم فى تنفيذ الحكم . فقتلوا سبعين ألفا ، ولم يجد المسلمين توسلهم ، ولا التجاؤهم الى المسجد الأقصى ، ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنجة ، ولا من المسلمين فى استفظاع المنكرات التى اقترفها الصليبيون . تلك المنكرات التى أقل ما قيل فيها انه يندى لها جبين الدهر . وأنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذى زعموا أنهم انما جاءوا لنصرته .

ولم تكن خسائر العرب ماثلة فى سقوط القدس وحدها ، ولكن المدن التى هبط فيها الصليبيون وهم فى طريقهم الى هدفهم قاموا بنفس المذابح حتى يرهبوا أهل المنطقة كلها . فيكفوا عن المقاومة وما أن وصلوا الى القدس وهدأت ضجة المعركة وسكنت كل حركة حتى راحوا يديرون المدينة كما يشاءون . فاستولوا على معظم المبانى والممتلكات التى كانت فيها سواء فى ذلك ممتلكات المسلمين ، أو المسيحيين المنتمين الى الكنيسة الشرقية ، ولقد حولوا قبة الصخرة الى كنيسة واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم فأنقصوا من حجمه كثيرا وقسموه الى أقسام : فاتخذوا قسما منه

كنيسة وقسما آخر مسكنا لفرسان الهيكل ، والباقى استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، واتخذوا السراديب التى تحت المسجد اسطبلا لخيولهم .

وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية ، جعلوا مقرها القدس ، وأقاموا عليها أميرا هو جودفرى دوبويون ، فأخذوه الى كنيسة القيامة وتوجوه ، ولما مات دفنوه فى داخل الكنيسة .

وفى زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) ١١٠٠ ــ ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت الى العقبة وكان لها فى ميناء العقبة أسطول . وكانت تجبى الضرائب من القوافل التى تسير بين سوريا ومصر والحجاز .

غير أن الأمن كان مفقودا . ولا سيما على الطريق التى تصل اريحا بالقدس فقد كان يرابط فى هذا الطريق عدد كبير من الأشخاص وان سماهم الراهب الردوسى دانيال ، الذى زار القدس فى عام ١١٠٦م بقطاع الطرق الا أنهم هم الذين نجوا من المذابح ، فراحوا يتكتلون ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين .

وتعاقب بعد ذلك ملوك الصليبيين على كرسى الحكم فكان منهم ثمانية حكام فى أقل من سبعين سنة ، وكان الشرق يومئذ قد أفاق من غفلته وصحح أغلاطه فاتحد ، وكان أمراء الصليبيين فى القدس والكرك وفى عكا وكل مكان من الاختلاف على جانب عظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاما علينا أن نذكر بوجه الايجاز ما كانت عليه القدس تحت ظل المملكة اللاتينية فنقول :

كانت القدس والمدن الكائنة حولها ذات أهمية من النواحى السياسية والدينية والتجارية . اذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التى تربط الشام بمصر ولكنها لم تنعم بالراحة وهناء البال من ناحية الأمن لوقوعها بين أصقاع آهلة بالمسلمين وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين واقلاقهم

بهجماتهم المتكررة وكذلك قل عن الأخلاق فقد انحطت يومئذ الى درجة لا تطاق والضرائب والرسوم التى فرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة . وما كان هناك نظام مالى ولا طرق منظمة لجباية تلك الضرائب والرسوم ..

وأما الحكم فقد كان يومئذ قائما على أساس (الاقطاع) وكان أمراء الاقطاع من الاستقلال بدرجة أنهم ما كانوا يقيمون للملك الجالس على العرش فى القدس وزنا .. بل كان بعض هؤلاء الأمراء يحارب البعض الآخر .. ونسوا الغاية التى من أجلها جاءوا هذه البلاد وفتحوا القدس .

وتكونت فى القدس فرقتان ، فرقة أسموها فرسان الهيكل وكانت عند المسلمين تعرف بـ (الداوية) وأخرى أسموها فرسان المستشفى . وكان المسلمون يلقبونها بـ (الاسبتارية) أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم لمكافحة المسلمين . وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم فى بادىء الأمر منصرفا الى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين .

ثم تحولت الفرقتان الى هيئة حربية ، واتخذتا المسجد الأقصى مقرا لأعمالهما ، وجعلتاه مستودعا لأسلحتهما .

ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، اذ ظل سكانها يتكلمون اللغة العربية لغة عروبتهم .

ومن آثار الصليبيين فى القدس : كنيسة القديسة حنة الكائنة بين باب الأسباط وباب حطة ، وهى التى يسمونها فى يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية وكنيسة القديسة مريم الكبرى التى بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص فى الدباغة . وكنيسة القديسة مريم اللاتينية على مقربة من أختها التى سبق ذكرها عند مدخل سوق الدباغة ، وكنيسة الداوية جنوب كنيسة القيامة . ويعتقد المسيحيون أنها كانت فى المكان الذى يقوم عليه الآن المسجد العمرى . وكانت كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد. وبنوا القبة المعروفة الآن بكنيسة « نصف الدنيا » .

ومن آثارهم أيضا المستشفى المعروف بالمارستان فان هذا المستشفى الذى بنى فى زمن الفاطميين وسع على عهد الصليبيين توسعا كبيرا ومنها أيضا المنزل الذى أقاموه الى جانب هذا المستشفى ومن بقاياه السوق المعروف بسوق البيزار، وفيها تباع الخضر فى يومنا هذا .



مولد صلاح الدين :

منذ أن فتح الفرنجة بيت المقدس، قبل أربعين سنة من ميلاد طفل اسمه يوسف صلاح الدين فى الموصل، لم تبد من المسلمين المتفرقين شيعا وأحزابا، أية بادرة عملية تكون صدى للثورة التى أوقدها فى نفوسهم فقدهم بيت المقدس . الا من المصريين الذين بادروا فحاربوا الصليبيين فى معارك سريعة متتابعة فكانوا ينتصرون تارة وينهزمون تارة .

وركدت الثورة فى نفوس العرب، ورضوا بالذل يقع على أخوانهم فى البلاد التى امتلكها الأجانب كالقدس والرها وانطاكية وغيرها .. ووقفوا جامدين امام الاعتداءات المتكررة التى كان يشنها الصليبيون على ماجاورهم من ولايات المسلمين .. بل لقد تحللت معنوية المسلمين حتى عدوا الأمر قضاء مقضيا، فبادلوا الأفرنج المعاملة والمتاجرة وتمت فيها بينهم المودة والمصاهرة .. بل لقد كان الأمير المسلم يحالف ويهادن الصليبيين ضد أعدائه من الأمراء المسلمين .

ولكن نجدة قوية جاءت من حكام السلاجقة فى شمال العراق وبحر قزوين . فقد زحف حاكمهم عماد الدين زنكى الى حلب، ومنها تقدم الى « الرها » وحاصرها، واستولى عليها من الصليبيين بعد معركة رهيبة وحصار استمر شهرا من الزمان .

ودارت مناقشة، فى بلاط روجر ملك جزيرة صقلية، بينه وبين أحد زواره من المسلمين العرب .

سأل الملك مداعبا : أين كان محمد نبيكم عن فتح تلك البلاد المقهورة وأهلها ؟

فأجاب العربى : كان هناك يشهد فتح « الرها » وقد فتحها المسلمون الآن .

فضحك من كان هناك من الفرنجة ولكن الملك قال : لا تضحكوا فلعل الحق فيما يقول !

وكان الحق فيما قال ، ففى الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١١٤٤م دخل المسلمون « الرها » . وقد جنوا بالانتصار .. وجاء دورهم فى الانتقام فقتلوا الرجال ، وخلعوا الصلبان وأخذوا يثأرون من الهزائم الماضية ومرارتها القاسية .

ولكن لما دخل زنكى بنفسه مدينة « الرها » . أعجب بجمالها وبهجتها وآلمه أن يحل بها الخراب على يديه . فأوقف طغيان جنوده . وأمرهم أن يردوا كل شئ مكانه فأعاد القادة والجنود كل شىء وكل نفس : البضائع الثمينة والفتيان الأقوياء والفتيات اليانعات .

وبعد عامين من فتح « الرها » مات عماد الدين زنكى فى ميدان القتال قتل غيلة بأيدى اتباعه وأعوانه وأطلق الناس عليه لقب الشهيد .

وقسمت ممتلكاته بين ابنه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، وحكم غازى فى الموصل ومحمود فى الشام .

وبعد وفاة زنكى ، رفع الارمن والافرنج فى الرها عصا العصيان . فهاجمها نور الدين بجنوده فدمروها تدميرا وقتلوا الثوار تقتيلا . واستولوا على كل ثمين .

الحملة الصليبية الثانية :

ثار المسيحيون فى الغرب ، عندما سمعوا بتخريب الرها ، وتقتيل المسيحيين وانزعجوا من خطر نور الدين الزاحف . وانتووا ايقافه عند

حده . واجتمعت جيوش الحملة الصليبية الثانية فى سوريا وعلى رأسها ملكان : كنراد امبراطور المانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا .. وأراد الصليبيون الاستيلاء على دمشق ، وتجمعت للدفاع عنها قوات (أنار) قائد دمشق نفسها وقوات سيف الدين غازى وقوات نور الدين محمود فانتصر المسلمون على الصليبيين أكبر انتصار . وعاد الامبراطور الى أوربا ثم تبعه لويس ملك فرنسا ورجعت الحملة الصليبية الثانية تجـر اذيال الخيبة والخزى والعار .

وحدث بعد ذلك أن طلق لويس زوجته الفاتنة اليانور وتناقلت كتب الفرنجة عن سبب الطلاق انه كانت بينها وبين صلاح الدين علاقة .. ولكن هذه الاشاعة كاذبة لسبب بسيط وهو ان الطلاق حدث فى سنة ١١٤٠ م وكان صلاح الدين وقتها لا يتجاوز الحادية عشرة . وكان بعيدا عن عسقلان مقيما فى دمشق يتلقى هناك دروس العلم والدين .

وكان صلاح الدين مع أبيه أيوب الذى ظل يرتقى فى المناصب حتى أصبح قائد قوات دمشق .

وقد تمكن نور الدين الوارث الجديد لهذه المملكة من تحقيق حلمه وحلم أبيه من قبل فى الحصول على دمشق وجعلها مركزا لامبراطورية سورية متحدة ضد الغزاة الاوربيين .

وقد ظل الفتى صلاح الدين عشر سنوات يعيش مع أبيه فى دمشق ويشهد هذا الصراع الهائل بين قوى الشرق والغرب .

وكان الملك نور الدين يحب العلم والعلماء .. جلب معه الى دمشق عالما من أكبر العلماء ، وهو عبد الله بن أبى عصرون وشيد له المعاهد والكليات فى انحاء سوريا ليحاضر فيها ، وكان صلاح الدين يستمع فى الجامع الاموى بدمشق ، الى دروس هذا العالم الفاضل ، الشيخ الذى أصبح فيما بعـد قاضى قضاة الجزيرة . ثم فقد بصره ، فأبت مروءة صلاح الدين ، وكان قد

أصبح حينئذ سلطان المسلمين ، أن ينتزع الشيخ الأعمى من منصبه ، بل قربه اليه وأنعم عليه .

واكتسب صلاح الدين ، التقوى والعــدل ، والتقشف والزهد حتى انه لم يأخذ لنفسه شيئا من أموال المسلمين وعاش من ماله الخاص القليل .

ورأى فى نور الدين ، الملك المسلم الحريص على دينه المحارب الذى لا يكل فى سبيل رفعة الاسلام ، وقهر الصليبيين الغاصبين . وقد اشترك صلاح الدين نفسه ، مع أبيه وعمه ، فى بعض مناوشات وحروب صغيرة ضد الصليبيين ولكن لم ينبه ذكر صلاح الدين الا عندما بدأ دوره العظيم فى مصر .

وقد جاء هذا الدور سريعا ، عندما حدثت خلافات على ولاية مصر وما كان اكثرها فى ذلك العهد ــ فوكل نور الدين الى صلاح الدين قيادة وحدة من الجيش للقضاء على حلف نشأ بين أحد الأمراء وأحد الصليبيين ، وسارت جيوشهما الى بلبيس حيث ووجهت بالهزيمة . وكوفىء صلاح الدين على جده فى أول معاركه الحربية ، بأن يقود حامية الاسكندرية .

ورأى صلاح الدين نفسه ، حاكما لأول مرة فى حياته ولكنه وقع بين أمرين . فقوات الأفرنج والصليبيين قد تكاملت من جديد ، وحاصرت الاسكندرية من البر ، بينما كان أسطول الصليبيين يهاجم الاسكندرية من البحر .

ولأول مرة فى حياة صلاح الدين ، وقعت المسئولية الكاملة على عاتقه فى أمر خطير . فأظهرت من الشجاعة والصبر والاستبسال فى منازلة المحاصرين ما حببه الى قلوب الاهلين . ورفعه فى أعينهم .

وكان حصارا شاقا عنيفا ، شاهد فيه صلاح الدين الأهوال ، وطال الحصار حتى زاد على سبعين يوما .. وضاقت الحال بأهالى الاسكندرية

ونضبت المؤونة والذخيرة ولكن صلاح الدين استمر يدافع ويقاوم ويبث فى الأهلين الحماسة والصبر .

وأخيرا اضطر أملريك الصليبى ، حاكم القدس أن يفك الحصار عن الاسكندرية ويطلب الصلح ويبتعد عن التدخل فى شئون مصر .

وقبل ان يغادر صلاح الدين مصر بعد انتهاء مهمته ، حل ضيفا فى معسكر أملريك بعد أن تم الصلح وبقى مكرما هناك أياما عدة . درس نظم الفروسية والجندية عند الصليبيين مما أفاده فائدة كبيرة فى خططه المقبلة .

أما املريك الصليبى .. فكان يبارح مصر وقلبه يتوق الى امتلاكها ، ونفسه تطمع فى الحصول على أموالها وثرواتها وقصورها وجناتها .. وفعلا لم يمض عام واحد حتى خالف الاتفاق الذى عقده ، وعاد من جديد تحت تأثير طمعه وجشعه ، وتحت تأثير قواده وناصحيه ، ليغزو مصر بأسرها .

وفى أيام قلائل ، كانت بلبيس ملكهم ، وأمعنوا فى أهلها فتكا وقتلا . وتمت مجزرة هائلة ، ذبح فيها الغزاة كل من وقع فى أيديهم من الرجال والنساء والأطفال .

وعلم « شاور » حاكم مصر فى ذلك الوقت بما حدث .. فأراد أن يعرقل املريك بأى الوسائل .. فحرق الفسطاط ، أولى عواصم مصر الاسلامية . وظلت النيران تشتعل فيها أكثر من خمسين يوما حتى تركتها قاعا صفصفا .. وكذلك أخذ شاور يغرى املريك بالمال حتى تنتهى المفاوضة الى اتفاق يعقدانه . أو كما كان يسر شاور فى نفسه ، حتى تأتى النجدة من الملك نور الدين فى دمشق .

وتطلع الشعب المصرى كله الى نور الدين ، حتى الخليفة العاضد الذى كان يقيم بمصر ، كتب بنفسه اليه ، مرفقا بخطابه خصلات من شعور

نساء القصر ، قائلا هذه شعور نسائى فى قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الافرنج .

وكلف نور الدين شيركوه (عم صلاح الدين) بالسير ، وكان صلاح الدين حاضرا . فالتفت عمه اليه وقال : تجهز يا يوسف . فقال صلاح الدين : لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها . فلقد قاسيت فى الاسكندرية وغيرها مالا أنساه . فقال شيركوه لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فقد كان عونى فى الحملتين السابقتين ، فمره ، فأخذ يأمر صلاح الدين وهو يعتذر : لابد من مسيرك مع عمك . وأعطاه ما تجهز به . وكان يخيل لصلاح الدين انه يساق الى الموت .

واختلى صلاح الدين بنفسه ، وهو غير راض ولا مستريح ، ولا يدرى ما السبب فى انه كان يرفض الرحيل الى مصر ، فمهما كان قد لاقى فيها فليس هو بالجبان ولا بالرعديد وأحس صلاح الدين بأن شيئا ينقصه هذه الساعة .

وفتح المصحف الشريف ، وبدأ يقرأ السورة الأولى ، البقرة . وهنا وجد الراحة والطمأنينة .. وأخذ يقرأ ، ويقرأ وامتلأت عيناه بالدمع . وتلا :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع »
« الصابرين .. ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل »
أحياء ولكن لا تشعرون » .

واستمر يقرأ حتى تلا :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم . ولا تعتدوا ان الله »
« لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتوهم وأخرجوهم من»
« حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل » .
« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان »

« انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

واستمر يقرأ ، وعيناه تفيضان بالدمع فيسيل على خديه .

ثم تلا :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم »

« واتتم لا تعلمون » .

وأضاء وجهه نور الايمان واليقين .

وبعد شهور قلائل ، تحقق قول الله عز وجل « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » وأصبح صلاح الدين سلطان أكبر وأغنى دولة اسلامية فى ذلك الحين .. أصبح سلطان مصر .

فقد اختار الخليفة الفاطمى صلاح الدين ليخلف عمه الذى مات . وفى السادس والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ ، نصب رسميا سلطان مصر الأكبر . ولقب « الملك الناصر » .

وفى ذلك اليوم ، انتصرت كلمة الجيل الجديد مرة أخرى .. اذ لم يكن عمر الملك الناصر ، صلاح الدين ، يتجاوز احدى وثلاثين سنة .

وفى نفس ذلك اليوم العظيم ، تكشفت امام صلاح الدين ، رسالته التى حملها له الله ، والتى بدأ يحس بها منذ غادر دمشق الى مصر فى الحملة الأخيرة . فهو يشعر اذا دانت له مصر ، بأن فلسطين أيضا سوف تتحرر.. وان عليه طرد الفرنجة من بيت المقدس . وان يهب نفسه وحياته لهذا الجهاد الأكبر .

وبينما صلاح الدين يبدأ حكمه فى مصر ، حدث حادث هام :

كان شخص رث الهيئة ، خلق الثياب ، يسير بشكل يدعو الى الريب فاستلفت نظر تركمان من رجال صلاح الدين فدقق فيه بصره . فلاحظ أنه يلبس فى قدميه نعلين جديدين ، لا تتناسب جدتهما مع ثيابه البالية ..

فأخذ النعلين الجديدين وصاحبهما الى صلاح الدين وفتق النعلين فتكشفا عن خطاب خطير من « مؤتمن الخلافة » . وكان خصيا اسود يدير قصر الخليفة الفاطمى العاضد ويتصرف فيه . والخطاب موجه الى الفرنجة يأتمر فيه مؤتمن الخلافة معهم على ان يهاجموا مصر ، حتى اذا ما غادر صلاح الدين القاهرة لمقاومتهم ، قام مؤتمن الخلافة والثائرون من المصريين ليهاجموا صلاح الدين من الخلف ، فيحصر بين نارين .

ولم يتعظ مؤتمن الخلافة بما لاقاه غيره من قبله نظير الاستعانة بالفرنجة ودعوتهم لمهاجمة البلاد . فكان جزاؤه أن قطعت رأسه عندما سنحت الفرصة لرجال صلاح الدين فظفروا به فى بيته القروى ، بعيدا عن قصر الخلافة .

وأثار قتله عساكر الخليفة وأكثرهم من السود حتى قام فى وجه صلاح الدين خمسون ألفا منهم ، واشتد القتال عند (باب القصرين) وانتهى بهزيمة السود امام عساكر صلاح الدين . وقام صلاح الدين ورجاله فأحرقوا محلتهم عند باب زويلة . وفيها نساؤهم وعيالهم .. فتشتت السود مخذولين وقتل منهم الكثير .. ومن بقى منهم أرسل الى الجيزة ومن هناك شردوا الى الصعيد .. ومنذ ذلك الحين جعل صلاح الدين على القصر بدل مؤتمن الخلافة واحدا من رجاله يدعى بهاء الدين قراقوش ..



وكان مركز صلاح الدين دقيقا منذ ولى الحكم . فهو وزير العاضد الخليفة الفاطمى ، وهو فى الوقت نفسه نائب لنور الدين ، الملك السنى التابع اسما للخليفة العباسى . وكان من المصريين السنيون والشيعيون ولكن الشيعيين كانوا الاكثرية بعد مائة عام من حكم الفاطميين . ولم يرد صلاح الدين ان يصدم المصريين فيغير من مذهبهم الشيعى مرة واحدة .. وينادى بالخلافة العباسية تنفيذا لرغبات نور الدين . وهو فى الوقت نفسه لايريد ان يخسر نور الدين أو ينفره منه . فاكتفى بجعل خطبة الجمعة شاملة لاسم

نور الدين بعد اسم الخليفة الفاطمي وانتظر حتى يتوطد مركزه فى مصر ، وتقوى مكانته بين المصريين ، ليخطو الخطوة الحاسمة فى أمر الخلافة .

معارك فى دمياط وغزة والعقبة :

ولم يكن صلاح الدين مهتما بارضاء أمراء القصر ، أو كبار المصريين بل وضع همه ، فى اسعاد الشعب ، ففتح أبوابه وخزائنه للناس . وجاءت الوفود من جميع أنحاء مصر لتراه فكان يعطيهم . وكان يستمع الى شكاواهم بنفسه ويحقق رغباتهم فأصبح بكرمه ، ودماثة خلقه ، وشخصيته الجذابة ، محبوبا من المصريين .

وزادت شعبيته فى قلوب المصريين عندما بدأ كفاحه مع الصليبيين بانتصار هائل ..

فقد رأى الصليبيون فى فلسطين . انهم الآن بين دولتين اسلاميتين قويتين ، متحدتين ، واحدة فى سوريا والأخرى فى مصر . فاتفق املريك ملك بيت المقدس ، مع الامبراطور الاغريقى فى القسطنطينية ، الذى كان يخشى أن يمتد توغل نور الدين من الشام الى آسيا الصغرى ، ثم يعبر البسفور الى أوربا .. ولما كانت مصر فى هذا الوقت هى قاعدة العمليات الحربية ضد الصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، لذلك قرر الصليبيون والبيزنطيون اخضاعها .. وفى نوفمبر سنة ١١٦٩ هاجم املريك وجنوده دمياط ، واتخذوا لأنفسهم موقعا بين البحر والمدينة ، منتظرين وصول الاسطول الاغريقى ولكن صلاح الدين كان مستعدا . والطابية كانت مهجورة للدفاع وبعد ثلاثة أيام ظهر الأسطول الاغريقى ولكن حماة الطابية استطاعوا منع الأسطول من الدخول الى الميناء . ولم يستطع جنود الصليبيين البرية شيئا ازاء عساكر صلاح الدين والامدادات التى توالت من الشام بناء على استنجاد صلاح الدين بنور الدين . فاضطر املريك أن يفك الحصار بعد خمسين يوما من بدئه لقى فيها جنوده أهوال العواصف وقاسوا الجوع والعذاب .

وبينما كان الأسطول الاغريقى فى طريق العودة جاءتهم ريح عاصفة وجاءهم الموج من كل مكان . وأحيط بهم . وحطمت الأنواء أسطوله كله . وحمل الموج جثثهم الى الشاطىء الذى جاءوا ليمتلكوه !

واتبع صلاح الدين فوزه فى الدفاع عن دمياط ضد الصليبيين بمحاولات موفقة هاجم فيها الجهات الجنوبية من فلسطين قاصدا بذلك ان يزيل الخوف الذى كان يستولى على القوات العربية من الافرنج . وأن يعد جنوده للهجوم بدلا من الدفاع الذى اعتادوه . كى يصبحوا قادرين بعد ذلك على الجهاد المقدس القادم الذى شعر به من أول يوم تولى فيه الوزارة المصرية .

وخرج من هذه الهجمات ظافرا . فقد انتصر على الصليبيين فى مدينة غزة . ثم أراد ان يستولى من الصليبيين على أيلة (العقبة) لموقعها الهام ، فهى مفتاح البحر الأحمر ، ومدخل طريق الحجاج المسلمين الى مكة . فبنى فى القاهرة أجزاء السفن وحملها الى البحر الاحمر حيث ركبت هناك وبذلك استولى صلاح الدين على حصن العقبة بهجوم الاسطول من البحر والجنود من البر .

وعاد يوسف صلاح الدين بعد هذه الانتصارات ضد الفرنجة فكانت مصر كلها تهتف باسمه واحبه الجميع ، الشيعيون منهم والسنيون . المصريون منهم والأتراك ، لأنه انتصر على أعدائهم .

والتف الشعب حول زعيمه وازداد ايمانا به وعادت الروح الى المصريين . وامتلئوا ثقة واعتزازا .

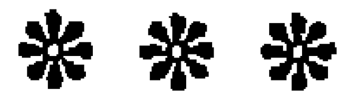
وكان التاجر فى السوق . والصبى فى الشارع ، والفلاح فى المزرعة ، والمرأة فى البيت ، والجندى فى الجيش .. الجميع تهتف قلوبهم حبا واعجابا . يوسف .. يوسف .. السلطان يوسف ! فهو القائد الذى انتصروا به وارتفعت رؤوسهم .

وفى طريقه الى تحويل المصريين عن المذهب الشيعى ، فتح المدرستين الكبيرتين الناصرية ، والكاملية ، لنشر المذهب الشافعى .

وكانت بمصر دار الشحنة ، يحبس فيها من يراد حبسه فى عهد الطغيان الذى سبق صلاح الدين ، فهدمها وازال ما كان فيها من ظلم وبغى . وبناها مدرسة للشافعية ، وكذلك استبدل القضاة الشيعيين بالقضاة السنيين .

وبدأت أفكار المصريين تبعد شيئا فشيئا عن الشيعة ، وتتجه رويدا نحو السنة .. وبهذا يتخلص الناس من ثنائية المذهب ، ويجتمعون للجهاد صفا واحدا .

وأخذت الظروف تعمل وتهيىء لصلاح الدين ، كى يحقق غايته .



بينما كان الخليفة الفاطمى العاضد مريضا فى قصره جمع صلاح الدين أمراءه وقواده ، يستشيرهم فيما انتواه من قطع الخطبة للعاضد .. وأخبرهم بالحاح نور الدين فى دمشق فى ذلك ، فمنهم من أشار بقطع الخطبة ومنهم من خشى غضبة المصريين .

وكان قد دخل الى مصر موصلى عالم ، ورأى ما عليه القوم من الاحجام ، وعدم تجاسرهم على الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد فقال : انا أبدأ بالخطبة له .

وأخذ سبيله الى المسجد ، فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧ هجرية (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١) ، فدعا لخليفة بغداد ولم يثر ذلك اكثر من دهشة بدت على المصلين ، ولم يحصل هرج ولا استياء .

ووصل النبأ بغداد فامتلأ الخليفة العباسى فرحا . وأمر باضاءةعاصمته وانعكست الأنوار على مياه دجلة فألفت منظرا خلابا .. وارسل الخليفة خلع الشرف لنور الدين وصلاح الدين . وبعد ايام قلائل ، عمت الخطبة لخليفة بغداد ونشرت على المنابر الأعلام السوداء ، أعلام العباسيين . وفى

نفس الوقت كان العاضد يعانى آلام الموت ولا يعلم ان اسمه هوى من أعلى المنابر ، قبل أن يهوى جسمه الى حضيض المقابر ، فقد امر صلاح الدين تابعيه وموظفى القصر ، ألا يعرفوا العاضد آخر الخلفاء الفاطميين شيئا . وقال :

« ان عوفى فهو يعلم . وان توفى فلا ينبغى ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته » .

وقال صلاح الدين يرثيه :

« ما رأيت أكرم من العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين فى مصر ، أرسل الى مرة ليعيننى على مقاومة الافرنج عند دمياط ، ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب والذخيرة » .

وقام صلاح الدين بمأتم العاضد ثلاثة ايام ، ونقله الى قبره فى مشهد مهيب .

ولم يبارح ذهن الصليبيين أو أوربا كلها ، أن مصر هى المدافعة الحقيقية عن عروبة القدس ، وانه اذا قام تنسيق للعمل العسكرى بينها وبين سوريا فلن تبقى للفرنجة باقية فى شرق البحر المتوسط .

وجاء الدور هذه المرة على صقلية لكى تحاول ضرب مصر وتعهد ملكها بهذه المهمة فأرسل الى الاسكندرية أسطولا كبيرا من ٢٨٢ سفينة وأخذ أهل الاسكندرية على غرة ، ولكنهم قاموا للدفاع .. ونزل الأجانب الى البحر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات (آلات التدمير التى تقذف الحجارة) واضطر الاهلون أن يقاتلوا بلا كلل طول النهار الأول ، حتى غشى الليل ، ولم يكن معهم الا القليل من الجنود ولكنهم اشتدوا فى القتال ، حتى رأى الأجانب من شجاعة أهل الاسكندرية ما راعهم .

وفى اليوم الثانى زحف الغزاة بآلاتهم الى أسوار الاسكندرية

---

(١) نرجو أن يتأمل المدافعون عن القدس فى أيامنا هذه — ١٩٧١ م — هذا المعنى ..

وهاجموا بشدة .. ولكن الاسكندريين استطاعوا رد الهجوم .. مستعينين بقوات اضافية جاءتهم من القرى المجاورة .

وفى اليوم الثالث حدث ما لم يكن بالحسبان فقد فتح السكندريون باب المدينة وخرجوا منه وأغاروا من كل جانب على بحارة صقلية .. وهم يصيحون صيحات باطشة .. فارتاع الاجانب .. واستطاعوا ان يصلوا الى آلات التدمير التى نصبها الأجانب فدمروها واحرقوها . واشتد القتال حتى آخر النهار ، فدخلوا مدينتهم فرحين بالانتصار . وما ان دخلوا حتى جاء رسول يعلن وصول صلاح الدين بالجيش .. وسرعان ما اندفعوا خارجين ثانية ، أكثر حماسة وقوة ، وقد غادرهم ما حل بهم من تعب .. وهووا على الاعداء ، وكل منهم يخيل اليه ان صلاح الدين يقاتل الى جواره .

فألقوا بالاعداء الى البحر .. فوصل بعضهم الى السفن سالمين .. وهوى بعضهم الى القاع مغرقين .

وكان عام ١١٧٤ م حاسما فى تاريخ هذا الصراع .

ففى شهر ابريل قضى صلاح الدين على مؤامرة تحركت فى القاهرة وفى يولية ، فى نفس الشهر الذى تم فيه خذلان الصقليين فى الاسكندرية ، مات املريك ملك القدس .

ولكن قبل ذلك فى ١٥ مايو ، رقـد نور الدين مسجى على فراش الموت .. فاختفى بموته ، أكبر منافس لصلاح الدين .

هكذا تدخل القدر ليضع لمعركة القدس بطلها ، وهو صلاح الدين ، فقد أتيحت له الفرصة الآن ليبسط قيادته على بلاد المنطقة العربية الشرقية وليكون منها امبراطورية شامخة ، متينة البنيان ، موحدة السلطان .. ففى الشام ، ولى الحكم الملك الصالح ، ابن نور الدين ، وهو طفل لايتجاوز عمره احدى عشرة سنة .. وفى فلسطين ولى مملكة القدس بعد املريك ، طفل مجذوم ، وهو أيضا فى الحادية عشرة من عمره واسمه بلدوين ، ووصيه « ريمون » صاحب طرابلس الشام .

حرب التوحيد :

عندما تتغلب أطماع الحكام أو الطامعين فى الحكم فلا بد للقوة الراغبة فى تنفيذ عمل كبير أن تبادر بحروب صغيرة ، اسمها حروب التوحيد وهذا بالضبط ما صنعه صلاح الدين .

وذهب صلاح الدين الى دمشق ، ولم يذهب غازيا أو معتديا فى جيش كبير ، بل أخذ معه سبعمائة فارس فقط : ومر بقرب حدود الفرنجة فلم يعترضوه .. ودخل دمشق وسط التهليل والترحيب من أهلها .. ونزل فى دار والده أيوب التى قضى فيها أيام الصبا فما كان أجملها وأحلاها .. ثم سلمت له قلعة المدينة ، فصعد صلاح الدين اليها .. وأخرج ما بها من أموال ، ففرق منها على الدمشقيين الذين أحبوه وأسلموا له القياد .. كل ذلك وهو يظهر الطاعة للملك الصبى الصالح .. وما زال مبقيا اسمه فى الخطبة وعلى النقود .

واشتد الزمهرير ، واتشحت قمم الجبال برداء أبيض لامع من الثلج.. ولكن صلاح الدين ، لم يعقه برد ولا شتاء عن ان يؤدى مهمته ، ويخضع المدن الأخرى التى كانت تابعة لنور الدين ، ثم استقلت بعد وفاته .

وفى أيام استولى على حمص وحماة ، باسم الملك الصالح .. وباسم المعركة الحاسمة مع العدو التى ما تزال تنتظر

وسار صلاح الدين الى حلب .. حيث شمخت قلعتها فوق التل المستدير . وانزوى داخل أسوارها الحصينة ، الملك الصالح .. وأقام صلاح الدين الحصار على المدينة معلنا انه يفعل ذلك ليخلص مولاه الملك الصالح من ناصحيه الشريرين .

ولكن الصالح كان يخشى مخلصه ، بقدر ما يخاف على حكم حلب .. فركب الصالح وكان فى الثانية عشرة من عمره وجمع أهل حلب وقال لهم والدموع تتساقط من عينيه .. !

« قد عرفتم احسان أبى اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم .. وأنا

يتيمكم .. وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدى اليه ، يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى فى الخلق » .

واشتد بكاؤه فأبكى الناس .. وقدموا الأموال والانفس وصمدوا للقتال .. حتى عرقلوا صلاح الدين .

وصمم وزير حلب ، أن لا يقع فى أيدى المصريين المهاجمين بل عزم على أن يتخلص من صلاح الدين .. بأى وسيلة .. فأرسل الى الشيخ سنان رئيس الاسماعيلية الذى لقب « شيخ الجبال » وبذل له الأموال لاغتيال صلاح الدين فأرسل « شيخ الجبال » أعوانه ليقتلوا صلاح الدين .. ووصلوا الى خيمته وحمل أحدهم على صلاح الدين فقتل قبل ان يضرب ضربته .. ونجا صلاح الدين بأعجوبة .. لأن الله أراد له النجاة .

واستاء صلاح الدين من غدر الغادرين الذين التفوا حول الملك الطفل فى حلب وزاد استياء عندما علم باستنجادهم بريمون حاكم طرابلس الصليبى ، وصى الطفل المجذوم ملك القدس ، فسار ريمون بجيشه الى حمص ، فرحل صلاح الدين عن حلب الى حماة .. ولما اقترب من حمص تركها الفرنجة .. ودخل صلاح الدين مدينة حمص من جديد .. واخضع قلعتها .



وبعد أسبوعين ، استولى أيضا على بعلبك .. بعلبك التى قضى فيها سنوات الطفولة الأولى .. وبذلك أصبح صلاح الدين سيدا لكل البقاع السورية التى ملكها نور الدين الا منطقة حلب فى الشمال ..

وأخيرا أفزعت هذه الانتصارات سيف الدين حاكم الموصل .. واثارت حقده على صلاح الدين .. فهو يعتبر سورية والجزيرة ممتلكات أسرة زنكى ، جده لأبيه وهو يحل لنفسه أن يطغى على ممتلكات ابن عمه منها

بل وعلى ممتلكات أخيه .. ولكن كيف يسمح لهذا الرجل .. صلاح الدين ، الذى لا يحمل قطرة دم واحدة من دماء زنكى أن يقتطع لنفسه أملاك الأسرة !

وجهز جيشا كبيرا من أهل شمال العراق وأرسله الى حلب وانضمت اليه قوات حلب . فقاق الجيشان المتحدان ، جيش صلاح الدين بالرغم من المدد الذى جاءه من مصر .. وعرض صلاح الدين الصلح على شروط تساهل فيها .. حتى لقد قبل أن يكتفى بالأراضى السورية حتى مقاطعة دمشق فقط .. وان يسلم ما وقع شمالها بما فى ذلك حماة وحمص .. ولكنهم تجبروا وركبوا رؤسهم فرفضوا .. فنالوا جزاءهم عندما قابلهم صلاح الدين بجيوش القاهرة والشام .. فهزمهم شر هزيمة .. وطاردهم حتى حلب .. وحاصرهم فيها حتى راسلوه فى الصلح .. فقبلوا نادمين على ما فاتهم من قبل ، أن يكون لصلاح الدين ، فوق دمشق وحمص وحماة ، بعض المدن القريبة جدا من حلب نفسها .. وبهذا بات صلاح الدين السيد القوى المنتصر

ورغم ما وصل اليه من قوة ونصر ، أراد بكل قواه ان يقنع الملك الصبى الصالح فى حلب .. انه على استعداد لخدمته فى اخلاص .. على ان لا يكون أحد من هؤلاء المنافقين معه حول عرشه .. ولكن الصالح المسكين ظن ، أو ادخل فى روعه أن هذا معناه العبودية لصلاح الدين .. فلم يقبل ..

وهنا اختفى اسم الصالح من خطبة الجمعة وارتفع اسم الملك الجديد على جميع المنابر ، فى مساجد مصر والشام .. وصدرت النقود من القاهرة تحمل اسم الملك « الناصر يوسف بن أيوب .. علا جاهه »

* * *

ورحل صلاح الدين عن حلب ، وقصد بلاد الاسماعيلية ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه ومحاولتهم اغتياله أكثر من مرة .. فخرب بلادهم وأحرق أعظم قلاعهم ولم يزل ينكل بهم حتى استغاث سنان شيخ الجبل بخال صلاح الدين صاحب حماة ، يسأله أن يتدخل فيشفع فيهم ..

فشفع فيهم .. وسأل صلاح الدين الصفح عنهم ..

فصفح .. ورحل عنهم ..

ثم عاد الى مصر .

الى مصر التى أحبها واشتاق اليها ..

الى مصر وطنه ووطن أبنائه الصغار الذين ولدوا فيها .. والذين ملأوا شغاف قلبه حبا وحنينا وهما الأفضل والعزيز .

وبعد عودته بدأ يشيد « القلعة » الشـــامخة ، على قمة « المقطم » الغربية ..

فى نفس السنة ، أمر صلاح الدين ببنـاء مدرسة كبيرة بجوار الامام الشافعى وبناء مستشفى ضخم .. فتم ذلك وأوقف على المستشفى والمدرسة الوقوف الكبيرة ..

وسار صلاح الدين الى الاسكندرية .. فى شعبان من تلك السـنة نفسها ، وأمر بتعمير الاسطول بها ..

وفى ذلك العهد ، كانت فى القاهرة أحياء قديمة متهدمة تمتد من ضريح السيدة نفيسة ، حتى باب زويلة .. فأزال صلاح الدين كل هذه الأحياء من أساسها .. وجعل مكانها حـدائق متسعة مترامية الأطراف .. بلغت من اتساعها ان باب زويلة كان يرى من باب مسجد ابن طولون ..

وكانت هذه الحدائق الخضراء ، مرتعا للأطفال ، ومتنزها للسكان ، يقضون فيها ساعات الراحة والبهجة والسرور .

ولبث صلاح الدين فى مصر ، منذ عودته اليها فى سبتمبر سنة ١١٧٦م بعد حروب الشام ، ست سنوات ، دأب فيها على تنظيم البيت الكبير ــ أى مصر ــ من الداخل ..

ولــكن جنود الصليب ، بدأوا غاراتهم على المناطق الآمنة ، يحرقون

قراها ، ويعودون مزهوين بالنصر ، محملين بما نهبوه من الغنائم ، يجرون معهم ما سبلوه من مواش وأغنام ، وازدادوا طمعا وجشعا ، فهاجموا ضواحى دمشق وهزموا توران شاه أخا صلاح الدين ونائبه فيها .

ووجد صلاح الدين نفسه مضطرا قبل أن يمر عام واحد على استقراره فى مصر ، الى أن يذهب فى جيش ليهاجم الافرنج فى جنوب فلسطين .. ولكن جنوده لم يلقوا مقاومة .. فظنوا أن الطريق خلا لهم ، فأغاروا بدورهم على البلاد .. ونهبوا وحرقوا .. وتفرقوا هناك فى غير حذر ولا روية .. وفى الخامس والعشرين من نوفمبر سنة ١١٧٧ ، بينما كان صلاح الدين مع بقية قليلة من جيشه يستريحون قرب « الرملة » فاجأهم ملك القدس فى أربعمائة فارس من خيرة الفرسان .

وكانت النتيجة هزيمة لصلاح الدين ، كانت أولى هزائمه وأشدها نكرا ، وكاد يؤخذ فيها أسيرا .. وعاد صلاح الدين ، مع فلول جيشه ، الى مصر ، ليبدأ من جديد جمع جيش قوى .. وكتب الى أخيه توران شاه فى دمشق ، خطابا بين له فيه ما أصابه عند الرملة .. وقال فيه : « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه الا لأمر يريده » ..

وحقا أنجاه الله .. ليرد هذه الضربة التى سددها نحوه الصليبيون ، بضربات متتالية كان ختامها الطعنة الكبرى عند (حطين) ..

وبعد ثلاثة شهور من الهزيمة ، كان صلاح الدين قد أعد جيشه وغادر به مصر الى حيث يلقى الافرنج من جديد .

قبل أن يسافر يوسف بن أيوب الى مصر بأجيال عديدة سافر يوسف بن يعقوب اليها .. بعد أن غدر به اخوته ، ولبث يعقوب فى بيته عند الطريق الى الأردن .. وقد اشتد به الجوى حتى ابيضت عيناه من الحزن .

وفيما بعد ، أطلق على المنطقة التى تشمل بيت يعقوب (مخاضة الاحزان) .

ومرت قرون عديدة .. وفى نفس المكان بنى بلدوين ملك القدس حصنا على الحدود الفاصلة بين أرض المسلمين وأرض الصليبيين . فرأى صلاح الدين فى هذا الحصن خطرا يهدده فعرض على بلدوين ستين ألف دينار للاستغناء عن هذا الحصن . فأبى .. وارتفع العرض الى مائة ألف فأصر بلدوين على الرفض .. فعزم صلاح الدين على أن يحطم الحصن تحطيما .. وفى نفس الوقت ، كان أحد أقاربه يقود جيشا ضد الملك بلدوين ..

وبعد شهرين ، تقابل الملك الفتى بلدوين مع صلاح الدين يريد أن يمسح عن جبينه عار الهزيمة السابقة .. ولكنه منى بهزيمة أشد عارا ، وأوخم عاقبة ، اذ أسر فيها نفر من كبار القادة المسيحيين .. وفى خيمة صلاح الدين ، كان عماد الدين الكاتب المشهور يكتب أسماء الأسرى العديدين، على ضوء مشعل قوى .

وخلا الطريق أمام صلاح الدين الى « حصن الأحزان » وقد صمم على أن يقتلعه اقتلاعا :

ورغب الملك بلدوين فى الصلح ، وخاصة وقد اشتدت عليه وطأة المرض ، وأخذ الأسطول الذى أعده صلاح الدين ، يهاجم موانى الصليبيين فى فلسطين .. فوافق صلاح الدين ، وتم الاتفاق على هدنة تستمر سنتين كاملتين .. أقسم فيها الطرفان على ألا يحدثا طوال السنتين حربا ولا اعتداء .

بيد ان الظروف مازالت تهيىء .. ومنجل الموت مازال مسلطا منشورا

فمات سيف الدين صاحب الموصل فى نفس السنة ثم مات الصالح ، ابن نور الدين ، ملك حلب ، فى ديسمبر من نفس السنة فكان موتهما مؤذنا بقرب خضوع حلب والموصل لصلاح الدين .. ومبشرا بتحقيق ذلك الهدف الذى يسعى اليه ، وهو توحيد المنطقة كلها تحت قيادته ..

ولكن صلاح الدين لم يشأ التسرع لاخضاع البلدان ، فقد كان مقيدا بهدنة التى لم ينقض أمدها بعد وهو فى حياته كلها لم ينقض عهدا ، ولم يخلف وعدا .

ولكن الافرنج وبعض حلفائه المسلمين هم الذين كسروا الهدنة وخانوا العهود .

وكان أول من قام بفسخ الهدنة من الفرنجة (ريجنالد) صاحب الكرك فبينما كانت قافلة تجارية تسير آمنة سالمة فى طريقها قرب « الكرك » مطمئنة الى الهدنة بين صلاح الدين والافرنج ، اذا بصاحب الكرك « ريجنالد » يباغتها برجاله ، وينهبها ويأسر أهلها ..

وكذلك خان العهد ، الأمراء من أسرة زنكى ، الذين آلت اليهم الموصل وحلب . فقد داسوا على كرامتهم ، وداسوا على دينهم ، بأن تعاهدوا مع المسيحيين ، بل حتى مع رئيس الطائفة الاسماعيلية ، ليقاوموا معا ، عدوهم المشترك صلاح الدين .

واذن وجب أن يسرع صلاح الدين الى الشام ليحمي أتباعه وليحفظ بلاده .

وفى ١١ مايو سنة ١١٨٢م تأهب صلاح الدين بظاهر القاهرة ، للسفر الى الشام .. وخرج الناس لوداعه جموعا محتشدة .. واجتمع هناك كثير من العلماء والفضلاء .. وتناشد الخطباء والشعراء ما يقال فى الوداع .. وكان هذا آخر خروج لصلاح الدين من القاهرة .. اذ لم يعد اليها بعد ذلك أبدا ..

وعندما اقترب من حدود مصر ، كان يستنشق الهواء المصرى ، ويتأمل الأرض المصرية والرمال الممتدة فى سينا .. ويذكر رحلاته ، مع عمه شيركوه الى مصر . ويحس فى قلبه الأسى وكأنه يصدق فى نبوءة الوداع . وانه لن يعود بعد اليوم الى مصر العظيمة المحبوبة ..

ولكن رويدا ، رويدا ، تكشفت الغاية التى رسمها .. وملأ الأمل قلبه الكبير .. فعليه أن يستولى على حلب عاصمة سوريا الشمالية ..

وعليه أن يخضع الموصل .. ثم بعد ذلك يتجه بقوات المسلمين متحدة لملاقاة الصليبيين ..

وبعد حروب وحملات بين الموصل والشام .. استولى صلاح الدين على حلب بعد حصار قصير . قبل بعده صاحب حلب أن يتنازل عنها لصلاح الدين على أن يحكم اقطاعيات غيرها ..

وفتحت حلب أبوابها له فرحة مستبشرة بعد ان استعصى عليه فتحها مرارا ودخلها فى ١٨ يونية سنة ١١٨٣ وقد جن الأهلون سرورا وحبورا ، بهذا الحاكم صلاح الدين القوى ، العظيم ، العادل ، الكريم ..

وفى القلعة الغبراء ، التى طالما وقفت أمامه شامخة مستعصية ، احتفل أهل حلب باستقباله استقبالا حافلا .

وكان فتح القدس هو شاغله الأكبر .. فمهما استولى على حلب ومهما دانت له البلاد الاسلامية من الدجلة حتى بلاد النوبة ، ومن اليمن حتى طرابلس الغرب فما زالت أعلام الغربيين تحت رايات الصليب ترتفع فى بيت المقدس ..

* * *

حطين

فى خلال سنة ١١٨٦ مرت قافلة غنية من قوافل العرب بالقرب من « الكرك » فلم يلبث ريجنالد صاحب الكرك أن انقض عليها كما فعل منذ سنوات .. وفى المرتين كان الفرنجة فى هدنة مع صلاح الدين .. وكان هذا الأمير الصليبى جريئا مخاطرا لا يهاب شيئا حتى لقد غزا سنة ١١٨٣ شبه الجزيرة العربية ، وكاد يدخل المدينة المنورة ليمتلكها ويحطم قبر النبى ، لولا يقظة القائد المصرى لؤلؤ الذى أدركه باسطوله ، وشتت شمله ، وأسر رجاله ..

وفى هذه المرة .. عندما باغت القافلة الغنية العظيمة ، نهب جميع أموالها ومتاعها ، وأسر كل رجالها ونسائها وسجنهم وقيل : ان أخت صلاح الدين كانت بينهم ..

وعلم صلاح الدين بما فعله ريجنالد .. فثار غضبا .. وأقسم ليقتلن هذا الفاجر المخلف للوعد بيده .

اتحدت قوات الصليبيين المتفرقة وتجمعوا من كل صوب وعلى رأسهم ملك القدس الجديد (جوى) .. والى جانبه زعماء الصليبيين وامراؤهم وكبار رهبانهم وفرسانهم ، ومنهم ذلك الطاغية صاحب الكرك ، ريجنالد وكذلك ابن همفرى ، بل كان فيهم أيضا ، ريمون صاحب طرابلس الذى تناسى ذلك الخلاف الذى كان بينه وبين الملك جوى ، وتلك الصداقة التى كانت بينه وبين صلاح الدين والتى نمت وترعرعت حتى كان يزور صلاح الدين ويلقى منه الحفاوة والود .. حتى لقد أشيع أنه لولا خوفه من سخرية الاوروبيين لأعتنق الاسلام .

وكما تجمع الصليبيون ووقفوا يدا واحدة ، اتحــدت كلمة العرب ، وسار صلاح الدين على رأس جيشه الكبير الذى جمعه من أنحاء دولته المتماسكة ..

وتقارب الجيشان .. وحاول صلاح الدين الاشتباك مع الافرنج فلم يتحركوا فأراد استدراجهم .. فهاجم مدينة (طبرية) ــ وكانت لهم ــ واستولى عليها بعد معركة صغيرة غير ان قلعتها امتنعت عليه .. ولجأت اليها صاحبتها زوجة ريمون ، ومعها أولادها وحاشيتها .. وأرسلت تستنجد بالملك جوى .. وجمع جوى مجلس امرائه وقواده .. واستشارهم .. فرأى ريمون ، عدم الهجوم على المسلمين ، فخالفه كثيرون فيما رأى .. مع أنه هو صاحب طبرية ، وزوجه هى التى تستغيث ، بل لقد ارتابوا فيه لسابق مودته وصداقته مع صلاح الدين ..

واختلف المجتمعون .. فريق مع ريمون ، يخاف عدد المسلمين الضخم ، وفريق آخر يرى الهجوم والنزال وفى هذا الفريق ، ذلك العاتية الجرىء ريجنالد ، وهو يصيح فيهم : لا خوف من كثرة عددهم .. فالحطب الكثير تأكله النار ..

وبات « جوى » وفى نيته الهجوم .. وما أصبح الصباح حتى أصدر أمره للجيش .. وساروا نحو طبرية .. وعلم صـلاح الدين بتحـركهم ، فاستعد للموقعة . وأسرع المسلمون الى أمكنة المياه ، فنزلوا عليها ، كى يمنعوا الافرنج عنها .. ووصل الافرنج متأخرين ، ففقدوا أمكنة الميـاه ، وأصابهم التعب والعطش ، وتحللت معنويتهم ..

وقضوا ليلة ليلاء .. أمضوا ساعاتها الطويلة وهم يصيحون المـاء .. المـاء .. بينما تصلهم أصوات المسلمين فى معسـكرهم .. وهم يهللون ويهتفون الله أكبر .. الله أكبر .

وطلعت تباشير الصباح ــ صباح السبت ٢٦ ربيع الاخر سنة ٥٨٣ ــ يولية سنة ١١٨٧ ــ وأسرع فرسان الصليبيين الى جيادهم .. ولكن المشاة كانوا يتحرقون عطشا ، بينما كان المسلمون الذين امتلكوا ينابيع الميـاه ، يمتلئون ثقة وعزما .

وتقابل الجيشان على بعـد ميلين من (حطين) وبدأ القتال ، يسيل جارف من سهام المسلمين .فهوى كثير من الفرسان عن خيولهم ، صرعى .. كما جندلت السهام جيادا كثيرة ، فخرت براكيبها الى الأرض تدكها دكا .. ثم هجم المسلمون كرجل واحد ، هجمة جارفة ، وهم يصيحون صيحات التكبير ، وأخذوا يقاتلون المسيحيين يدا بيد .. والتحمت السيوف وعملا صليلها ، وانتشرت الدماء .. وكانت الشمس قد علت واشتدت حرارتها فتصبب العرق على وجوه المحاربين ، وبدأ التعب والكلل على الصليبيين .. ولكنهم ثبتوا فى الحرب جاهدين .. وكان صلاح الدين يسير بنفسه بين

صفوف المسلمين ينظم هجومهم ويحثهم ، ويملأ نفوسهم حماسة واقداما .

وجن مشاة الصليبيين من شــدة العطش ، والشمس المحرقة وحرارة الدخان الذى طغى على عيونهم من نيران أوقدها المسلمون .. واندفعوا يريدون الوصول الى بحيرة (طبرية) وهم يتحرقون الى المــاء .. ولكن صلاح الدين أسرع فوقف أمامهم كالصخرة الثـابتة . فلبثوا فوق التل مجتمعين كأكوام من اللحم ، ومليكهم (جوى) يدعوهم الى النزول ، وتأدية واجبهم نحو الصليب والعرش ولكنهم أبلغوه أنهم يموتون عطشــا ولا يستطيعون الحرب .. وحمل عليهم المسلمون فأشــبعوهم قتلا وأسرا .. وألقى كثير منهم أسلحتهم خاضعين واتجهوا فى ذلة نحو المسلمين وقــد فغرت أفواههم وتدلت السنتهم كالكلاب العطشى ، بل لقد جر اليأس نفرا من فرسان ريمون الى صلاح الدين يقولون له : أيها الملك ، ما الذى يؤخرك .. انقض عليهم فهم عجزة أموات !

ولم يبق للصليبيين الا أمل واحد .. ان يعطى الملك جوى أمر الميدان الى ريمون . فدفع ريمون بفرسانه الى الأمام فى هجمة شــديدة فتراجع أمامهم تقى الدين ، ابن أخى صلاح الدين .. وفتح لهم طريقا يخرجون منه .. وبذلك فصلت فرقة ريمون عن الملك ، الذى ثبت على التل والى جانبه مائة وخمسون من أكبر الفرسان والنبلاء وقد التفوا حول خيمة الملك ، والصليب المقدس (صليب الصلبوت) ، يدافعون عنهم الدفاع الأخير ..

ولمــا صار ملك الافرنج على التل فى تلك الجماعة القليلة حملوا حملة منكرة على من بادأهم من المسلمين ، حتى الحقوهم بصلاح الدين ، وكان الى جواره ابنه الأفضل وهو وقتئذ صبى فى السادسة عشرة من عمره ــ فرأى أباه وقد علته كآبة واربد لونه .. وتقــدم وهو يصيح : « كذب الشيطان » فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا صاعدين فى التل وهم يلهثون والمسلمون يطاردونهم . فصاح الأفضل فرحا : « هزمناهم » فعاد الافرنج

فحملوا على المسلمين ، فتراجع هؤلاء الى صلاح الدين ، فصاح بهم ثانية فكر المسلمون على أعدائهم وألحقوهم بالتل من جديد .. فصاح الصبى أيضا : هزمناهم .. فالتفت والده اليه وقال : « اسكت .. لا نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة » .

وفى تلك اللحظة ، هوت الخيمة ، ونزل صلاح الدين من على فرسه ، وسجد لله شكرا .. وهو يبكى من الفرح ويذرف دموع الحمد والتسبيح لله ..

ووقف صلاح الدين عند خيمة كبيرة نصبت له فى ميدان القتال ، وقد امتلأت بجثث الموتى التى تجمعت أكواما ، واختلطت بها صلبان محطمة .. وانتثرت وسط الميدان أذرع سيقان ورءوس مفصولة ..

وتوالى احضار الأسرى .. وجاء جندى مسلم واحد ، يجر معه ثلاثين أفرنجيا ، أسرهم بنفسه وربطهم جميعا بحبل متين ..

وأسر الملك نفسه ومن كانوا حوله فى اللحظة الأخيرة ، فقد خالفوا مبادىء الفروسية من ضعفهم وخورهم ووهنوا عن أن يحاربوا حتى يموتوا فسلموا سيوفهم الى المسلمين وأسروا جميعا : الملك وأخوه ، وريجنالد الذى هزأ منذ عام بمحمد وبالمسلمين ، وابن همفرى .. ورؤساء الفرسان الراهبين وغيرهم من النبلاء والفرسان .. أما ويموند .. فبعد أن شق طريقه الى صفوف المسلمين رأى الملك يؤخذ أسيرا ، أرخى العنان لفرسه ، حتى وصل سالما الى صور ومنها الى طرابلس حيث مات بعدها بقليل ، غارقا فى الحزن والعار !

ودعا صلاح الدين الملك جوى وريجنالد صاحب الكرك الى خيمته ، واجلس الملك الى جانبه .. وعندما رأى عطشه أمر فجىء له بماء قد برد فى الثلج فشرب منه وأعطى الملك ما تبقى منه لصاحب الكرك ، فصاح صلاح الدين للترجمان : « قل للملك ما سقيته أنا ، ولكنك أنت الذى

سقيته » وقصد بذلك ان ريجنالد لم يصبح آمنا بعد أن شرب من ماء صلاح الدين .

وحل الوقت كي يفي صلاح الدين بقسمه ، فقام وأنب ريجنالد على تنكيله بقافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوة .. ثم هوى عليه بالسيف فأرداه ..

وارتعد الملك ، وخشي أن يثنى به ، فأمنه صلاح الدين قائلا : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك .. أما هذا فقد تجاوز حده .. فجرى ما جرى » .



أما الأسرى من الفرسان (فرسان المعبد : وفرسان المستشفى) وكان عددهم مائتين .. فقد قتلوا جميعا .. لبأسهم في الحروب .. وشدة عدائهم وكراهيتهم للمسلمين .. أما الملك جوى ، وكل من معه من النبلاء .. فقد أرسلهم صلاح الدين الى دمشق آمنين مكرمين ..

ومرت الأيام والشهور .. وظل ميدان القتال يحمل آثار المعركة الهائلة التي لم يهزم المسيحيون منذ وفدوا الى الساحل كما هزموا فيها .. والتي سقط فيها منهم ثلاثون ألفا ..

وتراكمت أكوام العظام .. فكانت ترى من بعيد وكانت الذئاب والضباع تصيح صيحات طويلة مزعجة تملأ الفضاء وترددها التلال والوديان المجاورة ..

قضى المسلمون ليلتهم فرحين مهللين بعد انتصارهم عند حطين .. وظلوا الى مطلع الفجر ، تدوى صيحاتهم وهتافاتهم لا اله الا الله .. الله أكبر .. الله أكبر ..

وفي اليوم التالي ، عاد صلاح الدين الى (طبرية) ليستولي على قلعتها وكانت فيها زوجة ريمون وعرفت ما حل بقومها ، وزوجها ، فسلمت القلعة

وهدأ صلاح الدين روعها .. وأوصلها الى حيث أرادت آمنة مطمئنة مع أولادها وحاشيتها .

ثم انتشر المسلمون فى أنحاء فلسطين .. يحاصرون البلدان والحصون التى فى أيدى المسيحيين فسرعان ما تخضع بلا مقاومة .. بل كان أهلها وجنودها يفرون قبل حضور المسلمين ، والذعر الذى خلفه (حطين) يطاردهم اينما ذهبوا ..

وعرف صلاح الدين كيف يستفيد من أثر انتصاره الحاسم عند حطين .. فلم يترك فرصة للفرنجة ، ليلموا فيها شعثهم .. بل أسرع فوصل(عكا) بعد أربعة أيام من معركة حطين ودخلها ظافرا منتصرا : بعد ان أمن أهلها المسيحيين ورحلهم بأموالهم سالمين .. واحتفل بصلاة الجمعة ، فى مسجدها الكبير ، الذى استعمل كنيسة منذ أجيال ، فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد ان ملكه الفرنج فى الحملة الصليبية الأولى .

وتوالى فتح الحصون والمدن والحصول عليها من المسيحيين وعاونه أخوه العادل الذى سار بجيشه من مصر ، وفى كل غزوة كان صلاح الدين يهب المسيحيين شروطا نبيلة كريمة لحامية البلد وأهلها .. فكانوا يقبلونها راضين ، واثقين أن صلاح الدين اذا وعد أنجز وعده ، وكانوا يرحلون الى (صور) حتى تجمع فيها جمع عديد من المسيحيين ..

* * *

وفى شهرين ، خضعت مملكة أورشليم كلها .. ما عدا ثلاث مدن مهمة: صور ، وعسقلان ، وأورشليم نفسها ..

أما صور فقد فات صلاح الدين ، أن يفتحها مباشرة بعد عكا حتى أصبح فتحها الآن صعبا بعد ان اجتمع فيها خلق كثير من المسيحيين ، وبعد أن وجدوا لهم قائدا شجاعا فى (المركيز كونراد) الذى قدم الى صور من القسطنطينية فجمع شملهم وأعد المدينة للدفاع بعد ان كادت تسلم لصلاح الدين قبل حضوره .

وأراد صلاح الدين أن يحصل بالحيلة على صور فأمر باحضار أبى المركيز ، وكان أسيرا فى دمشق وعرض أن يفك أسره الى سلم المدينة .. ولكن كونراد ، تظاهر بصلابة القلب ، معلنا أن أباه قد عاش طويلا .. فليقتله صلاح الدين ان شاء ولكنه لن يعطيه حجرا واحدا من (صور) ليفديه ..

ولم يقتل صلاح الدين ، الأب العجوز ، ورفع الحصار عن صور مرجئا فتحها الى ما بعد ..

وتوجه نحو عسقلان ، التى وقفت ، عقبة فى طريق المواصلات بين مصر والشام .. وفى طريقه اليها احتل (الرملة) وغيرها .. حتى وصل فى ٢٣ أغسطس أمام عسقلان حيث انضمت اليه الجنود المصرية بقيادة أخيه العادل .. وشدد المسلمون الحصار على المدينة .. ونصبوا المناجيق ..

ورأى صلاح الدين أن يعيد التجربة التى فشلت عند صور .. فجىء بالملك (جوى) ، وبعض قادة المسيحيين من دمشق الى عسقلان ووعدهم بالحرية اذا اقنعوا حامية المدينة بالتسليم ..

ورفضت عسقلان ، كما رفضت صور من قبل .. وظلت حاميتها تدافع أسبوعين ثم راسلوا صلاح الدين ، والملك جوى فى الصلح .. فسمح صلاح الدين أن يرحل أهلها بنسائهم وأطفالهم وأموالهم آمنين .. ثم دخل المدينة يوم الجمعة ٤ سبتمبر وأقام الصلاة .

وتكرم صلاح الدين ، فبر بوعده مع الملك الأسير ، لوساطته مع الفرنجة فى عسقلان ، فأطلق سراحه بعد شهور .

* * *

وبينما كان ملك القدس ، أسيرا فى دمشق ، ومعه كثير من الأسرى المسيحيين ؛ كان كثير من الأسرى المسلمين يعيشون فى ذل وهوان فى بيت المقدس .

وسار صلاح الدين ومعه الجنود المخلصون المؤمنون ، ليطهر « المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » .

وكان صلاح الدين يعرف لبيت المقدس ، قدسيته وكأنه أراد أن يفعل ما فعله عمر بن الخطاب من قبل فى فتحها ، فأوفد الرسل الى أهلها يطلب منهم التسليم بشروط ، قائلا لهم « انى أعتقد كما تعتقدون أن القدس هى بيت الله ، ولست أرغب فى محاصرة بيت الله أو الاعتـداء عليه . وانما أريدها فى صفاء وسلام » وكانت شروطه نبيلة سخية ولكنهم رفضوا قائلين أنهم بمشيئة الله ، لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح من أجلهم .. ولم يعد أمام صلاح الدين الا أن يأخذها بالسيف ..

وكان فى بيت المقدس غير النساء والأطفال ستون ألفا من الرجال .. فقد لجأ اليها الكثيرون من مختلف الجهات . ومن هؤلاء اللاجئين ، قائد من أكبر الصليبيين ، هو باليان .. وكان قد استطاع الفرار يوم حطين .. وبعد فراره طلب من صلاح الدين ، الذى نشر سلطانه على فلسطين ، أن يسمح له بالذهاب الى بيت المقدس ، ليحضر زوجه وأولاده فقبل صلاح الدين على أن لا يبقى فى المدينة أكثر من ليلة واحدة ، وعلى أن لا يحارب بعدها ضد صلاح الدين ، ولكنه بعـد أن دخل بيت المقدس ، رحب به الجميع كمنقذ واضطروه الى البقاء كقائد لهم .. وقال له البطريرك ، انى أحررك من ذنبك .. ويمينك الذى أقسمته .. بل ان ذنبك فى محافظتك على هذا اليمين أكثر من ذنبك فى نقضه .

ولم يكتف باليان بهذا مع صلاح الدين ، بل كان على صلاح الدين أن يكون معه أكثر صبرا ، وأعظم مرؤة .. فقد أرسل باليان الى صلاح الدين، منه أن يسمح بانتقال زوجته وأطفاله الى طرابلس معتذرا بأنه أجبر على البقاء واخلاف وعده معه .. فلم يلمه صـلاح الدين ، بل كان جوابه أن أرسل خمسين فارسا لحراسة زوجته وتوصيلها الى وجهتها .

وفى ١٥ رجب (٢٠ سبتمبر) من نفس السنة التى انتصر فيها عنـد

حطين ، وضم نواحى فلسطين تحت سيطرته ، وقف بجيشه أمام أسوار المدينة المقدسة .. فوجد جمعا غفيرا من المسيحيين قد أخذ يدافع عن أسوارها وقد نصبوا المناجيق لابعاد من يقرب منها .. فطاف صلاح الدين حول المدينة خمسة أيام حتى وجد أن جهة الشمال خير مكان لمهاجمة المدينة .. وظن القوم فى القدس ، ان صلاح الدين قد رحل .. ففرحوا واغتبطوا .. واذا بأعدائهم المسلمين ، يسقطون على مدينتهم وابلا من القذائف .. فتهالك الفريقان فى اقتتال .. اذ اجتمع ممثلو الدول الاسلامية أمام ممثلى الدول المسيحية ، يتقاتلون ، حول المكان المقدس عند كليهما : بيت المقدس

ولكن لم يلبث المسيحيون أن حل بهم اليأس ورغبوا فى التسليم ولبست المدينة ثوب الحزن والهلع ، وأسرع الناس الى الكنائس يبكون ويرجون رحمة الله .

وكان باليان نفسه ، هو الذى ذهب الى خيمة صلاح الدين ليجرى معه مفاوضات الصلح .. وشروط التسليم .. وقابله صلاح الدين فى حفاوة .. وبعد أخذ ورد ، استقر الأمر على أن يدفع المسيحيون ثمنا لحريتهم .. فجعلت ضريبة الحرية ، عشرة دنانير على الرجل ، وخمسة على المرأة ، ودينارين على الطفل .. فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا .. ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه ، فقد صار مملوكا ..

ويشاء الله القوى القادر ، أن يسلم بيت المقدس للمسلمين فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب .. الذى حدث فى مثله منذ ستة قرون ، ان أسرى سبحانه وتعالى بعبده محمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ..



وارتفعت الاعلام العربية على أسوار المدينة وأخذ المسيحيون يبكون .. ويغسلون بدموعهم الأبنية المقدسة وأخذوا يستعدون للرحيل وقلوبهم تكاد تتمزق .

ولكنهم رأوا من صلاح الدين .. وكرمه ونبله .. ما رفعه فى أعينهم وفى عين التاريخ الى أعلى حد يمكن أن يصل اليه انسان ..

فقد أوقف حراسه تحت قيادة أمراء مسئولين ، فى كل شارع .. يمنعون وقوع أى اعتداء من المسلمين على المسيحيين .. حتى لم يسمع عن أى سوء يحل بالمسيحيين طوال أيام الاخلاء ، مما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف ، من الجنود المنتصرة ..

وبدأ المسيحيون يغادرون المدينة ، وقام باليان بدفع ثلاثين ألف دينار فدية لطائفة من الفقراء والمساكين ..

وتوالى خروج الأفراد والأسرات ، الأغنياء منهم والفقراء .. ولم يحاول صلاح الدين أن يقسو على الأغنياء ، فيحصل منهم على ضريبة أكبر .. ورأى صلاح الدين أن عددا كبيرا من الأفرنج ، يحمل على ظهره والديه الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه ذلك كل التأثير فأمر بالمال فأعطى لهم .. وبالدواب فوزعت عليهم لتحمل أثقالهم الى حيث يريدون ..

وكانت بالقدس اذ ذاك احدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت وأقامت تعبد الله .. والتف حولها كثير من الخدم والحشم .. وكانت ذات مال وفير .. فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها ..

وكذلك أطلق ملكة القدس — زوجة جوى — وأطلق معها حاشيتها وأتباعها .. واستأذنته فى الرحيل الى زوجها وكان حينئذ محبوسا فى قلعة نابليون ، فأذن لها فزارته هناك وبعد ذلك أفرج عن الملك (جوى) نفسه..

حتى زوجة ريجنالد ، الذى قتله صلاح الدين يوم حطين أخلى سبيلها وحفظ لها أموالها ..

وخرج البطريرك الكبير ، ومعه من الأموال والجواهر مالا يعد ولا يحصى .. ومعه كنوز الكنيسة وكؤوسها وأوانيها الذهبية ، حتى الغطاء الذهبى الذى كان على (الضريح المقدس) .. ولم يشأ هذا الرجل ، وهو

آكبر ممثل للمسيحية فى القدس ، ان يصرف من كل هذه الأموال الطائلة شيئا لفدية فقير أو عاجز أو مسكين .. وقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه ليقوى به المسلمون ، فقال « لا أغدر به » .. ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير .

وكان على صلاح الدين أن يعطى البطريرك دروسا أخرى فى السخاء والمرؤة .. فبعد أن انقضت الأربعون يوما بقى آلاف من الفقراء ، الذين تركهم للعبودية مواطنوهم الأغنياء ! فطلب العادل من صلاح الدين أن يهبه ألفا منهم .. ففعل ، فأطلقهم جميعا . وكذلك جاء البطريرك وباليان وتوسلا ، فأعطاهما ألفا آخرين .. ثم أمر صلاح الدين ففتح الباب لجميع الشيوخ الذين لم يستطيعوا دفع الفدية ..

واجتمع كثير من النساء اللاتى دفعن الفدية وخرجن فذهبن الى صلاح الدين يتوسلن .. رقلن : انهن اما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أسر أو قتل من الفرسان والجنود .. ولا سند لهن الآن ولا أرض .. ورآهن صلاح الدين يبكين فبكى تأثرا وشفقة .. وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن فأطلقوا وردوا الى نسائهم .. أما اللائى مات أولياؤهن فعوضهن مالا كثيرا جعلهن يلهجن بالثناء عليه اينما سرن .

وهكذا كانت معاملة المسلمين للمسيحيين عند فتح القدس سنة ١١٨٧ .. نقطة وضاءة فى تاريخ الفتوحات ، تظل تلمع وتلمع ، لتبين للعالمين فى كل العصور ، عظمة الاسلام وروحه وتسامحه .. بينما كانت معاملة المسيحيين عند فتح القدس نفسها سنة ١٠٩٩ سبة فى جبين المسيحية والانسانية بما ذبحوا وقتلوا وعذبوا من المسلمين ..

ولكن الرواية لم تتم فصولا .. فقد لجأ بعض الفقراء المسيحيين الذين أطلقهم صلاح الدين الى انطاكية .. فأبى أميرها المسيحى ضيافتهم .. فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين ، فقوبلوا بترحاب ، وذهب بعض

اللاجئين الى طرابلس فلم يكتف أهلها بطردهم ، بل أرسلوا وراءهم من ينهب ممتلكاتهم التى أبقاها لهم المسلمون .

* * *

ووفد المسلمون من أنحاء الامبراطورية ، ليحتفلوا باسترجاع القدس .. وصلوا مع صلاح الدين فى المسجد الأقصى جمعة الرابع من شعبان .. وقف قاضى حلب فخطبهم خطبة رائعة أشاد فيها بهؤلاء المحاربين الذين أعادوا ذكرى بدر والقادسية وذكرى خالد سيف الاسلام ، ودعا فى ختامها لسلطان الاسلام والمسلمين صلاح الدين .

وجلس صلاح الدين ، وقلبه ينبض بالايمان ، ووجهه يضىء باليقين وهو يدعو « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى . وأن أعمل صالحا ترضاه . وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

* * *

وأزيلت من المسجد الأقصى آثار المسيحية ، وأعاده صلاح الدين الى سيرته الأولى من بساطة وجمال . وأمر بصنع منبر له فقيل له لقد أمر
بسيرته الأولى من بساطة وجمال . وأمر بصنع منبر له فقيل لقد أمر
نور الدين منذ أكثر من عشرين عاما بعمل منبر فخم كى ينصب فى بيت المقدس عند فتحه ، وما زال المنبر فى حلب منذ صنعه ، فحمل المنبر من حلب وأصلح وأقيم فى المسجد الأقصى . وهكذا تحقق حلم نور الدين على يد خليفته صلاح الدين .

ومنذ أن فتحت القدس على يديه بقيت فى أيدى العرب حتى حدثت كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨ واستولى اليهود على نصف المدينة . وكارثة ١٩٦٧ التى لا تزال معاركها مستمرة .

ريتشارد قلب الأسد .. وفيليب :

ويرى كتاب الحرب والسلام فى زمن العدوان الصليبى رأيا يهمنا اثباته هنا :

فبدلا من أن يسعى البابا وملوك الغرب التى التفاهم مع صلاح الدين بشأن مبادلة الأسرى كما سبق أن طلبوا ، وتنظيم شئون الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس . وحماية رعايا الكنيسة الشرقية فان البابوية ترسل المنشورات الى سائر أنحاء أوربا وتعلن هدنة عامة بين ملوك أوربا وأمرائها لمدة سبع سنوات ، تسمى « هدنة الرب » ينسون خلالها خلافاتهما شخصية ويدفنون أحقادهم وتحرم خلالها الحروب الموضعية والعامة فى سبيل نشر السلام بين كافة الكاثوليك وفى سبيل الاشتراك فى حملة تخليص بيت المقدس من السلطان صلاح الدين .

هذا هو مفهوم فكرة السلام العالمى عند البابوية ، وسرعان ما استجاب لدعوتها ثلاثة كبار من ملوك أوربا ، هم فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفردريك بربروسا امبراطور المانيا ، وهو الذى فيما يبدو كان على علاقة ودية مع صلاح الدين سنة ١١٨٧م ، حين أرسل الامير جيرارد سفيرا له لدى بلاط صلاح الدين ، فاستقبل استقبالا شرقيا كريما بالقاهرة .

ومكث فترة طويلة بالشرق ، أرسل بعدها صلاح الدين بدوره سفراء الى المانيا ، ومكثوا فى بلاط ملكها فردريك شهورا عديدة . وتفسير قيام تلك العلاقات الودية بين مصر والمانيا يرجع الى ما كان بين المانيا ودول أوربا من خلافات وأطماع اقليمية توسعية ، أبعدت بين المانيا وتلك الدول ، وقربت بينها وبين مصر ، غير ان فرص التقارب والتفاهم بين مصر والمانيا لم تتبلور وتؤتى مثارها المرجوة بعد حتى نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى .. اذ سرعان ما انكمشت تلك الفرص وذابت ، أما دعوة البابوية والاغراءات الخيالية الاستعمارية الواسعة فى الشرق فلم يشأ فردريك أن يشذ عن ملوك أوربا ، ويخرج عن طاعة الكنيسة . كما انه لم يشأ الخروج عن آداب الفروسية وتعاليمها وتقاليدها ويفاجىء السلطان صلاح الدين بحملة عدوانية ، فبعث اليه برسالة مطولة ١١٨٨م . أى قبل مغادرته المانيا عاديا الى الشرق حملها سفيره الأمير هنرى ،وطلب فيها

الامبراطور من صلاح الدين أن يتخلى عن بيت المقدس وكل ما استولى عليه من الصليبيين الشرقيين . وأعطى فردريك صلاح الدين مهلة عام من تاريخ هذا الانذار ، والا أعلن عليه الحرب وخوف فردريك صلاح الدين من نتائج هذه الحرب لأن شعوبا أوروبية عديدة — ذكر اسمها — سوف تقف الى جانبه . وتشاركه العدوان على الشرق . وتدك معاقل العرب وحصونهم . وتخرب ديارهم وحقولهم وترمل نساءهم وتيتم أطفالهم .

وأجاب صلاح الدين على الانذار الألمانى فى نفس العام (٥٨٤ هـ — ١١٨٨م) ، برسالة مطولة ، تفيض حماسة وقوة وثقة بالنصر . وتدل على دبلوماسية رفيعة ، والمام واسع بالسياسة الدولية المعاصرة جاء فيها « لا يمكن حصر المسلمين ، وفى قدرة البدو وحدهم مواجهتكم وعلى التركمان ابادتكم ، واذا دعونا الفلاح يحاربوكم بشجاعة » .

وذكر صلاح الدين فردريك بسوء المصير الذى لقيته الحملات الصليبية السابقة التى قصدت دمياط والاسكندرية فى عامى ١١٦٩، ١١٧٤م وحاولت عبثا اقتلاع سلطان صلاح الدين من مصر واحتلال أراضيها بالاتفاق مع المتآمرين والخونة من أنصار البقايا الفاطمية الشيعية .

وأكد صلاح الدين لفردريك تصميمه على استرداد صور وطرابلس وانطاكية وغيرها من القلاع الصليبية الباقية فى الشرق عنوة ، اذا لم يستسلم قادتها فورا للمسلمين ، وأشار عليه بنصيحة أولئك القادة بذلك مقابل ارجاع خشبة الصليب التى استولى عليها صلاح الدين غداة استيلائه على بيت المقدس وتحرير جميع الأسرى المسيحيين وعودة الرهبان الى أديرتهم ، والسماح للمسيحيين بالحج والزيارة الى بيت المقدس . وأشار صلاح الدين كذلك الى عزمه على عبور البحر المتوسط ليغزو أوربا نفسها ، اذا أصر فردريك على تهديد السلام والأمن فى منطقة الشرق الأدنى بعدم الموافقة على تلك الشروط .

وكتب صلاح الدين فى الوقت نفسه الى رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا يحذره ، ويبلغه انه على استعداد لملاقاته ما دام مصرا على المجيء الى الشرق ، ويخبره انه سبق أن خبر قتال الانجليز يوم أن اشتركوا بقيادة والده هنرى الثانى فى الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ١١٤٩م حين كان صلاح الدين يوسف ضابطا صغيرا فى جيش نور الدين محمود سلطان الشام ، وكلف بالاسهام فى دفع خطر تلك الحملة عن مدينة دمشق . وتركت شجاعة صلاح الدين ودفاعه عن وطنه أعمق الأثر وأبلغه فى نفس الملكة البانورة والدة الملك رتشارد والتى اشتركت مع زوجها فى تلك الحملة . فلما عادت الى بلادها أخذت تتحدث عن اعجابها الشديد بذلك البطل المسلم الصغير ، وتفخر به كما لو كان واحدا من رعاياها البريطانيين .

الحق ان اسم صلاح الدين غدا كالرعد ، يثير الرعب والخوف فى نفوس الأوربيين حتى ان الأمهات كن يخفن أطفالهن بترديده لهم كى يحملنهم على النوم .

وقد تحققت بعزيمة صلاح الدين هذه الانتصارات الكبرى كما رأينا .



لم يبق للصليبيين فى فلسطين ، الا (صور) من المدن الهامة ، وبضعة حصون فبعد أن لبث صلاح الدين شهرا فى القدس ينظم أمورها ، توجه بجيشه نحو صور حيث تجمع المسيحيون وأصبحوا قوة هائلة . حتى لقد خرج من صور وحدها ذلك الجيش الكبير الذى حاصر (عكا) ، حصارها المشهور .

والفى صلاح الدين ، المدينة وقد حصنت بجهود المركيز كونراد تحصينا منيعا . وقاومته المدينة مقاومة عنيفة .

ولقى المسلمون ويلات شديدة ،من ذلك الفارس الذى لبس قميصا أخضر، وحمل على ذراعه اليسرى ترسا أخضر اللون .. وكان يقود المسيحيين

المحصورين ، فيندفع بهم مهاجما العرب ، فيزحزحهم الى الوراء . وأعجب صلاح الدين (بالفارس الأخضر) . لانه كان يحب الفـارس الشجاع . مسلما كان أو مسيحيا .

وجاء الشتاء بالأمطار والأوحال . ومل بعض القواد وأشـاروا بفك الحصار وارجائه . ومع أن صلاح الدين كان يرى البقاء حتى النصر . الا أنه نزل عند مشورتهم ورحل عن صور . ولو أنه نفذ رأيه ، وتغلب على ملل القواد ، وتعب الجنود ، حتى فتح المدينة لمـا كان حصار عكا الذى استمر سنتين طويلتين .

وأقام صلاح الدين الشـتاء فى عكا ، ودعا بهاء الدين قراقوش ، ليحصنها ويقوى دفاعها . ثم غادر الساحل فى الربيع الى الشمال ، ودخل دمشق فى ١٤ مايو سنة ١١٨٨ ، واجتمع بالعساكر الكثيرة ورحل بهم الى بلاد الافرنج فى سورية وهى طرابلس وانطاكية .

وأسرع كونراد الى نجدة طرابلس ، وجاء معه (الفارس الأخضر) ، وأعجب صلاح الدين من جديد بشجاعته الفائقة ، ودعاه الى خيمته ، فجاء . ورحب به صلاح الدين ترحيبا كبيرا ، وأهداه خيولا وجواهر وعرض عليه الأراضى والممتلكات اذا قبل العمل معه ولكن الفارس الأخضر رفض كل شىء .. وقال انه لم يحضر من بلاده ليعيش مع العرب ، ولكن ليحاربهم ويقهرهم .. وهذا ما سيقوم به كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وافترق الفارسان وكل منهما يحمل نحو الآخر صادق الاحترام ..

وفى يوم الجمعة ، الذى يحبه صلاح الدين ويحب الجهاد فيه ، بدأ حملته فى الشمال ، وتوالى فتح الحصون حتى لقد حصل على ستة حصون فى ستة أيام جمعه متتالية مما أكد للمسلمين أن دعوات المؤمنين أيام الجمعة يستجيبها الله .

وعندما فتح حصن (برزيه) أسر صاحبه وأسرته . ثم اخلى سبيلهم

وسير معهم من صحبهم الى قريبهم صاحب انطاكية ، وكان من بينهم عروس قد فصل عنها عريسها حيث أخذ أسيرا فى القتال .. فتأثر صلاح الدين لنكبتها فأمر بمجيء الزوج ورده الى عروسه .

وبعد فتح حصون أخرى ، سار صلاح الدين الى حلب ومنها الى دمشق فى أواخر شعبان . فهب أهلها جميعهم يستقبلونه بقلوبهم التى امتلأت بحبه . ومكث أياما تعد على الأصابع مع أسرته وأولاده . ثم غادرهم جميعا فى أوائل رمضان ومن أجل الجهاد فى سبيل الله لم يلتفت الى فراق الأهل والأولاد فى شهر الصيام .

وقدم الى (صفد) وقال : ما ننام حتى تنصب المناجيق الخمسة ، وظل طوال الليل ساهرا ، يشرف على العمل وسط الأوحال والأمطار ، حتى طلع الصبح وقد تم نصب المناجيق فقال له سكرتيره بهاء الدين ما قاله رسول الله : « عينان لاتمسهما النار ، عين باتت تحرس فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله » .

وكان صلاح الدين يملك العينين ، فقد بات الليل ساهرا فى سبيل الله ، ودمعت عيناه عند سماع الحديث ، من خشية الله .

وفى نصف شهر رمضان ، كان العادل بجيشه المصرى قد اخضع (الكرك) ، التى ظلت سنين لا تخضع ولا تلين . وقاومت الحصار مرات . أما هذه المرة فقد اشتد الحصار وطال حتى اضطر رجال حاميتها أن يخرجوا نساءهم وأطفالهم منها من شدة ما هم فيه من الضنك ، وأكلوا لحوم الخيل . ثم اضطروا الى التسليم .

وعلم صلاح الدين بأمر هؤلاء النفر من النساء والأطفال ففتش عنهم . وردهم الى أهلهم أجمعين .

وأثناء هذه الفتوحات السالفة الذكر . أطلق صلاح الدين سراح الملك جوى وأخذ عليه عهدا أن يغادر الشام الى أوربا ، وألا يجرد ضده سيفا

مرة أخرى .. وكان رد جوى على هذا التسامح الكبير ، الذى يمكن أن يلام عليه صلاح الدين ، أن ذهب الى (صور) فاختلف هناك مع كونراد فرحل عنها الى طرابلس وجمع جيشا وذهب به لمحاصرة عكا ليحررها من صلاح الدين الذى حرره من الأسر منذ قليل .

وخاف كونراد أن يحصل جوى وحده على فضل محاصرة عكا . فلحق به بجيشه .. انضمت قواتهما .. وبدأت حصار عكا يوم ١٣ رجب سنة ٥٨٥ (٢٨ أغسطس سنة ١١٨٩) ، وبعد يومين اثنين كان صلاح الدين عند عكا يحاصر المحاصرين..

وتريث الطرفان . وكانت تأتيهما الامداد من حين لآخر وقامت بينهما بضع مناوشات حتى جاء ٥ أكتوبر . فهاجم الصليبيون جيش صلاح الدين . واستطاع فريق منهم أن يسرع فيتقدم عن بقية الجيوش ، ويصل الى معسكر صلاح الدين ، وأمر صلاح الدين فصاح المنادى : يا للاسلام وهجم بكل قوته هجمة صادقة شتت شمل المهاجمين ثم نكص بقية الجيش على أعقابهم .. وقتل منهم ومن رؤسائهم عدد كبير ..

وجاء الشتاء ، وهطلت الأمطار ، وكثرت الأوحال وتعب كثير من قواد صلاح الدين مرة أخرى ، فخالفوه فى رأيه .. وكان رأيه ، رغم مرضه ، أن يواصل هجومه ، مستبشرا بالانتصار الذى كسبه ، حتى يقضى على البقية الباقية من الأعداء ورأى الكثيرون من القواد أن ينسحبوا الى التلال المجاورة للراحة ، ثم يعودوا الى القتال . وكما فعل فى المرة السابقة . نزل عند رأى قواده . ولو انه نفذ رغبته لأكمل انتصاره فى اليوم التالى .

وانسحب صلاح الدين بجيشه الى التلال ، وبذلك أعطى الفرصة للافرنج أن يستعدوا ويحصنوا مواقعهم وهم مطمئنون .

ومما أعد الافرنج أثناء الشتاء ثلاثة أبراج عاليات كالجبال ، من حديد وخشب وألبسوها الجلود التى طليت بدهان يمنع النار من احراقها وكان المسلمون يزدادون فزعا كلما قرب انتهاء الافرنج من اقامتها . وكلما

تصوروا ما ستقذفه بهم هذه الابراج من (نار اغريقية) وقذائف جهنمية . فجمع صلاح الدين الصناع والنفاطين المحنكين وحثهم على الاجتهاد فى احراقها ووعدهم بمكافآت ثمينة ولكنهم فشلوا وضاقت بهم الحيل .

وتقدم شـاب من دمشق ، كان يشتغل فى صناعة النحاس يعلن أنه يستطيع احراقها . فهزأ به القوم . وقالوا : أين تذهب أنت أيها الشـاب الصغير ، أمام هؤلاء الشيوخ المجربين ولكن صـلاح الدين كان يؤمن بالشباب وبقدرته . فأفسح له الطريق وأعد الشاب الدمشقى العربى ، ذلك النوع من النار الاغريقية الذى اخترعه ، أو بعبارة أخرى ، أعد (النـار العربية) وأطلق قدرا منها على أحد الأبراج ، فاشتعل وتحول الى جبل من نار وقد ارتفعت ذؤابته نحو السماء ، وفزع الصليبيون ، وصاح المسلمون وهللوا . ورمى البرج الثانى فاشتعل كسابقه ، واشـتد الضجيج من الجانبين ، ثم ضرب الثالث فالتهب . وغشى المسلمين سرور شديد ، حتى قفز شيوخهم قبل شبابهم من الفرح .

وأعجب صلاح الدين بعبقرية الشاب الدمشقى . وازداد اعجابا به عندما أراد مكافأته بمال وفير ، فأبى الشاب المؤمن قائلا : لا أخذ مكافأة لعمل قمت به فى سبيل الله .

وضاعف سرور المسمين انتصار الأسطول المصرى تحت قيادة لؤلؤة وتمكنه من الوصول الى ميناء عكا وامداد أهل المدينة المحصورين بالمؤونة والذخيرة .

ووسط هذا السرور ، وصلت صلاح الدين أنباء مفزعة عن اقتراب جيوش الألمـان الضخمة بقيادة امبراطورهم فردريك برباروس ، فأرسل جزءا من جيشه الى الشمال ليرابطوا على منافذ الشام للالمـان القادمين ، وانتهز الافرنج المحاصرون لعكا ، فرصة نقص الجنود الاسلامية ، وهاجموا الجهة التى نقصت جنودها . وهى الميمنة ، وكان عليها الملك العادل ، فدارت

المعركة شديدة انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما، وقتلوا من الافرنج بضعة آلاف ، وكان بين قتلى الافرنج بعض النساء اللاتى حملن السلاح وحاربن بالسلاح وحاربن جنبا لجنب مع الفرسان .

وفرح المسلمون بالنصر ، وازدادوا فرحا اذ جاءت الأخبار تعلن فشل حملة الامبراطور فردريك لما لقيه جنوده من مرض وتعب وجوع . ومن مقاتلة مملكة الروم الاسلامية لهم وعلى رأسها قلج ارسلان ، وأخيرا من غرق فردريك نفسه فى مياه نهر صغير .

ولكن سرعان ما تغير الموقف بقدوم طلائع الحملة الصليبية الثالثة مكونة من عشرة آلاف جندى غير الفرسان والاشراف وعلى رأسهم الكونت (هنرى دى شمبانيا) ابن أخت ريتشارد ملك الانجليز . وتولى هنرى قيادة الميدان عند عكا .

واستمر القتال سجالا ، أظهر فيه المسيحيون ثباتا واقداما ومهارة فى تدمير أسوار عكا بمختلف المدمرات كما أن شجاعة المدينة لم تقل أمام هجمات الافرنج بل كان رجالها يردون عليهم بالقذائف المدمرة والنار الاغريقية المحرقة وكانوا يخرجون المرة بعد الأخرى مندفعين على العدو ، ويعودون بعد ان يوقعوا به خسائر جمة بين أسر وقتل .

وصعب الاتصال بين المسلمين المحاصرين فى عكا ، والمسلمين محاصرى الفرنجة خارجها .. واستعمل الحمام الزاجل فى المراسلات .

ومن طريق ما تم لتوصيل المؤن والذخائر الى أهالى عكا أن جماعة من المسلمين ركبوا سفينة من بيروت . وتزيوا بزى الافرنج . فاستطاعوا بذلك أن يختلسوا طريقهم الى ميناء عكا بين أسطول الافرنج .

وكان عوام مسلم يسمى عيسى ، يغوص فى الماء ، فلا يظهر الا فى الجانب الآخر من مراكب العدو ، وهو يحمل حول وسطه مايراد توصيله من كتب وحاجيات . وذات ليلة شد على وسطه رسائل للعسكر وثلاثة أكياس

فيها ألف دينار ارسلها صلاح الدين نفقة للمحاربين وعام قاصـــدا المدينة وكانت عادته أن يطلق حمامه زاجلة عندما يدخل عكا . فانتظر المسلمون وصول الطائر فلم يصل واستشعر القوم هلاكه . وبعد أيام بينما كان بعض المسلمين من عكا على الشاطىء ، اذا بالبحر يقذف غريقا ، فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجد على وسطه الذهب .

وهكذا أدى الأمانة ميتا . كما كان يؤديها حيا !

واستمر الحصار ، ومرض صلاح الدين . ولكنه ثبت فى الحرب لا يكل ولا يلين ، يجالد المرض ويرتب الجنود بنفسه ميمنة وميسرة وقلبا ، ولا يهتم بمشورة الأطباء ، ونصح الناصحين .

واعتراه مرض شديد ودمامل كثيرة ظهرت عليه من وسطه الى ركبتيه حتى أصبح لا يستطيع الجلوس ، حتى اذا كان فى خيمته رقد على جنبه متألمـا . ومع ذلك كان يركب من بكرة النهار الى صلاة المغرب ، ويطوف على الجنود وكان يقول للمتعجبين : اذا ركبت يزول عنى الألم ، حتى أنزل !

ودخل الشتاء الثانى على حصار عكا . وصرف صلاح الدين أكثرية جيشه الى أوطانهم حتى تنقضى شهور الأمطار والأوحال . وتوقف القتال بين الفريقين الا من مناوشات صغيرة ..

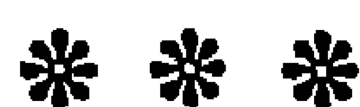
وفى احدى هذه المناوشات أسر بضع عشرات من الافرنج وجىء بهم الى صلاح الدين ، وكان بينهم شيخ هرم ، وقد تهدمت أسنانه ، وضعف جسمه ، فقال للترجمان : قل له ما الذى حملك على المجىء ، وأنت فى هذه السن وكم من ههنا الى بلادك ! فقال بلادى بينى وبينها عدة أشهر . وأما مجيئى فانما كان للحج الى كنيسة القيامة فرق له صلاح الدين وأطلقه . وأعاده راكبا على فرس الى معسكر العدو .

أما معسكر العدو فقد قضوا هذا الشتاء فى أشـــد حالات البؤس والجوع .. فذبحوا الخيل ليتخـــذوا منهـــا طعامهم . وأكلوا من جثث

الحيوانات التى ماتت من الضعف أو المرض .. وتغذوا على الحشـائش كالبهائم والأنعام .. وقرضوا العظام ، التى خلفتها الكلاب ؟ حتى النبلاء منهم لجأوا الى السرقة والغش والختل .. واشترى جماعة منهم بآخر نقود فى جعبتهم ١٣ حبة من الفول ثم وجدوا احداها فاسـدة ، فعـادوا مسافة طويلة الى البائع الجشع ليستبدلوا بها حبة طيبة ! هـذه كانت حالهم طوال الشتاء ، حتى تملص نفر منهم مما هم فيه بأن اعتنقوا الاسلام ! ولولا سفينة قسحجاءتهم أخيرا لمـاتوا جوعا .

ولكن الشتاء انقضى ، وانقضى معه الكرب الذى كانوا فيه ، فقـد أشرفت حملة ريتشارد (قلب الأسد) على الوصول .

ووصل أولا فيليب ملك فرنسا فى عيد الربيع فى ابريل سنة ١١٩١ ، فقابله الافرنج بالأغانى والتراتيل ، كأنه ملك من السماء جاء لانقاذهم .



واشتد الحصار ، واشتدت المناوأة ورجحت كفة الافرنج ، وتضاعفت الويلات على أهل المدينة ولكنهم صبروا على المقاومة صـبرا محمودا ، وكانت جنود صلاح الدين تغير بقدر طاقتها على الافرنج المحاصرين حتى تعرقل تقدمهم نحو احتلال المدينة .

وفى احدى هذه الغارات ، سرق رجل مسلم طفلا رضـيعا له ثلاثة شهور . ولمـا فقدته أمه طار عقلها وخرجت الى معسكر المسلمين تصرخ وتولول . وأخلى لها الطريق .فأسرعت نحو السلطان وكان راكبا ، وبكت بكاء شديدا . فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها حتى اغرورقت عينـاه بالدمع ، وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع فى السوق ، فاسـترده وأمر بدفع ثمنه الى المشترى . وظل فى مكانه حتى جىء بالطفل وسلمه الى أمه . فأخذته وهى تبكى وتضمه الى صدرها . ثم أرضعته ، ثم أمر بها فحملت على فرس والحقت بمعسكر الافرنج مع طفلها .

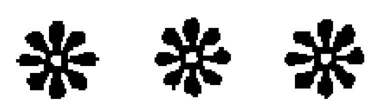
ويحدث هذا كله ، والحرب قائمة ، والمسلمون فى عكا يلاقون الشدائد من جراء ذلك الحصار الذى طال وطال دون أن تظهر له نهاية .. ولكن النهاية قربت عند ما وصل ريتشارد ملك انجلترا الى عكا فى ٨ يونيه .

وبمجرد وصول ريتشارد طلب أن يجتمع فى مقابلة خاصة مع صلاح الدين الذى سمع عن شجاعته وعظمته الكثير ، ولكن صلاح الدين رفض قائلا : « ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الاجتماع وقت الحرب فى مقابلة ودية ، قبل أن تقرر القاعدة » .

وجاء رسل لريتشارد من جديد ، وحددت مقابلة بينه وبين العادل فى الميدان الواقع بين المعسكرين ولكنها أرجئت لمرض ريتشارد ، ورغم هذا المرض كانت المفاوضات تجرى بين العادل ورسل ريتشارد الذين تبادلوا مع العادل دعايات عن الصور التى حملوها معهم هدية من ريتشارد الى صلاح الدين ، والدجاج الذى طلبه ملك الانجليز فأرسل اليه .

وجاء رسل ريتشارد يوم ٤ يوليه ، يطلبون فاكهة وثلجا . وفى اليوم التالى جاء رسل ثلاثة وتفاوضوا مع العادل ، واستؤنفت المفاوضات فى اليوم الذى بعده ولكن شروط المسيحيين كانت جائرة فلم يتم شىء .

وفى الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات كانت تدور رحى الحرب ، وتشتد وطأة الحصار وينحدر أهل عكا نحو اليأس .



وأخيرا خضعت حامية عكا . وقبل رجالها أن تسلم المدينة للفرنجة بما فيها من الالات والعدد ، على أن يدفع المسلمون مائتى ألف دينار ، وان يطلقوا أسرى الافرنج وبذلك يخرج من بعكا سالمين لا يمسهم سوء .

وقبلت الحامية هذه الشروط دون رأى صلاح الدين ، الذى بادر عند ما علم بهـا فى اعداد هجمة شديدة لانقاذ عكا .. واذا به يرى أعلام

المسيحيين ترتفع على أسوار المدينة .. ووقف صلاح الدين كالام الثكلى والاسى يقطر من فؤاده المكلوم .

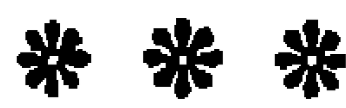
وجمع صلاح الدين المال ليعطيه للافرنج وطلب ضمانا كافيا منهم أن يطلقوا أسرى عكا عندما يوفى بشروطهم .. ولكنهم قالوا : اعطنا ما عليك، ولك عهدنا أن نعطيك رجالك بعد ذلك . ولكنه كان قد عرف وعودهم ، وجرب عهودهم فتردد عن الدفع الا بعد الضمان ..

واذا بالوحوش الضوارى ، يفتكون بأهل المدينة ، وارتكب ريتشارد قلب الأسد خطأ ظل نقطة سوداء فى تاريخه . فقتل ألفين وتسعمائة من المسلمين . فى نفس الساحة التى كان يريد أن يقابل فيها الملك العادل للصلح .

أما صلاح الدين فقد ظل نبيلا ثابت الجأش .. فلم يقتل ما لديه من أسرى المسيحيين ، بل أرسلهم الى دمشق سالمين .

وارتفعت صلبان الافرنج فى المدينة ، وعلا رنين الأجراس ، وكذلك ارتفع صخب الفاتحين وانغمسوا فى الشهوات والملاذ ، وجاءت النساء من الجزر المجاورة يعرضن أجسادهن فغرق الرجال فى العبث والفجور .

وخفت صوت الاسلام فى عكا ، وظل خافتا مائة عام حتى يسر الله لمصر من جديد أن تلعب دورها العظيم فتهزم الصليبيين فى المنصورة ، وتقضى على التتار المخربين وترسل ملكا آخر لها يدعى صلاح الدين .. هو الملك الاشرف صلاح الدين خليل . فاستعاد عكا بعد مائة عام من خضوعها للفرنجة ، وظل الأشرف صلاح الدين يستولى على مدن الفرنجة فى الساحل حتى اختفى آخر صليبى من بلاد المسلمين . وانتقم الاشرف لقتلى المسلمين فدخل دمشق وهو يستعرض رؤوس الصليبيين على أسنة الحراب .



وسار جيش الصليبيين الكبير بحذاء الشاطىء .. وعلى رأسه ريتشارد وحده بعد عودة فيليب الى بلاده يريد عسقلان ليستعيد بعدها أورشليم ،

فيحقق حلمه الأكبر . وسار جيش صلاح الدين بازائه . حتى تقابل الجيشان عند (ارسوف) فانهزم المسلمون انهزاما شنيعا . وفروا هاربين . الا صلاح الدين الذى لا يعرف اليأس قلبه الكبير ، فثبت فى جماعة قليلة . ثم جمع بسرعة فلول جيشه وتحدى بهم الافرنج فأبوا منازلته وواصلوا طريقهم الى (يافا) . أما هو فعـــاد الى الرملة كى يحفظ الطريق الى القـــدس ويحصنه . ثم أمر بهدم عسقلان حتى يجدها الفرنجة قاعا صفصفا فخربت وصلاح الدين يقول : « والله لان أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم حجرا واحدا . ولكن اذا أراد الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين ، كان » .

ويوم أن تهدمت عسقلان الجميلة مرض واعتكف من الأسى ، وعلم بمرض سكرتيره بهاء الدين . فلم يكن منه رغم ما فيه من مرض وأسى ، الا أن بعث يسأل عن صحة سكرتيره فى ذلك اليوم ثلاث مرات

ووصل الفرنجة الى يافا ، ولبثوا هنـــاك يستريحون ويعبثون فقـــد جاءتهم من عكا النساء اللاتى منعهن ريتشارد عند مغادرتها من السير مع الجيش . وانهمك جنوده فى يافا فى الشهوات مرة أخرى . وكان ريتشارد يحترق الما للهوهم وتحللهم وأخذ يحصن يافا ويبنى أمامها المعاقل . ولكن المسلمين كانوا يغيرون عليه الفينة بعد الفينة . وكاد قلب الأسد يقع أسيرا فى أيدى المسلمين فى احدى غاراتهم ، لولا ان فداه أحد فرسانه المخلصين بأن ادعى انه هو الملك . فأسر بدلا منه .

* * *

ورغب ريتشارد فى الصلح ، لأنه رأى صـــعوبة الحصول على بيت المقدس . وشاهد تفكك رجاله ، رغم كثرتهم ، فجرت المفاوضات بينه وبين الملك العـــادل .. على أن يتزوج العـــادل من أخت ريتشارد وهى أرملة ملك صقلية . وأن يحكم الزوج والزوجة معا فى القدس يفتحان أبوابهـــا للمسلمين والافرنج على السواء .

وقد روت الأساطير قصصا عن مقابلات ريتشارد وصلاح الدين ، وعن مبارزاتهما الفردية . وعن عرض ريتشارد على صلاح الدين زواج أخته . ولكن الحقيقة ان البطلين الفارسين ، لم يجتمعا مطلقا فى مقابلة وانما اجتمع ريتشارد مع العادل مرات . وكانا اذا اجتمعا ، تجاذبا الحديث فى سمر ودعابة كأنهما نسيا أنهما فى حرب ضروس . وخرج العادل وريتشارد من هذه المفاوضات صديقين حبيبين ..

وسار الافرنج نحو القدس ، هدفهم الأكبر . وكان العرب يناوشونهم ويأخذونهم من كل جهة .

وفى احدى مناوشاتهم ، رفع ريتشارد عينيه فجأة ، فلمح المدينة المقدسة عن بعد ، وكان ورعا مؤمنا . فحجب بذراعه المدينة عن عينيه ، وبكى تضرعا الى الله .. وهو يدعو : « أتوسل اليك يا رباه ، ألا ترينى مدينتك المقدسة اذا لم أخلصها من أيدى أعدائك » ..

ولكنه لم يخلصها ، ولم يرها بعد هذه المرة ، فلم يكن المسلمون أعداء الله ، ولم يكن صلاح الدين أقل حرصا على بيت المقدس . وكان هو الآخر يصلى ويتضرع فقد اختلف فؤاده وبات الليل كله ساهرا حتى طلع فجر الجمعة . وفى المسجد صلى ركعتين ودموعه تتساقط على السجادة . وفى المساء جاءت الأنباء ان الفرنجة بعد ان ركبوا عادوا الى معسكراتهم . وفى الصباح جاءت رسالة أخرى تنبىء أنهم رحلوا متقهقرين .

وركب صلاح الدين على رأس رجاله لمشاهدة ابتعادهم وامتلأت قلوب المسلمين غبطة وأحس صلاح الدين أن الله قد أجاب دعواته .

وفى الصيف دارت مفاوضات ، ودارت حروب وكانت يافا ميدان هذه الحروب .

وعند يافا ، استطاع ريتشارد بحفنة من الفرسان الأشداء ، أن يهزم جيشا للمسلمين فتوج حروبه فى الشرق بهذا النصر المبين .. وعند يافا أيضا هجم المسلمون ثانية على ريتشارد ، ولكنه أبدى فروسية هائلة فى

المعركة .. واستطاع صدهم بقليل من الفرسان .. وفى هـذه المعركة قتل فرسه ، فحارب راجلا ، يضرب ذات اليمين وذات الشـمال برمحه ـ أو بفأسه الدانمركية التى اشتهر بها ـ واذا بفارس مسلم يعدو نحوه على فرس أصيل يرغى ويزبد ، ويجر معه فرسا آخر .. معلنا ان صلاح الدين رأى الملك راجلا فبعث اليه بهذين الفرسين السريعين اذ من العـار أن يحارب بطل شجاع مثله على الأقدام ! وازداد ريتشارد اعجابا بهذا الرجل الذى لا يحقد عليه وهو يقاتله ، فقبل الجوادين ، واستأنف القتال ..



وتوالت الامدادات لجيش صلاح الدين من مصر والموصل وشمال سوريا .. بينما غادر الفرنسيون ريتشارد الى بلادهم ، واضمحلت معنوية الباقين .. وجاءته الأنباء من انجلترا تعلن أن أخاه يعمل لاغتصاب الملك منه ومرض ريتشارد مرضا شديدا .. ازاء ذلك كله كان لامناص من الصلح ..

واشتهى الملك المحموم الفواكه المثلجة .. فأخذ صلاح الدين يرسل اليه بانتظام ، الكمثرى والخوخ .. والثلج الذى يؤتى به من أعالى الجبال

وفى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ أمضيت معاهدة (الرملة) لتظل نافذة ثلاث سنوات .. ومن شروطها أن تبقى البلاد التى فتحها ريتشارد من عكا الى يافا فى أيدى الافرنج .. وان يسمح للحجاج الفرنج بدخول بيت المقدس وللعرب أن يدخلوا ما شاءوا من بلاد الافرنج ، ولهؤلاء أن يدخلوا بلاد العرب .

وكان يوما مشهودا غشى الناس من الطرفين فيه الفرح والسرور ..

واختلط المعسكران ، وذهب المسلمون الى يافا فى طلب التجارة وفتحت القدس أبوابها للحجاج الأجانب ..

ولم يكن للعرب قبل حطين ، شبر واحد من الأرض غربى الأردن ، أما بعد صلح الرملة ، فقد أصبحت كل الأرض ملكهم ، الا رقعة صغيرة عند الساحل من صور الى عكا .. وكانت هذه الرقعة ـ التى استعادها

المصريون فيما بعد ــ هى نتيجة تلك الحروب التى دامت قرنين ، وتجمعت لها أوربا بأسرها ، ومات فى سبيلها مئات الألوف من الصليبيين .. واذن فكان لصلاح الدين أن يرضي بهذه المعاهدة .. ولكنه لم يقنع بها ، بل ما زال ينظر الى الأمام يتطلع الى طرد الافرنج جميعها من بلاد العرب عندما تحين الفرصة .. بل لعله كان يتطلع الى أكثر من ذلك ..

فما زالت تدوى فى ذاكرة سكرتيره بهاء الدين .. تلك العبارات التى قالها له وهما فى سيرهما على شاطىء البحر من عسقلان الى عكا .. وكان البحر هائجا وموجه كالجبال حتى تخوف بهاء الدين منه .. وفجأة قال صلاح الدين : « أما احكى لك شيئا فى نفسى .. انه متى يسر لى الله فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره وما وراءه من الأرضين ، واتبعتهم فيهما حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » ! فقال بهاء الدين « ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى منه نية فى نصر دين الله .. ولكن المولى يسير فى البحر العساكر .. ويبقى هنا سور الاسلام ومنعته فلا ينبغى له أن يخاطر بنفسه ، فقال صلاح الدين : « أنا استفتيك .. ما أشرف الميتات؟» قال : « الموت فى سبيل الله .. » فقال صلاح الدين : « وغاية ما أريده أن أموت أشرف الميتات » .

كان صلح الرملة بين صلاح الدين والصليبيين هو آخر عمل قام به صلاح الدين .. وقد فصل « بهاء الدين ــ ابن شداد » أمين سره مفاوضات الصلح فى كتابه المشهور « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية » (١) .

وقد ذكر هذا المؤلف القديم ، وننقل عنه بلغته :

« وكتبت المواضعة (المعاهدة) وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين

---

(١) حقق هذا الكتاب أخيرا الاستاذ محمد محمود صبيح ونشرته الدار القومية ، وهو من اهم الوثائق التاريخية عن تاريخ هذه الفترة ، وان كانت لهـا مراجع اخرى كثيرة مثل كتاب الكامل لابن الاثير ومفرج الكروب لابن واصل (حققه المرحوم الدكتور جمال الشيال) والفتح القدسى للعماد الاصفهانى .

من تاريخها ، وهو الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ورأى السلطان ذلك مصلحة ، لما عرى الناس من الضعف وقلة النفقات ، والشوق الى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن — يافا — يوم أمرهم بالحملة (الهجوم) فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج اليهم ، فلم يجدهم .. فرأى أن يجييهم (يستبقيهم) مدة حتى يستريحوا ، ويتبعوا غير هذه الحالة التي صاروا اليها ، ويعمر البلاد ، ويشحن (يسلح ويحصن) القدس ، بما يقدر عليه من الآلة ، ويتفرغ لعمارتها .

« ... ثم أمر المنادى ينادى فى الوطاقات (المعسكرات) والأسواق ، الا أن الصلح قد انتظم فى سائر بلادهم .. فمن شاء من بلادهم أن يدخل فى بلادنا فليفعل . ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل ..

« وأشار رحمة الله عليه (أى صلاح الدين) أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم على الحج فى ذلك المجلس (٢) ، وكنت حاضرا ذلك جميعه .. وكان يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور مالا يعلمه الا الله تعالى » ..

ويستطرد ابن شداد :

« والله العظيم ، أن الصلح لم يكن من ايثاره (برغبة صلاح الدين) فانه قال لى فى بعض محاوراته فى الصلح أخاف أن أصالحه ، وما أدرى أى شىء يكون منى ، فيغوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد (الساحلية) فيخرجوا لاسترداد الباقى ..

« وكان مصلحة فى علم الله تعالى ، فانه اتفقت وفاته بعد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات (الحروب) لكان الاسلام فى خطر ، فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة له ..

(٢) مات صلاح الدين قبل أن يتمكن من السفر الى مكة حاجا ، وذلك أثناء وجوده فى دمشق ، ودفن فيها .

« ... واختلط العسكران (العرب والفرنجة) وذهب جماعة من المسلمين الى يافا (كانت بقيت فى يد الصليبيين) فى طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو (أى الصليبيين) الى القدس للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم الى يافا » ..

واستدعى صلاح الدين ابنه الملك الظاهر ، وأوصاه وصية عميقة المغزى ، فيما يجب أن يكون بينه وبين الشعب .. روى ابن شداد هذه الوصية بقوله :

حضر الظاهر واستحضرنى ، وأخلى المكان ، ثم قال له :

« أوصيك بتقوى الله تعالى ، فانه رأس كل خير .. وآمرك بما أمر الله به ، فانه سبب نجاتك .. واحذر من الدماء (الانتقام) والدخول فيها ، والتقلد لها ، فان الدم لا ينام ..

« وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى ، وأمين الله عليهم ..

« وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت ، الا بمداراة الناس (عدم التعرض لهم) .. وألا تحقد على أحد .. فان الموت لا يبقى على أحد ..

« وحذار ما بينك وبين الناس ، فانه لا يغفر الا برضاهم .. وما بينك وبين الله ، يغفره الله بتوبتك اليه ، فانه كريم » (١) .

ونختم رواية ابن شداد بقوله :

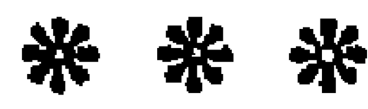
« أقام السلطان فى القدس يقطع الناس ويعطيهم ، ويتأهب للمسير الى الديار المصرية .. ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانتكار

---

(١) هذا المعنى من أجل المعانى ، فان الله تعالى بفضله وكرمه ، يغفر ذنوب الناس اذا تابوا . اما الناس فلا يسامح احدهم احدا الا اذا خلصت نفوسهم وصفت .. وخلاص النفوس وصفاؤها أمر صعب المنال .

(سفن رتشارد قلب الأسد ملك الانجليز) متوجها الى بلاده (انجلترا) . فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الســاحل ، ويتفقد القلاع البحرية الى بانياس (على ساحل سوريا) ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها أياما قلائل ، ويعود الى القدس الشريف ، سائرا الى الديار المصرية يتفقد أحوالها .

ولكن القدر لم يمهله لاتمام هذه الجولة ، فكانت زيارته لدمشق هى آخر عهده بالحياة ..



أجاب المرحوم الدكتور نظير سعداوى فى كتابه الحرب والسلام ، على السؤال : هل حقق صلح الرملة السلام بين العرب والصليبيين ؟ .. قال :

والاجابة على هذا السؤال تستوجب معرفة ثلاث حقائق : الأولى أن هدنة الرملة كفلت السلام العالمى لفترة موقوتة حددتها بثلاث سنوات وقليل من الأشهر ، وأجازت لكل من المتعاقدين عليها ، وهما الجانب الاسلامى والجانب المسيحى حق اعلان الحرب على الجانب الآخر بعد انقضاء مدة الهدنة وتتضح هذه الحقيقة من تصريح الملك رتشارد للسلطان صلاح الدين ، حين دعاه صلاح الدين لزيارة مدينة بيت المقدس قبل أن يغادر الشرق يوم ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢ عائدا الى بلاده ، فرفض رتشارد الدعوة ، بحجة أنه لا يستطيع رؤية المدينة التى غلقت أبوابها فى وجهه ، غير أنه وعد صلاح الدين بأنه سوف يعود مرة أخرى الى الشرق لمحاربته ، واستخلاص مدينة بيت المقدس من المسلمين بعد انتهاء أجل الهدنة ..

وثانى تلك الحقائق ، أن الكنيسة البابوية وهى المسئول الأول عن هلاك البشرية ، واشعال نيران الحروب الصليبية بين الشرق والغرب لم تقر امتلاك المسلمين للمدينة المقدسة ولم تزل تنادى بضرورة استرجاعها منهم .. فغداة وفاة السلطان صلاح الدين بعث البابا أنوسنت الثالث رسالةللسلطان الملك العادل خليفة صلاح الدين راجيا فيها معــاملة الأسرى المسيحيين

بالحسنى ، ومبديا أسفه لفقدان بيت القدس ، وناصحا العادل باعادتها الى المسيحيين .. اذ لا فائدة ترتجى من بقائها تحت سلطان المسلمين ، ما دامت تكبدهم خسائر فادحة وتعرضهم لأخطار لا قبل لهم بها .

وكانت الحقائق وآخرها ، بقاء شريط ساحلى ضيق من أرض العرب والمسلمين بالشام فى قبضة الصليبيين أمر لا يتفق وطبيعة الأشياء ، اذ صحت عزيمة العرب على تحرير كل شبر من أراضيهم وعودة المشردين منهم الى أوطانهم ومنازلهم التى اغتصبها الصليبيون وارجاع الأوضاع السياسية ببلادهم الى ما كانت عليه قبل ١٠٩٦م « فالبلاد فى الأصل بلادهم واستيلاء العدو كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين وقتذاك » على قول السلطان صلاح الدين ..

وفى مستهل سنة ١١٩٥م أى بعد انتهاء المدة التى حددها صلح الرملة ، مضى البابا كلستيان الثالث فى تعبئة الشعور العام الأوربى ضد الشرق ، والدعوة للقيام بحملة مقدسة لاستخلاص مدينة بيت المقدس من المسلمين ، ولم يستجب لدعوته أحد سوى هنرى السادس أمبراطور ألمانيا صاحب الأطماع التوسعية وسياسة السيطرة العلمانية والعدوانيـــة ضد الشرق البيزنطى وكنيسته بنوع خاص ..

وصلت حملة هنرى السادس عكا فى سبتمبر سنة ١١٩٧م ولم تجـد ترحيبا من الصليبيين الشرقيين ، ولم تحرز انتصارات حاسمة على القوات الأيوبية ، فأسرعت الى عقد الصلح مع السلطان الملك العادل فى فبراير سنة ١١٩٨ لمدة ثلاث سنوات وعادت خاسرة الى أوربا ..

وخيم السلام العام بين الشرق والغرب الى ما بعـد فوات تلك المدة بقليل أى حتى عام ١٢٠٣م ، وهى السنة التى خرجت فيها الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة الى الشرق ، وتحولت عن هدفها الحقيقى وهو مصر ، واتجهت الى مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية واستولت عليها فى ١٢ ابريل سنة ١٢٠٣ .. ثم وصلت فلولها عكا .. ومنها رجعت الى القرى

الغربية الواقعة غربي نهر الأردن وحالت القوات المصرية السورية دون تقدمها نحو بيت المقدس، ولما كان الملك العادل قد بلغ من الكبر عتيا ، ومن طول وثقل الجهاد ضعفا ، فانه مال الى اقرار السلام ، وعقد صلحا مع الصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) استردوا بمقتضاه يافا ورام الله والرملة ..

وازاء هذا الفشل المتكرر المخزى فى محاولات استرداد بيت المقدس ، تجلى للعدو حقيقة تاريخية جغرافية هامة أكدتها سابق تجاربهم وخبراتهم بالشرق العربى ، وهى أن مصر ومصر فقط مفتاح الشرق وقاعدته الحصينة، التى تمد جيوشه بالمؤن والامدادات المادية والمعنوية وأنه لا فائدة البتة من محاولات استرداد بيت المقدس طالما كانت مصر خارج نطاق النفوذ الصليبى .. على أن التفكير فى غزو مصر قديم قدم الحملات الصليبية على الشرق ، يرجع الى أيام الملك جدفرى مؤسس مملكة بيت المقدس الصليبية، الذى وضع مشروعا لغزو مصر ، ووعد فى عام ١١٠٠م بأن يتنازل عن بيت المقدس الى البطريرك متى تم له فتح مدينة القاهرة .. لكنه مات فى نفس العام ، وترك تنفيذ مشروعه لأخيه بلدوين الأول ، المعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل ، والذى مهد السبيل للوصول الى هدفه القاهرة بالاستيلاء على ثغر ايله المشرف على البحر الأحمر .. وشيد سنة ١١١٦ م حصن الشوبك الواقع فى منتصف الطريق ، بين ذلك الثغر جنوبا والبحر الميت شمالا ، للسيطرة على طريق القوافل الممتد من القاهرة الى دمشق مارا بالبحر الأحمر ، ثم أمعن بلدوين هذا ، عام وفاته (١١١٨م) فى سيره على امتداد ساحل مصر الشمالى ، وأوغل فى الأراضى المصرية فعلا حتى بلغ مدينة الفرما ، وتشهد بذلك أرض سبخة البردويل التى بين غزة وبور سعيد الحالية والتى جاء اسمها من اسم ذلك الملك الصليبى الذى هلك عندها من أكلة سمك (٥١٢ هـ) وبعده تسللت محاولات صليبية برية عديدة عن طريق الوديان فى شبه جزيرة سينا ، حيث الآن مكان اسمه

الأربعين إشارة الى أربعين فارسا صليبيا هلكوا فى هـذا المكان وهم فى طريقهم الى غزو مصر .

ودلت الأحداث المتتالية والمعارك الدائرة ، بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام ، على عهد السلطان نور الدين محمود والملك أمورى على أهمية امتلاك مصر فى تقرير نتائج ذلك الصراع ، وجرى التسابق بينهما منذ ١١٦٣م على دخول القاهرة ، وكان طبيعيا أن يتحقق حلم المصريين والسوريين فى قيام وحدة بينهما ، قادرة على تنسيق عمليات الجهاد والكفاح ضد الصليبيين وصار نور الدين سيد البلدين سنة ١١٧١م بعد وفاة الخليفة الفاطمى العاضد .. ثم مات نور الدين سنة ١١٧٤م وقبض صلاح الدين على زمام الوحدة فى الجبهة العربية الاسلامية وبرزت على عهده أكثر من محاولة صليبية لغزو مصر وامتلاكها .. سلكت طرق البحر حينا ، وطرق البر حينا آخر .. نزل أولها على دمياط « عقيلة الاسلام وثغر الديار المصرية » فى أكتوبر سنة ١١٦٩ .. وطمع الصليبيون فى أن يملكوها ويتخذوها « ركابا للاستيلاء على مصر » .. على قول المراجع .. فاجتمعوا عليها وحاصروها لأول عهد صلاح الدين بالوزارة المصرية ، فأفسد الأمر عليهم بحسن تدبيره ، واتحاد السوريين معه ، اذ سير نور الدين اليه العساكر ارسالا يتلو بعضهم بعضا .. وشبه ابن الأثير تلك الحملة فى فشلها بالنعامة « خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » وقصدت المحاولة الثانية ثغر الاسكندرية مركز الاكبار من ولاة الحرب فى يونيو سنة ١١٧٤م فى أسطول كبير .. ونزل قدوم صلاح الدين الى الثغر على العدو نزول الصاعقة ، فولوا هاربين فى عرض البحر ، وتعتبر مصر الهدف الذى تطلع اليه الزعماء الثلاثة الكبار للحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، عملا بنصيحة المجلس البابوى .. ويبدو أن رتشارد الأول كان أكثرهم تحمسا لفكرة غزو مصر ففى يوليو سنة ١١٩٢ تلقى النصيحة من مستشاريه بأن القاهرة لا بيت المقدس ، هى الجبهة التى ينبغى مهاجمتها ، بعد أن درسوا التقارير الواردة

اليهم من جواسيسهم وبعد أن وقفوا على غنى مصر الوفير من القافلة المصرية الكبيرة الذاهبة من القاهرة الى القدس والتى انقض عليها رتشاد أثناء استراحتها على ماء الخويلة فجر يوم الأحد ٢٣ يونيو ١١٩٢ ، على أن محاولة رتشارد لم تتعد مرحلة التفكير والدراسة بسبب التسوية السلمية التى تمت بينه وبين صلاح الدين حول المشكلة الصليبية فى صلح الرملة فى سبتمبر سنة ١١٩٢ م ..

وكيفما كان تاريخ المحاولات الصليبية لغزو مصر ، فان ميادين القتال الفعلى بين الشرق والغرب ، تحولت من الشام ومدنه منذ نهاية الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى الى وادى النيل وشواطئه وظلت كذلك حتى نهاية الحروب الصليبية فى منتصف القرن الخامس عشر .. ولئن تنفست مدن الشام قليلا من ويلات تلك الحروب فانها رزئت بالفتن الأهلية والانقسامات والحروب الداخلية بين ملوك بنى أيوب .. وكان طبيعيا بعد وفاة صلاح الدين ، أن ينصرف خليفته السلطان الملك العادل — ومقره دمشق — وولده الملك الكامل ونائبه بمصر الى الاصلاحات الداخلية وتنمية موارد البلاد الاقتصادية وخاصة التجارية منها ، فعقد عدة معاهدات تجارية مع المدن الايطالية زاد بفضلها عدد التجار الوافدين من تلك المدن الى مصر سنة ١٢١٥م على الثلثمائة تاجر .. ويدل هذا الرقم على ما اتصف به السلطان العادل الأيوبى من حسن النية ، وسياسة التسامح .. والصداقة الصافية التى جرى عليها مع تجار الجمهوريات الايطالية والرغبة الصادقة فى تنشيط التجارة معهم ..

* * *

رددت أجواء دمشق .. آذان الفجر .. عميقا حزينا فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣ م) .. بينما رقد الملك الذى ساد العالم الشرقى بأسره يلفظ أنفاسه الأخيرة ..

وكان الى جانبه الشيخ أبو جعفر ، يردد « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم » .

فتمتم صلاح الدين « صحيح » .
وأضاء وجهه ، وسلم روحه لربه ..

ومات وعمره خمسة وخمسون عاما .. وكان له سبعة عشر ولدا ، وبنت واحدة .. ولكنه صرف كل أمواله فى الاحسان و فى الجهاد .. فلما مات وجد أنه لم يخلف الا سبعة وأربعين درهما من الفضة ، وجراما واحدا من الذهب .. ولم يخلف دارا ولا عقارا ولا مزرعة ولا بستانا .

فى عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) اجتمع بعض أمراء الفرنج فى رومه مقر البابا وفى غيرها من البلاد المسيحية ، وتعاقدوا على انتزاع مدينـة القدس من المسلمين .. فخرج الملك العادل من مصر على رأس جيشه ونزل لدى نابلس، فسار اليه الفرنج .. ولما لم يكن بصحبة السلطان من الجند ما يقوى على مقاتلتهم ، فقد اندفع أمامهم الى عقبة فيق .

وعند ما استقر العادل بمرج الصفر كتب الى أمراء الشرق الاسلامى ليقدموا اليه .. فكان أول من قدم منهم أسد الدين شيركوه ملك حمص .
ولقد نازل الفرنج قلعة الطور على مقربة من عكا ولكن لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فانصرفوا عنها الى عكا .. وعزموا على التوجه الى مصر فركبوا بجموعهم البحر وانطلقوا الى دمياط فى (٦١٥ هـ ــ ١٢١٨ م) .
وليس من موضوعات كتابنا أن نؤرخ للحروب الصليبية كلها . ولـكن يهمنا منها هنا ما اتصل بفلسطين ، والقدس بصفة خاصة . ولكن هـذه المرحلة وكل مرحلة سبقتها وكل مرحلة تبعتها ، ربطت بين القدس والقاهرة. وكلما عزت القاهرة توفرت الحماية للقدس وابتعد عنها الطامعون .. هذه حكمة أزلية .. وقدر ومصير ..

ويكفى هنا أن نذكر وصفا لمرارة الهزيمة التى لحقت بالصـليبيين فى دمياط .

يروى « جوانفيل » قصة اعتقال الملك لويس التاسع كما سمعها من شفتى مولاه ، فيقول :

« تخلف الملك عن فرقته ، وانضم الى فرقة السير «والتر دى شاتيلون» الذى يقود مؤخرة الجيش ، وكان ممتطيا صهوة جواد صغير ، ولم يكن معه من رجاله سوى ذلك الفارس الأمين « سير جيوفرى سيريجين » الذى دافع عنه حتى بلغ الاعياء بالملك مبلغا قاتلا .. فتوقف الملك ومن معه على مقربة من بلدة تدعى « منية أبى عبد الله » مسيرة بضعة فراسخ فى الشمال من المنصورة ، وهنالك أحاط بهم العدو ، وأصبحت المقاومة اذ ذاك عبثا.. فسلموا أنفسهم بعد أن أمنهم العدو على حياتهم ، وكان عددهم يربى على الخمسمائة ، ومعظمهم من الفرسان النبلاء .. وفى الحال أخذ المصريون الملك على احدى السفن ونقلوه الى المنصورة حيث اعتقل فى دار ابراهيم بن لقمان كاتم سر السلطان .. وهنالك ألقوه مقيدا بالسلاسل ، وأبقوه فى حراسة الخصى صبيح الذى أمر بأن يعامله بما يليق بمقامه من التجلة والاحترام»..

هذه الدار التى أسر فيها الملك لويس التاسع لا تزال باقية بالمنصورة بجوار مسجد الشيخ الموافى ..

وتذكر المصادر العربية أن السلطان أرسل عباءة الملك الى نائب دمشق جمال الدين موسى بن يغمور فلبسها ..

وحدث بعد ذلك أن اغتال أحد المماليك البحريين السلطان ..

وبموت توران شاه ، انتهى حكم الأسرة الأيوبية فى مصر ، وقد خلفها فى حكم مصر سلاطين المماليك — ولم يكن مبدأ الوراثة قاعدة متبعة فى ولاية العرش بينهم ، فكان الحكم لأعظمهم نفوذا ، وأكثرهم أتباعا .. وان حدث أحيانا أن تولى العرش عدد من أفراد أسرة واحدة كأسرة قلاوون مثلا.

وقرر المماليك أن لا يسمحوا للملك لويس بمغادرة مصر الا اذا دفعت زوجته الملكة — وكانت لا تزال فى دمياط — مبلغ أربعمائة ألف دينار (تساوى حوالى ٢٣٠٠٠٠ جنيه) فدية له .. وضمانة لذلك قرروا الاحتفاظ بجميع المرضى الذين كانوا فى دمياط بالاضافة الى المخازن والأسلحة التى تخص الملك ..

ومرة أخرى يبدو للصليبيين كأنما المخاوف قد انتهت .. ولكن كان الخطر مع ذلك لا يزال قائما ، اذ علق المسلمون رضاهم بالصلح على أن يقسم الملك بصيغة معينة على الشروط التى اتهوا اليها .. فلما سمع الملك هذه الصيغة التى وضعت بواسطة بعض المسيحيين المرتدين هالته بعض جمل فيها وبادر الى رفضها رفضا باتا .. اذ جاء فيها « ان الملك لويس اذا نكث عهده ، فانه يعتبر قد حلف زورا ، ويكون ملعونا كمسيحى أنكر الله والمعمودية والاخلاص والايمان » :

ثم يقول جرانفيل فى مرارة « لا أدرى ان كان الملك قد فاه بالقسم أم لا » .. ولكن كيفما كان الأمر ، فقد وافق القواد وأمراء الأسطول على ما أقسم به الملك .. وأرسل « السير جيوفرى دى سيريجين » الى دمياط أمرا باخلاء المدينة للعرب فلما تم الجلاء ، كان من المتعين بعدئذ أن يطلق سراح الملك مع الأسرى الآخرين ..

وكان من الشروط التى قبلت بمقتضى القسم ، أن يدفع الملك قبل أن يغادر وادى النيل مبلغ مائتى ألف دينار ، أما الباقى وقدره مائتا ألف دينار أخرى فيسدد من عكا ، وضمانا لدفع هذا المبلغ قرر المسلمون الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون فى دمياط .. أما كل المخازن والأسلحة وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة فيها ، فاشترط ألا تعاد هذه كلها الى الملك الا اذا دفع باقى الفدية ..

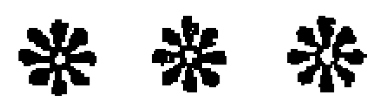
والظاهر أن بعض أمراء المسـلمين ترددوا فى قبول الفدية من الملك الأسير .. ولكن تم الاتفاق أخيرا على تسليم دمياط بكل ما فيها ..

وعلى أثر ابرام هذا الاتفاق ، نقل الملك وفى معيته بعض النبلاء الى فارس كور وتسلم المصريون دمياط ، بعد أن ظلت فى يد الفرنج أحد عشر شهرا وتسعة أيام .. وأفرج عن الملك لويس بمجرد أن فدى نفسه بأربعمائة

ألف دينار ، كما أخلى سبيل أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠٠ أسير [١] .

أصبح الملك فى أمان .. غير أن شقيقه « الكونت دى بواتييه » كان لا يزال فى يد العرب ، وكان لويس متلهفا على أن يدفع الفدية فى سبيل اطلاق سراحه ..

وفعلا أرسل المال من لدن الملكة التى غادرت دمياط قبل الجلاء عنها .. وقد استغرق دفع هـذه النقود سحابة يومين كاملين .. وكان تقديرها بالوزنات ، وكل وزنة تبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب (حوالى ٥٧٥٠ جنيها) .. وفى مساء اليوم التالى وجد أتباع الملك أنه ما زال باقيا عليهم ثلاثون ألف قطعة ذهبية ناقصة من مبلغ الفدية .. فنصح جوانفيل للويس بأن يقترض هذا المبلغ من فرسان المعبد ، ولكن « الأب دى تريكور » رئيس هؤلاء الفرسان اعترض مؤنبا جوانفيل لابدائه مثل هذا الاقتراح فأخذ باقى الفدية بالقوة وسلمها للعرب .. فلما توردت بأكملها تم عندئذ تنفيذ القسم الذى قطعه لويس على نفسه ، فأبحر على سفينته الخاصة الى عكا فى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ .



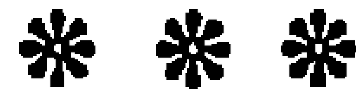
وفيما كان الأمراء يتفاوضون مع الملك سأله حسـام الدين عن عدد جنوده ، حينما نزل الى دمياط ، فأجابه بأنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة فارس ومائة وثلاثين ألفا من المشاة ، غير الخدم والعمال ، ويرى عبـد الرحمن زكى ان هذا التعداد مبالغ فيه جدا فاما ان يكون الملك لويس قد أراد تضخيم قوته ، واما أن المؤرخين العرب بالغوا فى عدد أعدائهم ليزيدوا من قيمة انتصارهم .

وعلى أى حال فان تلك الحملة الصليبية الكبيرة التى نزلت الى أرض

---

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

مصر فقدت معظم قواتها فى وادى النيل .. فقد ذكرت المصادر التاريخية أن الاسرى الذين أطلق سراحهم لم يزيدوا على اثنى عشر ألف رجل وعشر نساء .. وحتى هؤلاء لم يطلق سراحهم كلهم سريعا ، بل ان بعضهم ظل راسفا فى اغلال الأسر وقتا طويلا ، ومن المحتمل أن عددا كبيرا من الجنود الصليبيين قد اعتنقوا الاسلام واستقروا بأرض مصر .



تلك كانت نتيجة هذه الحملة الشهيرة ، وقد كانت الروح الصليبية — فى ذلك الوقت — تكابد طور النزع الأخير ، فلا عجب ان عجلت هذه الحملة بموتها .

وسبب مصرعها أن المملكة اللاتينية فى الأرض المقدسة ما لبثت بعد فترة وجيزة ان تقلص ظلها ثم زالت .. وكان من أهم أسباب زوالها النهائى نشاط سلاطين المماليك فى قتال الصليبيين وامعانهم فى العمل على طردهم من الشرق الادنى .

فما مرت احدى وأربعون سنة على نزوح لويس التاسع من مصر ، حتى قام سلطانها الاشرف خليل باحتلال عكا فى ١٨ مايو سنة ١٢٨١ ، وقضى على البقية الباقية من سلطة الفرنج فى بيت المقدس .

كان بين الوثائق التى يمكن أن ترسم صورة لجو تلك الأيام ، خطاب كتبه لويس التاسع الذى قاد أولى الحملات الصليبية نحو الشرق — الى البطريرك المارونى فى ذلك الوقت ، وهو البطريرك سمعان ، ونص هذا الخطاب ، كما رواه المطران دربان فى كتابه المشهور عن أصل الطائفة المارونية هو كما يلى :

الى بطريرك هذه الطائفة وأساقفتها ..

لقد أفعم قلبنا سرورا عند رؤيتنا ولدكم سمعان ، آتيا الينا من قبلكم على رأس ٢٥ ألف رجل يبلغنا مشاعركم ويقدم الينا الهدايا فضلا عن

الخيل الكريمة التى أرسلتموها الينا ، فنؤكد لكم ان المودة الصادقة التى أخذنا نشعر بها بحرارة الموارنة قد زادت فينا ، ونحن على يقين من أن هذه الأمة التى وجدناها قائمة تحت اسم القديس مارون ، انما هى قسم من الامة الفرنسية ، لأن اخلاصها للفرنساويين أشبه باخلاص الفرنساويين بعضهم لبعض ، ومن ثم فمن العدل أن تتمتعوا أنتم وسائر الموارنة بنفس الحماية التى يتمتع بها الفرنساويون لدينا وان تقبلوا فى الوظائف نظيرهم تماما .

ونحن نحرضك أيها الأمير الشريف على بذل الغيرة والجهد فى سبيل سعادة سكان لبنان وعلى العناية باقامة اشراف من الأكثر أهلية بينكم كما يعمل عادة فى فرنسا ، وأنتم أيها السيد البطريرك والسادة الاساقفة وسائر الاكليروس والشعب المارونى ، مع أميركم الشريف أيضا فاننا ننظر بمزيد من الرضا الى تعلقكم الثابت بالديانة الكاثوليكية والى احترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس . ونحضكم على حفظ هذا الاحترام وعلى الثبات على ايمانكم بلا انقسام .

أما نحن وكل الذين يخلفوننا على عرش فرنسا فنتعهد بأن نوليكم أنتم وشعبكم نفس الحماية التى للفرنساويين أنفسهم وأن نعمل على الدوام كل ما هو ضرورى لسعادتكم .

لويس التاسع
٢١ مايو ١٢٥٠

كانت فرنسا فى ذلك الوقت تحاول ان تخفى مطامعها ، وراء ستار انها حامية الدين وان ملوكها هم سيوف الكاثوليكية (١) .

ولكن القرن السابع عشر يجىء ومطامع فرنسا فى الشرق لم تتغير ، وصلاتها به لم تنقطع ومحاولتها التسلل اليه لم تتوقف .

---

(١) عن بحث لمحمد حسنين هيكل فى جريدة الاهرام بتاريخ ١٩٦١/٣/٣ .

ففى عهد لويس الرابع عشر كانت فرنسا تدعى لنفسها أنها حامية التجارة الاوروبية فى المشرق ، نجد انها ما زالت تتجه الى الطائفية لتدخل فى جبل لبنان تحاول ان تتخذها ركيزة ورأس جسر وذلك باسم الدين .

هكذا نجد لويس الرابع عشر يعلن الحماية الفرنسية على الطائفة المارونية ، ويسجل هذا فى وثيقة رسمية ننقلها بالنص عن مجموعة الوثائق التى نشرها معهد دراسات الشرق الأوسط فى جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٦ .

ونص هذه الوثيقة كما يلى :

نحن لويس بعناية الله ، ملك فرنسا ونافار

الى كل من يصله هذا

ليكن معلوما أنه بنصيحة الملكة الوصية ، أمنا الشريفة ، نضع تحت حمايتنا ورعايتنا الخاصة — من ساعة توقيع هذا — بطريرك ورعايا واكليروس المارونية المسيحية الذين يعيشون ويعملون فى جبل لبنان .

واننا لنرغب اليهم أن يعرفوا ذلك فى كل الأوقات ، ومن أجل ذلك فقد أمرنا مستشارنا وسفيرنا فى سوريا ، وكل من يليه فى منصبه لكى يظهر لهم كجموعة أو كأفراد كل عناية وكل اهتمام وكل حماية ، سواء أمام الباب العالى أو أمام أية جهة أخرى ، بحيث يتأكد أنه لا يمسهم ضرر ، بل العكس ان تكون لهم دائما الحرية لممارسة شعائر دينهم وأعمالهم .

واننا نعهد الى قناصل فرنسا ونواب القناصل فى كل موانىء سوريا أو الى غيرهم ممن يحملون راية فرنسا ، الآن أو فى المستقبل ، أن يظهروا كل مودة فى طاقتهم الى البطريرك والى المسيحيين الموارنة فى جبل لبنان وان يساعدوا على ركوب السفن كل مسيحى مارونى يريد السفر الى الاراضى المسيحية سواء المدرس أو لأى عمل آخر ، دون تقاضى أية رسوم الا ما يقدرون عليه ، وأن يعاملوهم بمنتهى الرقة والاحترام .

ونحن نطلب ، بل ونريد ، الى جميع سادة وباشوات وضباط صاحب السمو ان يظهروا مودتهم ومساعدتهم لبطريرك الموارنة ورعاياه ، ونتعهد ان نعامل بالمثل ، من يحملون الينا توصيات منهم (١) .

لويس الرابع عشر
٢٨ أبريل ١٦٤٩

* * *

وفى تاريخ الأمير حيدر أن الافرنج بعد صلح الرملة عادت اليهم طبيعة سفك الدماء فلما استبطأ ريتشارد قلب الأسد رد الصليب اليه ، أخـذ الفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل فى عكا .. وكان عسكر الانجليز يبقرون بطون المقتولين ينبشون فيها عن شيء من الجواهر والذهب لما أشيع بينهم أن هؤلاء الأسرى ابتلعوا ثرواتهم واختزنوها فى بطونهم .

ومن الواضح ان حربا طويلة الأمد امتدت كل هذه السنين ، لم تخلف وراءها الا الخراب والدمار فى معالم الحضارة من مدن وزراعات وصناعات

ولعل مكاتبات صلاح الدين الى ريتشارد تدل على معنى الوطن العربى فى قلب هذا الحاكم العظيم .. يقول صلاح الدين :

« القدس لنا كما هو لكم .. وهو عندنا أعظم مما هو عندكم .. فانه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة : فلا يتصور أن ننزل عنه .. ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسـلمين .. واما البلاد فهى أيضا لنا فى الأصـل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان فيها من المسلمين » .

ولقد أدرك العرب من هذه الحروب .. كيف انه عندما اتحدت همتهم

---

(١) اذا كان هذا هو اتجاه فرنسا ونيتها . فى المـاضى . فمما لا شك فيه انه اتجـاه من جانب واحد . فطائفة المارون صادقون فى عروبتهم .

وقيادتهم تمكنوا من تحقيق أغراضهم والنصر فى هذه المعارك الكبرى .. وان السبب الأقوى والأهم الذى أدى الى هزيمة هذه الغارة الاستعمارية الكبرى ، هو عدم وحدة وتجانس القائمين بها .. فقد كانت تحفهم المطامع وكانت هذه المطامع بذاتها تفرقهم .

يقول جوستاف ليبون فى نتائج الحروب الصليبية :

انها كانت عميقــة من حيث غايتها الأولى ، وهى الاستيلاء على فلسطين .. فان الصليبيين على ما أراقوا من الدماء ، وبذلوا من الأموال رجعوا بعد قرنين بخفى حنين .. اما من حيث النتائج المباشرة فى هــذه الحروب ، فيمكن ان يقال ان ثقافتها عظيمة .. وذلك انه كان الاختلاط بالشرق ٢٠٠ (مائتى) سنة من العوامل القوية فى انتشار المدنية فىأوربا.. ونحن نعرف أن الشرق بفضل العرب كان ينعم اذ ذاك بمدنية زاهرة ، على حين كان الغرب غارقا فى التوحش .. وقد استنتجنا من مجموع أعمــال الصليبيين انهم كانوا فى كل مكان متوحشين حقيقة ، ينهبون ويذبحون لا فرق عندهم بين عدوهم وصديقهم .. خربوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية ولم يربح الشرق باحتكاكه بهؤلاء البرابرة من الصليبيين ، بل خسر وأثمرت الحروب كراهة العرب للغربيين كراهة دامت قرونا .

وهكذا ارجع ليبون الخلافات الدينية الكبرى فى أوربا بعد ذلك ، وما جرت اليه من مذابح الى هذه الحروب فى الشرق ومعاركها الوحشية.

***

وما ان انتهت الحروب الصليبية الى هذه النتيجة ، بهزيمة حربية ، دفع الغرب ثمنها ، كما دفع العرب ثمن نصرهم ، حتى تعالت صيحات ، ورسمت خطط أخرى ، بأن تبدأ حركات تسرب غربى حول العالم العربى من الخلف .. من آسيا .. وان تسعى الى ذلك بعثات تنشر دين المسيح ، حتى اذا أقبلت عليه وثنية آسيا ، أمكن حشد القوات التى تغزو العرب ،

وتضع يدها على كل الأماكن المقدسة .. وهذه الأماكن هى : بيت المقدس لابعاد العرب عنها والاستيلاء على مكة والمدينة لتخريبهما ! !

يجمل الأستاذ باركر مؤرخ الحروب الصليبية هذه الخطة ، فيقول :

« لم تجد أوروبا فى الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلى فحسب ومؤثرا جديدا فى شتى مرافق حياتها الداخلية ، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة .. وقد كان هذا الاتساع فى مدى النظر أكبر ما كسبته أوروبا من الحروب الصليبية ، اذا أضفنا اليها نمو روح الكشف وتقدم الجغرافيا .

« بدأ عصر الكشف الآسيوى الزاهر فى القرن الثالث عشر وهو يعادل عصر الكشف الأمريكى فى القرن السادس عشر — ان لم يساوه — وانتهى بعد ذلك بقرن من الزمان .. وكانت آسيا أثناء هذه الفترة تجمع امبراطورية مغولية مفككة القوى تمتد من القرم وتبريز وبخارى ، وسمرقند الى بكين وهنكاو .. وان المغول الذين احتفظوا بعقيدتهم الشامانية متسامحين مع العقائد الأخرى لم يكونوا هم أنفسهم مسيحيين ولكن بلادهم ضمت نفرا من هؤلاء فرجا المتفائلون من المسيحيين تحويلهم الى النصرانية وعزز هذا الرجاء ميل الاوربيين التجارى الذى دفع بهم الى البحث فى بلاد المغول عن مراكز التجارة الاسيوية .. وقد كانت البعثات التبشرية التى أرسلت الى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس الى الأبد .. وقد كان بين أعضاء هذه البعثات أفراد واسعو الخيال يقدرون أن البعثة التبشرية أبعد أثرا من الحملة الحربية ، ومن هنا أصبح تنصير آسيا غاية قائمة بذاتها يرمى من ورائها أمثال هؤلاء المتفائلين أن يملأوا الدنيا بعلم الله كما هى مملوءة بماء المحيطات .. وقد وجدت هذه البعثات عونا طيبا فى تسامح المغول وفى وجود مدارس النسطوريين فى آسيا ، فاستطاع جون مونت كورفينو مؤسس الكنيسة اللاتينية فى بكين — فى أوائل القرن الرابع عشر ان يصبح

أسقفا لبكين وكان معه ثلاثة من الرهبان الفرنشسكان المساعدين وسار التاجر الايطالى فى ظل البعثة التبشرية كما كان ملاحو الموانىء الايطالية يرافقون الحملة الصليبية ، ولم يسفر ذلك عن رحلات « آل بولو » وحدهم بل استطاعت شركة ملاحة جنوبية أن تمخر مياه بحر قزوين ، واستقر قنصل بندقى فى تبريز .. بيد ان كل هذا الامل المفقود قد تهدم عن آخره ، وتلاشى ذلك الحلم الخادع الذى يرسم لأصحابه فى الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحيتين يحصران بينهما الاسلام ، فلا يصبح بعد ذلك الا عقيدة متضائلة محصورة فى فئة قليلة من الناس فى ركن أسبانيا وفى جانب من شرق البحر الأبيض ذلك ان خانات فارس دخلوا الاسلام سنة ١٣١٦ ، وأسلم أهل وسط آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر ، وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأغلقت أبواب الصين فى وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعا بعيدا فى رقعة الاسلام الذى أدرك شأوا بعيدا من الانتشار بفضل الأتراك العثمانيين .. ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذى لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سببا فى أكبر انقلاب عرفه التاريخ .. تساءل الأوربيون : اذا كان طريق البر قد أقفل ، فلم لا تسلك أوربا طريق البحر ، لماذا لا تبحر الى الشرق وتهاجم الاسلام من الخلف وبذلك يستعاد بيت المقدس .. كان هذا امل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم (برحلتهم الى بحار الهند) يعملون لتخليص الأراضى المقدسة ، واذا كان كولومب قد وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند .. فانه يمكننا ان نقول أن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالالتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين وان الغرب استطاع ان يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره عن طريق لم تكن تخطر له على بال ..

***

ويمكن فى ختام هذا الفصل ان نجمل الحروب الصليبية فى ستة سطور ، وستة تواريخ هى :

بدأت أولى الحملات الصليبية عام ١٠٩٧ وكانت وجهتها فلسطين والشام .

وبدأت الحملة الثانية عام ١١٤٧ م وكانت وجهتها فلسطين والشام .

وبدأت الحملة الثالثة عام ١١٨٧ م وكانت وجهتها فلسطين والشام .

وبدأت الحملة الرابعة عام ١٢٠١ م وكانت وجهتها مصر .

وبدأت الحملة الخامسة عام ١٢١٨ م ، وكانت وجهتها ايضا مصر .

وبدأت الحملة السادسة عام ١٢٤٨ م تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

تقييم الحروب الصليبية :

يقول « جون لامونت » (١) فى بحثه عن الدوافع للحروب الصليبية ، وحروب المسلمين ضد اللاتين فى الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ما يأتى :

أغلب الظن أن اتباع قادة الحروب الصليبية قد اشتركوا فى الحملة لأسباب عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين ، بحماستهم الدينية المحضة ، وذهب بعضهم فرارا من رتابة حياتهم المملة ، أو تخلصا من ألسنة زوجاتهم السليطة . وحمل بعضهم الصليب حبا بالمغامرة والمخاطرة . وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك . ولكن لنا أن نفترض بأن عامةالمحاربين يومذاك ، كما هم فى زماننا هذا ، كانت تحفزهم الأهـداف المثالية التى ينادى بها قادتهم أيضا ، وأن الحملة الصليبية الأولى كانت ، فى نظر جمهور المشتركين فيها ، حملة دينية فى جوهرها . ولكن ما شأن المسلمين الذين سار الصليبيون لحربهم ؟ لقد كان للمسلمين ، أيضا ، حربهم المقدسة المسماة بالجهاد . وقام المسلمون بفتوحاتهم الأولى ، التى كانت توسعا محتوما للشعب العربى النشيط ، تحت ستار نشر الدين . وقد حمل

(١) بحث « الحروب الصليبية والجهاد » (فى كتاب دراسات اسلامية باشراف الدكتور نقولا دياب) .

المسلمون أيضا « الكتاب » الى جميع الأمم ، وفتحوا البـلاد ، وكان المسلمون فى عهد الخلفاء الأولين ، يهاجمون بلاد الكفار ، وقد حمـل الجهاد راية الرسول من مضيق جبل طارق الى حدود الهند . ولم تكن الحروب الصليبية سوى هجوم مضاد شنه النصارى . ومن المعقول جدا أن يتوقع المرء أن ينهض المسلمون ويتحدوا ليصدوا الهجوم الموجه الى ديار المسلمين . ولو كان الدين هو الدافع المسيطر على عقول المسلمين ، كما يزعم كثير من الكتاب ، لما فعل المسلمون غير هذا . ولكن ما حدث فى الحقيقة كان على الضد من هذا تماما .

لم تكن الحروب الصليبية فى نظر المسلمين ، سوى حوادث مزعجة فى تاريخ الصراع الطويل من أجل الاستيلاء على الشام . كانت الحروب الصليبية حـروبا كبرى ، وعلى هذا فقد احتلت مكانا بارزا فى تواريخ المسلمين عن تلك الفترة . ولكن هذه الحروب لم تكن تتمتع بالأهمية العظيمة التى يحاول المؤلفون الغربيون أن يضفوها عليها . لقد تجاهل الخلفاء الحملات الصليبية فى بادىء الأمر ، ولم تستطع تلك الحملات ان تقلقل مراكز القوة فى الاسلام كما فعلت الغزوات التركية والمغولية . ولم تكن تلك الحملات عامل توحيد ؟ لقد كانت الحروب الصليبية أعظم أهمية للنصارى منها للمسلمين ، ومع ذلك فانها لم تنجح فى توحيدهم .

وسرعان ما تعلم الغربيون الذين استقروا فى الشام كيف يسايرون جيرانهم العرب ، أو على الأقل أن يتعاملوا معهم كما كانوا يتعاملون مع ابناء ملتهم . وتعلم أبناء الديانتين أن يحترموا بعضهم بعضا لما عندهم من صفات وفضائل . لقد كيف اللاتينيون أنفسهم لأساليب الحياة الشرقية وتبنوا العادات الشرقية ، واختاروا الملابس الشرقيـة . وتلطفت عادات

الافرنج الخشنة باختلاطهم بشعوب الشرق . وكانت اللقــاءات الودية شائعة بين أمراء الملتين . أما اتفاقيات الصيد والمباريات الرياضية فيعرفها جيـــدا قراء كتاب « الاعتبار » لاسامة بن منقذ . وقد محت العــلاقات التجارية والمعاملات اليومية بين الطبقات الشعبية من الفريقين كل عـــداء ديني بينهما . ومحا الزواج المختلط الفوارق العنصرية والدينية بين الفريقين ونشأ فى المدن التى حكمها الافرنج مجتمع عالمى النزعة ما زالت الشواهد قائمة فى آثار الكنائس القوطية المحاطة بالأبنية الشرقية . وقد أنتج هذا المزج بين الشرق والغرب حضارة فاقت ، فى كثير من النــواحى ، كل الحضارات القائمة آنذاك . وقد يلمح فى تلك الحضارة بذور أجمل جوانب لحضارة عصر الاحياء الأوربى .. ا . هـ .

* * *

كان .. ويكون :

ونحن لا نريد أن نسرف فى استعمال كلمة « كان » والأفعال الماضية ، فنقول ان احتكاك أوروبا بالعرب والمسلمين فى الحروب الصليبية ، وفى أسبانيا ، وفى الغارات على أوروبا هو الذى أخرج هذه القارة الهمجية الى عصر النور . . هذا التاريخ وحده لا يعزينا ، عن تخلفنا الحاضر ، فنحن أمة لها ماض ــ هذا صحيح ــ ولكن يجب أن يكون لها الحاضر والمستقبل ، وأن تتصل هذه الأبعاد الزمنية بعضها مع بعض متجاوزة فترات التخلف والضعف ، والتى لم نعثر لها الا على سبب واحد ، وهو طغيان الحكم ، وشـــهوته التى تذل أفراد الأمة ، لتخضعها لارادة طامع واحد أو أسرة بعينها . ففى ظل حرية الارادة للأفراد ، نمت مواهبنا ، وأنتجت وأبدعت .. وتكونت حضارات ، لا حضارة واحدة ، كل منها يناسب البيئة والزمان والمكان . وهذا هو ما يجب أن نعود اليه ، ما دامت « خامتنا » البشرية صالحة للرقى والتفوق ، وهى كذلك والحمد لله .

ولكن اصلاح أخطاء الحاضر ، وتطلعنا الى المستقبل بايمان واطمئنان ، لا يمنعنا أن نقف على لمحات مما وصلنا اليه ، وتعلمته منا أوروبا ، وبه استعلت علينا لفترات من الزمن .

وقد ذكرنا « البحر » وسفائنه التى اندفع بها العرب والمسلمون فوق الموج وحملهم الى كل أفق بعيـد . ويجب أن نعود عليـه بنفس القوة والجسارة .

وفى باب العلم ، وتطويع الطاقات الطبيعية لخدمة الانسان ، وصلنا الى كثير حمله معهم الصليبيون فى عودتهم الى أوطانهم ، وحملوه من الأندلس فترة وجودنا هناك وهى ثمانية قرون كاملة .

وقد عرض الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه : « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » لكثير من لمحات النشاط الحضارى للعصر العربى الوسيط ، وهو كتاب يجب أن يدرس فى معاهدنا جميعها ، لأنه وثيقة علمية نرى فيها أنفسنا على ضوء واقع نسيناه أو جهلناه ..

واليك أمثلة : علم « اللوغاريتمات » ، وضع جداوله الخوارزمى ، ونسبت اليه ، وحرف على النحو الذى نراه ، وان كان اسم مبدع هـذا الفرع من الرياضيات فى اللغات الأفرنجية ، ما يزال أقرب الى سلامة النطق الاصلى ، منه فى العربية Alguarismo

وكلمة « الصفر » العربية ، نقلت الى اللاتينية ، تحمل نفس الحروف تقريبا ، ومنها أخذت كلمة الشفرة ، أى لغة الرموز . والمترجم الايطالى « جيرردو » هو الذى نقل عن العربية سـبعين كتابا فى الفلك والجبر والحساب والطب .

والألواح الفلكية التى وضعها ابن كثير الفرغانى ، هى التى ترجمت الى اللاتينية والعبرية وعن طريقها قدروا مقياس قطر الأرض . ومن علم الفلك تكون حساب المثلثات ، ونشأ التقويم . وكان ابن الهيثم هو واضع

علم البصريات أو « المناظر » . وقد ترجم أيضا ، وطبقت نظرياته عن المرايا المستوية والمخروطية والاسطوانية والكروية والبيضاوية « وفى الانحراف والانكسار والابصار ، والغرفة المظلمة لرصد الخسوف ... الخ » .

ونقلت أوروبا فى حروبها معنا واحتكاكها بنا كنوز الكيمياء وعلومها ، وكان اسم جابر بن حيان من الأسماء اللامعة المحلقة فى ذلك الزمن (توفى سنة ٧٧٦ م) . وقائمة الكشوف العربية فى هذا الميدان طويلة ، وان بدأت بحمض الزرنيخ واكسيد الزئبق ، فهى لاتنتهى بمشتقات النشادر وكلورود الذهب ونترات الفضة .

وظلت أوروبا أربعة قرون كاملة تعيش على طب العرب ولا تضيف له شيئا . ويعد الرازى (المتوفى سنة ٩٢٣ م) أكبر الأسماء العربية فى أوروبا ، ويليه ابن سينا (المتوفى سنة ١٠٣٧) . وفى الجراحة كان الزهراوى علما مفردا فى ميدانه . أما « ابن النفيس » فهو مكتشف الدورة الدموية . ودراسات الدكتور « بول غاليونجى » عالمنا المعاصر عنه ، وثيقة هامة من وثائق العلم العربى .

وعن العرب ، أخذت أوروبا الصابون ، والسكر المصنوع من القصب ، والورق (١) والحبر العادى ، والحبر السرى ، والحبر الذهبى . وكذلك صناعة الأصباغ واللآلىء الصناعية . ومن العرب تعلمت أوروبا شرب القهوة من نبات البن اليمنى .

ويقول عبد الرحمن بدوى : « كان لكتب العرب فى الفلاحة والنباتات أثر هائل فى تقدم الزراعة فى أوروبا » وما أكثر أنواع الزهور والفاكهة التى انتقلت اليهم .. حتى زراعة القطن أخذوها من مصر ، وكانت معروفة هنا قبل محمد على بزمن طويل .

وصناعات المعمار تأثرت كثيرا بالطراز العربى ، حتى أثاث المنازل ، والأقمشة الحريرية الفاخرة عشقتها أوروبا . فاذا وصلت الى التسلية فمن

---

(١) أخذه العرب من الصين ، وفى الصين بنى أول مسجد اسلامى ، اقامته البعثة التى بعث بها سيدنا محمد بكتاب منه لامبراطور الصين فأقامت هناك لنشر الدعوة ولم يرد عنها نبأ فى المراجع الاسلامية ، ولكن المصادر الصينية تحدثت عنها ثم المصادر المسيحية .

بلادنا نقلوا لعبة الشطرنج حتى بألفاظها ، ورياضة الصيد والموسيقى . وما تزال آلة « العود » تحمل نفس الاسم فى الافرنجية ، وكذلك الربابة .

وفى التصوف نقل يوحنا الصليبى سبحاته الصوفية عن أبى الحسن الشاذلى ، وفى الأدب نقل دانتى عن قصة المعراج الاسلامية ورسالة الغفران لأبى العلاء تصوره للجنة والنار فى أكبر أثر أدبى أوروبى ، وهو «الكوميديا الالهية » .

وابن خلدون رائد علم الاجتماع ، وعلمه الأكبر اسم عرف فى أوروبا ، وأخذ حظه من التكريم والاجلال ، مثله كمثل ابن رشد الذى طاردت الكنيسة اسمه لفترة طويلة من الزمن ..

وهكذا تمضى بنا الأمثلة ، وفى كل وقت تظهر أدلة جديدة على مقدار ما حملته النهضة الأوروبية من تراثنا بفضل الحروب الصليبية والاسبانية وحروب العرب فى أوروبا نفسها .

ولا بأس علينا من أن نعطى لأوروبا ، وأن نأخذ عنها ، ولكن ستبقى هناك نقطة هامة ، وهى أن العصور الوسطى ومشروعاتها قد انقضت . كان العرب قد خططوا للاستيلاء على القسطنطينية ، بأن يدوروا لها حول البحر المتوسط من أسبانيا ولم ينجح المشروع بسبب صراع دولتى الاسلام فى العراق والأندلس .. وكذلك فكرت أوروبا ، بعد أن فشلت فى الاحتفاظ بالقدس ، أن تدور لها دورة طويلة من آسيا (بعد أن تحول شعوبها الى المسيحية) . وقد أخفق هذا المشروع أيضا ، لأن الاسلام سبق واستقر فى أجزاء الامبراطورية المغولية ..

كل ذلك كان فكر ألف سنة مضت أو نحوها .. فما بال هذا الفكر يتجدد الآن ، لا باسم الصليب الذى رفعته الحملات القديمة ، ولكن باسم آخر هو الصهيونية التى اختفى أصحابها ، ومعتنقو دينها قرابة تسعة عشر قرنا . وفى فترات الصراع الأكبر بين دينى المسيح ومحمد ، لا تكاد تحس

لهم بأثر ، على أمل أن ينتهى الأمر بالقضاء على الاثنين معا . وهؤلاء أيضا فى القرن العشرين يحملون الشعار القديم : الى القدس !

فلنتابع مسيرتنا مع مخلفات الصليبية القديمة ، حتى نصل الى الصيحة الجديدة ، وتجدد الصراع الكبير تحت أعلام أخرى .. وعلى وهج الحريق الهائل : حريق المسجد الأقصى ، سوف تتمكن من المتابعة جيدا ، وقراءة ما بين سطور الماضى والحاضر ، لنحاول أن نصل الى لب المعركة وجوهرها. وانا لواصلون باذن الله .

مازال الكتاب مفتوحًا

الجـــزء التـالى يبـدأ ..

القـــدس هـــدية للصليبيين !!

.. حـــتى :

اليهــود فى القـــدس وحـــريق المســجد الأقـــصى

فهرس

رقم الايداع ١٩٧١/٣٢٤٣

هذا الكتاب

كتاب «القدس ومعاركنا الكبرى» هو حلقة جديدة فى سلسلة الدراسات التى بدأها المؤلف الاستاذ محمد صبيح عن المعركة المصيرية التى تخوضها بلادنا ضد العدوان الصهيونى . وقد سبق هذا الكتاب كتابان آخران هما:

١ – المعتدون من عهد موسى الى ديان .

٢ – ان عدتم عدنا .

وفى تقدير المؤلف الفاضل ان معرفة العدو ، والكشف عن خلفيته التاريخية ، وعقائده ، جزء هام من أدوات النصر عليه . وقد ثابر اليهود على دراسة ظروفنا ، ولغتنا ، وعقائدنا طوال ألف سنة أو تزيد ، لكى يصلوا الى الثغرات التى ينفذون بها الى بلادنا ..

وكان ينبغى ان نحذو حذوهم على الاقل منذ عام ١٩١٧ ، بعد صدور وعد بلفور . ولكن الازمة الحالية ، تدفعنا الى تعويض ما فاتنا . وهذا الجهد الكبير يبذله المؤلف مساهمة منه فى ترشيد الامة العربية ، وتسليمها سلاحا لا غنى عنه وهو المعرفة .

مكتبة الشباب

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠